رشيد الخالدي

RASHID KHALIDI

حرب المئة عام على فلسطين

قصة الاستعمار الاستيطاني والمقاومة
1917 - 2017

The Hundred Years' War on Palestine

A History of Settler Colonialism and Resistance
1917 - 2017

ترجمة: **د. عامر شيخوني**



صَرَّحَ آرثر جيمس بلفور سنة 1917 أن الحكومة البريطانية في فلسطين لم «تقترح حتى القيام بشكلٍ من استشارة رغباتِ السّكان الحاليين في البلاد». واستمرَّ بقوله إنّ القوى العظمى ملتزمةٌ بالصهيونية «والصهيونيةُ سواء كانت مُحِقَّةً أو مُخطئة، جَيدةً أم سَيئة، فهي متأصِّلة في تقاليد قديمة راسِخة، وحاجات معاصرة، وآمال مستقبلية لها أهميةٌ أكثر بُعدًا وعُمقًا من رغبات وتعصُّبات 700000 عربي يعيشون الآن في تلك الأرضِ العَتيقة». بعد ذلك بمئة سنة اعترَفَ الرئيسُ دونالد ترمب بالقدس عاصمةً لإسرائيل قائلًا: «رفَعنا القدسَ عن طاولةِ المفاوَضات، ولا يجب علينا الحديثَ عنها بَعدَ الآن».

يجب أن أضيف أنّ هذا الكتاب ليس «تَصوُّرًا باكيًا» لمئة سنة مَضَتْ من تاريخ فلسطين، اقتباسًا من النقد الرائع الذي كَتَبَهُ المؤرخُ الكبير سالو بارون Salo Baron عن روح الكتابات التاريخية اليهودية في القرن التاسع عشر. اتُّهِمَ الفلسطينيون من طَرَفِ المتعاطِفين مع الذين اضطهَدوهم بأنهم مُنغَمسون في الشعور بأنهم ضحايا. وفي الحقيقة، فقد واجَهَ الفلسطينيون ظروفًا شاقة بل ومستحيلة أحيانًا، مَثَلُهُم في ذلك مَثَل جميع السكان المَحَليين الأصليين الذين واجَهوا حروبًا استعمارية. كما أنهم تعرَّضوا لهزائم متكررة، وكانوا متفرِّقين غالبًا ولم تتوفر لهم قيادةٌ جيدة. ولا يَعني كل ذلك أن الفلسطينيين لم يَنجَحوا أحيانًا في التغلب على هذه المصاعب، أو أنهم في أوقات أخرى لم يتمكَّنوا من اتخاذ قرارات أفضَل. غير أننا لا نستطيع تجاهل القوى الدولية والأمبريالية التي تحالَفتْ ضدهم والتي يُهمَلُ ولا يُقدَّرُ مَداها في أغلب الأحيان والتي استطاعوا على الرغم منها إظهارَ مرونةٍ وصمودٍ يستحق الإشادَة. أمَلي أنّ هذا الكتاب سيوضِّح هذا الصمود والمرونة ويُساعِد على استرجاع بعض ما تمت تَنحيَتُهُ وتَجاهله في التاريخ من جهة أولئك الذين يُسيطِرون على كافة فلسطين التاريخية والسَّرد الذي يُحيطُ بها.



رشيد الخالدي: مؤرِّخٌ فلسطيني أمريكي مؤلِّف لسَبعة كُتُبٍ من بينها: الهُوية الفلسطينية Palestinian Identity، وسَطّاء الخِداع Brokers of Deceit، القَفص الحَديدي The Iron Cage. نَشَرَ أكثر من 90 مقالة في صحف عديدة مثل النيويورك تايمز New York Times وبوسطن غلوب Boston Globe ولوس أنجلوس تايمز Los Angeles Times وشيكاغو تريبيون Chicago Tribune وكثير من المجلات الأكاديمية. وهو أستاذ بروفسور يشغل منصب البروفسور الراحل إدوارد سعيد للدراسات العربية الحديثة في جامعة كولومبيا في نيويورك، وهو مدير مدرسة الشؤون الدولية والمَحَلية التّابِع لمعهد الشرق الأوسط في جامعة كولومبيا، ورئيس تحرير مجلة الدراسات الفلسطينية.

رشيد الخالدي

RASHID KHALIDI

حرب المئة عام على فلسطين

قصة الاستعمار الاستيطاني والمقاومة

2017 - 1917

The Hundred Years' War on Palestine

A History of Settler Colonialism and Resistance

1917 - 2017

ترجمة

د. عامر شيخوني

مراجعة

د. عماد يحيى الفَرَجي



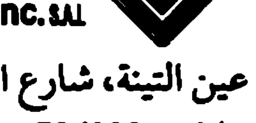
الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
THE HUNDRED YEARS' WAR ON PALESTINE
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Metropolitan Books
Henry Holt and Company, New York
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير 2021 م - 1442 هـ

ردمك 978-614-01-3166-8



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

تصميم الغلاف: علي القهوجي

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

الإهداء

أهدي هذا الكتاب لأحفادي طارق وإدريس ونور
الذين وِلدوا جميعاً في القرن الحادي والعشرين،
والذين أرجو أن يعيشوا نهاية حرب المئة عام

"نحن شعب مهدّد بالزوال"

عيسى ويوسف العيسى، 7 مايو 1914

المحتويات

المقدمة

في تسعينيات القرن العشرين عشتُ في القدس بضعة أشهر في كل رحلة قمتُ بها أثناء قيامي بالبحث في مكتباتٍ خاصة لبعض أعرَق العائلات في المدينة بما فيها عائلتي. نزلتُ مع زوجتي وأولادي في شقة تَتْبَعُ وَقفَ عائلةِ الخالدي في قَلبِ المدينة القديمة المزدحِمة الصاخِبة. يُشاهَدُ من سطح البناء مَنظَرُ اثنَين من أعظم صروح الهندسة المِعمارية الإسلامية الأولى. تَقَعُ قُبَّةُ الصخرة الذهبية اللامِعة على بُعد حوالي 300 قَدَم في منطقة الحَرم الشريف، وتقع وراءها قبّةٌ فضِّيَّةٌ أصغَر للمسجد الأقصى، ويُطِلُّ جبل الزيتون خلفَهما[1]. يستطيع المرء أن يشاهد كنائس ومعابد المدينة القديمة في الجهة الأخرى.

يقع البناء الرئيسي لمكتبة الخالدي قرب البيت في شارع باب السلسلة. أسَّسَ المكتبة جدّي الأكبر الحاج راغب الخالدي سنة 1899 استجابةً لوصية والِدتِه خديجة الخالدي[2]. تضمّ المكتبة أكثر من 1200 مخطوطَة، أغلبها باللغة العربية (بعضها

---

(1) بُنِيَ هذان الصَّرحان في أواخر القرن السابع، احتفظَتْ قبة الصخرة بشكلها الأصلي بينما أعيد بناء المسجد الأقصى وتمت توسعته مرات عديدة.

(2) يُعرَفُ بناء المكتبة الرئيسي باسم: تربة بَرَكَة خان وقد وصف في كتاب مايكل هاميلتون بورغوين Michael Hamilton Burgoyne "القدس المملوكية: دراسة معمارية" (منشورات لندن: British School of Archeology in Jerusalem and World of Islam Festival Trust, 1987، ص 109-16). يضم البناء قبور بَرَكَة خان وابنيه. كان بَرَكَة خان قائداً عسكرياً في القرن الثالث عشر وكانت ابنته زوجة السلطان المملوكي الكبير الظاهر بيبرس. وخَلَفَ ابنُها سعيدٌ الظاهرَ بيبرس في السلطنة.

بالفارسية والتركية العثمانية) يَرجع أقدمُها إلى بداية القرن الحادي عشر[1]، كما تضمّ حوالي ألفَي كتابٍ عربي من القرن التاسع عشر وأوراق عائلية متفرقة، وتُعتَبَرُ المجموعةُ واحدةً من أوسع المجموعات في فلسطين التي مازالت في يد مالِكيها الأصليين[2].

خلال فترة وجودي في القدس، كان الهيكل الرئيسي للمكتبة الذي يرجع إلى القرن الثالث عشر يَخضَعُ لعملية ترميم، وتم تخزين محتوياتها مؤقّتًا في صناديق كرتونية في بِناء مَملوكيّ متّصل بِشِقّتِنا عَبرَ دَرَجٍ ضَيّق. قضيتُ أكثر من سنة بين هذه الصناديق أفتّشُ بين كتبها المغطّاة بالغبار وبين أوراق كتبها القديمة المهترِئة ووثائق ورسائل أجيال من عائلة الخالدي كان من بينهم عمي الأكبر يوسف ضياء الدين باشا الخالدي[3]، وقد اكتشفتُ بين أوراقه أنه رجلٌ عالَميٌّ ذو ثقافة واسعة حصل عليها في

---

(1) قام جدّي بترميم البناء بتمويل من جدّي الأكبر. جمع جدّي المخطوطات والكتب في المكتبة من مقتنيات بعض أسلافي بما فيها مجموعات تم جمعها في القرن الثامن عشر وما قبله. هناك معلومات أساسية عن المكتبة في موقعها على الانترنت وسجلّ مخطوطاتها في:
http:/khalidilibrary.org/indexe.html.

(2) نُهِبَت المكتبات الفلسطينية الخاصة بشكل مُمَنهَج من جهة فرق مختصة عملتْ مع طلائع القوات الصهيونية المتقدمة حينما كانت تحتل القرى والمدن العربية خاصة في يافا وحيفا والأحياء العربية في القدس الغربية في ربيع 1948. وضِعَت المخطوطات والكتب المسروقة في مكتبة الجامعة العبرية التي أصبحت الآن المكتبة الوطنية في إسرائيل تحت تصنيف "ممتلكات متروكَة" AP "abandoned property" في وصف نموذجي لما ذَكَرَهُ جورج أورويل من وصفٍ لنظام النهب الثقافي في بدايات الاحتلال والسلب:
Gish Amit "Salvage or Plunder? Israel collection of Private Palestinian Libraries in West Jerusalem"
نُشِر في *Journal of Palestinian Studies* 40, no. 4 (2010-11): 6-25

(3) أهم المصادر عن يوسف ضياء هو جزءٌ عنه في كتاب ألكساندر شولش Alexander Scholch "Palestine in Transformation, 1856-1882: Studies in Social, Economic, and Political Development" نُشِر في واشنطن، Institute for Palestine Studies, 1993 ص 241-52. أعيد طبع ذلك الجزء في مجلة Jerusalem Quarterly 24 (Summer 2005): 65-75. انظر أيضًا مالك شريف "Portrait of Syrian Deputies in the Ottoman Parliament" نُشرتْ في The First Ottoman Experiment in Democracy من تحرير Christoph Herzog and Malek Sharif (2010)، وفي كتاب رشيد خالدي "الهوية الفلسطينية: بناء وعي قومي حديث" الطبعة المنقحة (نيويورك، منشورات جامعة كولوميا، 2010) ص 67-76.

القدس ومالطا واسطنبول وفيينا. كان رجلاً اهتمّ كثيراً بِعِلم الأديان المُقارَن، خاصة باليهودية، وامتلكَ عدداً من الكتب بلغات أوروبية عن هذا الموضوع وغيره.

كان يوسف ضياء وريثاً لسلسلةٍ طويلة من علماء الدِّين المسلمين ورجال القانون، وخَدَمَ والدُهُ السيد محمد علي الخالدي حوالي خمسين سنة قاضياً ورئيساً لسكرتارية المحكمة الشرعية في القدس، إلا أنّ الشاب يوسف ضياء سلكَ طريقاً مختلفة، فبَعد استيعابِ أساسيات التعليم الإسلامي التقليدي، غادر فلسطين في عمر الثامنة عشرة دون موافقة والِده كما قِيل لنا، ليَقضي فترة سنتَين في مدرسةٍ تبشيرية تابعةٍ للكنيسة البريطانية في مالطا. وذهب من هناك للدراسة في المدرسة الامبراطورية الطبية في اسطنبول، ثم ذهب إلى معهد روبرت Robert College الذي كان قد تأسَّس حديثاً في تلك المدينة على يد مبشِّرين أمريكان من البروتستانت. تابع يوسف ضياء الدراسة فترة خمس سنوات خلال ستينيات القرن التاسع عشر في أفضل المدارس في المنطقة التي كانت تقدِّم تعليماً غربياً حديثاً، وتعلَّم فيها اللغة الإنكليزية والفرنسية والألمانية واكتسب كثيراً من المعلومات. كان ذلك مسارٌ غير عادي لشابٍ يتنمي إلى عائلةٍ من علماء الدين الإسلامي في منتصف القرن التاسع عشر.

بعد أن اكتسبَ تعليمه الواسع، شغل يوسف ضياء مناصب مختلفة كموظف في الحكومة العثمانية، مثل: مترجِم في وزارة الخارجية، قنصل في الميناء الروسي في بوتي Poti على البحر الأسود، حاكِم مناطق في كردستان ولبنان وفلسطين وسورية، ومحافظ مدينة القدس لمدة عَقد من الزمن تخلَّلتْها مهمّات تدريسية في الجامعة المَلَكية الامبراطورية في فيينا. انتُخبَ أيضاً كمندوبٍ عن القدس في البرلمان العثماني الذي أُسِّسَ سنة 1876 ولم يستمر طويلاً في ظِلِّ الدستور العثماني الجديد، واكتسب خلال ذلك عداوةَ السلطان عبد الحميد لأنه كان يؤيد صلاحيات البرلمان فوق السلطة التنفيذية[1].

(1) وصَفَ دَورَه كمؤيد للحقوق الدستورية مقابل حكم السلطان المطلَق في كتاب
R. E. Devereux, "The First Ottoman Constitution Period: A Study of the Midhat Constitution and Parliament"
نُشِر في بالتيمور، منشورات جامعة جونز هوبكينز، 1963.



يوسف ضياء الدين باشا الخالدي

أصبح الخالدي باحثاً بارعاً كذلك في انسجامٍ مع تقاليد عائلته وثقافته الإسلامية الغربية. تضمّ مكتبةُ الخالدي كتباً كثيرة باللغة الفرنسية والألمانية والإنكليزية ومراسلات مع متعلمِين ومثقفِين في أوروبا والشرق الأوسط. هناك أيضاً جرائد قديمة نمساوية وفرنسية وبريطانية في المكتبة تُظهِر أن يوسف ضياء كان يقرأ صحفاً أجنبية بانتظام. هناك أدلة على أنه استلم هذه المواد عبر مكتب البريد النمساوي في اسطنبول الذي لم يكن خاضعاً لقوانين المراقَبة العثمانية الشديدة[1].

---

(1) استفاد من خدمته كحاكم لمنطقة بيتليس Bitlis في كردستان في جنوب غرب تركيا الحديثة وأصدَر أول معجم عربي-كردي باسم "الهدية الحميدية في اللغة الكردية" وجدتُ نسخاً من ذلك الكتاب وعدداً من منشوراته الأخرى بين مواد مكتبة الخالدي. نُشر الكتاب في 1310 هجرية/ 1893 في اسطنبول من وزارة التعليم العثمانية وأعيد نَشره مرات عديدة منذ ذلك الحين. فيما عدا عنوانه الذي يشير إلى اسم السلطان عبد الحميد الثاني فقد ضمت مقدمته إهداءً عظيماً إلى السلطان وهو ما كان إجبارياً آنذاك لضمان مرور الكتاب من الرقابة خاصة عندما يكون من تأليف كاتبٍ يُعتَبر معارضاً للسلطات.

كان يوسف ضياء واعياً تماماً لمدى انتشار معاداة السامية في الغرب بفضل سعةِ اطِّلاعِه والفترة التي قضاها في فيينا وغيرها من البلاد الأوروبية، وتعامُلِهِ مع المبَشِّرين المسيحِيين. كما تعرّف جيداً على الأصول الثقافية للصهيونية خاصةً فيما يتعلق بطبيعتها كَرَدٍّ فِعلٍ على خُبثِ مُعاداة السامية في أوروبا. ولا شك بأنه كان يَعرف كتاب "الدولة اليهودية" الذي كَتَبَهُ صحفي من فيينا اسمه ثيودور هيرتسل Theodor Herzl ونَشَرَهُ سنة 1896، كما كان مطَّلعاً على أول مؤتَمَرَين صهيونيَين عُقِدَا في مدينة بازل السويسرية في 1897 و1898[1] (يبدو بالفعل أنّ يوسف ضياء كان يَعرف عن هرتسل خلال فترة وجوده في فيينا). كان يَعرف عن الجَدَلِ واختلاف وجهات النظر بين زعماء الصهيونية وميولِهم وبين دعوةِ هرتسل الصريحة لإنشاء دولة لليهود تتمتع بحق "السيادة" للسيطرة على الهجرة. وبِحُكمِ مَنصِبِهِ كمُحافِظ لِمَدينة القدس فقد شاهَدَ الصراع مع السكان المَحَليين الذي نَشَأَ في السنوات الأولى لنشاطات الصهيونية الوليدة بَدءاً بوصول المستَوطِنين الأوائل من اليهود الأوروبيين في أواخر سبعينيات وأوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر.

كان هرتسل زعيم الحركة الصهيونية الناشئة قد قام بزيارته الوحيدة إلى فلسطين سنة 1898 في ذات الوقت الذي زارَها فيه قيصرُ ألمانيا ويلهلم الثاني Wilhelm II. كان قد بدأ صياغةَ أفكاره حول بعض قضايا استيطان فلسطين، وكتَبَ في مذكّراته سنة 1895:

"يجب أن نستولي بلطف على الممتلكات الخاصة في المناطق المخصّصة لنا. يجب أن نُشجِّع الشعب الفقير فيما وراء الحدود للحصول على عمل في بلاد اللجوء وعدم مَنحِهم أي فرصة عمل في بلادنا. سيَقِفُ ملّاك الأراضي في صَفِّنا. يجب تنفيذ سياسات الاستيلاء على الأرض وتهجير الفقراء بتحفُّظٍ وحذر"[2].

(1) Der Judenstaat: Versuch einer modernen Lösung der Judenfrage (Leipzig and Vienna: M. Breitenstein, 1896). يقع هذا الكتيب في 86 صفحة.

(2) Theodor Herzl, Complete Diaries, ed Raphael Patai (New York: Herzl Press, 1960), 88-89.

لا بد وأن يوسف ضياء كان أكثر وَعياً من أغلب معاصِريه الفلسطينيين بقضايا طموح ومطامع الحركة الصهيونية الناشئة وقوّتها ومَواردها وجاذبيتها. عرف جيداً أنه لا يمكن التوافق بين ادعاءات الصهيونية في فلسطين وهدفها الواضح في إنشاء دولة يهودية ذات سيادة وبين حقوق ومصالح سكان البلاد الأصليين. يبدو أن هذه الأسباب قد دفعَتْ يوسف ضياء لإرسال خطاب استِشرافي مفصَّل في سبع صفحات في الأول من مارس سنة 1899 إلى زادوك كان Zadoc Kahn زعيم الحاخامات في فرنسا بِنيَّةِ تَمريرِهِ إلى مؤسّس الصهيونية الحديثة.

بدأ الخطاب بتَعبيرٍ يوسف ضياء عن إعجابِه بهرتسل الذي وَقَّرَهُ "كَرَجلٍ وكاتب موهوب وكيهودي وطني مخلِص"، وعبَّر كذلك عن احترامِه للدِّين اليهودي ولليهود الذين وصَفَهم بأنهم "أولاد عمومتنا" إشارةً إلى النبي ابراهيم الذي يُقَدَّرُ ويُحتَرم لِكونِهِ جَدُّ اليهود والمسلمين[1]. أدركَ دوافع الصهيونية مثلما استنكَر الاضطهاد الذي تعرَّضَ له اليهود في أوروبا. كتَبَ في ضوء هذه المعارف أن الصهيونية من حيث المبدأ "طبيعية وجميلة وعادلة"، وتساءل "مَن الذي يستطيع إنكار حقوق اليهود في فلسطين؟ باسم الله، هذه بلادكم تاريخياً!"

تَرِدُ هذه الجُمَلُ أحيناً خارج سياقها في بقية الرسالة لكي تُبيِّنَ قبول يوسف ضياء وحماسته لكامل البرنامج الصهيوني في فلسطين، ولكن المحافِظ السابق لمدينة القدس تابَعَ وأنذَرَ عن المخاطر التي تَوقَّعَها نتيجة تنفيذ المشروع الصهيوني لإنشاء دولة يهودية ذات سيادة في فلسطين. ستزرعُ الفكرةُ الصهيونية الشقاقَ بين المسيحيين والمسلمين واليهود هناك، وستُعرِّضُ للخطر ذلك الوضع والأمن الذي تمتَّعَ به اليهود دائماً على مَرِّ الحكم العثماني. وعندما وصلَ إلى هدفه الرئيسي، قال

---

(1) رسالة من يوسف ضياء باشا الخالدي في بيرا، اسطنبول، إلى زعيم الحاخامات زادوك كان في الأول من مارس سنة 1899، في السجلات الصهيونية المركزية (Herzl Papers) H1/197. استلمتُ نسخة رقمية من هذه الوثيقة بفضل Barnett Rubin. كُتِبَت الرسالة من فندق Khedivial Hotel في منطقة بيرا في اسطنبول. جميع الترجمات عن الفرنسية هي من ترجماتي.

يوسف ضياء بحكمةٍ أنه مهما كانت ميزات الصهيونية فإنه "يجب الأخذ بعين الاعتبار تلك القوة العنيفة للظروف الموضوعية" وكانت أهمها "أن فلسطين جزء متكامل من الامبراطورية العثمانية، والأخطَر مِن ذلك وجود أناس آخرين يَسكنونها". كان في فلسطين سكان أصليين مَحَليين لن يَقبَلوا باستِبدالِهم أبداً. تَحَدَّثَ يوسف ضياء "بمعرفةٍ تامة بحقائق الحالة" وأكَّد أنّ تخطيطَ الصهيونية للاستيلاء على فلسطين سيكون "حماقةً صافية". واستنتَجَ قائلاً "سيكون الموقف أكثر عدالة وإنصافاً" لو وَجَدَ "الشعبُ اليهودي البائس" ملجأً آخر له. وتابَعَ بدعاءٍ عاطفي مخلِص "بحقّ الله، دَعوا فلسطين لشأنِها".

جاء رَدُّ هرتسل على يوسف ضياء سريعاً في 19 مارس. ربما كانت رسالته أولَ إجابةٍ لمؤسِّس الحركة الصهيونية على اعتراضٍ فلسطيني مُقنِعٍ على مخططاته الأولية في فلسطين. وَضَعَ هرتسل في إجابتِهِ ما أصبَحَ نَمَطاً في إهمال مصالح، بل وإنكارُ وجود السكان الأصليين أحياناً، وبكل بساطة أهمَلَ الزعيمُ الصهيوني موضوعَ الرسالة الأساسي بأن هنالك في فلسطين شعباً يعيش فيها ولن يَقبلَ أن يُنتَزَعَ مِن أرضِه. على الرغم من أنّ هرتسل قد زارَ البلاد مرة، إلا أنه لم يَعرف كثيراً عنها مثل أغلب الصهاينة الأوروبيين، ولم يَتعامَل مع سكانها الأصليين. كما فَشِلَ في مناقشة جميع مسائل الخالدي الواقعية المُقلِقَة بشأن خطورة البرنامج الصهيوني على المجتمعات اليهودية الكبيرة المستقرة في أرجاء الشرق الأوسط.

مع التغاضي عن حقيقة أن النتيجة النهائية للصهيونية ستكون السيطرة على فلسطين، قَدَّمَ هرتسل تبريراً كان دائماً الحجّة الأولى للمستَعمِرين في كل الأماكن والأزمنة، وسيصبح حجّة أساسية للحركة الصهيونية: ستفيد هجرةُ اليهود السكانَ الأصليين في فلسطين. "لأننا سنزيد رفاهيتهم وثروتهم" وسنفيدُ سكان فلسطين المَحَليين بإضافة ثروتِنا إلى المجتمع". وأضاف هرتسل مردِّداً اللغةَ التي استخدَمها في كتاب "الدولة اليهودية": "لن يشك أحدٌ بأن السماح لعَددٍ من اليهود بالهجرة

يأتون بذكائهم ومهاراتهم المالية ووسائل استثماراتهم في البلاد سيؤدي إلى نتيجةٍ سعيدة وتَحَسُّن الدولة كلها"[1]

(1

Zionisme

Constantinople le 1er Mars 1899,
Péra, Khédivial hôtel,

Monsieur

Sachant combien le sort de Vos coréligionnaires en Orient Vous touche au cœur, je prends la liberté de Vous adresser les lignes suivantes:

Je me flatte de penser que je n'ai pas besoin de parler de mes sentiments envers Votre peuple. Tous ceux qui me connaissent savent bien que je ne fais aucune distinction entre juifs, chrétiens et musulmans. Je m'inspire toujours de la sublime parole de Votre Prophète Malécachi, n'est-ce pas que nous avons un père commun à nous tous? n'est-ce pas le même Dieu qui nous a créé tous?. En ce qui concerne les israélites je prends cette parole au sens de la lettre, car, en dehors de ce que je les estime pour leurs hautes qualités morales et intellectuelles, je les considère vraiment comme parents à nous tous autres, arabes; pour nous ils sont des cousins. nous avons vraiment le même père, Abraham, dont nous descendons également. Il existe beaucoup d'affinités entre les deux races; nous avons presque la même langue

صورة رسالة يوسف ضياء إلى ثيودور هرتسل: فلسطين "مأهولة بآخرين" لن يقبلوا استبدالهم بسهولة

(1) رسالة من ثيودور هرتسل إلى يوسف ضياء في 19 مارس 1899، أُعيد نَشره في: وليد خالدي "من اللجوء إلى الاحتلال: قراءة في الصهيونية وقضية فلسطين" (بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1971) ص 91-93

الأكثر وضوحاً هو أن الرسالة تُناقِش قضيةً لم يَطرحها يوسف ضياء أصلاً، واستَنكَرَ هرتسل: "سيدي، أنت ترى مشكلةً أخرى في وجود شعب غير يهودي في فلسطين. ولكن، مَن الذي يُفَكِّرُ بتهجيرهم؟"[1]. يُلَمِّحُ هرتسل في إجابتِهِ على سؤالٍ لم يَطرَحْهُ الخالدي إلى الرغبة التي سَجَّلَها في مذكراته "بتشجيع" شعب الدولة من الفقراء "بحذر" للعمل في مَهجرهم وراء الحدود[2]. من الواضح في هذا الاقتباس المخيف أن هرتسل قد أدركَ أهمية "اختفاء" السكان الأصليين في فلسطين لكي تنجحَ الصهيونية. بل إن ميثاق سنة 1901 الذي شاركَ في صياغته لشركة الأرض اليهودية-العثمانية تَضَمَّنَ المبدأ الأساسي نفسه في تَهجِيرِ سكان فلسطين إلى "أقاليم ومناطق أخرى في الامبراطورية العثمانية"[3]. على الرغم من أن هرتسل قد أكَّد في كتاباته أن مشروعه يستندُ على "أعلى مستويات التَّسامح" وضمان الحقوق الكاملة للجميع[4]، إلا أن المقصود لم يكن أكثر من تَحَمُّل أية أقليات مُتبَقِّيَة بعد طَرد وتَهجير الآخرين إلى أماكِن أخرى.

لم يدرك هرتسل أهمية رسالته، ويَظهَر في رسالة الخالدي أنه قد فَهِم تماماً أن القضية لم تكن هجرةَ "عددٍ محدودٍ من اليهود" إلى فلسطين، بل تحويل البلاد بأكملها إلى دولة يهودية. عندما وصلتْ رسالةُ هرتسل إلى يوسف ضياء، لم يكن

---

(1) المصدر نفسه.

(2) موقف هرتسل من العرب هو قضية خِلافية، على الرغم من أنها لا يجب أن تكون كذلك. من أفضل التقييمات وأكثرها توازناً هي ما كتبَه وليد خالدي في "The Jewish-Ottoman Land Company: Herzl's Blueprint for the Colonization of Palestine" Journal of Palestinian Studies 22, no. 2 (Winter 1993): 30-47، وديريك بنسلار Derek Penslar "Herzl and Palestinian Arabs: Myth and Counter-myth" Journal of Israeli History 24, no. 1 (2005), 65-77، ومحمد علي خالدي في "Utopian Zionism or Zionist Proselytism: A Reading of Herzl's Altneuland" Journal of Palestine Studies, 30, no. 4 (Summer 2001): 55-67.

(3) يمكن الحصول على النص في مقالة وليد خالدي "شركة الأرض اليهودية-العثمانية".

(4) وصفَ هرتسل في قصته المثالية "الأرض القديمة الجديدة Altneuland" فلسطين المستقبل التي ستكون فيها كل هذه الصفات الجذّابة. انظر محمد علي خالدي "Utopian Zionism or Zionist Proselytism"

أمامه سوى استنتاجَين: إما أن الزعيم الصهيوني كان يقصد خداعَهُ بإخفاء الأهداف الحقيقية للحركة الصهيونية، أو أن هرتسل بكل بساطة لم يفكّر بأنّ يوسف ضياء وعرب فلسطين يَستحقون الاعتبار والنَّظَر إليهم بجدّية.

كَتَبَ هرتسل بروحِ الاعتداد بالنفس التي كانت واسعةَ الانتشار لدى الأوروبيين في القرن التاسع عشر، وطَرَحَ مناقَشةً مُنافِيةً للعَقل بأن استعمار واستغلال أراضيهم من قِبَلِ غرباء سَيُفيدُ في النهاية أصحاب الأرض الأصليين. يبدو أن هرتسل قد استَنَدَ في تفكيره وإجابته ليوسف ضياء على فرضية أن العرب يمكن رشوتهم أو خداعهم لتَجاهل ما أرادتْ الحركة الصهيونية تحقيقه بالفعل في فلسطين. هذا الموقف المُحتَقِر في النظَر إلى ذكاء الفلسطينيين والمُهمِل لحقوق السكان العرب في فلسطين سيُكَررُه زعماءُ الصهاينة والبريطانيين والأوروبيين والأمريكيين باستمرار في العقود التي تلتْها حتى الزمن الحاضر هذه الأيام. أما بالنسبة إلى الدولة اليهودية التي صنعتْها في النهاية الحركةُ التي أسّسها هرتسل فلم يكن فيها مكانٌ سوى لشعبٍ واحد هو الشعب اليهودي كما توقَّع يوسف ضياء، أما الآخرون فسيتم بالفعل دَفعُهُم بعيداً أو تَحَمُّلُهم في أحسن الأحوال.

يعرفُ المؤرخون جيداً رسالةَ يوسف ضياء ورَدَّ هرتسل عليها، غير أن أغلبهم لا يبدو أنهم قد فكَّروا بحذر ودَرَسوا بِتَمحيصٍ وتَدقيق لما كان أول تبادل مهمّ بين شخصيةٍ فلسطينية رائدة ومؤسسٍ للحركة الصهيونية. لم يَحكُمُوا جيداً على تفسيرات وتبريرات هرتسل التي وضَعتْ بكل وضوح قواعد الطبيعة الاستعمارية الأساسية للصراع الذي استمر قَرناً من الزمان في فلسطين حتى الآن، ولم يَعترفوا كذلك بحجج الخالدي وتوقعاته التي تحققتْ بكاملها منذ سنة 1899.

بعد الحرب العالمية الأولى، بدأ خَلعُ المجتمع الفلسطيني المَحَلي بهجرةٍ كبيرة للمستوطنين الأوروبيين اليهود تدعمُها سلطاتُ الانتداب البريطاني الجديدة التي ساعدتْهم على تأسيس هيكل دولة موازية صهيونية. كما خُلِقَ جانبٌ اقتصادي منفصَل يسيطر عليه اليهود من خلال مَنعِ العمال العرب من العمل في المؤسسات

التي يَملكها يهود تحت شعار العمل العِبري "Avoda ivrit" وضَخّ مبالغ ضخمة بالفعل من الخارج[1]. في منتصف ثلاثينيات القرن العشرين كان هذا القطاع المستقل عملياً أكبر من الجزء الذي يمتلكه العرب من الاقتصاد على الرغم من أن اليهود كانوا مايزالون أقلية من السكان.

انخفضَ عددُ السكان الأصليين أكثر بسبب القَمع القاسي للثورة العربية الكبرى في فلسطين ضد الحكم البريطاني في 1936–1939 إذ قُتِلَ خلالها 10٪ من الذكور العرب البالِغين أو جُرِحوا أو سُجِنوا أو تم نَفيُهُم[2]. استَخدَم البريطانيون مئة ألف جندي وقواتٍ جوية للسيطرة على المقاومة الفلسطينية، بينما تدفّقتْ موجاتٌ ضخمة من الهجرة اليهودية نتيجة للاضطهاد النازي في ألمانيا مما رفع عدد السكان اليهود في فلسطين من 18٪ من عدد السكان الكلي سنة 1932 إلى أكثر من 31٪ سنة 1939. قدَّم ذلك الكتلةَ السكانية الحَرِجَة والقوة العسكرية التي كانت ضرورية لتنفيذ التطهير العِرقي الذي تعرَّض له الفلسطينيون سنة 1948 حين تم طَردُ أكثر من نصف السكان العرب من البلاد آنذاك، أولاً على يد العصابات الصهيونية، ثم بقوة الجيش الإسرائيلي الذي أكمَلَ انتصار الصهيونية العسكري والسياسي.

هذه الهندسة الاجتماعية الجَذريَّة على حساب السكان الأصليين هي اسلوبُ جميع حركات الاستعمار الاستيطاني. كان ذلك تحضيراً ضرورياً لتَغيير دولةٍ أغلبُ سكانها من العرب في فلسطين إلى دولةٍ يهودية. سيُناقِشُ هذا الكتاب أن هذه

---

(1) حسب الباحث الإسرائيلي Zeev Sternhell خلال عَقد العشرينيات بكامله "كان متوسط التدفق الداخلي لرأس المال اليهودي أكبر بحوالي 41.5٪ من الدخل اليهودي المَحَلي... لم تنخفض هذه النسبة إلى أقل من 33٪ خلال أيٍ من السنوات التي سبقَت الحرب العالمية الثانية" ورَدَت في: The Founding Myths of Israel" Nationalism, Socialism, and Making of the Jewish State" (Princeton NJ: Princeton University Press, 1998), 217. كانت نتيجة هذا التدفق المهم لرأس المال هي أن معدل نمو للاقتصاد اليهودي في فلسطين بلغ 13.2٪ في الفترة من 1922 إلى 1947. لمزيد من التفاصيل انظر كتاب رشيد خالدي "القفص الحديدي: قصة النضال الفلسطيني من أجل الدولة" نشر في Boston: Beacon Press, 2007 ص 13–14.

(2) تم استخلاص أرقام الخسائر الفلسطينية خلال الثورة من أحصائيات قدّمها وليد خالدي في كتابه "من اللجوء إلى الاحتلال"، الملحق 4، 846–49.

الشروط تقدّم أفضلَ فَهمٍ ممكنٍ لتاريخِ فلسطين الحديث: شَنُّ حربٍ استعمارية ضد السكان الأصليين من جهةٍ عدّةِ فُرقاء لإجبارِهم على تسليم بلادِهم إلى شعبٍ آخر غَصباً عنهم وضد إرادتهم.

على الرغم من أن سِمات هذه الحرب تشبه السِّمات النموذجية لحَملات استعماريةٍ أخرى، إلا أنها تتمتع بصفاتٍ خاصة جِداً بينما كان القتال يجري من جهة الحركة الصهيونية ولحسابِها والتي كانت مشروعاً استعمارياً استثنائياً جِداً في حَدِّ ذاتها. زادَ في تعقيد هذا الفَهم حقيقةَ أن هذا الصراع الاستعماري الذي جَرى بِدَعمٍ هائلٍ من قوى خارجية، أصبَحَ مواجَهةً قوميةً بين جِهتَين قَومِيتَين جديدَتَين وبين شعبَين.

كان وراء هذه الصفة ومُضَخِّماً لها ذلك الصدى العميق لدى اليهود ولدى كثير من المسيحيين لعلاقتهم التوراتية بأرض اسرائيل التاريخية. نُسِجَتْ هذه العلاقةُ بمَهارةٍ في الصهيونية السياسية الحديثة وأصبحتْ جزءاً أساسياً منها. وهكذا زَيَّنَتْ حركةٌ استعمارية-قومية من أواخر القرن التاسع عشر نفسَهَا بمعطَفٍ توراتي كان جَذاباً جِداً للبروتستانت الذين يَتلون الكتاب المقدَّس في بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الأمريكية، وأعمَاهُم ذلك عن رؤية الحداثَة الصهيونية وطبيعتِها الاستعمارية، وإلا كيف يمكن أن "يَستعمِرَ" اليهودُ الأرضَ التي انطلقَ منها دِينُهُم؟

بالنظر إلى هذا العَمى، صُوِّرَ هذا الصراع في أفضل الأحوال بأنه صراعٌ قوميٌّ عاديٌّ مُحزِنٌ بين شَعبَين لديهم حقوقٌ في الأرض نفسِها. وفي أسوأ الأحوال وصِفَ بأنه نتيجةَ كراهيةٍ متأصِّلةٍ لدى عربٍ ومسلمين متعصّبين ضد الشعب اليهودي في محاوَلتهم تَرسيخَ حَقِّهِم الذي لا يمكن إنكاره في أرضِهم الخالِدة التي مَنحها الله لهم. وفي الحقيقة لا يوجَد سببٌ يَمنع فَهم ما حَدَثَ في فلسطين خلال أكثر من قَرن على أنه صراع استعماري وقومي معاً. ولكن ما يهمنا هنا هي طبيعته الاستعمارية لأن هذا الجانب لم يتم إدراكه وتقديره على الرغم من مركزيته، وعلى الرغم من أن السِّمات النموذجية لحملاتٍ استعمارية أخرى واضحةٌ في تاريخ فلسطين الحديث.

عندما يقوم مستوطِنون أوروبيون بإزاحَةِ أو بالسيطرة على سكان أصليين مثلما حَدَثَ في الأمريكيتين وأفريقيا وآسيا أو استراليا (أو في ايرلندا)، فإنهم يَصِفونَهُم دائماً باصطلاحات تَحقيرية. كما يَدَّعون دائماً أنهم سَيتركون السكانَ الأصليين بحالةٍ أفضل نتيجةَ حُكمِهِم. تُقَدِّمُ طبيعةُ "الحضارة" و"التقدّم" لمشاريعهم الاستعمارية تَبريراً لجميع الفظاعات التي تُرتَكَب ضد السكان المَحَليين في سبيل تحقيق أهدافِهم. لا يحتاج المَرء سوى الإشارة إلى تصريحات الإداريين الفرنسيين في شمال أفريقيا أو المَندوبين السَّامِيّين البريطانيين في الهند. قال اللورد كرزون Curzon عن الحُكم البريطاني للهند "أن تَشعرَ بأنه في مكانٍ ما بين الملايين أنكَ تركتَ بعض العدالة أو السعادة أو الازدهار، أو شعورٌ بالرجولة أو بالكرامة الأخلاقية، ربيعٌ من الوطنية، أو فجرٌ من التَّنَور الثقافي، أو شعورٌ بالمسؤولية حيث لم يكن موجوداً من قَبل... هذا وحدَه يكفي. هذا هو تَبرير الرجلِ الإنكليزي لِعَمَلِهِ في الهند"[1]. الجملةُ "حيث لم يكن موجوداً من قبل" تستحقُ التكرار. فبالنسبة إلى كرزون وأمثاله من الطبقة الاستعمارية، لا يَعرف السكان المَحَليون ما هو الأفضل لهم، ولا يستطيعون تحقيق هذه الأمور لوحدهم. قال كرزون في خطاب آخر: "لا يمكنكم العمل بدوننا"[2].

تم وَصفُ الفلسطينيين بهذه اللغةِ ذاتها على مدى قَرن من الزمن من جهة مُستَعمِريهِم مثلما وصِفَ السكانُ الأصليون في كل مكان. الخطابُ الاستعلائي التَّحقيري الذي قدَّمه ثيودور هرتسل وغيره من زعماء الصهيونية لم يَختلف عن خطاب زملائهم الأوروبيين. كتَبَ هرتسل أن الدولة اليهودية "ستكون جزءاً من جِدارٍ دفاعيٍّ عن أوروبا في آسيا، قلعة أمامية من الحضارة ضد البربرية"[3]. كانت تلك لغةٌ مشابهة للّغةِ التي استُخدِمتْ في احتلال مناطق الحدود في أمريكا الشمالية

---

(1) Lord Curzon in India: Being a Selection from His Speeches as Viceroy & Governor-General of India, 1898-1905 (London: MacMillan, 1906), 589-90.

(2) المصدر نفسه.

(3) Der Judenstaat، كما تُرجِم ولُخِّصَ في The Zionist Idea: A Historical Analysis and Reader, ed. Arthur Hertzberg (New York: Atheneum, 1970), 222.

والتي انتهتْ في القرن التاسع عشر بالإخضاع التام أو بالقضاء الشامل على جميع السكان الأصليين في تلك القارة. كان استعمارُ فلسطين مثل استعمار أمريكا الشمالية وجنوب أفريقيا واستراليا والجزائر وأجزاء من شرق أفريقيا، وكان يهدفُ إلى خَلقِ مستعمراتٍ من المستوطنين الأوروبيين البيض. تَكَرَّرَ هذا السياق ضد الفلسطينيين الذي ظَهَرَ في تصريحات كرزون وخطاب هرتسل على مدى الأحداث في فلسطين والولايات المتحدة وأوروبا واسرائيل حتى هذه الأيام.

هناك كتاباتٌ كثيرة في اتساقٍ مع هذا المنطق الاستعماري خُصِّصَتْ للادِّعاء بأنه قَبل قدوم الاستيطان الصهيوني الأوروبي كانت فلسطين جَرداء قاحِلة فارِغة ومُتَخَلِّفَة. كانت فلسطين التاريخية موضوعاً لكثيرٍ من السِّمات الذميمة المستَهجَنة في الثقافة الأوروبية العامة وكذلك في كتاباتٍ أكاديمية عديمة القيمة تزعم أنها عِلمية وبَحثية إلا أنها مليئة بالأخطاء والمُغالطات التاريخية وسوء التمثيل وتَصِلُ أحياناً إلى حَدِّ التزييف الصَّريح. تؤكّد هذه الكتابات في أفضل حالاتها على أن البلاد كان يسكنها شعبٌ قليل العَدَد وبلا جذور تاريخية وأغلبُهم من البدو الرُّحَّل الذين لم يكن لهم هوية محدَّدة ولا ارتباط بالأرض التي كانوا يمرون بها بشكلٍ عابر لا أكثر.

كانت نتيجةُ هذا الادعاء هي أن عمل واندفاع المهاجرين اليهود الجدّد هو الوحيد الذي حوّل البلاد إلى الحديقة المُزدَهرة الغَنَّاء والجَنَّة التي يُفتَرَضُ وجودُها في فلسطين الآن، وأنهم وحدهم الذين يرتبطون بهوية الأرض ويحبونها، بالإضافة إلى كونها الحق الذي منحهم الله. يلخِّصُ هذا الموقف بمَقولة "أرضٌ بلا شعبٍ لشعبٍ بلا أرض" التي استَخدَمها مؤيدون مسيحيون لفلسطين يهودية، كما استخدَمها الصهاينة الأوائل مثل اسرائيل زانغويل Israel Zangwill[1]. كانت فلسطين أرضاً

---

(1) زانغويل في "العودة إلى فلسطين" نُشِرت في New Liberal Review (Dec. 1901) ص 615. كتَبَ فيها "فلسطين أرض بلا شعب، واليهود هم شعب بلا أرض". مثالٌ حديث على الاستخدام المتكرر المستمر لهذه المقولة في كتابة ديانا مائير Diana Muir "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" Middle East Quarterly (Spring 2008), 55-62.

مشاعةً بالنسبة للمستوطِنين وكان السكان الأصليون أشخاصاً هُلاميين بلا أسماء. ولذا أشارَ خطاب هرتسل إلى يوسف ضياء إلى الفلسطينيين العرب الذين كانوا يشكّلون آنذاك 95٪ من سكان البلاد بأنهم "السكانُ غير اليهود".

كانت النقطة التي يُراد تأكيدها بشكل أساسي هي أن الفلسطينيين غير موجودين، أو أنهم كانوا بلا حساب، أو أنهم لا يستحقون العيش في هذه الأرض وتم إهمالهم بشكلٍ مُحزِن. إذا لم يكونوا موجودين فيمكن إهمال أفضل أسس اعتراضات الفلسطينيين على خطط الحركة الصهيونية. مثلما تجاوَزَ هرتسل وأهمَلَ ما وَرَدَ في رسالة يوسف ضياء فإن أغلب المخططات اللاحقة للتخلص من الفلسطينيين كانت متعجرِفَة مثله. وَعدُ بلفور سنة 1917 الذي أصدَرَتْهُ وزارةٌ بريطانية وألزمَ بريطانيا بإنشاء وطنٍ قومي لليهود لم يَذكُر الفلسطينيين أبداً على الرغم من كونِهم الأكثرية الساحقة في البلاد آنذاك وأنّ ذلك الوَعد قد رَسَمَ طريقَ فلسطين طوال القَرن الذي تَلاه.

فكرةُ أن الفلسطينيين غير موجودين بكل بساطة، أو الأسوأ منها أنهم اختراعٌ خبيثٌ أفرزَهُ أعداءُ اسرائيل، تؤيدُها كتبٌ مزيَّفَة مثل كتاب جوان بيترز Joan Peters "منذ الأزل From Time Immemorial" الذي يَعتَبرُهُ الباحثون الآن غير جَدير بالثقة والتقدير (إلا أنه لَقِيَ استقبالاً صاخِباً عند نَشره سنة 1984 ومازال متوفراً ويُباع بشكل واسِع)[1]. تعتمدُ هذه الكتابات الشعبية غير الأكاديمية بشكلٍ واسِع على تقارير رحّالة أوروبيين، أو مهاجرين أوروبيين جُدُد، أو مصادر الانتداب البريطاني،

(1) Joan Peters, From Time Immemorial: The Origins of the Arab-Jewish Conflict over Palestine (New York: HarperCollins, 1984). تم انتقاد الكتاب بلا رَحمَة في قراءات نورمان فينكلشتاين Finkelstein ويهوشوا بورات Yehoshua Porath وكثير من الباحثين غيرهما وجميعهم وصَفوا الكتاب بأنه مزيَّف. أخبَرَني الحاخام آرثر هيرتزبرغ Arthur Hertzberg الذي كان زميلي لفترة قصيرة في جامعة كولومبيا بأن الكتاب قد أصدَرَته بيترز التي لم يكن لديها خبرة خاصة بالشرق الأوسط بتحريضٍ وموارد من مؤسسات اسرائيلية يمينية. أخبَرَني بشكل أساسي أنهم أعطوها ملفاتهم التي "تُثبتُ" عدم وجود الفلسطينيين، فكتبت ذلك. لا أستطيع تأكيد هذا الزعم. توفي هيرتزبرغ سنة 2006، وتوفيتْ بيترز سنة 2015.

وغالباً ما يُصدِرُها أشخاصٌ لا يعرفون شيئاً عن مجتمع السكان الأصليين وتاريخه ولَدَيهم احتقارٌ وازدراء له، أو أنها كُتبتْ بشكلٍ أسوأ من قِبَلِ أشخاصٍ لديهم برنامج عَمل وإيديولوجية تَعتَمد على تَغييبِهم وإخفائِهم، ونادِراً ما يَستخدَمون مَصادر من انتاجِ المجتمع الفلسطيني. يكَرِّرُ هؤلاء وجهةَ نظرِ الإهمال والتَّحيز التي لوثَتْها الغَطرسة الأوروبية نحو الغرباء[1].

تَرِدُ هذه الرسالة كثيراً في الثقافة العامة الإسرائيلية وفي الولايات المتحدة الأمريكية وفي الحياة السياسية العامة[2]. تم تضخيمها في كُتبٍ تسويقية عامة مثل قصة ليون يوريس Leon Uris بعنوان "الخروج Exodus" والفيلم الذي حاز على جوائز الأوسكار، وهي أعمالٌ كان لها تأثير عميق على جيلٍ كامل وتسعى إلى ترسيخ وتعميق الانحياز والتَّحيز السابق[3]. أنكَرَتْ شخصياتٌ سياسية وجودَ

---

(1) أمثال هذه الأعمال كثيرة. انظر مثلاً كتاب Arnold Brumberg, Zion Before Zionism, 1838-1880 (Syracuse University Press, 1985)، أو بشكل ظاهري أكثر تعقيداً في كتاب Ephraim Karsh الانفعالي المغرض: Palestine Betrayed (New Haven, CT: Yale University Press, 2011). هذا الكتاب جزء من منحة دراسية لجيل جديد من المحافِظين الجدد يمولها مع آخرين المليونير اليميني المتطرف روجر هيرتوغ Roger Hertog الذي حصَلَ على شكر جزيل في مقدمة الكتاب. نجمٌ آخر في سماء المحافِظين الجدد هو مايكل دوران Michael Doran من مؤسسة هدسون التي ينتمي إليها هيرتوغ وهو عضو مجلس الأمناء فيها. وهو كريمٌ أيضاً في تقديم شكره لهيرتوغ في مقدمة كتابه
Ike's Gamble: America's Rise to Dominance in the Middle East (New York: Simon and Schuster, 2016).

(2) تشكّلت المواقف الأمريكية الشعبية العامة عن فلسطين بانتشار احتقار العرب والمسلمين في أفلام هوليوود والإعلام كما طُرِحَ في كتب جاك شاهين: Reel Bad Arabs: How Hollywood Vilifies a People (New York: Olive Branch Press, 2001) واستعارات أخرى خاصة بفلسطين والفلسطينيين. كتاب Noga Kadman, Erased from Space and Consciousness: Israel and the Depopulated Palestinian Villages of 1948 (Bloomington: Indiana University Press, 2015) يبين من خلال مقابلات كثيرة ومصادر أخرى أن مواقف مماثلة قد ترسخت في عقول كثير من الإسرائيليين.

(3) M. M. Silver, Our Exodus: Leon Uris and the Americanization of Israel's Founding Story (Detroit: Wayne State University Press, 2010) يحلل تأثير القصة والفيلم على الثقافة الأمريكية العامة. تناقش آمي كابلان Amy Kaplan أن القصة والفيلم لَعِبا دَوراً مركزياً

الفلسطينيين بكل صراحة، فمثلاً قال نوت غينغريتش Newt Gingrich الرئيس السابق لمجلس النواب: "أعتقد بأن لدينا شعبٌ فلسطيني مُختَرَع، وَهُم في الحقيقة عَرَب". وقال حاكمُ ولاية أركنساس مايك هوكابي Mike Huckabee أثناء عودته من زيارةٍ إلى فلسطين في مارس 2015 "لا يوجد في الحقيقة شيءٌ اسمه الفلسطينيين"[1]. وبدرجاتٍ متفاوتة كان في كل إدارة أمريكية منذ عهد الرئيس هاري ترومان أشخاصٌ يضعون السياسة بشأن فلسطين ممن لديهم آراء تدلُّ على أنهم يؤمنون بأن الفلسطينيين كائناتٌ أقلّ شأناً من الإسرائيليين سواء كانوا موجودين أم غير موجودين.

من المهم أن كثيراً من رواد الصهيونية كانوا يفتخرون بتَبَنّي الطبيعة الاستعمارية لمشروعهم. كان زيف جابوتنسكي Ze'ev Jabotinsky الزعيمُ التصحيحي الصهيوني البارز ومؤسس التيار السياسي الصهيوني الذي سيطَرَ على اسرائيل منذ 1977 والذي تَبنَّاه رؤساء الوزراء مناحم بيجن واسحاق شامير وآريل شارون وإيهود إيلمرت وبنيامين نتنياهو، وكانوا واضحين بشكلٍ خاص في هذه

في أمركة الصهيونية. انظر مقالتها "Zionism as Anticolonialism: The Case of Exodus" في American Library History 25, no. 4 (Dec. 1, 2013): 870-95. والأهم ما وَرَد في الفصل الثاني من كتابها

Our American Israel: The Story of an Entangled Alliance (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2018) 58-93.

(1) انظر Zachary J. Foster, "What's a Palestinian: Uncovering Cultural Complexities" نُشِرت في Foreign Affairs, March 12, 2015. يتمسك بمثل هذه الآراء بقوة متبرعون سياسيون رئيسيون مثل بليونير الكازينوهات شيلدون أديلسون Sheldon Adelson وهو أكبر متبرع للحزب الجمهوري في عدة سنوات، والذي قال "الفلسطينيون شعبٌ مختَرَع". في كل انتخاب رئاسي أوّلي قاد مَشهداً مميزاً لمرشحين جمهورين يردِّدون هذه الأفكار. انظر جيسون هوروويتز Jason Horowitz, "Republican Contenders Reach Out to Sheldon Adelson, Palms Up" في New York Times, April 27, 2015، وفي جوناثان كوك Jonathan Cook, "The Battle Between American-Jewish Political Donors Heats Up" العربي، 4 مايو 2015. حصل أديلسون كواحد من أكبر المتبرعين لحملة ترمب على جائزته في ديسمبر 2017 عندما اعتَرَفَت الولايات المتحدة بالقدس عاصمة لإسرائيل ونَقلتْ سفارتها إلى هناك.

المسألة. كتَبَ جابوتنسكي سنة 1923: "سيُقاوِمُ المُستوطِنين كلُّ شعبٍ أصليّ في العالَم طالما لديهم ولو أملٌ قليل بأنهم سيخَلِّصون أنفسهم من مخاطر الاستعمار. وهذا هو ما يفعله العرب في فلسطين وما سيُتابعون فِعله طالما وجِدت فيهم شرارةُ أملٍ واحدة بأنهم سيتمكنون من مَنع تحويل "فلسطين" إلى "أرض اسرائيل". مثل هذه الصراحة نادرةٌ بين زعماء الصهيونية الآخرين الذين اعترَضوا مثلما اعترَض هيرتسل وأظهَروا براءةَ وطهارةَ أهدافهم وخَدَعوا من استَمع إليهم من الغربيين، وربما خَدَعوا أنفسَهم بقصص خيالية عن نِيَّاتِهم السَّليمة نحو عرب فلسطين.

كان جابوتنسكي وأتباعه من القلائل الذين كانوا صُرحاء في اعترافهم عَلَناً وبكل وضوح بالحقائق القاسية التي لا بد من حدوثها عند زَرعِ مجتمعٍ استعماري استيطاني بين السكان المَحَليين الموجودين. واعتَرفَ بشكلٍ خاص بأن التهديد المستمر لاستِخدام القوة المُفرطة ضد الأكثرية العربية سيكون ضرورياً لتنفيذ البرنامج الصهيوني وما أسماه: "الجدار الحديدي" من الحراب كان ضرورياً لنجاحه. أو كما عبَّر عنها جابوتنسكي: "لا يتقدَّم الاستعمارُ الصهيوني ولا يمكن أن يتطور إلا تحت حماية قوة مستقلة عن السكان المَحَليين وراء جدارٍ حديدي لا يستطيع السكان المَحَليون اختراقه"[1]. كان ذلك في عصر انتشار الاستعمار عندما كان قيامُ الغربيين بمثل هذه الأفعال ضد السكان المَحَليين يتمّ بشكلٍ عادي ويُوصَفُ بأنه "تَقَدُّم".

كانت المؤسساتُ الاجتماعية والاقتصادية التي أسَّسها روّاد الصهيونية مَركَزيةً في نجاح المشروع الصهيوني، وتَقَبَّلَها الجميع دون أي تردّد ووصِفَتْ بأنها استعمارية. كانت أهم هذه المؤسسات هي جمعية الاستعمار اليهودي Jewish Colonization Association (تمت إعادة تسميتها سنة 1924 إلى جمعية الاستعمار اليهودي في فلسطين Palestine Jewish Colonization Association JCA). أسَّس هذه الجمعية في

(1) Vladimir (later Ze'ev) Jabotinsky, "The Iron Wall: We and the Arabs" نُشِر أولاً باللغة الروسية تحت عنوان "O Zheleznoi Stene" Rassvyet, Nov 4, 1923

الأصل المتَبرع اليهودي الألماني البارون موريس دى هيرش Maurice de Hirsch ثم انضَمتْ إليها جمعيةٌ أخرى مشابهة أسَّسها زميلٌ بريطاني مالي هو اللورد إدموند دى روتشيلد Edmond de Rothschild. قدَّمتْ جمعيةُ الاستعمار اليهودي دعماً مالياً كبيراً سَمَحَ بشراء أراضٍ على نطاق واسع وبتوفير الإعانات التي مَكَّنَتْ أغلبَ المستعمرات الصهيونية الأولى في فلسطين من البقاء والازدهار قَبل وأثناء الانتداب.

تم مَسحُ وتَبييضُ الأصول والمُمارسات الاستعمارية الصهيونية بشكلٍ غير ملحوظ حالما أصبح الاستعمارُ مكروهاً في عصر إزالة الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية، وتم تَناسيها بشكلٍ مناسب في اسرائيل وفي الغرب. وفي الحقيقة استطاعَت الصهيونيةُ التي كانت الولِيدة التي احتَضَنَها الاستعمارُ البريطاني أن تُعيد انتاج نفسها كحركةٍ مناهِضة للاستعمار. كانت مناسبةُ القيام بهذا التَّحول التَّجميلي الكبير هي حَملة تخريبٍ وإرهاب قامَتْ بها الحركةُ الصهيونية ضد بريطانيا العظمى بعد أن قَيَّدَتْ دَعمَها للهجرة اليهودية بشكل كبير وإصدار الورقة البيضاء سنة 1939 قُبَيلَ الحرب العالمية الثانية. حَدَثَ شَرْخٌ بين الحليفَين السابقَين (ساعَدتْ بريطانيا الصهاينة في قتالِهم مع الفلسطينيين في أواخر الثلاثينيات بتقديم الأسلحة وتدريب المستوطِنين المهاجِرين الذين سَمحتْ لهم بريطانيا بدخول البلاد)، وقد دَعَمَ هذا الشَّرخُ الفكرةَ الغريبة بأن الحركةَ الصهيونية هي حركةٌ مناهِضةٌ للاستعمار في حَدِّ ذاتها.

لا يوجد أي شك بحقيقة أن الصهيونية قد لَجَأتْ في البداية إلى الالتصاق بقوة مع الامبراطورية البريطانية للحصول على الدعم والتأييد، وأن الفضل في نجاحها بِزَرعِ نفسِها في فلسطين يرجع أساساً لجهود الأمبريالية البريطانية المستمرة. وكما أكَّد جابوتنسكي لا يمكن أن تجري الأحداث إلا بهذه الطريقة لأن البريطانيين وحدَهم كان لديهم الوسائل لإطلاق الحرب الاستعمارية التي كانت ضرورية لقَمع المقاومة الفلسطينية ضد الاستيلاء على وطنهم. استمرت هذه الحربُ منذ ذلك الحين بشكل صريح أحياناً وبأشكال خفية في أحيان أخرى وكانت في جميع

الأحوال بالموافقة الصريحة أو الخَفيَّة للقوى العظمى، بل والتدخل المباشر أحياناً، وبتطبيق العقوبات عن طريق المنظمات الدولية التي تسيطر عليها مثل عصبة الأمم والأمم المتحدة.

نَشَأ ذلك الصراع تحت ظل البرنامج الكلاسيكي الاستعماري الأوروبي في القرن التاسع عشر في أرض غير أوروبية ودَعَمتْهُ القوةُ الأمبريالية الغربية العظمى منذ 1917 وما بَعدها، ويوصَفُ عادةً باصطلاحات مَصقولة ومُشَذَّبة إلا فيما نَدَر. وبالفعل، كثيراً ما يتم توجيه الذَّم ضد الذين يَدرسون ويُحلِّلون جهودَ الاستيطان الاسرائيلي في القدس وفي الضفة الغربية وفي مرتفعات الجولان السورية المحتلَّة والمشروع الصهيوني من ناحية أصول المستوطِنين الاستعماريين وطبيعتهم. لا يستطيع كثيرون تَقَبُّلَ التناقض المتأصِّل في فكرة أنه على الرغم من أن الصهيونية قد نجحتْ دون شك في خَلقِ هويةٍ قوميةٍ مزدَهرةٍ في اسرائيل، إلا أن جذورها هي مشروعُ مستوطِنين استعماريين (وكذلك جذور دولٍ حديثة أخرى مثل الولايات المتحدة الأمريكية وكندا واستراليا ونيوزيلاندا)، وكذلك لا يستطيعون قبول أنها لم تتمكن من النجاح لولا دَعم القوى الأمبريالية العظمى، بريطانيا ثم الولايات المتحدة. ولذلك فإن الصهيونية يمكن أن تكون، بل وكانت بالفعل ذات يومٍ حركةً قوميةً وحركةَ مستوطِنين مستعمِرين في الوقت نفسه.

بدلاً من كتابة بحثٍ مفصَّلٍ لتاريخ فلسطين، اختَرتُ التركيز على ستِّ نقاطِ تَحَوّلٍ في الصراع على فلسطين. تبدأ هذه الأحداث الستة بوعد بلفور سنة 1917 الذي حدَّد مصير فلسطين، إلى حصار اسرائيل لغزة وحروبها المتكررة على أهل غزة في العَقد الأول من القرن الحادي والعشرين. تُسَلِّطُ هذه المراحلُ الضوءَ على الطبيعة الاستعمارية لحرب المئة عام على فلسطين، وعلى دَور القوى الخارجية الذي لا يمكن الاستغناء عنه في شَنِّ هذه الحرب[1]. سَرَدتُ هذه القصة جزئياً من

(1) حرب المئة عام الأصلية التي دَارتْ بين أسرة البلانتاجنيت Plantagenet في انكلترا وسلالة فالوا Valois dynasty في فرنسا استمرت في الحقيقة 116 عاماً من 1337 إلى 1453.

خلال تجارب فلسطينيين عاشوا هذه الحرب ويَنتمي كثيرٌ منهم إلى عائلتي، وكانوا موجودين خلال بعض المراحل المذكورة. أضفتُ ذكرياتي الخاصة عن أحداث شَهدتُها بنفسي وكذلك مواد أمتَلكُها وتَمتلكُها بعض العائلات بالإضافة إلى روايات شهود عَيان متنوعين. كان هَدَفي من كل ذلك السَّرد هو توضيح أنه يجب رؤية هذا الصراع بشكلٍ مختلف تماماً عن أغلب الروايات السائدة.

نَشرتُ كُتُباً عديدة ومقالات كثيرة عن جوانب مختلفة من تاريخ فلسطين في وسائط أكاديمية بَحتة[1]. وكذلك يَعتَمد هذا الكتاب على البحث الأكاديمي غير أن فيه أيضاً بُعداً شخصياً يُستَبعَدُ عادةً في التأريخ الأكاديمي. على الرغم من أن بعض أفراد عائلتي قد انخَرطوا في أحداث فلسطين لسنوات عديدة مثلما حَدَثَ معي كَشَاهِدٍ أو كَمُشارِك، إلا أن تجربتنا ليست فريدة مع تمتعنا بامتيازات بسبب طَبَقَتِنا ووضعِنا الاجتماعي. يستطيع المرء أن يستفيد كثيراً من مثل هذه السَّرديات على الرغم من أن كثيراً من تاريخ أجزاء أخرى من المجتمع الفلسطيني مازالت بانتظار رَبْطِها بما جَرى من أحداث. وعلى كل فبالرغم من التوتر والقلق الذي يتعلقُ بهذه المقارَبَة التي اخترتُها فإنني أعتَقد بأنها تُساعد على إضفاء الضوء على وجهةِ نظرٍ مفقودة في الطريقة التي رويَتْ فيها قصةُ فلسطين في معظم ما كُتِبَ عنها.

يجب أن أضيف أنّ هذا الكتاب ليس "تَصَوُّراً باكياً" لمئة سنة مَضَتْ من تاريخ فلسطين، اقتباساً من النقد الرائع الذي كَتَبَهُ المؤرخُ الكبير سالو بارون Salo Baron عن روح الكتابات التاريخية اليهودية في القرن التاسع عشر[2]. اتُّهِمَ الفلسطينيون

---

(1) يشمل ذلك كتُب الهوية الفلسطينية، تحت الحصار: صناعة القرار داخل منظمة التحرير الفلسطينية إبّان حرب 1982 (طبعة منقحة، نيويورك: منشورات جامعة كولومبيا، 2014)، وسطاء الخداع: كيف قوَّضت الولايات المتحدة السلام في الشرق الأوسط (Boston: Beacon Press) 2013.

(2) كان بارون بروفسور التاريخ والأدب اليهودي والمراكز في جامعة كولومبيا من 1929 حتى 1963 ويُعتبر أعظم المؤرخين اليهود في القرن العشرين، وقد دَرَّسَ والدي اسماعيل خالدي عندما كان طالبَ اختصاصٍ في أواخر الأربعينيات وبداية الخمسينيات. أخبرني بارون بعد ذلك بأربعة عقود أنه يتذكر والدي وأنه كان طالباً مجِدّاً ولكنه ربما كان يحاول أن يكون لطيفاً بالنظر إلى طبعه المجامِل اللطيف.

مـن طَـرَفِ المتعـاطِفين مـع الـذين اضـطهَدوهم بـأنهم مُنغَمِسـون في الشـعور بـأنهم ضحايا. وفي الحقيقة، فقد واجَهَ الفلسـطينيون ظروفـاً شـاقة بـل ومسـتحيلة أحيانـاً، مَثَلُهُم في ذلـك مَثَـل جميـع السـكان المَحَليـين الأصـليين الـذين واجَهـوا حروبـاً استعمارية. كما أنهم تعرَّضوا لهزائم متكررة، وكانوا متفرِّقين غالباً ولـم تتـوفر لهـم قيادةٌ جيدة. ولا يَعني كل ذلك أن الفلسطينيين لـم يَنجَحـوا أحيانـاً في التغلـب على هذه المصاعب، أو أنهم في أوقات أخرى لم يتمكَّنـوا مـن اتخـاذ قـرارات أفضَـل[1].

غير أننا لا نستطيع تجاهل القوى الدولية والأمبرياليـة التـي تحالَفـتْ ضـدهم والتـي يُهمَلُ ولا يُقدَّرُ مَداها في أغلـب الأحيـان والتـي اسـتطاعوا علـى الـرغم منهـا إظهـارَ مرونـةٍ وصـمودٍ يسـتحق الإشـادَة. أمَلـي أنّ هـذا الكتـاب سيوضِّـح هـذا الصـمود والمرونة ويُساعِد على استرجاع بعض ما تمت تَنحِيَتُهُ وتَجاهله في التاريخ من جهـة أولئك الذين يُسيطِرون على كافة فلسطين التاريخية والسَّرد الذي يُحيطُ بها.

(1) بحثتُ في الاختيـارات السـيئة التـي اتخـذها زعمـاء الحركـة الوطنيـة الفلسـطينية والمصـاعب الضخمة التي واجهَتْهم في كتابي "القفص الحديدي".

1

إعلان الحرب الأول
1917 - 1939

"هناك كثير من الحالات التي بدأتْ فيها الحربُ قَبلَ أنْ تُعلَن"

آرثر جيمس بلفور Arthur James Balfour[1]

في بداية القرن العشرين وقَبل أن يكون للاستعمار الصهيوني أي تأثير يُذكَر في فلسطين، انتشَرتْ أفكارٌ جديدة وتوسَّعَ نطاق التعليم الحديث وتَعلّم القراءة والكتابة، كما أخَذَ التكامل بين الاقتصاد الوطني مع النظام الرأسمالي العالمي بالتطور بسرعة ونشاط. تَغَيَّرَ مَنظر مناطق واسعة من فلسطين بسبب زيادة انتاج المحاصيل الصالحة للتصدير مثل القمح والحمضيات، وارتفع الاستثمار في الزراعة بإدخال المحاصيل الربحية والعَمالة المأجورة، وانتشرتْ بيّارات البرتقال في كل مكان. سارَتْ هذه التطورات بتَناسقٍ مع جَمع مُلكِية الأرضِ الخاصّة بِيَدِ قِلَّةٍ مِنَ السكان. وقَعَتْ مساحاتٌ كبيرة من الأراضي تحت سيطرة مُلَّاكٍ غائبين عاشَ كثيرٌ منهم في بيروت أو في دمشق على حساب الفلاحين وصغار المُلَّاك. بدأتْ أحوالُ المَرافق الصحية والصحة العامة بالتحسن وارتفَعتْ نسبة المواليد تدريجياً،

(1) يُنسَب هذا القول بشكل كبير إلى بلفور ويبدو فعلاً باسلوبه.

كما انخفَضَ معدَّل الوفيات وبالتالي أخَذَ عددُ السكان بالارتفاع بشكل أسرع. بدأ تطور المُدن والقرى وحتى المناطق النائية وتَحسُّنها تدريجياً بفضل ظهور التليغراف والسفن البخارية والسكك الحديدة وأنوار الغاز والكهرباء والطرق الحديثة. في الوقت نفسه أصبح السفر داخل المنطقة وما حولها أسرع وأرخص وأكثر أماناً وراحة[1].

كان على يوسف ضياء في ستينيات القرن التاسع عشر أن يسافر إلى مالطا واسطنبول سَعياً وراء دراسَته وفقَ الطرق الغربية الحديثة، ولكن مع حلول عام 1914 توفَّرتْ تلك الدراسة في مدارس ومعاهد حكومية وخاصّة وتبشيرية في فلسطين وبيروت والقاهرة ودمشق. دَخلَت التربية الحديثة إلى المنطقة عادةً في مدارس تبشيرية أجنبية كاثوليكية وبروتستانتية وأرثودوكسية وكذلك في المدارس اليهودية التابعة للاتحاد الإسرائيلي العالمي. أسَّست السلطات العثمانية شبكةً نامية من المدارس الحكومية خوفاً من سيطرة المدارس التبشيرية الأجنبية المرتَبطة بمن يرعاها من القوى العظمى على تعليم الأجيال الشابة، وفي النتيجة، خَدَمَتْ تلك المدارسُ الطلابَ في فلسطين أكثر مما فَعَلَته المدارس الأجنبية. على الرغم من أن الإمكانية العامة للحصول على التعليم والانتشار الواسع للأمّية كانت مازالت بعيدة في المستقبل، إلا أن هذه التغييرات فتَحَت آفاقاً جديدة وقدَّمتْ أفكاراً جديدة لعَدَد متزايد من السكان حتى الحرب العالمية الأولى[2]. استفادَ السكانُ العرب من هذه التطورات.

---

(1) لمزيد من التفاصيل انظر Roger Owen, ed., Studies in the Economic and Social History of Palestine in the 19th and 20th Centuries (London: Macmillan, 1982)

(2) انظر Ben Fortna, Imperial Classrooms: Islam, the State and Education in the Late Ottoman Empire (Oxford: Oxford University Press, 2002)، وكذلك Selçuk Somel, The Modernization of Public Education in the Ottoman Empire, 1839-1908: Islamization, Autocracy, and Discipline (Leiden: Brill, 2001. وهكذا مع حلول 1947 كان حوالي 45٪ من السكان العرب في سن التعليم والغلبية العظمى من سكان المدن من الذكور والإناث طلاباً في المدارس ويقارَن هذا بشكل جيد مع الحالة في الدول العربية المجاورة كما ورَد في A. L. Tibawi, Arab Education in Mandatory Palestine: A Study of Three Decades of

كانت فلسطين من الناحية الاجتماعية زراعيةً بشكل عميق وذات طبيعة أبَوية وهَرَمية، وظلّتْ كذلك بشكل عام حتى 1948. سيطَرتْ عليها نُخبةٌ قليلة من أهل المُدن الذين يَنتَمون إلى عائلات قليلة مثل عائلتي والذين تمَسَّكوا بمواقِعهم الاجتماعية وامتيازاتهم بقوة حتى حينما كانوا يتأقلَمون مع الأحوال الجديدة. حَصَلَ شبابُ العائلات الأصغر سِناً على تعليمٍ حديث وتعلَّموا لغاتٍ أجنبية للاحتفاظ بمواقعهم وبامتيازاتهم الاجتماعية. سيطَرتْ هذه النُّخبة على سياسات فلسطين على الرغم من أن ظهور مِهَنٍ وتجارة وطبقات جديدة كانت تدلُّ على توفر طرق أكثر للتقدم والحركة نحو الارتفاع في المجتمع في بداية القرن العشرين. كانت التغيرات أكثر وضوحاً في المُدن الساحلية السريعة النمو مثل يافا وحيفا من وضوحِها في المُدن الداخلية مثل القدس ونابلس والخليل. وشَهِدَت المُدن الساحلية ظهورَ طَبَقة تجارية برجوازية وولادَة طَبَقة عاملة مَدَنية[1].

في الوقت نفسه كان الشعور بالهوية ينشأ ويتطور لدى جزء كبير من السكان. كان جيلُ جدّي يُعَرِّفُ عَن نفسِه ويُعرَفُ عادةً بانتمائه إلى العائلة أو الدِّين أو المدينة أو القرية. كانوا يَعتَزون بأصولهم من جدود عِظام ويَفتخرون بإجادَتهم اللغة العربية

British Administration (London: Luzac, 1956) tables 270-71. وضِعتْ أسس هذا التطور التعليمي في الفترة العثمانية. انظر أيضاً رشيد خالدي، القفص الحديدي ص 14-16، وكذلك Ami Ayalon, Reading Palestine: Printing and Litracy, 1900-1948 (Austin: University of Texas Press, 2004)

(1) للمقارنة بين المدن الداخلية والساحلية انظر: Salim Tamari, Mountain Against the Sea: Essays on Palestinian Society and Culture (Oakland: University of California Press, 2008). يرجع Tamari هذه الرؤية إلى ألبير حوراني. انظر محاضرته سنة 1985 في "Political Society in Lebanon: A Historical Introducation". انظر أيضاً Sherene Seikaly, Menof Capital: Scarcity and Economy in Mandate Palestine (Stanford, CA: Stanford University Press, 2016) وكذلك Abigail Jacobson, From Empire to Empire: Jerusalem Between Ottoman and British Rule (Syracuse, NY: Syracuse University Press, 2011) وكذلك Mahmoud Yazbak Haifa in the Late Ottoman Period, 1864-1914: A Muslim Town in Transition (Leiden: Brill, 1998) وكذلك Mary Sheikaly, Haifa, Transformation of an Arab Society, 1918-1939 (London: I. B. Tauris, 1995)

لأنها لغة القرآن وبإرثهم من الثقافة العربية. وربما شعروا بالولاء للسُّلالة والدولة العثمانية، وتَجَذَّرَ هذا الشعور في عاداتٍ اجتماعية وفي الاعتقاد بأن الدولة العثمانية هي الحُصن الذي يُدافِع عن أراضي الامبراطوريات الإسلامية الأولى العظيمة والأراضي التي تَطمَع فيها الامبراطورية المسيحية منذ عهد الصليبيين والأراضي التي تَضمّ المُدن المقدسة: مكة والمدينة والقدس. إلا أنَّ هذا الولاء أخذ بالضعف في القرن التاسع عشر حينما بدأ الأساس الديني للدولة يَضعف وتَزايدَتْ خسائر العثمانيين العسكرية والجغرافية وتطورتْ أفكارُ القومية وأخذتْ تَنتَشر.

سَرَّعتْ سهولةُ المواصلات والحصول على التعليم من هذه التغيرات، كما لَعِبَ انتشار الطباعة وسهولة الحصول على الكتب دَوراً مهماً، فقد تأسَّست 32 صحيفة ومجلّة في فلسطين في الفترة 1908–1914 وارتفع عددها أكثر من ذلك في العشرينيات والثلاثينيات[1]. بدأتْ ولاءاتٌ مختلفة بالظهور مثل القومية، وبرزتْ أفكار جديدةٌ عن تنظيم المجتمع وتضامن الطَبَقة العاملة ودَور المرأة في المجتمع لتتحدى انتماءاتٍ اجتماعية سابقة. كانت هذه الأشكال من الانتماء في بداية تكوّنها سواءً كانت وطنية أو قومية أو طَبَقية أو مِهَنية، وشَملتْ انتماءاتٍ وولاءات متداخلة. فمثلاً، أظهَرتْ رسالةُ يوسف ضياء إلى هرتسل سنة 1899 انتماءاتٍ دينية وعثمانية وتمجيداً مَحَلياً لمدينة القدس وارتباطاً واضِحاً بفلسطين.

في العَقد الأول من القرن العشرين كان جزءٌ كبير من اليهود الذين يعيشون في فلسطين يشبهون كثيراً سكان المُدن المسلمين والمسيحيين ويعيشون معهم بشكل مريحٍ معقول. كان أغلبهم من الأرثودوكسيين متشَددين وغير صَهاينة من طائفة المِزراحي (الشرقيين) أو من طائفة السفارديم (أحفاد اليهود الذين طُرِدوا من اسبانيا)، أو سكان مُدنٍ من أصولٍ شرق أوسطية أو متوسطية ممن تحدَّثوا غالباً

(1) بحثت هذه التطورات بالتفصيل في كتاب رشيد خالدي "الهوية الفلسطينية" انظر أيضاً Muhammad Muslih, The Origins of Palestinian Nationalism (New York: Columbia University Press, 1988) وكذلك Ami Ayalon, Reading Palestine

باللغة العربية أو التركية كَلُغَةٍ ثانية أو ثالثة. وعلى الرغم من وجود تمييز ديني واضِح بينهم وبين جيرانهم إلا أنهم لم يُعتَبَروا أجانب ولم يكونوا أوروبيين أو مستوطِنين، بل كانوا كما يَرون أنفسَهم وكما يَراهم آخرون يَهوداً يَنتَمون إلى المجتمع المَحَلي ذي الغالبية المسلِمة[1]، كما أن بعض الشباب من يهود الأشكنازي الأوروبيين الذين استقروا في فلسطين في تلك الفترة بمَن فيهم صهيونيين متعصّبين مثل ديفيد بن غوريون وإسحاق بن زفي Yitzhak Ben-Zvi (أصبح واحدٌ منهم رئيساً للوزراء والثاني رئيساً لإسرائيل) قد حاوَلوا في البداية نوعاً من الاندماج في المجتمع المَحَلي. بل وحَصَلَ بن غوريون وبن زفي على الجنسية العثمانية ودَرَسا في اسطنبول وتعلّما اللغةَ العربية والتركية.

ربما أدى التسارع المتزايد في تحوّل وتغيّر الدول المتقدِّمة في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية مقارَنَةً ببقيةِ العالَم خلال الفترة الصناعية الحديثة إلى تَوَصُّلِ بعض الدَّارِسين الخارِجيين وبعض الباحِثين الكبار إلى الاعتقاد خطأً بأن مجتمعات الشرق الأوسط بما فيها فلسطين كانت راكِدة وغير متطورة، بل حتى "متَدهوِرة"[2]. نَعرِفُ الآن بفضلِ مؤشِّرات كثيرة أن ذلك لم يكن صحيحاً، فهناك أعمالٌ تاريخية متزايدة

---

(1) تُظهِر كثير من الدراسات الآن درجةَ الاندماج الكبير لجماعات المزراحي والسفارديم في المجتمع الفلسطيني على الرغم من بعض الاحتكاكات ومعاداة السامية التي نَشَرتها عادةً التبشيريات الأوروبية المسيحية. انظر Menachem Klein, Lives in Common: Arabs and Jews in Jerusalem, Jaffa, and Hebron (London: Hurst, 2015) وكذلك Gershon Shafir, Land Labor and Origins of the Israeli-Palestinian Conflict 1882-1914 (Cambridge: Cambridge University Press, 1989) وكذلك Zachary Lockman, Comrades and Enemies: Arab and Jewish Workers in Palestine, 1906-1948 (Oakland: University of California, 1996) وكذلك Abigail Jacobson, From Empire to Empire. انظر كذلك Gabriel Piterberg "Israeli Sociology's Young Hegelian: Gershon Shafir and Settler-Colonial Framework" Journal of Palestine Studies 44, no. 3 (Spring 2015): 17-38

(2) أفضل رَدٌّ على الاعتقاد السائد بانحدار مجتمعات الشرق الأوسط في Roger Owen, "The Middle East in the Eighteenth Century - An "Islamic" Society in Decline? A Critique of Gibb and Bowen's Islamic Society and the West" Bulletin (British Society of Middle Eastern Studies) 3, no. 2 (1976): 110-17

تستند على بَحثٍ تاريخي رَصين في مصادر عثمانية وفلسطينية واسرائيلية وغربية تَدحَضُ تماماً هذه الاعتقادات الخاطئة[1]. كما أن دراسات جديدة عن فلسطين في السنوات التي سبقَت 1948 تَذهبُ أبعَدَ من مجرد التعامل مع سوء الفهم والتزوير الذي يعيش في صُلب هذه المواقف، وبغضِّ النَّظر عما يبدو أنه تفكيرُ أناسٍ غرباء غير مطَّلعين على حقائق الأحوال فمن الواضح أنه في الجزء الأول من القَرن العشرين كان يعيش في فلسطين تحت الحكم العثماني مجتمعٌ عربي نشيط وحيوي يخوضُ سلسلةً من التحولات المتسارعة مثلما كانت أحوال كثير من مجتمعات الشرق الأوسط الأخرى حوله[2].

الصدماتُ الخارجية القوية لها تأثيرات عميقة على المجتمعات خاصةً على شعورها بالهوية. ازدادَت الامبراطوريةُ العثمانية ضعفاً منذ بدايات القرن التاسع عشر وخَسِرَتْ مناطِقَ واسعة في البلقان وليبيا وغيرها. زالَتْ الامبراطوريةُ بعد سلسلة طويلة من الحروب المؤلِمة منذ الحرب الليبية في 1911–1912 وتَبعتْها حروبُ البلقان في 1912–1913 ثم التمزقاتُ الضخمة في الحرب العالمية الأولى. جلبَتْ سنواتُ الحرب الأربع نقصاً شديداً وفَقراً ومجاعَة وأمراضاً ومُصادَرة الحيوانات وتَجنيد أغلب العامِلين من الرجال الذين أرسِلوا إلى الجبهة. يَقدَّر أن

---

(1) لذكر مجال تأثير الوضع الديموغرافي انظر
Justin MaCarthy's The Population of Palestine: Population Statistics of the Late Ottoman Period and Mandate (New York: Columbia University Press, 1990)
كمثال على عملٍ استَنَدَ بشكل رئيسي على مصادر السجلات العثمانية في الفترة ما قبل 1918 والتي تدحَض خُرافة فراغ فلسطين قبل ظهور التأثير "المعجِز" للاستعمار الصهيوني

(2) من أهم الأعمال حول هذه التحولات في فلسطين هي: Alexander Scholch, Palestine in Transformation, 1856-1882: Studies in Social, Economic, and Political Development, trans. William C. Young and Michael C. Gerrity (Washington, DC: Institute for Palestine Studies, 1993)، وكذلك Besgara Doumani, Rediscovering Palestine: Merchants and Peasants in Jabal Nablus, 1700-1900 (Oakland: University of California Press, 1995، وكذلك Owen, Studies in the Economic and Social History of Palestine in the 19th and the 20th Centuries

سورية الكبرى التي شَملتْ فلسطين وما هو الآن الأردن وسورية ولبنان قد فَقَدَتْ حوالي نصف مليون شخص في الفترة من 1915 إلى 1918 بسبب المجاعة وحدَها (التي زادَ من وَطأتها هجمةٌ من الجَرَاد)[1].

كان الجوع والمعاناة العامة أحد أسباب الحالة المُزريَة للسكان. كان تركيزُ أغلب المراقبين على الخسائر الهائلة للحرب على الجبهة الغربية ولم يلاحِظ سوى قليلون أن الامبراطورية العثمانية بشكل عام تلقَّتْ أقسى خسائر الحرب وأكثر من خسائر أيّ من القوى العظمى المتحارِبة، إذ خَسِرَتْ أكثر من ثلاثة ملايين قتيل (15٪ من عدد السكان الكلّي)، وكان أغلبهم من المَدنيين (كانت أكبر هذه الفئات هم ضحايا المَجازر التي ارتُكبتْ بأوامر السلطات العثمانية في 1915 و1916 من الأرمن والآشوريين وغيرهم من المسيحيين)[2]. وبالإضافة إلى ذلك فقد قُتِلَ خلال الحرب 750000 من الجنود العثمانيين الذين كان عددهم حوالي 2.8 مليون أصلاً[3]. وبالمثل، كانت الخسائر العربية مرتفعة لأن الوحدات العسكرية التي

(1) Linda Schatkowski Schilcher, "The Famine of 1915-1918 in Greater Syria" in Problems of the Modern Middle East in Historical Perspective, ed. John Spagnolo (Reading, UK: Ithaca Press, 1912) 234-54.

للاطلاع على الآثار التي ترتَّبتْ على المعاناة الرهيبة للسكان خلال الحرب، انظر Samuel Dolbee, Seferberlik and Bare Feet: Rural Hardship, Citied Dreams, and Social Belonging in 1920s Syria. Jerusalem Quarterly, no. 51 (Autumn 2012) 21-35

(2) ربما قُتِل حوالي 1.5 مليون من الأرمن في الإبادة الجماعية في أبريل 1915. وحتى دون حساب هؤلاء الضحايا فإن خسارة العثمانيين التي بلغت 1.5 مليون قتيل في الحرب كنسبة من عدد السكان الكلي كانت حوالي ضعف خسارة من تلاهم في أعلى نسبة من الخسائر البشرية في فرنسا (4.4٪) وألمانيا (4.3٪*). تضع تقديرات أخرى خسائر العثمانيين الكاملة في الحرب بحوالي خمسة ملايين (أي حوالي 25٪ من السكان).

(3) هذه الأرقام من Edward Erikson, Ordered to Die: A History of the Ottoman Army in World War I (Westport, CT: Greenwood Press, 2001), 211. انظر أيضاً Hikmet Ozdemir, The Ottoman Army, 1914-1918: Disease and Death on the Battlefield (Salt Lake City: University of Utah Press, 2008)، وكذلك Kristian Coates Ulrchsen, The First World War in the Middle East (London: Hurst, 2014) وأيضاً Yigit Akin, When the War Came Home: The Ottoman's Great War and the Devastation of an Empire (Stanford, CA: Stanford University Press, 2018

جُنِّدَتْ من سورية الكبرى والعراق تَواجَدَتْ بكثافة في مسرح العمليات الدموية مثل الجبهة العثمانية الشرقية ضد روسيا وفي غاليبولي وسيناء وفلسطين والعراق. قدَّرَ الباحثُ السكاني جوستن مكارثي Justin McCarthy أن عددَ سكان فلسطين كان يتزايد بحوالي 1٪ كل عام حتى سنة 1914 ولكنه انخفضَ بنسبة 6٪ خلال الحرب[1].

لم تَنجُ من اضطرابات فترة الحرب ولا حتى العائلات الغنية مثل عائلتي. عندما ولِد أبي اسماعيل سنة 1915 تم تجنيد أربع من إخوته البالغين وهم: نعمان وحسن وحسين وأحمد للخدمة في الجيش العثماني. أصيبَ اثنان منهم بجِراحٍ أثناء القتال إلا أنهم كانوا جميعاً من المَحظوظين الذين ظلّوا أحياء. تذكَّرتْ عمّتي عَنبرة سلام الخالدي صوراً مرعِبة من الجوع والفقر في شوارع بيروت حيث عاشَتْ في شبابها[2]. خَدَمَ عَمّي حسين الخالدي ضابطاً طبياً خلال الحرب وتَذَكَّرَ مَشاهِدَ تُدمي القلوب في القدس حيث شاهَدَ جثثَ عشراتٍ من الناس الذين ماتوا جوعاً في الطرقات[3]. تَضمَّنتْ فظائعُ السلطات العثمانية شَنقَ عبد الغني العريسي الذي كان خطيب عمّتي مع كثير من الوطنيين العرب بتهمة الخيانة العظمى[4].

---

(1) McCarthy, The population of Palestine, 25-27. يُشيرُ مكارثي بالمقارنة إلى أنه على الرغم من خسائر الحرب الجسيمة إلا أن فرنسا لم تخسَر سوى 1٪ من سكانها خلال الحرب العالمية الأولى التي لم تعاني فيها انكلترا وألمانيا أية خسارة في العدد الكلي لسكانهما.

(2) Anbara Salam Khalidi, Memoirs of an Early Arab Feminist: The Life and Activism of Anbara Salam Khalidi (London: Pluto Press, 2013) 68-69.

(3) حسين فخري الخالدي، "ومضى عهد المجاملات: مذكرات حسين فخري الخالدي" (عمان: دار الشروق، 2014) 1:75

(4) وصِفَ تأثير إعدام خطيبُ عمّتي في Memoirs of an Early Arab Feminist ص 63–67. كان عبد الغني العريسي محرراً مشاركاً لصحيفة مؤثرة في بيروت اسمها "المفيد" وكان مثقفاً عربياً بارزاً. كانت مذكرات عنبرة سلام الخالدي بين المصادر الرئيسية لمقالة كتبتُها عنه وعن صحيفته:
"Abd al-Ghani al-Uraisi and al-Mufid: The Press and Arab Nationalism Before 1914" in Intellectual Life in the Arab East, 1890-1939, ed. Marwan Buheiri (Beirut: American University of Beirut Press, 1981) 38-61.



حسين وحسن الخالدي مُجنَّدَين في الجيش العثماني

في سنة 1917، استَلَمَ جدّي الحاج راغب الخالدي وجدّتي أمينة (المعروفة باسم أم حسن) أمرَ إخلاءٍ من السلطات العثمانية مع غيرهما من سكان يافا. غادَرا منزلهما في تلّ الرّيش قرب يافا هَرَباً من مخاطر الحرب الدَّاهِمة (قَدِمَا مِن القدس إلى تلك المنطقة قَبل ذلك بسنوات بسبب عَمل جَدّي في القَضاء)، واصطَحَبا معهما أولادهما الصغار الأربعة، وكان والدي بينهم. لَجَأت الأسرة عدة أشهر إلى القرية الجَبلية دير غَسّانة في شَرق يافا مع أفراد من عائلة البرغوتي الذين رَبطَتْهم بهم علاقاتٌ قديمة[1]. كانت القرية بعيدة بدرجة كافية عن البحر لتكون خارج مَدى نيران بَحرِيَّة الحلفاء ومن القتال العنيف على طول الساحل بينما تقدَّمت الجيوشُ البريطانية شمالاً بقيادة الجنرال السير إدموند اللنبي Edmund Allenby.

منذ ربيع 1917 حتى أواخر الخريف شَهِدَت المناطق الجنوبية من البلاد سلسلةً من المعارك الطاحِنة بين القوات البريطانية والعثمانية التي دَعَمتْها وحدات ألمانية

---

(1) من مقابلة مع وليد خالدي في كامبريدج في 12 أكتوبر 2014 و19 نوفمبر 2016. ولِد ابن عمي وليد سنة 1925 وسمع قصة هجرة العائلة في زمن الحرب من جدّه عندما كان صغيراً. تم تأكيد بعض التفاصيل في ذكريات عمّي حسين فخري الخالدي.

وتمساوية. شَملَت المعارك حرب الخنادق والغارات الجوية وقصفاً برياً وبَحرياً عنيفاً. شَنَّتْ وحدات امبراطورية بريطانية عدداً من الهجمات الكبيرة واضطرت دفاعات العثمانيين إلى التراجع تدريجياً. انتَشَر القتال إلى شمال فلسطين في الشتاء (سيطَرَ البريطانيون على القدس في الوسط سنة 1917)، واستمر في بدايات 1918. سبَّبَت الحرب معاناةً شديدة، وكانت إحدى المناطق الأكثر تضرراً مدينة غزة وما حولها من بلدات وقرى حيث سُحِقَتْ مناطق واسعة بالقصف البريطاني العنيف خلال حربٍ خنادق طويلة ثم تقدّم الحلفاء البطيء على ساحل المتوسط.

بعد سقوط يافا بيد البريطانيين في نوفمبر 1917 عادتْ أسرة جدّي إلى بيتِها في تلّ الرّيش. كانت عمّتي الأخرى فاطمة سَلام الخالدي في الثامنة من عمرها آنذاك، وتذكَّرتْ ترحيب جدّي بالجنود البريطانيين قائلاً: "مرحباً، مرحباً" بلُغَتِهِ الإنكليزية المتعثّرة، وسَمِعَتْها أم حسين وكأنها: "يا وَيلكم" باللغة العربية وخَشيتْ أنه ربما عَرَّضَ أسرتَهُ للخطر بالاستِهزاء من الجنود الغرباء[1]. سواءً كان الحاج راغب الخالدي يُرَحِّبُ أو يَندُبُ وصولَ البريطانيين فإن اثنَين من أولادِهِ كانا يقاتلان مع الطرف الآخر، واثنان آخران كانا أَسرَى حَرب مما وَضَع الأسرة في حالةٍ محفوفَة بالمَخاطر. ظلَّ اثنان من أعمامي مع الجيش العثماني الذي قاوَم البريطانيين في شمال فلسطين وفي سورية حتى أواخر 1918.

كانوا من بين آلاف من الرجال الغائبين عن بيوتهم في نهاية الحرب. هاجَرَ بعضُهم إلى الأمريكيتين للهرب من التجنيد بينما اعتُقِل كثير آخرون في معسكرات أسرى الحرب، وكان من بينهم الكاتب عارف شحادة المعروف باسم عارف العارف[2]. وكان آخرون في الجبال هاربين من التجنيد مثل نجيب ناصر محرّر

(1) من مقابلة مع فاطمة سلام الخالدي في بيروت في 20 مارس 1981.

(2) عارف شحادة المشهور باسم عارف العارف هو أحد ثلاثة جنود من فلسطين الذين كَتَبوا مذكراتهم الرهيبة عن الحرب العالمية الأولى والتي اعتَمَد عليها Salim Tamari في كتابه Year of the Locust: A Soldier's Diary and the Erasure of Palestine's Ottoman Past (Oakland: University of California Press, 2011).

صحيفةٍ جريئةٍ في حيفا اسمُها الكَرمِل[1]. بينما كان هنالك جنودٌ عرب ممن هَربوا من الجيش العثماني وعَبروا خطوط القتال، أو أنهم كانوا يَخدمون في قوات الثورة العربية بقيادة الشريف حسين وتحالَفوا مع البريطانيين. كما كان آخرون من أمثال عيسى العيسى محرّر صحيفة فلسطين الذي نَفَتْهُ السلطاتُ العثمانية بسبب استقلاله العنيف ومناداته المتحمّسة للقومية العربية، وطُردِوا من يافا المُتَمَدِّنة نسبياً إلى بلدات صغيرة في قلب أرياف الأناضول[2].

أدَّتْ جميعُ هذه الصدمات المادية إلى زيادة تأثير التغيرات السياسية المؤلِمة بعد الحرب التي أجبَرَت الناس على إعادة التفكير بهويتهم السابقة. مع نهاية القتال، وجَدَ الناس في فلسطين وفي كثير من أرجاء العالَم العربي أنفسَهم تحت احتلال جيوشٍ أوروبية، وبعد أربعمئة عام واجَهَتْهم الآفاقُ المُقلِقَة للحُكم الأجنبي وسرعة غياب السلطة العثمانية التي كانت النمط الوحيد من الحُكم الذي يَعرفونه على مدى عشرين جيلاً. في غمرة هذه الصدمة الكبيرة ومع نهاية عصرٍ وبداية عصرٍ جديد على خلفيةٍ بائسة من المعاناة والخسارة والحرمان... سَمِعَ الفلسطينيون شذراتٍ متفرقة عن وَعد بلفور.

أعلَنَ ذلك التصريح الخطير وزيرُ الشؤون الخارجية آرثر جيمس بلفور باسم الوزارة البريطانية في 2 نوفمبر 1917 منذ حوالي قَرن مَضى وعُرِفَ فيما بَعد باسم: وَعد بلفور، وكان يتألف من جملة واحدة:

"تَنظُرُ حكومةُ صاحب الجلالة بِعَين العَطف إلى إقامَةِ وطَنٍ قَوميٍّ للشعب اليهوديّ في فلسطين، وستَبذل غايةَ جُهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يُفهَم

(1) انظر السرد الخيالي لرجاء شحادة عن رحلة عمّها الأكبر نجيب الناصر في
A Rift in Time: Travel with my Ottoman Uncle (New York: OR Books, 2011).
انظر أيضاً الرواية التي نَشَرها الناصر التي تَسرد مغامراته في شكل شبه خيالي وشكل يشبه رواية السيرة الذاتية: رواية مفلح الغساني (الناصرية، دار السوات، 1981).

(2) Noha Tadros Khalaf, Les Memoires de Issa al-Issa: Journaliste et intellectual palestinien (1878-1950) (Paris: Karthala, 2009) 159-75.

جَليّاً أنه لن يُؤتَى بعملٍ من شأنه أن يَنتَقِصَ من الحقوق المَدنية والدّينية التي تتمتّع بها الطوائف غير اليهودية المُقيمَة في فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتّع به اليهود في أيّ بلدٍ آخَر".

أدركَ كثير من الفلسطينيين المُتَبصِّرين قَبل الحرب العالمية الأولى مخاطِرَ الحركة الصهيونية واعتَبروها تهديداً، إلا أنّ وعدَ بلفور أَدخَلَ عُنصُراً مُخيفاً جديداً. ففي اللغة الدبلوماسية الناعمة المخادِعة وتَعبيرها الغامض وافقَتْ بريطانيا على "إقامة وطَن قوميّ للشعب اليهوديّ في فلسطين" وأعلَن الوعدُ عملياً تأييدَ بريطانيا لأهدافِ ثيودور هرتسل في إنشاء وطن قومي لليهود وسيادتهم وسيطَرتهم على الهجرة إلى كلّ فلسطين.

ومن المهم أيضاً أن بلفور لم يَذكُر الغالبية العربية العظمى في سكان فلسطين (التي بلَغتْ آنذاك حوالي 94٪) سوى بطريقةٍ مواربة بصِفتِهم "الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين". أي أنهم قد وصِفوا باصطلاحِ "غير" وبشكلٍ مؤكّد أنهم لم يوصَفوا كأمّة أو كشَعب، ولم تظهَر مفردات "الفلسطينيين" أو "العرب" بين مفردات الوَعد التي بلَغتْ 67 كلمة. وُعِدَتْ هذه الأغلبية العظمى من السكان فقط "بحقوقٍ مَدَنية ودينية" وليس بحقوقٍ سياسية ولا وطنية. وبالمقارنة، مَنَحَ بلفور حقوقاً وطنية لما وَصَفَهُ "الشعب اليهوديّ" الذي كان سنة 1917 أقليةً ضئيلةً (6٪) من سكان المنطقة.

كانت الحركة الصهيونية مشروعاً استعمارياً يبحَثُ عن راعٍ من القوى العظمى قَبل أن تَضمنَ الدعم البريطاني، بعد أن فشل ثيودور هرتسل في الحصول على دعم الامبراطورية العثمانية والألمانية وغيرهما، تمكّن خليفتُه حاييم وايزمان Chaim Weismann وزملاؤه من النجاح أخيراً في اتصالاتهم مع وزارة الحرب البريطانية برئاسة ديفيد لويد جورج David Lloyd George وحصَلوا على دعم أعظم قوةٍ في ذلك العصر. واجَهَ الفلسطينيون أكبر خصومِهم في ذلك الوقت وكانت القوات البريطانية في تلك اللحظة تتقدّم شمالاً وتحتلّ بلادهم. كانت تلك القوات

في خدمة الحكومة التي قدمَّتْ ذلك الوعد بزَرعِ "وطنٍ قوميّ" حيث تعني الهجرة غير المحدودَة تحقيقَ أغلبيةٍ يهودية في المستقبل.

تم تحليل أهداف الحكومة البريطانية وغاياتها في ذلك الوقت بإسهاب على مدى القَرن الماضي[1]. كان من بين دوافعها الكثيرة رغباتٍ رومانسية وطموح ديني مؤيّد للسامية و"عودة" اليهود إلى أرض الكتاب المقدّس وغايات معادِية للسامية في تقليل هجرة اليهود إلى بريطانيا ترتبط باعتقادٍ أن "العالَم اليهودي" لديه القدرة على إبقاء روسيا الثورية الجديدة في الحرب وإقناع الولايات المتحدة الأمريكية بدخولها. وفيما وراء هذه الدوافع، كان الهدف الرئيسي لبريطانيا هو السيطرة على فلسطين لأسباب جيوسياسية استراتيجية سَبقَت الحرب العالمية الأولى وقَوَّتْها أحداثُ الحرب[2]. ومهما كانت الدوافع الأخرى مهمّة، إلا أن هذا الهدف كان مَركزياً: لم تتحرك الامبراطورية البريطانية أبداً بدافع من الإيثار. دَعمُ وتأييدُ المشروع الصهيوني كان يَخدِمُ جيداً المصالحَ البريطانية الاستراتيجية، مثلما كانت تحركاتها الأخرى في المنطقة أثناء الحرب والتي كان من بينها وعودٌ قدِّمتْ سنة 1915 و1916 بمَنح الاستقلال للعرب بزعامة الشريف حسين في مكة (الواردة في مراسلات حسين-ماكماهون) واتفاق سرّي سنة 1916 مع فرنسا (اتفاقية سايكس-

---

(1) في تحليل الدوافع البريطانية، انظر Jonathan Scheer, The Balfour Declaration: The Origins of the Arab-Israeli Conflict (London: Bloomsbury, 2010)، وكذلك Henry Laurens, La question de Palestine, vol. 1, 1799-1922: L'invention de la Terre sainte (Paris: Fayard, 1999)، وأيضاً James Renton, The Zionist Masquerade: The Birth of the Anglo-Zionist Alliance, 1914-1918 (London: Palgrave-Macmillan, 2007). انظر أيضاً A. L. Tibawi, Anglo-Arab Relations and the Question of Palestine, 1914-1921 (London: Luzac, 1977), 196-239. وكذلك Leonard Stein, The Balfour Declaration -(London: Valentine, Mitchell, 1961) وأيضاً Mayir Verete, The Balfour Declaration and Its Makers, Middle Eastern Studies 6 (1970): 416-42.

(2) هذه مناقشة أساسية في كتابي British Policy Towards Syria and Palestine, 1906-1914: A Study of the Antecedents of the Husayn-McMahon Correspondence, the Sykes-Picot Agreement, and the Balfour Declaration, St. Anthony's College Middle East Monographs (Reading, UK: Ithaca Press, 1980).

بيكو) التي وافقَتْ فيها القوّتان على تقسيمٍ استعماريٍّ للدول العربية الشرقية[1].

ما أدى إليه ذلك الوعدُ من تطبيقاتٍ عملية كان أهمّ من الدوافع البريطانية لإصدار وعد بلفور، فبالنسبة للحركة الصهيونية بأهدافها الواضحة كان مَعنى الوعد هو السيادة والسيطرة التامة على فلسطين، وفجأة أصبحَتْ هذه الأهدافُ ممكِنة بفضل دعم بريطانيا اللامَحدود. وسَّع بعض الزعماء البريطانيين السياسيين دَعمَ الصهيونية فيما وراء الصّياغة الدقيقة لِوَعد بلفور، فخلال وليمة عشاء في بَيتِ بلفور سنة 1922 ضمَّ ثلاثةً من أهم رجال الدولة البريطانيين في تلك الفترة: لويد جورج وبلفور وونستون تشرشل الذي كان وزير الدولة لشؤون المستعمرات، وقد أكّدوا لوايزمان أن اصطلاح "وطن قوميّ للشعب اليهوديّ" كان يَعني دائماً "إنشاء دولة يهودية". أقنَعَ لويد جورج الزعيمَ الصهيوني أن بريطانيا لن تَسمح بسبب ذلك أبداً بوجود حكومة نيابية في فلسطين، ولم تَفعَل ذلك[2].

أصبحَ مشروعُ الصهاينة مدعوماً "بجدارٍ حديدي" لا غِنى عنه من القوة العسكرية البريطانية، كما قال جابوتنسكي. أما بالنسبة لسكان فلسطين فقد كان وعدُ بلفور الذي حدَّد مستقبلهم بكلماته الدقيقة المَوزونة وكان في الحقيقة بندقيةً وجِّهتْ مباشرة نحو رؤوسهم. كان إعلانَ حربٍ من الامبراطورية البريطانية على السكان المَحَليين. واجَهَ معظمهم احتمال أن يصبِحوا أقليةً مقابل الهجرة اليهودية اللامَحدودة إلى البلاد التي كانت غالبية سكانها من العرب وثقافتها عربية. وسواء كان ذلك قَصْدُ الوَعدِ أم لم يكن فقد فَجَّرَ صِراعاً استعمارياً صريحاً واعتداءً

(1) تصريح ليون تروتسكي المسؤول البلشفي عن العلاقات الخارجية الذي ظهَر بعد أن فتَح السجلات الدبلوماسية القيصرية وكشَف هذه الاتفاقيات السرية الانكليزية-الفرنسية-الروسية أثناء الحرب، وقد ورَدت في

Soviet Documents on Foreign Policy, 1917-1924, ed. Jane Degras, vol. 1 (Oxford: Oxford University Press, 1951).

(2) ورَدَت في مذكرات السيرة الذاتية

Yehuda Reinharz's Chaim Weizmann: The Making of a Statesman (Oxford: Oxford University Press, 1993), 356-57.

استمرَّ قَرناً من الزمن على الشعب الفلسطيني بهَدَفِ دَعمِ إنشاء "وطن قومي" حَضْريّ وإقصَائيّ على حسابهم.

جاء ردّ فِعل الفلسطينيين على وعد بلفور متأخِراً، وكان في البداية مُخَفَّفاً وخافِتاً. انتشَرتْ أخبارُ التصريح البريطاني في أغلب أرجاء العالَم الأخرى فور إعلانِه، غَيرَ أن الصحف المَحَلية في فلسطين كانت قد أُغلِقَتْ منذ بداية الحرب من جِهة المراقَبة الحكومية وبسبب نقص مواد الطباعة نتيجةَ الحصار البحري الخانِق للموانئ العثمانية. بعد أن احتلَّت القوات البريطانية مدينة القدس في ديسمبر 1917، مَنَعَ النظامُ العسكري نَشرَ أخبارٍ عن وعد بلفور[1]. وبالفعل، لم تَسمح السلطات البريطانية للصحف بالظهور في فلسطين فترة سَنتَين. وعندما وصلتْ أخبار وعد بلفور إلى فلسطين أخيراً فقد تَسرَّبتْ ببطء وانتشَرتْ بالمُشافَهة ثم في نسخٍ من الصحف المصرية التي جُلِبَتْ من القاهرة.

أصابَت القنبلةُ مجتمعاً واهِناً منهَكاً في تلك المرحلة المتأخرة من الحرب بينما كان الناجون من الفوضى العارِمة يعودون تدريجياً إلى بيوتهم. هناك أدلّة على أنهم صُدِموا بالأخبار، وفي ديسمبر 1918 عاد 33 فلسطينياً مَنفياً في الأناضول ودمشق حيث كان لديهم اطّلاع على الصحف (وكان بينهم العيسى) وأرسَلوا رسالةَ احتجاجٍ إلى مؤتمر السلام الذي عُقِدَ في فرساي وإلى وزارة الخارجية البريطانية، وأكّدوا على أنّ "هذه البلاد بلادنا" وعبَّروا عن خَشيتِهم من ادّعاء الصهيانة "بأنّ فلسطين ستتحول إلى وطن قومي لهم"[2].

---

(1) Ronald Storrs, Orientations (Lomdon: Ivo Nickolson and Watson< 1937).
وَرَد في مذكرات رونالد ستورز أول حاكم عسكري بريطاني للقدس خبر السيطرة الصارمة التي طبَّقها البريطانيون على الصحف وعلى جميع أشكال النشاط السياسي العربي في فلسطين. عمل ستورز في منصبه السابق كمراقب للصحافة المحلية وكسكرتير شرقي للمندوب السامي البريطاني في مصر.

(2) عبد الوهاب الكيالي، وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية 1918–1939 (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1968)، 1–3.

ربما كانت هذه الاحتمالات بعيدةً بالنسبة لكثير من الفلسطينيين عندما أُصدِرَ وعد بلفور حينما كان اليهود أقلية ضئيلة من السكان، ومع ذلك فإن بعض أصحاب الرؤية البعيدة مثل يوسف ضياء الخالدي أدرَكوا الخطر الذي تمثِلُهُ الصهيونية منذ البداية. وفي سنة 1914 كتَبَ عيسى العيسى في افتتاحيةٍ ذكية في صحيفة "فلسطين" عن: "أمّة مهدَّدة بالزوال تحت ضغط المَدّ الصهيوني في أرض فلسطين... أمّة مهدّدة بوجودها وبطَردها من أرضها"[1]. شَعَرَ الذين أدرَكوا زحفَ الحركة الصهيونية بالتهديد والخطَر بسبب قدرتها على شراء اقطاعيات كبيرة من الأرض الخصبة وطَرد الفلاحين المَحَليين منها، وبسبب نجاحِها في زيادة الهجرة اليهودية.

وبالفعل، وصَلَ حوالي أربعون ألفاً من المهاجرين اليهود في الفترة 1919-1914 (على الرغم من أن بعضهم غادَرَ بعد ذلك بقليل)، وأسَّست الحركة الصهيونية 18 مستعمَرة جديدة (مِن عَددٍ كلّي بَلَغَ 52 سنة 1914) على أراضٍ كانت قد اشتَرتْ أغلَبَها مِن مُلّاكٍ غائِبين. التركيز الجديد نسبياً لمُلكية الأراضي الخاصّة ساعَدَ كثيراً على شراء تلك الأراضي. كان التأثير واضحاً على الفلسطينيين في المجتمعات الزراعية بشكل خاص في مناطق الاستيطان الصهيوني المركَّز: السهول الساحلية الخصبة في مَرج ابن عامر ووادي الحُولة في الشمال. حُرِمَ كثير من الفلاحين في القُرى المجاورة للمستعمرات الجديدة من أرضهم نتيجة بيع الأراضي، كما أُصيبَ بعضُهم في المواجهات المسلحة مع وحدات الميليشيا الأولية التي شكَّلها المستوطِنون الأوروبيون اليهود[2]. شارَكَهم في ارتيابهم سكانُ المُدن العربية في حيفا ويافا والقدس التي كانت أهم مراكز السكان اليهود آنذاك وفي هذه الأيام أيضاً. راقَبَ السكانُ العرب بقلقٍ متزايد تدفّق المهاجرين اليهود في السنوات التي سبقَت الحرب. بعد إصدار وعد بلفور أصبَحت النتائج الكارثية لمستقبل فلسطين واضِحة للجميع.

---

(1) إصدار خاص من صحيفة فلسطين، 9 مايو 1914 ص 1.

(2) تفاصيل أكثر عن شراء الأراضي والمواجهات المسلحة التي نتَجتْ عن ذلك في كتابي "الهوية الفلسطينية" ص 89-117. انظر أيضاً
Shafir, Land, Labor, and the Origins of Israeli-Palestinian Conflict.

سَرَّعَت الحربُ العالمية الأولى ونتائجها بالإضافة إلى التغيرات الديموغرافية وغيرها التَّغَيُّرَ في المشاعر الوطنية الفلسطينية مِن حُبِّ الوطن والانتماء العائلي والمَحَلي إلى شَكلٍ حديثٍ مِنَ الوطنية[1]، وفي عالَمٍ كانت القوميةُ تتقدّم فيه على مَدى عقود كثيرة قَدَّمَت الحرب العالمية دفعَةً عالَميةً لهذه الفكرة. تطوَّر المَيل مع نهاية الحرب العالمية بِدَفعٍ من وودرو ويلسون Woodrow Wilson في الولايات المتحدة الأمريكية وفلاديمير لينين في الاتحاد السوفييتي اللذان تَبَنَّيَا مبدأ حق تقرير المصير بوسائل وأهداف مختلفة.

مهما كانت مقاصِد هذَين الزعيمَين، فقد أدى التَّبَنّي الظاهري المُعلَن لآمالِ وطموحات شعوب العالَم من جهةٍ قوَّتَين مناهِضَتَين للاستعمار إلى تأثيرٍ ضخم. من الواضح أنّ ويلسون لم يقصد تطبيق ذلك المبدأ على أغلب الذين فَهموهُ كمَبدأ مُلهِمٍ لآمالهم في التحرر الوطني. وقد اعترفَ في الحقيقة أنه ذُهِلَ من كثرة الشعوب التي استجابَتْ لِدَعوتِه لِحَقِّ تقرير المصير ممن لم يَسمع بهم من قَبل[2]. غيرَ أن تلك الآمال التي انتَعشَت بتصريحاتِ ويلسون تأييداً لِحَقِّ تقرير المصير الوطني وبالثورة البلشفية تبَخَّرتْ بسبب عدم اكتراث الحلفاء في مؤتمر السلام الذي عُقِدَ في فرساي بمطالبة الشعوب المستعمَرَة وسَعيها وراء الاستقلال، وانفَجَرت ثوراتٌ عارِمة ضخمة ضد الاستعمار في الهند ومصر والصين وكوريا وإيرلندا وغيرها[3]. انهيارُ دول عابِرة للقوميات حكمَتْها سلالاتُ رومانوف والهابسبيرغ، وزوالُ

---

(1) لمزيد من البحث في هذه التطورات انظر كتابي عن "الهوية الفلسطينية"، خاصة الفصل السابع ص 145-76.

(2) تم عَرضُ ذلك بوضوح في Margaret Macmillan, Parism 1919: Six Months That Changed the World (New York: Random House, 2002)

(3) Ezra Manela, The Wilsonian Movement: Self-Determination and the International Origins of Anticolonial Nationalism (New York: Oxford University Press, 2007).
أصاب مانيلا في منح ويلسون دَوراً كبيراً غير مقصود وإذكاء روح الثورة القومية ضد القوى الاستعمارية بعد الحرب العالمية الأولى إلا أنه لا يقدر جيداً الدور الكبير الذي لعبته الثورة البلشفية في ذلك.

الامبراطورية العثمانية كان أيضاً نتيجةً لانتشار القومية وإذكاءِ روحِها خلال فترة الحرب وما بَعدها.

من المؤكَّد أن هوياتٍ سياسية قد تطَورتْ في فلسطين قَبل الحرب بما يتوافَق مع التغيرات العالمية وتطَور الدولة العثمانية، ولكن ذلك حَدَثَ ببطءٍ نسبياً ضمن حدود ما تَسمح به السلطة وتَعَدد القوميات وما هو مقبول دينياً في الامبراطورية. كانت الخريطةُ الذهنية لأغلب رعاياها قَبل 1914 محدودَة بأنهم مَحكومين في ظِلِّ ذلك النظام السياسي فترةً طويلة بحيث أصبح صعباً عليهم تصَور أنفسهم تحت حُكمٍ غير الحُكم العثماني. خَرَجَ سكانُ فلسطين إلى عالَم ما بعد الحرب وهم يعانون من صدمةٍ جماعية وواجَهوا واقِعاً جديداً مختلفاً بشكلٍ جَذري: كانوا يخضَعون لحُكم بريطانيا وكانت بلادهم قد حُجِزَتْ لِتُصبِحَ "وَطَناً قَومياً" لِآخَرين، وفي مقابِلِ ذلك يمكنهم وَضع آمالهم باحتمال الحصول على استقلال العرب وحقّهم في تقرير مصيرهم حسب وَعدِ البريطانيين للشريف حسين سنة 1916، وتكرَّر ذلك الوعد في مَطالب عَلَنية بعد ذلك مراراً بما فيها تصريحٌ انكلو-فرنسي سنة 1918 قَبل أن يُنَصَّ عليه في ميثاق عصبة الأمم الجديدة سنة 1919.

كانت الصحافةُ الفلسطينية واحِدةً من النوافذ المهمة التي تُبَيِّنُ تَصَوُّرَ الفلسطينيين لأنفسهم وفَهمَهُم للأحداث بين الحربَين. تركَّز مَعقلُ الوطنية المَحَلية في صحيفتَين: صحيفة "فلسطين" التي أصدَرها عيسى العيسى في يافا، وصحيفة "الكرمل" التي أصدَرها نجيب ناصر في حيفا، وكانَتَا تَنتَقِدان النوايا الصهيونية-البريطانية والخَطَرَ الذي يُهَدِّدُ الأغلبيةَ العربية في فلسطين، وكانت تلك الصحيفَتان أقوى المَنارات تأثيراً على فكرة الهوية الفلسطينية. كانت الصحف الأخرى صَدى قوياً لهذه الآراء وتركّز على الاقتصاد اليهودي المزدَهر المُغلَق وعلى المؤسسات الأخرى التي صَنعَها مشروعُ بناء الدولة الصهيونية الذي دَعمَته السلطات البريطانية.

بعد حضوره افتتاحاً رَسمياً لخَطٍ حديديٍّ جديد سنة 1929 يَصِلُ تل أبيب بالمستوطَنات اليهودية والقرى العربية في الجنوب، كتَبَ عيسى العيسى افتتاحيةً

مُنذِرَةً في صحيفة "فلسطين"، وصَفَ فيها كيف استغَلَّ المستوطِنون اليهود وجودَ المسؤولين البريطانيين على طول الخط الحديدي الجديد لكي يُقدِّموا لهم مَطالِبَ جديدة، بينما لم يتواجَد الفلسطينيون في أي مكان. قال: "كان هناك طربوش واحد بين كثيرٍ من القبعات"، وكانت الرسالة واضحة: كان الوطنيون "أهل البلاد" غير مُنَظَّمين، بينما استغَل "القومُ الآخرون" كلَّ فرصةٍ متاحَة لهم. لَخَّصَ عنوان الافتتاحية خطورةَ تحذيرِ العيسى: "غرباءُ في بلادنا: غَفلَتُنا ويَقظَتُهم"[1]. تُقَدِّمُ مذكراتُ فلسطينيين تُنشَرُ بشكل متزايد رؤيةً نافِذةً أخرى. كُتِبتْ أغلبُ هذه المذكّرات باللغة العربية وتَعكس قلقَ كتّابها الذين يَنتمون غالباً إلى الطبقات العُليا والمتوسطة[2]. التَّعَرُّفُ على وجهات نظرِ الفئات الأقلّ حَظّاً في المجتمع الفلسطيني هو أكثر صعوبة، وهناك قليلٌ من التاريخ الشَّفَوي المُتَوَفِّر في العُقود المُبكرة من الحُكم البريطاني[3].

تَمنَحُ مثل هذه المصادر إحساساً بتطور الهوية بين الفلسطينيين مع زيادرة ظهور مفردات مثل "فلسطين" و"الفلسطينيين" إلا أن نقطة التَّحول في هذه الحالة يَصعب تَحديدها. يمكن اكتشاف بعض الأمور من سيرة جدّي الشخصية، فقد تلقّى الحاج راغب تعليماً دينياً تقليدياً وخَدَمَ كمسؤول ديني بصفة "قاضي"، وكان

(1) فلسطين، 15 مارس 1929، ص 1.

(2) نَشرتْ مؤسسة الدراسات الفلسطينية وحدَها تسع مذكرات باللغة العربية منذ 2005: محمد عبد الهادي شروف 2017، محمود الأطرش 2016، المغربي 2015، غابي برامكي 2015، حنا نقارة 2011، ترجمان وفصيح 2008، خليل سكاكيني 8 مجلدات 2005-2010، رشيد حج ابراهيم 2005، واصف جوهرية 2005. كما نَشرت المؤسسة مذكرات رجائي بسيله باللغة الإنكليزية سنة 2017. كان بينها مذكرات الشرطي شروف والمغربي الذي كان عاملاً وناشطاً شيوعياً وكان الترجمان وفصيح جنوداً في الجيش العثماني في الحرب العالمية الأولى وجميعها تسرد وجهات نظر أناس من غير النخبة. انظر أيضاً المذكرات المهمة لشخصية سياسية مركزية في فترة الانتداب محمد عزت دروزة "مذكرات، 1887-1984" (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1993).

(3) أحد الأعمال القليلة التي تَعتَمد على التاريخ الشفوي لثورة 1936-1939 ورَد في
Ted Swedenburg, Memoires of Revolt: The 1936-1939 Rebellion and the Palestinian National Past (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1995).

صديقاً مقرَّباً من عيسى العيسى (الذي كان بالصدفة جدّ زوجتي) وكتَبَ مقالات عن مواضيع مثل التعليم والمكتبات والثقافة في صحيفة "فلسطين"[1]. من خلال معرِفَتي بعائلَتَيّ الخالدي والعيسى نَستَمِدُّ فَهماً للعلاقات الاجتماعية المُتكَررة بينهما، واحِدَةٌ مسلِمة والثانية من الأورثودكس اليونانيين. كان التَّواصل يَحدثُ بشكلٍ رئيسي في حديقة بيت جدّي في تلّ الرّيش في ضواحي يافا. ذُكِرَ في إحدى القصص أنه كان على الرَّجُلَين تحمّل زيارة طويلة ومملّة لِشَيخٍ مُحافِظٍ من المنطقة قَبل أن يَرجِعَا بعد مُغادَرَتِهِ إلى الشّرب معاً بحالةٍ أكثر بهجة واستمتاعاً[2]. والشاهِدُ هو أن الحاج راغب الذي كان شخصيةً دينية كان في الوقت نفسه جزءاً من دائرة زعماءِ المؤيِدِين للعَلمانية في فلسطين كَمَصدَر للهوية.

تُظهِرُ المراجعةُ السريعة للصحف والمذكّرات وغيرها من المَصادر التي أنتَجَها الفلسطينيون تاريخاً يصَفَع تلك الأساطير الشائعة عن الصراع التي تَرتَكِزُ على عدم وجودِهم أو على غياب وَعيهم الجَماعي. في الحقيقة، كثيراً ما يُنظَر إلى الهوية والوطنية الفلسطينية على أنها ليست أكثر من تَعبيرٍ حَديثٍ على معارضَةٍ غير مَعقولة (إن لم تُعتبَر مُتَعَصِّبَة) للحقّ اليهودي الوطني في تقرير المصير. غَيرَ أن الهوية الفلسطينية قد نشَأتْ كَرَدٍّ فِعلٍ على تحديات كثيرة مثلما نشَأت الصهيونية الصهيونية السياسية الحديثة وفي الوقت نفسه تقريباً. كان تهديد الصهيونية واحداً فقط من هذه التحديات مثلما كانت معاداة السامية عامِلاً واحداً فقط من العوامل التي غَذَّت الصهيونية. تُبَيِّنُ صُحُفٌ مِثلَ "فلسطين" و"الكرمل" أنّ هذه الهوية تَشملُ حُبَّ الوطن ورغبةً في تطوير المجتمع وارتباطاً دينياً بفلسطين ومُعارضَةً للسيطرة الأوروبية. ازدادَتْ قوةُ التَّركيز على فلسطين

---

(1) رشيد خالدي في "الهوية الفلسطينية" الفصل السادس، ص 119-44 يغطي مسألة التعامل مع الصهيونية في الصحافة العربية.

(2) سمعتُ قصصاً مماثلة من عمّتي فاطمة (مقابلة في بيروت 20 مارس 1981) ومن عمّ زوجتي وهو رجاء العيسى ابن عيسى العيسى الذي كان أيضاً محرر صحيفة (مقابلة في عمان 7 يوليو 1996).



عائلة الخالدي في تلّ الرّيش، 1930:
في الصف الأعلى من اليمين: اسماعيل (والد المؤلف)، يعقوب حسن (ممسكاً سميرة)، حسين (ممسكاً ليلى)، غالب. في الصف الأوسط: عنبرة، وليد، أم حسن (جدة المؤلف)، سلافة، حاج راغب (جد المؤلف)، نشأت، إكرام.
في الصف الأدنى: عادل، حاتم، راغب، خالد، ومعاوية

كنقطةٍ مَركزية للهوية بسبب الاستياء المنتَشر نتيجة إعاقة الآمال العربية في سورية وغيرها من أرجاء الشرق الأوسط التي أصبَحتْ الأحوال فيها خانِقة بِفعل سَيطرة القوى الاستعمارية الأوروبية. وهكذا يمكن مقارنة هذه الهوية بأمثالها في الدول الوطنية العربية الأخرى التي بَرَزَتْ في ذلك الوقت في سورية ولبنان والعراق.

وبالفعل، تطوَّر شعورٌ وطني حديث لدى سكان جميع الشعوب العربية المجاورة يشابه تماماً شعور الفلسطينيين، وحَدَثَ ذلك دون ضغط وتأثير من وجود الاستعمار الصهيوني عندهم. كان الشعور الوطني والقومي لدى الفلسطينيين وغيرهم من العرب حَداثياً وطارئاً مثلما حَدَثَ في الصهيونية كنتيجة للظروف

والأحوال في نهاية القَرن التاسع عشر والقَرن العشرين، ولم يكن شعوراً خالداً ثابتاً غير قابل للتغيير. عدم الاعتراف بهويةٍ فلسطينية حقيقية ومستقلة هو أمرٌ أساسي من وجهة نظر هرتسل الاستعمارية التي تدَّعي مزايا وفوائد الصهيونية للسكان المَحَليين ويشكّل هذا الإنكار عنصراً أساسياً في مَحو حقوقهم القومية الطبيعية ووطَنيتهم في وعد بلفور ونتائجِه.

بدأ الفلسطينيون في تنظيم أنفسهم سياسياً حالما تمكّنوا من ذلك في نهاية الحرب العالمية الأولى واعتَرضوا على الحُكم البريطاني وعلى فَرضِ الحركة الصهيونية كمُفاوِضٍ متَميّز للبريطانيين. شَمَلَتْ جهودُ الفلسطينيين تقديمَ عرائض للبريطانيين وإلى مؤتمر السلام في باريس وإلى مؤسسة عصبة الأمم الجديدة. لعل أكثر جهودهم وضوحاً كان سلسلةً من سبعة مؤتمرات عربية عن فلسطين نظَّمتها شبكةُ جمعياتٍ وطنية مسلمة-مسيحية عُقِدَتْ في الفترة بين 1919 إلى 1928. وَضَعَتْ هذه المؤتمرات سلسلةً متماسكة من المَطالب التي ركَّزت على استقلال فلسطين العربية ورَفضِ وعد بلفور وتأييد حُكم الأغلبية وإنهاء الهجرة اليهودية غير المَحدودة وشِراء الأراضي. شكّلت المؤتمرات إدارةً تنفيذية عربية اجتمَعتْ عدة مرات مع مسؤولين بريطانيين في القدس ولندن دون فائدة. كان حِواراً بين طرشان. رَفَضَ البريطانيون الاعتراف بسلطة تمثيل المؤتمرات أو بزعمائها وأصَرّوا على قَبول العرب لِوَعد بلفور وشروط الانتداب التي أيَّدَتْهُ كشرطٍ مَبدئي لأي حِوار، وكانت تعارِض مباشرة جميع مطالب العرب الأساسية. حاوَلَت القيادةُ الفلسطينية هذا السّعي القانوني غير المُجدِي لأكثر من عَقد ونصف من الزمن.

بالمقارنة مع هذه المُبادَرات التي قادَتها النّخبة، انفجَرَ استياءٌ شعبيٌّ من تأييد البريطانيين لأهداف الصهيونية تم التعبير عنه بشكل مظاهرات واضرابات وشَغَب، وتفجَّر العنف بشكل خاص في سنوات 1920، 1921، 1929. كانت كل مرحلة أكثر شدة من سابِقَتِها، وفي كل الحالات كانت هذه الانفجارات عفوية، وغالباً ما أثارَتها جماعاتٌ صهيونية أظهَرت قوّتها وعنفَها. قَمَعَ البريطانيون المظاهرات السلمية

واندفاعات العنف بقسوةٍ مماثلة ولكن الغضب والاستياء العربي ظلّ مستمراً. في بداية الثلاثينيات، اندَفَعت عناصر من الشباب المتعلِّم من الطبقات الدنيا والوسطى الذين فرغَ صَبرهم من مواقف النّخبة التّصالحية وقاموا بمبادَرات أكثر تطرّفاً ونظّموا جماعات أكثر تشدّداً وتسلّحاً شملَتْ شبكةً من النشطاء انتشَرت في مناطق شمال البلاد أنشأها داعيةٌ متجوّل من أصلٍ سوريّ اسمه الشيخ عز الدين القسّام الذي كان يُعِدُّ سِراً لثورة مسلحة، وكذلك حزب الاستقلال الذي يُلَخِّصُ اسمُهُ أهدافَهُ.

انطلقَتْ جميع هذه الجهود في البدء تحت ظلّ نظام عسكري بريطاني صارم استمر حتى سنة 1920 (عُقِدَ أحدُ المؤتمرات بدمشق لأن البريطانيين مَنعوا كل نشاط سياسي فلسطيني). واستمرت الجهود تحت حُكم عدد من المسؤولين البريطانيين السّامين وكان أوّلهم السير هيربرت صموئيل Sir Herbert Samuel الذي كان صهيونياً ملتَزِماً ووزيراً سابِقاً شارَكَ في وضع الأسس الحكومية لكثيرٍ مما حَدَثَ بَعدَه، كما ساهَم بقوة في تحقيق أهداف الصهيونية وإحباط جهود الفلسطينيين.

كان الفلسطينيون المتعلّمون يُدرِكون جيداً ما كان يَدعو إليه الصهاينة في الخارج وما كانوا يدعون إليه أتباعهم باللغة العبرية في فلسطين بأن الهجرة اليهودية غير المَحدودَة ستؤدي إلى أغلبية يهودية ستَسمح بالاستيلاء على البلاد. كانوا يَتبعون أفعالَ وأقوالَ زعماء الصهيونية من خلال التغطية الواسعة للحالَة في الصحف العربية منذ فترةٍ سبقَت الحرب بكثير[1]. فمثلاً، أخبَرَ حاييم وايزمان عدداً من زعماء العرب خلال مأدبة عشاء في القدس في مارس 1918 "أنْ يَحذَروا من التلميحات الغادِرة بأن الصهاينة يَسعون وراء السلطة السياسية"[2]، إلا أن أغلبهم

(1) يغطّي رشيد خالدي في كتابه "الهوية الفلسطينية" الفصل السادس ص 119-44 معالجة الصهيونية في الصحافة العربية.

(2) ورَدت في "Orientations" Storrs ص 341. سَرَد ستورز الخطاب خلال مأدبة عشاء أقيمت على شرف وايزمان وأعضاء اللجنة الصهيونية. كان من بين المدعوين المحافظ ومفتي القدس وعدد من الشخصيات الفلسطينية السياسية والدينية.

أدركَ أن هذه التأكيدات كانت استراتيجيةً تقصد إلى إخفاء الأهداف الصهيونية الحقيقية. وفي الحقيقة فقد أدركَ زعماءُ الحركة الصهيونية أنه "يجب عليهم ألا يَذكُروا أبداً في أي ظرف من الظروف أن تحقيق البرنامج الصهيوني يقتَضي طَرد العرب لأن ذلك سيؤدي إلى خسارة اليهود للتعاطف العالمي"، غَيرَ أن الفلسطينيين العارِفين لم يَنخَدِعوا بذلك[1].

أدركَ ذلك التهديدَ جيداً قرّاءُ الصحف وأعضاء النّخبة والقرويون وأهل المُدن الذين كانوا في احتكاكٍ مباشر مع المستوطِنين اليهود، إلا أن ذلك الإدراك لم يكن شاملاً، وكذلك لم يكن تطور الشعور بالهوية الفلسطينية متساوياً. فبينما طَالَبَ أغلبُ الناس باستقلال فلسطين فكَّر بعضُهم بأن ذلك الاستقلال يمكن أن يتحقّق كجزءٍ من دولة عربية أكبر. عبَّرتْ صحيفةٌ نُشرتْ لفترة وجيزة في القدس سنة 1919 عن هذا الأمل كما أفصَح عنه عنوانها: "سورية الجنوبية" أشرَفَ عليها عارف العارف وسياسيّ آخر هو محمد حسن البديري (وسرعان ما مَنعَ البريطانيون نَشرَها). أسست حكومة في دمشق برئاسة الأمير فيصل بن الشريف حسين سنة 1918 وكان أمل كثير من الفلسطينيين أن تُصبح بلادهم الجزء الجنوبي من هذه الدولة الناشئة، إلا أن فرنسا اقتطَعتْ سورية لنفسها على أساس اتفاقية سايكس-بيكو، واحتلَّتها القواتُ الفرنسية في يوليو 1920 وقضَت على الدولة العربية الوليدة[2]. انشغَلَت الدولُ العربية تحت ظِلِّ الانتداب أو أشكال أخرى من السيطرة الأوروبية المباشرة أو غير المباشرة، وانهمَكتْ في حَلِّ مشاكلها الذاتية الضيقة،

---

(1) Tom Segev, One Palestine, Complete (New York: Metropolitan Books, 2000), 404.

(2) أحد تناقضات هذه القضية وكثير غيرها من قضايا الاستعمار كانت كتائب المشاة الخمسة من الفرقة الفرنسية الرابعة والعشرين التي هَزَمَت القوات العربية في معركة ميسلون في 23 يوليو 1920 واحتلتْ دمشق في اليوم التالي كانت واحدةٌ منها فقط من فرنسا بينما كانت اثنتان من السنغال وواحدة جزائرية وواحدة من المغرب. تجنيد رعايا مستعمَرين بهذه الطريقة كان عنصراً أساسياً في التوسع الأمبريالي الأوروبي. هذه الطريقة في استراتيجية فرّق تسد كانت مهمة أيضاً في المشاريع الاستعمارية في إيرلندا وأمريكا الشمالية والهند وشمال وجنوب أفريقيا وفلسطين وبقية أرجاء الشرق الأوسط.

وأدركَ مزيد من الفلسطينيين أن عليهم الاعتماد على أنفسهم. ظَلَّت العروبة والانتماء إلى العالَم العربي الكبير دائماً قوية، إلا أن الهوية الفلسطينية كانت تترسَّخ باستمرار بسبب تحيّز بريطانيا في دعم المشروع الصهيوني.

كانت التّغيرات في بقية أرجاء الشرق الأوسط تَغمر منطقةً تراكَمتْ عليها أوجاعٌ مستمرة من الاضطرابات وعدم الاستقرار، فبَعدَ صراعٍ مرير مع احتلالِ قوى الحلفاء، ظهَرت نواةُ جمهورية تركية في الأناضول بدلاً من الامبراطورية العثمانية، بينما فشلَتْ بريطانيا في فَرضِ اتفاقية من طرف واحد على إيران وسَحَبَتْ منها جيوش الاحتلال سنة 1920. أسَّستْ فرنسا وجودها في سورية ولبنان بعد أن سَحَقَتْ دولةَ الأمير فيصل. قُمِعَتْ ثورةُ المصريين ضد حكامهم البريطانيين سنة 1919 بصعوبة بالغة على يد القوة الاستعمارية التي اضطرت أخيراً لمَنح المصريين استقلالاً مزيَّفاً سنة 1922. حَدَثَ أمرٌ مشابِهٌ في العراق حيث قامَتْ ثورةٌ عامة مسلَّحة سنة 1920 فَرَضَتْ على البريطانيين مَنحَها حُكماً ذاتياً تحت حُكمِ مَلك عربيّ هو المَلك فيصل نفسه الذي عاد الآن بصِفَتِهِ مَلكاً. خلال عَقد من الزمن بعد الحرب العالمية الأولى حَصَلَ الأتراك والإيرانيون والسوريون والمصريون والعراقيون على نوعٍ من الاستقلال الذي كان في الغالب مَحصوراً ومَحدوداً بشدّة. أما في فلسطين فقد تصرَّفَ البريطانيون وفقَ مجموعةٍ مختلفة من القوانين.

أصدَرتْ عصبةُ الأمم الجديدة سنة 1922 قرارَ الانتداب في فلسطين الذي أسَّس حُكم بريطانيا في البلاد. وقدَّم الانتدابُ هديةً غير عادية للحركة الصهيونية بإدراجِ نَصِّ كلمات وعد بلفور مع تضخيم التزاماته. تبدأ الوثيقة بالإشارة إلى المادة 22 لميثاق عصبة الأمم التي تَنُصُّ على أنه "في مجتمعاتٍ معيَّنة... يمكن الاعتراف المَبدئي ببعض الجماعات كأمم مستقلة"، وتابَعَ بتَقديم دعوة عالمية للتمسك بالتزامات وعد بلفور. النتيجةُ الواضحة لهذا التسلسل هو أن شعباً واحداً في فلسطين يمكن الاعتراف بحقوقه القومية: الشعب اليهودي، في تناقُضٍ تامٍّ مع كلّ صَكٍّ انتدابٍ آخر في جميع المناطق الأخرى في الشرق الأوسط حيث تَنطبق شروط

المادة 22 على مجموع السكان وتُشير في النهاية إلى السماح بنوعٍ من الاستقلال لهذه الدول.

ذُكِرَ الشعبُ اليهودي وحدَه في المقطَع الثالث من مقدمة صَكِّ الانتداب ووصِفَ بأن لديه علاقة تاريخية بفلسطين. وبالنسبة إلى كتّاب تلك الوثيقة فإن ظروف البلاد التي امتدَّت ألفَي سنة بقُراها ومقدّساتها وقِلاعها ومساجدها وكنائسها ونُصُبِها التذكارية التي ترجِع إلى العصور العثمانية والمملوكية والأيوبية والصليبية والعباسية والأموية والبيزنطية والعصور التي سَبقَتْ كل ذلك لا تَنتَمي إلى أيّ شعبٍ على الإطلاق، أو أنها تتعلَّقُ فقط بفئاتٍ دينية عديمة الشَّكل. لا شك بأنه كان هنالك أناسٌ موجودون غير أنهم بلا تاريخ ولا وجود مجتمعي ويمكن بالتالي تجَاهلهم. تَرجع جُذور ما أَطلَقَ عليه علماء الاجتماع الإسرائيلي مُصطَلح "الإبادة السياسية Politicide" للشعب الفلسطيني موجودَة بكل وضوح وجَلاء في مقدمة صَكِّ الانتداب. أضمَنُ طريقةٍ لاستئصال حقوق شعبٍ وحرمانِهِ من أرضِهِ هي إنكار ارتباطِهم التاريخي بها.

لا توجَدُ إشارةٌ أخرى إلى الفلسطينيين كشعب له حقوق قومية أو سياسية في أيّ من 28 مادة من مواد صَكِّ الانتداب، وفي الحقيقة فإن كلمة "عربي" أو "فلسطيني" لا تَرِدُ فيه مثلما هي الحالة كذلك في وعد بلفور، والحماية الوحيدة التي أُشيرَ إليها للغالبية العظمى من سكان فلسطين كانت تتعلق بالحقوق الفردية والدينية وحماية الوضع الحالي القائم في المواقع المقدَّسة. ومن الناحية الأخرى فقد وَضَعَ الانتدابُ الوسائل الرئيسية لتأسيس وتوسيع الوطن القومي للشعب اليهودي الذي لم تكن الحركة الصهيونية "تَخلُقُهُ" بل "تَستَعيدُهُ" حسب رأي مَن وَضَعَ نَصَّ وثيقة الانتداب.

خُصِّصَتْ سَبعٌ من 28 مادة في صَكِّ الانتداب للامتيازات والخدمات التي ستقدّم للحركة الصهيونية لتنفيذ سياسة الوطن القومي (تُشير بقية المواد إلى قضايا إدارية ودبلوماسية، وتَتعامل أطول المواد مع مسألة الآثار القديمة). تم تَعيينُ الحركة الصهيونية التي جسَّدَتها الوكالةُ اليهودية في فلسطين بصراحة ووضوح

كالممثّل الرسميّ لسكان البلاد من اليهود على الرغم من أنه قَبل الهجرة الكبيرة للصهاينة الأوروبيين المُلتَزمين كانت فئةُ اليهود تتألف بشكلٍ رئيسي إما من اليهود المتدينين أو من يهود "المزراحي" الذين لم يكونوا صَهاينة بل ربما كانوا معارضين للصهيونية. وبالطبع لم يكن هنالك أي تمثيل رَسمي للأغلبية العربية غير المَذكورة.

نصَّت المادة الثانية من وثيقة الانتداب على مؤسسات الإدارة الذاتية، إلا أن السياق يُشير بوضوح إلى أنها تَنطبق فقط على فئة اليشوف Yishuv وهو الاسم الذي كان يُعرَف به اليهود من سكان فلسطين بينما مُنِعَت الأغلبية من الفلسطينيين بإصرارٍ من دخول هذه المؤسسات (جميع التنازلات التي قُدِّمَتْ فيما بَعد فيما يتعلق بقضايا التَّمثيل، مثل الاقتراح البريطاني بتشكيل وَكالة عربية، كانت مَشروطة دائماً بالتمثيل المتساوي للأقليّة الصغيرة مع الأغلبية الكبيرة وبقبول الفلسطينيين شروط الانتداب التي تَنفي وجودهم بكل وضوح، وكان ذلك هو أول تناقُضٍ يَجِدُ فيه الفلسطينيون أنفسَهم في شِراكِه). أما المؤسسات التمثيلية لجميع سكان البلاد على أساسٍ ديموقراطي وبسُلطَةٍ فِعلية فَلَمْ تُطرَحْ أبداً (في التزامٍ بالتعهد الخاص الذي قدَّمَهُ لويد جورج إلى وايزمان)، وذلك لأن الأغلبية الفلسطينية ستُصَوِّتُ بالطبع لإنهاء الوَضع المتَميز الذي تتمتَع به الحركةُ الصهيونية في بلادهم.

أحَدُ النصوص الأساسية في صَكِّ الانتداب هو المادة الرابعة التي مَنحَت الوكالة الصهيونية صلاحيات شبه حكومية بصِفتها "مؤسسة أهلية" ذات سلطات واسعة في الدوائر الاقتصادية والاجتماعية والقدرة على "المساعدَة والمشارَكة في تطوير الدولة" بشكلٍ عام.

سَمَحَ هذا النَّص للوكالة الصهيونية بأن تكون شريكةً لحكومة الانتداب ومَنَحَها وضعيةً دبلوماسية دولية وأن تُمَثِّلَ رسمياً مصالح الصهاينة أمام عصبة الأمم وغيرها. كان مِثلُ ذلك التمثيل عادةً امتيازاً للسيادة، واستغلَّت الحركةُ الصهيونية ذلك بشكل كبير لدعم مكانَتها العالمية وللتصرف كشُبهِ دَولة. ومرة

ثانية، لم تُمنَح الأغلبية الفلسطينية مثل هذه السُلطات على مدى ثلاثين عاماً من الانتداب على الرغم من المطالَبة بذلك مراراً.

فَوضَت المادةُ السادسة سُلطةَ الانتداب لتسهيل الهجرة اليهودية وتَشجيع "تأسيس اليهود للمستعمرات في البلاد"، وكان هذا نَصّاً مهماً جداً بالنظر لأهميةِ ديموغرافيةِ السكان والسيطرة على الأرض على مدى الصراع بين الصهيونية والفلسطينيين خلال القَرن التالي. كان هذا البَند الأساس الذي استَند عليه النمو الكبير في عَدد اليهود والاستيلاء على مواقِع استراتيجية من الأراضي التي سمَحتْ بالسيطرة على العَمود الفقري للبلاد على طول الساحل وفي شرق الجليل والوادي الخصب الكبير في مَرج ابن عامر الذي يَصِلُ بينها.

نصَّت المادة السابعة على قانون الجنسية الذي سَهَّلَ لليهود الحصول على الجنسية الفلسطينية، واستُخدِم هذا القانون نفسه لمَنع الجنسية عن الفلسطينيين الذين هاجَروا إلى الأمريكيتين في الفترة العثمانية وأرادوا العودة إلى وطنهم[1]. وهكذا تمكَّن المهاجرون اليهود من الحصول على الجنسية الفلسطينية بغضّ النظر عن أصولهم بينما حُرِمَ الفلسطينيون العرب الذي كانوا خارج البلاد عندما سيطَرَ عليها البريطانيون من الحصول على الجنسية. وأخيراً، مَكَّنَتْ مواد أخرى في نَصِّ الانتداب الوكالةَ اليهودية من السيطرة أو من تأسيس هيئات عامة إذ سَمَحَتْ لكل طائفة الاحتفاظ بمدارس تُعَلِّمُ بِلُغَتِها وهذا يعني سيطرة الوكالة اليهودية على كثيرٍ من المدارس اليهودية المَحَلية وجَعَلَت اللغةَ العبرية لغةً رسمية في البلاد.

باختصار، سَمَحَ الانتدابُ بِخَلقِ إدارةٍ صهيونية موازية لحكومة الانتداب البريطانية التي كانت مفوَّضَة بدعمِها. كان الهدف من هذه الإدارة الموازية مَنحَ جزء معيَّن من السكان وظائف كثيرة من أدوارِ دولةٍ ذات سيادة بما في ذلك التمثيل

(1) هناك مقالتَين ممتازتَين في Journal of Palestinian Studies 46, no. 2 (Winter 2017) عن هذا الموضوع: Lauren Banko, "Claiming Identities in Palestine: Migration and Nationality Under the Mandate", 26-43. وكذلك Nadim Bawalsa, "Legislating Exclusion: Palestinian Migrants and Interwar Citizenship" 44-56.

الـديموقراطي والسـيطَرة علـى التعلـيم والصـحة والأشـغال العامـة والدبلوماسـية الدولية. لـم يَنقُص هذه الإدارةَ سوى القوة العسكرية التي كانت ستأتي مع الوقت.

لكي نفهَم تماماً أبعادَ قوة تدمير الانتداب للفلسطينيين يَحسُنُ الرجوع إلى المـادة 22 من ميثاق عصبة الأمـم وقـراءة ملاحظَة سرّية كتبَها اللـورد بلفـور في سبتمبر 1919. اعترفَتْ المادة 22 "مبدئيـاً" بالنسبة للمناطق التي كانـت سابقـاً جزءاً من الامبراطوريـة العثمانية على أنهـا "موجـودة كشـعوب مسـتقلة". تَرجِعُ خَلفيـة هـذه المـادة فيمـا يتعلـق بالشرق الأوسـط إلـى وجـود وعـودٍ بريطانيـة متكـرّرة باسـتقلال "جميـع" العـرب الـذين كـانوا تحـت السـيطرة العثمانيـة خـلال الحـرب العالميـة الأولـى مقابـل تعـاونهم ضـدّ العثمـانيين، بالإضـافة إلـى حـقّ تقريـر المصـير الـذي أعلَنَـهُ الـرئيسُ الأمريكـي وودرو ويلسون. وبالفعل فقد حصَلَتْ جميع المناطق الأخرى التي كانـت تحـت الانتـداب في الشرق الأوسط على استقلالها (على الرغم من أن قوى الانتـداب البريطانيـة والفرنسـية تلاعَبَتْ بالقوانين للاحتفاظ بأقصى درجة من السيطَرة لأطول فترة ممكِنة).

حُرِمَ الفلسطينيون فقط من هذه الامتيازات في حين حَصَـلَ السـكانُ اليهـود في فلسطين على مؤسسات تمثيلية وتقدَّموا نحو الحُكم الذاتي مستَفيدِين بشـكل مميَّـز من المادة 22 من الميثاق. أصَرَّ المسؤولون البريطانيون بطُرُقٍ عنيدة غيـر بريئـة مـدة عقود على أنّ فلسطين قد استُثنِيَتْ من وعود الاسـتقلال التـي مُنِحَـتْ للعـرب أثنـاء الحرب. إلا أنه عندما نُشِرت اقتباسات ذات صِلة من مراسلات حسين-ماكماهون لأول مرة سنة 1938 اضطرَّت الحكومة البريطانية للاعتراف بأن اللغـة التـي صِيغتْ بها كانت غامضة على أقلّ تقدير[1].

(1) كـان George Antonius, in The Arab Awakening (London: Hamish Hamilton, 1938) أول مَن نَشَرَ تفاصيل الوعود البريطانية للعرب أثناء الحرب ونَشَر الوثـائق التـي ورَدت فيهـا. أحـرَج ذلك الحكومة البريطانية واضطرها لنَشر كامل نَصّ المراسلات في

Great Britain, Parliamentary Papers, Cmd. 5674, Report of a Committee Set Up to Consider Certain Correspondence Between Sir Henry McMahon (His Majesty's High Commissioner in Egypt) and the Sharif of Mecca in 1915 and 1916 (London, His Majesty's Stationery Office, 1939).

كما رأينا، كان اللورد أرثر بلفور وزير خارجية بريطانيا أحد المسؤولين الذين شارَكوا بعمقٍ في حرمان الفلسطينيين من حقوقهم، وكان نبيلاً عالَمياً مختلِفاً ورئيسَ وزراءٍ سابق وقريباً من اللورد ساليزبوري Lord Salisbury رئيسَ الوزراء من حزب المحافِظين الذي استمرّ طويلاً في ذلك المَنصب، كما كان قد خَدَمَ مدة خمس سنوات بصفته الممثل الرئيسي لبريطانيا في إيرلندا التي كانت أقدَم مستعمرات الامبراطورية حيث كان مَكروهاً جِدّاً وحَصَلَ على لَقب "بلفور الدموي"[1]. ومن المفارَقة أن حكومَته كانت هي التي أصدَرت قانون الأجانب لسنة 1905 الذي كان مَعنياً بشكلٍ رئيسي بإقصاء اليهود الهاربين من مَذابح روسيا القيصرية بعيداً عن بريطانيا. كان معروفاً بسخريَته إلا أنه آمَن ببعض المعتقَدات وكان منها فائدةُ الصهيونية للامبراطورية البريطانية واستقامَتها الأخلاقية، وكانت تلك قضيةٌ جَنَّدَهُ فيها حاييم وايزمان. على الرغم من هذا المعتقَد إلا أن بلفور كان واعياً بنتائج تصرفات حكومَته التي فَضَّلَ آخرون الإدعاء بعدم وجودها.

في ملاحظةٍ سريّة في سبتمبر سنة 1919 (لم تُعرَف عَلناً إلا بعد نَشرها بَعد أكثر من ثلاثة عقود في مجموعةٍ وثائق عن الفترة بين الحربَين[2]) شَرَحَ بلفور للوزراء في تحليله التعقيدات التي خلقَتْها بريطانيا لنفسِها في الشرق الأوسط بسبب وعودِها المتناقضة. كان بلفور لاذِعاً فيما يتعلق بوعود الحلفاء الكثيرة المتناقِضة، بما فيها الوعود الموجودة في مراسَلات حسين-ماكماهون واتفاقية سايكس-بيكو وميثاق عصبة الأمم. بعد أن لَخَّصَ تشوشَّ السياسة البريطانية في سورية وما بين النهرَين، قَيَّمَ الوضعَ في فلسطين بصراحة:

---

(1) حصَلَ بلفور على المنصب العالي في إيرلندا بفضل علاقة عائلته مع رئيس الوزراء روبرت سيسل Robert Cecil لورد ساليزبوري ومن هنا جاء التعبير الشعبي "بوب هو عمّك".

(2) E. L. Woodward and R. Butler, eds., Documents on British Foreign Policy, 1919-1939, fist series, 1919-1929 (London: Her Majesty's Stationery Office, 1952), 340-48.

"التناقضُ بين الميثاق وسياسة الحلفاء أكثرُ فظاعةً بالنسبة لحالة "الدولة المستقلة" في فلسطين من حالة "الدولة المستقلة" في سورية. لم نَقتَرِح في فلسطين اتّباع شكلٍ من أشكال استطلاع رأي ورغبات السكان الحَاليين... بل التَزَمَت القوى العظمى الأربع بالصهيونية. والصهيونية سواء كانت على حَقّ أو على خَطأ وسواء كانت جيدة أم سيئة إلا أنها متأصِّلة بتقاليد عميقة الجذور وبمصالِح معاصِرة وبآمال في المستقبل ذات آثار أكثر أهمية بكثير من رغبات وآراء ومواقف 700.000 عربي يعيشون الآن في تلك الأرض القديمة. وهذا صحيحٌ في رأيي. الأمر الذي لم أتمكّن أبداً من فهمِه هو كيف يمكن انسجامُهُ مع التصريح أو الميثاق أو مع تعليمات لجنة الاستقصاء.

لا أعتقدُ بأن الصهيونيةَ ستؤذي العربَ إلا أنهم لن يَعترفوا أبداً بأنهم يريدونها. مهما كان مستقبل فلسطين فإنها الآن ليست "أمة مستقلة" وليست في طريقها لكي تصبح كذلك. ومهما كان الاهتمام الذي يجب مَنحه لوجهات نظر وآراء الناس الذين يعيشون هناك، إلا أنني حسبما فهمتُ فإن القوى العظمى عند اختيارِهم لتفويضٍ ما فإنهم لا يَقترحون استِشارتهم. باختصار، بالنسبة للفلسطينيين لم تُصدِر القوى العظمى أي إعلان حَقائق، وذلك ما لا أعتَقد بخطئه، ولم تُصدِر إعلان سياسة ولا بشكلِ صيغةٍ أولية سيلتزِمون بها ولم يُريدوا دائماً انتهاكها".

بهذا الملخَّص المتوحش في صراحَته، وَضَعَ بلفور التصورات العامة "للتقاليد الوطيدة" و"المصالح الحالية" و"الآمال المستقبلية" المتَضَمَّنَة في الصهيونية ضد "آمال وآراء" العرب في فلسطين "الذين يعيشون الآن في تلك الأرض القديمة"، مما يعني أن سكانها المَحَليين ليسوا أكثر من عابرين مؤقتين. كرَّر بلفور ما ذَكَرَهُ هرتسل في ادعاءاته بأن الصهيونية لن تؤذي العرب ومع ذلك لم تكن لديه مشكلة أخلاقية في الاعتراف بالخِداع الذي اتَّسمت به السياسةُ البريطانية وسياسةُ الحلفاء في

فلسطين، إلا أن ذلك لم يكن مهمّاً. كانت بقية المذكّرة مجموعة عامة من المقترَحات عن كيفية التغلب على العقبات التي خَلَقَها ذلك التشابك من النّفاق والالتزامات المتَناقضة. النقطتان الثابتتان الوحيدتان في ملخّص بلفور كانتا القلق بشأن مَصالح بريطانيا الأمبريالية والالتزام بمَنح فُرَصٍ للحركة الصهيونية. كانت دوافِعُهُ منسَجِمَةً مع دوافع أغلب المسؤولين البريطانيين الكبار في صياغة سياسةٍ فلسطينية ولم يكن أي منهم صريحاً مثله بشأن نتائج تصرفاتهم.

ما الذي فَعَلَتْهُ لِعَربِ فلسطين هذه الوعود المتناقِضَة التي أصدَرها البريطانيون والحلفاء وما فَعَلَه نظامُ الانتداب الذي تمت صياغَتُهُ بشكل مناسب لاحتياجات المشروع الصهيوني في الفترة ما بين الحربَين؟ عامَلَ البريطانيون الفلسطينيين بالازدراء والتنازل ذاته الذي تعامَلوا به مع رعاياهم من الشعوب الأخرى من هونغ كونغ إلى جامايكا. شَغَلَ المسؤولون البريطانيون وحدَهم المناصبَ العليا في حكومة الانتداب ومَنعوا عنها المؤهَلين من العرب[1]. راقَبوا الصحف ومَنعوا النشاط السياسي عندما أزعجَهم، وأقاموا إدارةً بخيلة شَحيحة بالنظر إلى التزاماتهم. ومثلما فَعلوا في مصر والهند لم يفعلوا شيئاً لتطوير التعليم لأن الحِكمة الاستعمارية التقليدية اقتضَت أن التعليم يُنتِجُ "سكاناً مَحَليين" لا يَعرفون مكانَهم الصحيح. السّجلات المباشرة في تلك الفترة مفعَمة بمواقف وحالات تعصّب عِرقي للمسؤولين الاستعماريين تجاه من كانوا يَعتبرونهم أقلّ شأناً حتى لو كانوا يتعاملون مع مِهنيين محترفين عارفين ممن تحدّثوا بلغة انكليزية سليمة.

اختلفَت المُمارسة في فلسطين عن غيرها لدى معظم الشعوب المستعمَرة الأخرى في تلك الفترة بأن الانتداب جَلَبَ عليها تدفّقاً من المستوطِنين الأجانب

(1) كانت حالة جورج أنطونيوس واحدة من حالات كثيرة في هذه المسألة. تعلّم في جامعة كامبريدج وكانت مؤهلاته واضحة إلا أنه تم تجاوزه دائماً في المناصب العليا في إدارة الانتداب مفضّلين عليه مسؤولين بريطانيين متواضعين. انظر أيضاً Susan Boyle, Betrayal of Palestine: The Story of George Antonius (Boulder, CO: Westview, 2001) وكذلك Sahar Hundeidi, A Broken Trust: Sir Herbert Samuel Zionism, and the Palestinians (London: I. B. Tauris, 2001), 2.

الذين كانت مهمّتهم ورسالتهم هي الاستيلاء على البلاد. خلال السنوات الحَرِجَة من 1917 إلى 1939 تدعَّمَت الهجرة اليهودية "واستيلاء اليهود على الأراضي" بفضل الانتداب وتَسارعَت إلى الأمام. نَشِطَت المستوطنات التي أسَّستها الحركة الصهيونية على طول ساحل فلسطين وغيره من المناطق الخصبة والاستراتيجية وعَمِلَتْ على ترسيخ السيطرة على مناطقَ من الأرض استخدَمتْها كرؤوس جسور للسيطرة على البلاد واحتلالها في النهاية حالما يختلّ التوازن السكاني والاقتصادي والعسكري لدرجة كافية في صالح اليهود المَحَليين[1]. باختصار، تضاعَفَ تَعداد اليهود ثلاث مرات كنسبة من عدد السكان الكلي وارتفع من حوالي 6٪ في نهاية الحرب العالمية الأولى إلى حوالي 18٪ في سنة 1926.

وعلى الرغم من قدرة الحركة الصهيونية غير العادية في تحريك وتوظيف رأس المال في فلسطين (بلغَ تدفّق رأس المال إلى الاقتصاد اليهودي المتزايد في استقلاله خلال العشرينيات 41.5٪ أكثر من انتاجه الصافي المَحَلي، وهو مستوى مدهش الارتفاع)[2] إلا أن عدد السكان اليهود بين سنة 1926 وسنة 1932 توقَّفَ عن النمو كنسبة من عدد السكان الكلّي في فلسطين واستقر في حوالي 17٪ إلى 18.5٪)[3]. تتوافق بعض هذه السنوات مع الكساد الاقتصادي العالمي عندما أصبَحَت الهجرة اليهودية الخارجة من فلسطين أكبر من الدَّاخِلة إليها وانخفضَ خلالها تدفّق رأس المال بشكل كبير. في تلك الفترة ظَهَر كأن المشروع الصهيوني يمكن ألا يتوصَّل إلى الكثافة السكانية الكافية التي تجعل من فلسطين "يهودية مثلما أن بريطانيا انكليزية" كما قال وايزمان[4].

---

(1) Stein, The Land Question in Palestine, 210-11.

(2) Zeev Sternhell, The Founding Myths of Israel, 217. حسب ستيرنهيل فإن نسبة تدفق رأس المال إلى صافي الانتاج المَحَلي "لم تنخفض إلى أقل من 33٪ خلال أية سنة من سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية".

(3) يمكن الحصول على أعداد السكان في W. Khalidi, ed., From Haven to Conquest, Appendix 1, 842-43.

(4) في كلمة إلى اتحاد البريطانيين اليهود في 19 سبتمبر 1919 ورَدت في Nur Masalha, Expulsion of the Palestinians: The concept of "Transfer" in Zionist Political Thought, 1882-1948 (Washington, DC: Institute for Palestine Studies, 1992), 41.

تغيَّر كل شيء سنة 1933 مع وصول النازيين إلى السُلطة في ألمانيا حيث بدؤوا فوراً باضطهاد اليهود وطَرد مجتمعاتهم المستقرة هناك، ومع وجود قوانين الهجرة العنصرية في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة ودول غيرها لم يكن أمام اليهود الألمان مكان للجوء إليه سوى فلسطين. ثَبتَ أن وصول هتلر إلى السلطة كان واحداً من أهمّ الأحداث في التاريخ الحديث بالنسبة لفلسطين وللصهيونية. في سنة 1935 وحدَها جاء أكثر من ستين ألف مهاجر يهودي إلى فلسطين، وكان هذا العدد أكبر من جميع عدد السكان اليهود في فلسطين سنة 1917. جاء أغلب هؤلاء اللاجئين من ألمانيا، وجاء بعضهم من البلاد المجاورة لها حيث كانت معاداة السامية واضطهاد اليهود تزداد شدّة، وكان أغلبهم محترفين ماهرين ومتعلمين. سُمِحَ لليهود الألمان بجَلبِ ممتلكاتٍ بلغَتْ قيمتها حوالي مئة مليون دولار، ويرجع الفضل في ذلك إلى اتفاقية هجرة بين الحكومة النازية والحركة الصهيونية تم التوصل إليها مقابل رفع حَظرٍ يهودي على ألمانيا[1].

تفوَّقَ الاقتصادُ اليهودي في فلسطين على القطاع العربي لأول مرة في الثلاثينيات، وارتفع عدد السكان اليهود إلى أكثر من 30٪ من عدد السكان الكلّي سنة 1939. بالنظر إلى النمو الاقتصادي الكبير وهذه الزيادة الكبيرة في عدد السكان اليهود خلال سبع سنوات فقط بالإضافة إلى توسّع كبير في القدرات العسكرية للحركة الصهيونية أصبح واضحاً لزعمائها أن النواة السكانية والاقتصادية والمَناطِقية والعسكرية اللازمة للوصول إلى السيطرة على كامل البلاد أو على معظمها ستتحقّق قريباً، وكما وصَفَها بن غوريون آنذاك: "الهجرة بمعدل 60.000 كل سنة تعني دولة يهودية في كل فلسطين"[2]. توصَّل كثيرٌ من الفلسطينيين إلى الاستنتاج ذاته.

---

(1) Edwin Black, The Transfer Agreement: The Untold Story of the Secret Agreement Between the Third Reich and Jewish Palestine (New York: Macmillan, 1984).

(2) ورَدت في مذكراته الكاشِفة وذُكِرتْ في
Shabtai Teveth, Ben Gurion and the Palestine Arabs: From Peace to War (New York: Oxford University Press, 1985), 166-68.

وجَدَ الفلسطينيون أنفسهم أنهم لا محالةَ سيُصبحون غرباء في بلادهم كما حذَّرَهم عيسى العيسى بلهجة مُنذِرة سنة 1929. خلال السنوات العشرين الأولى من الاحتلال البريطاني عَبَّرَ الفلسطينيون عن مقاومتهم المتزايدة ضد السيطرة النامية للحركة الصهيونية بشكل انفجارات متكرّرة من العنف حَدَثَتْ على الرغم من التزام القيادات الفلسطينية للبريطانيين بضبط أتباعها. حدثَتْ هجماتٌ متفرقة في الأرياف وصَفَها البريطانيون والصهاينة عادةً بهجوم "العصابات" عبَّرَتْ عن الغضب الشعبي من شراء الصهاينة للأراضي الذي أدّى غالباً إلى طَرد الفلاحين من أراضيهم التي اعتَبروها مُلكَهم وكانت مَصدَرَ رِزقِهم. أما في المُدن فكانت المظاهرات ضد حُكم البريطانيين وتوسّع الصهيونية وسلطتها الموازية للدولة وعسكريتها المتزايدة في أوائل الثلاثينيات.

حاول زعماء النخبة السيطرة على الأحداث بتنظيم مؤتمر إسلامي عام بينما أرسَلوا عدة وفود إلى لندن وحاولوا تنسيق جهودٍ مختلفة للتعبير عن الاعتراض. إلا أن هؤلاء الزعماء لم يرغَبوا بمواجهة البريطانيين صراحةً وصَمَدوا أمام دعوات الفلسطينيين من أجل مقاطعةٍ تامة للسلطات البريطانية والامتناع عن دفع الضرائب. لم يتمكّنوا من رؤية أن جهودهم الدبلوماسية الخائفة الخجولة لن تتمكّن من إقناع الحكومة البريطانية للتّخلي عن التزامها للصهيونية أو الاستجابة للمطالب الفلسطينية.

وبالنتيجة، فشلتْ جهود الزعماء في وقف تقدّم المشروع الصهيوني ولا بتطوير القضية الفلسطينية بأية طريقة. وعلى كل حال فقد اضطرتْ حكوماتٌ بريطانية مختلفة لإعادة النظر لسياساتهم في فلسطين استجابةً للاستياء الفلسطيني المتزايد، خاصة بعد تفجّر اضطرابات عنيفة. كانت النتيجة إرسال عَددٍ من لجان استقصاءٍ مختلفة وإصدار أوراق بيضاء شملتْ لجنة هيوارد Hayward Commission سنة 1929، وورقة تشرشل البيضاء Churchill White Paper سنة 1922، ولجنة شو Shaw Commission سنة 1920، وتقرير هوب–سيمبسون Hope-Simpson Report سنة 1930، وورقة باسفيلد البيضاء

Passfield White Paper سنة 1930، ولجنة بيل Peel Commission سنة 1937، ولجنة وودهيد Woodhead Commission سنة 1938. إلا أن هذه السياسات الوَرَقية لم تقترح سوى إجراءات محدودَة لتَهدئة الفلسطينيين (غَيَّرت الحكومةُ في لندن معظَمَها بضغطٍ من الصهاينة)، أو أنها اقترحتْ إجراءات زادَتْ من شعورِهم العميق بالظلم. كانت النتيجةُ النهائية انفجاراً عنيفاً غير مَسبوق انتشَر في كافة أرجاء فلسطين بدءاً من سنة 1936.

ازداد استياء الفلسطينيين من عدم جدوى استجابة زعمائهم غير المؤثّرة على مَدى أكثر من خمس عشرة سنة من المؤتمرات والمظاهرات والاجتماعات العَبَثية مع مسؤولين بريطانيين متصلّبين وأدّى كل ذلك في النهاية إلى ثورة شعبية عارِمة بدأتْ بستة أشهر من الاضراب العام وهو الأطول في تاريخ الاستعمار. بدأ الإضرابَ عفوياً جماعات من النشطاء الشباب من الطَّبَقة المتوسطة من أهل المُدن (كان كثير منهم أعضاء في حزب الاستقلال) في كافة أنحاء البلاد. تطور الإضراب إلى الثورة الكبرى في 1936–1939 التي كانت الحَدَث الأهم في الفترة ما بين الحربَين في فلسطين.

خلال عَقدَين من الزمن بعد سنة 1917 لم يتمكّن الفلسطينيون من تطوير شبكة قائدة لحركتهم الوطنية مثل حزب الوَفد في مصر أو حزب المؤتمر في الهند أو الشين فين في إيرلندا، كما أنهم لم يتمكّنوا من الاحتفاظ بجبهةٍ وطنية قوية مثلما فعَلتْ شعوب أخرى كانت تُناضِل ضد الاستعمار. أضعَفتْ جهودَهم طبيعةُ المجتمع الفلسطيني الهَرَميّ التَّكوين والمحافِظ الاتجاه والمنقَسم على نفسه في سياساته وصِفاته مثل كثير من مجتمعات المنطقة، وزادَتْ من استِنزافِه السياسةُ المتطورة من اسلوب فَرِّقْ تَسُدْ التي طبَّقتْها سلطاتُ الانتداب وساعدَتها فيه الوكالةُ اليهودية وحَرَّضَتْها عليه. ربما وصَلتْ هذه الاستراتيجية الاستعمارية إلى أقصى كمالها في فلسطين بعد مئات السنين من النضج في إيرلندا والهند ومصر.

شَملتْ وسائلُ السياسة البريطانية في تقسيم الفلسطينيين تشجيعَ الصدامات بين زعمائهم ووضع أفرادٍ من العائلة نفسها ضد بعضهم بعضاً مثلما حَدَثَ مع

عائلة الحسيني، واختراع شبكة كاملة من "المؤسسات التقليدية" لخدمة أهدافهم. مثالٌ على تلك الاختراعات البريطانية كان منصب مفتي عموم فلسطين (تقليدياً، كان هنالك أربعة مُفتِين في القدس وليس واحداً لجميع فلسطين بل واحدٌ لِكلّ مذهَب من الحنفيين والشافعيين والمالكيين والحنابلة)، وكذلك المجلس الإسلامي الأعلى لإدارة شؤون المسلمين. عَيَّنَ البريطانيون الحاج أمين الحسيني في منصب المُفتي العام ورئيس المجلس بعدما وَعَدَ السير هربرت صموئيل خلال نوعٍ من مقابلة العمل بأنه سيضمَن حِفظَ النظام (وذلك ما فَعلَهُ على مدى خمس عشرة سنة)[1]. ساعَدَ تَعيينُهُ في أمرَين: كان الأول هو صنع هيكلِ قيادةٍ بديلة عن اللجنة التنفيذية الوطنية المنبَثِقة عن المؤتمرات الفلسطينية والتي كان يرأسها موسى كاظم باشا الحسيني ابن عمّ المُفتي، وأدى ذلك أيضاً إلى خَلقِ احتكاكٍ بينهما. وكان الأمر الثاني هو ترسيخ فكرة أن السكان العرب في فلسطين لم يكن لهم طبيعة وطنية أو قومية بل كانوا جماعات دينية فقط، إلى جانب اليهود أصحاب السِّمات القومية. قصدتْ هذه الإجراءاتُ إلى تشتيتِ انتباه الفلسطينيين من المُطالَبة بمؤسسات ديموقراطية تمثيلية وطنية وإلى تقسيم الحركة الوطنية ولمَنع تشكيلِ بديلٍ وطني موحَّد عن الانتداب ومهمّته الصهيونية[2].

علَى الرغم من أن أساليب فَرِّقْ تَسُدْ كانت ناجحة إلى حَدٍّ بعيد حتى منتصف الثلاثينيات، إلا أن الإضراب العام سنة 1936 كان ثورةً شعبية عفوية من القاع إلى القمة فاجَأت البريطانيين والصهاينة ونخبة زعماء الفلسطينيين وأجبَرَتْهم على تجاوز خلافاتهم وانقساماتهم ظاهرياً على الأقل. كانت النتيجة تشكيل اللجنة العربية العليا التي أُسِّسَتْ لقيادةِ وتمثيل الغالبية العربية جميعها على الرغم من أن البريطانيين لم يَعترفوا بها مطلقاً كممثّلة للفلسطينيين. تألّفت اللجنة من الرجال

(1) تفاصيل أكثر موجودة في كتاب رشيد خالدي "القفص الحديدي" ص 54-62. ذُكرتْ "مقابلة للعمل" في ص 59-60.

(2) كيف فَعلَ البريطانيون ذلك هو الموضوع الرئيسي للفصل الثاني من كتاب "القفص الحديدي" ص 31-64.

وجميع الشخصيات المهمّة ووضِعَ جميع أفراد النّخبة الفلسطينية تحت تصرفها بمن فيهم ملاك الأراضي والتجار. حاولَت اللجنة العربية العليا قيادةَ الإضراب العام ولكن لسوء الحظّ كان أهمّ منجَزاتها هو التّوسط لإنهائِهِ في خريف سنة 1936 بطَلَبٍ من عددٍ من الحكّام العرب الذين كانوا يتصرفون وفق أوامر أسيادهم البريطانيين. وَعَدوا القيادةَ الفلسطينية أن البريطانيين سيتَداركون إصلاحَ تظلّماتهم وشَكواهم.

ظهَرت النتيجةُ المخيّبة للآمال في يوليو 1937 عندما أوكِلَتْ مهمة استقصاء الاضطرابات في فلسطين إلى لجنة مَلَكية برئاسة اللورد بيل Lord Peel واقترَحَتْ تقسيم البلاد إلى دولة يهودية في حوالي 17٪ من المناطق سيُطرَد منها أكثر من مئتي ألف عربي (تم تلطيف مصطلح "الطّرد" إلى مصطلح "الانتقال")، وحسب مخطط التقسيم هذا تَظَلُّ بقية مناطق الدولة تحت السيطرة البريطانية أو تُسَلَّمُ إلى عَميل بريطانيا في المنطقة شرق الأردن الأمير عبد الله الذي كان يَعني الأمرَ نفسه بالنسبة للفلسطينيين. ومرةً أخرى تم التعامل مع الفلسطينيين وكأنما ليس لهم وجودٌ وطني ولا حقوقٌ مشتركة عامة.

حقَّقَ تقريرُ لجنة بيل الأهدافَ الصهيونية الأساسية بالدولة اليهودية والتّخلص من الفلسطينيين على الرغم من أن ذلك لم يَشمل كافة مناطق فلسطين، كما أن التقرير لم يَعتَرف بحق الفلسطينيين في تقرير المصير مما دفعَهم إلى مرحلةٍ أكثر نضالاً وعنفاً في ثورتهم. عمَّت الثورة المسلحة أرجاء البلاد في أكتوبر 1937 ولم يمكن السيطرة عليها إلا بعد ذلك بسنتَين باستخدام القوة المُفرِطة وفي الوقت المناسب لتَحريك الوحدات البريطانية للقتال في الحرب العالمية الثانية (إذ بلَغَ عدد القوات البريطانية في فلسطين مئة ألف جندي، أي واحد من كل أربعة رجال في فلسطين آنذاك). حقّقت الثورةُ نجاحات مؤقّتة باهرة إلا أنها انتهتْ إلى نتائج بائسة بالنسبة للفلسطينيين.

بين كل الخدمات التي قدَّمتْها بريطانيا للحركة الصهيونية قَبل سنة 1939 ربما كان أكثرها فائدة هو القَمع العسكري لمقاومة الثورة الفلسطينية. قضَت الحربُ

الدموية التي شُنَّت ضد الأغلبية في البلاد على 10٪ من الرجال العرب البالغين بين قتيلٍ أو جريح أو مسجون أو مَنفي[1]. كان ذلك أفضل تصوير للحقيقة الصريحة التي عَبَّرَ عنها جابوتنسكي بضرورة استخدام القوة لكي يَنجحَ المشروع الصهيوني. جَلَبَت الامبراطورية البريطانية من أجل قَمع التمرد فرقَتَين إضافيتَين من المشاة وأسراباً من القاذفات وجميع أدوات القَمع التي أتقَنَتْها على مدى عقود من الحروب الاستعمارية[2].

امتدّ تطوّر القسوة والعنف المستخدَم إلى ما هو أكثر من الإعدامات بدون محاكَمة، فمثلاً تم إعدام الشيخ فرحان السعدي سنة 1937 وكان زعيماً في الواحدة والثمانين من عمره بسبب امتلاكه لطلقة واحدة من الرصاص. كانت الأحكام العُرفية سارية آنذاك وكان امتلاكُ طلقة رصاص واحدة كافياً للحكم بالإعدام خاصة بالنسبة لمقاتلٍ صَلب مثل السعدي[3]. تم تنفيذ أكثر من مئةٍ من أحكام الإعدام بعد محاكمات عسكرية وتم إعدام كثير من الفلسطينيين في الموقِع مباشرة على يد الجنود البريطانيين[4]. غَضِبَ البريطانيون بسبب الكَمائن التي نصَبها المتمردون لقوافلهم وبسبب نسفِهم للقطارات فقامَ البريطانيون برَبطِ سجناءَ

---

(1) يَعتَمد هذا الرقم على إحصائيات من وليد خالدي في كتاب
From Haven to Conquest, Appendix 4, 846-49.

(2) تفاصيل هذا القَمع في
Matthew Hughes "The Banality of Brutality: British Armed Forces and the Repression of the Arab Revolt in Palestine, 1936-1939" English Historical Review 124, no. 507 (April 2009), 313-54.

(3) Baruch Kimmerling and Joel S. Migdal, The Palestinian People: A History (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2003), 119.

(4) وَرَد وَصفٌ رهيب لإعدامات عشوائية بدون محاكمة للفلسطينيين على يد مختلف الجنود البريطانيين وميليشيات صهيونية بقيادة أورد وينجيت Orde Wingate انظر Segev, One Palestine, Complete, 429-32. يَظهَر وينجيت كمريض نفسي قاتل في تسجيل سيجيف: ويضيف بأن بعض جنوده كانوا يَعتَبرونه مجنوناً. قال عنه وزير الدفاع الإسرائيلي فيما بعد: "تعليمات أورد تشارلز وينجيت وصفاته وقيادته كانت حجر الزاوية لكثير من قيادات الهاجانا ويمكن رؤية تأثيره في تعليمات القتال في جيش الدفاع الإسرائيلي".

فلسطينيين إلى مقدّمة سياراتهم وقطاراتهم لمَنع هجمات الثوار، وهي طريقةٌ لجؤوا إليها كَحَلٍّ عقيم لقَمع مقاومة الإيرلنديين خلال حرب استقلالهم من سنة 1919 إلى 1921[1]. تم هدم بيوت الثوار السجناء أو الذين طُبِّقَتْ عليهم أحكام الإعدام أو الذين اعتُبروا مخَربين أو أقاربهم، وكانت تلك العمليات روتينية وهو اسلوبٌ آخر من أساليب البريطانيين التي طبّقوها في إيرلندا[2]. تم تطبيق ممارسات امبريالية أخرى بشكلٍ واسِع في قَمع الفلسطينيين مثل حَجز آلافٍ منهم دون محاكَمة ونَفي الزعماء المشاكِسين.

تصاعَدتْ ردودُ الأفعال على اقتراح لجنة بيل بتقسيم فلسطين حتى وصَلتْ إلى اغتيال المندوب البريطاني في منطقة الجليل الكابتن لويس أندروز Lewis Andrews في أكتوبر 1937. ردّاً على هذا التحدي المباشَر للسُلطة البريطانية نَفَتْ سلطاتُ الانتداب جميعَ القيادات الفلسطينية الوطنية تقريباً بمَن فيهم محافِظ القدس عَمّي الدكتور حسين الخالدي مع أربعة آخرين (أعضاء في اللجنة العربية العليا) وأُرسِل إلى جُزر سيشيل المنعَزلة في المحيط الهندي والتي كانت الامبراطورية البريطانية تختارها عادةً لنَفي معارضيها من الوطنيين[3]. سُجِنَ الرجالُ في معسكرٍ شديد الحراسة فترة 16 شهراً ومُنِعَتْ عنهم الزيارات والتّواصل الخارجي. كان من بين زملائهم في سجن سيشيل زعماء سياسيين من عَدَن واليمن وزنجبار. نُفِيَ زعماء فلسطينيون آخرون إلى

---

(1) ورَدت في Segev, One Palestine, Complete, 425-26. تم تجنيد كثير من جنود الحملة الإيرلندية إلى القوات البريطانية في فلسطين بمن فيهم أفراد سابقين من الوحدات المخيفة Black and Tans. انظر

Richard Cahill, “Going Berserk’: “Black and Tans” in Palestine”, Jerusalem Quarterly 38 (Summer 2009), 59-68.

(2) مذكرات Ernie O’Malley وكان قائداً كبيراً في حركة المقاومة الإيرلندية خلال حرب الاستقلال الإيرلندية في On Another Man’s Wound (Cork: Mercier Press, 2013) تقدِّم صورة مفصَّلة للوسائل العنيفة التي طبَّقها البريطانيون في 1919–1921 في محاولتهم الفاشلة للسيطرة على الثورة الإيرلندية بما فيها حَرقُ البيوت والأبنية العامة وغيرها من الموارد الاقتصادية انتقاماً من الهجمات على القوات البريطانية والشرطة والقوات الداعمة.

(3) في "مضى عهد المجاملات" الجزء 1. الجزء الذي يتعلق بنفيه في جزر سيشيل ص 247.

كينيا أو إلى جنوب أفريقيا، بينما تمكّنت قلّة منهم، بمن فيهم المُفتي من الهرب إلى لبنان. سُجِنَ آخرون دون محاكَمة فيما سمّاها البريطانيون "معسكرات اعتقال" خاصة في صَرَفَند Sarafand وكان من بينهم عمٌّ آخر هو غالب الخالدي الذي انخَرَطَ مثل أخيه في نشاطٍ وطني اعتُبر مناهِضاً للبريطانيين.

كان حسين الخالدي عضواً في اللجنة العربية العليا ومحافِظاً منتَخَباً لمدينة القدس مدة ثلاث سنوات إلى أن عَزَلَهُ البريطانيون. التقى حسين الخالدي قُبيل اعتقاله ونَفيه بالجنرال السير جون ديل John Dill القائد العام للقوات البريطانية في فلسطين وذكَر عَمّي في مذكراته أنه أخبَرَ الجنرال أن الطريقة الوحيدة لإنهاء العنف هي الاستجابة لبعض مَطالب الفلسطينيين خاصة وَقف الهجرة اليهودية. أراد الجنرال ديل أن يَعرف ما الذي يمكن أن يؤدي إليه اعتقال القيادة العربية؟ أحَدُ الشخصيات العربية الكبار كان قد أخبَره أن اعتقالهم سيؤدي إلى إنهاء الثورة خلال أيام أو أسابيع، إلا أن عمّي صحّح ذلك بقوله: ستَشتَعل الثورة أكثر وستَنتَشر خارج السيطرة. طَلَبَت الوكالة اليهودية تلك الاعتقالات وعَرِفَ الخالدي أن مكتب الجنرال كان يفكّر بذلك، غَيرَ أن حَلَّ المسألة الفلسطينية لن يكون بهذه السهولة[1].

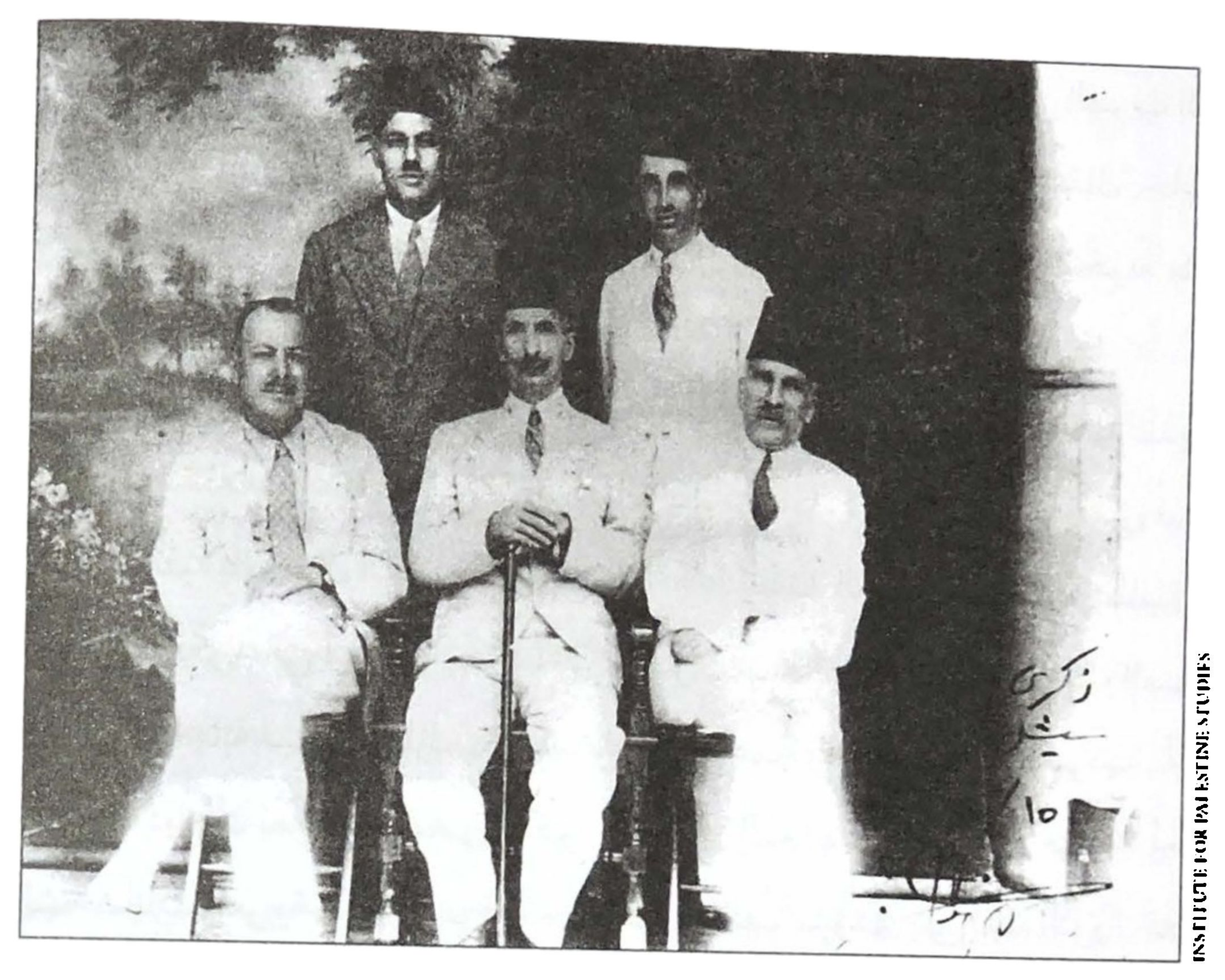
كان عمّي على صواب، فخلال الأشهر التي تَلَتْ نَفيه واعتقال آخرين دخلَت الثورة أكثر مراحلها شدّة وعنفاً وفقَدَت القوات البريطانية السيطرة في عدة مناطق مَدَنية وكثيراً من المناطق الريفية التي سيطَر عليها الثوار وقاموا بإدارتها[2]. وحسب وَصف الجنرال روبرت هينينغ Robert Haining الذي خَلَفَ ديل في أغسطس 1938 فقد "كان الوضعُ أن الإدارة المَدَنية في البلاد كانت غير موجودة عملياً"[3]. ذَكَر هينينغ

---

(1) المصدر نفسه، الجزء الأول ص 247.

(2) تم تقييم مدى انتشار سيطرة الثوار على مناطق واسعة من فلسطين في المقالة الممتازة Charles Anderson, "State Formation from Below and the Great Revolt in Palestine" Journal of Palestinian Studies 47, no. 1 (Autumn 2017): 39-55.

(3) Report by General Sir Robert Haining, 30 August, 1938, cited in Anne Lesch, Arab Policies in Palestine, 1917-1939: The Frustration of a National Movement (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1979), 223.



أعضاء من اللجنة الوطنية العليا في المنفى في جزر سيشيل سنة 1938.
الدكتور حسين الخالدي جالساً إلى اليسار

في ديسمبر في تقريرٍ إلى مكتب الحرب أن "عمليًا، كل قرية في البلاد تضمّ وتدعم المتمردين وتُساعِدهم على إخفاء هويتهم عن القوات الحكومية"(1). احتاج الوضع إلى كلّ جَبَروت الامبراطورية البريطانية التي لم يمكن إطلاقها إلا بعد أن توفّرت قوات إضافية بعد اتفاقية ميونيخ في سبتمبر 1938 وإلى سَنة أخرى تقريباً من القتال العنيف لكي تتمكّن من قَمع الثورة الفلسطينية.

ظهَرتْ خلافاتٌ عميقة بين الفلسطينيين، فقد رحَّبَ بعضُهم ممن ينتَمون إلى الأمير عبد الله في الأردن وأيّدوا بهدوء اقتراح التقسيم الذي طَرَحَتْه لجنةُ بيل لأنهم كانوا يُفضِّلون الانضمام إلى المنطقة شرق الأردن من فلسطين التي لم تكن

(1) British National Archives, Cabinet Papers, CAB 24/282/5, Palestine, 1938, "Allegations against British Troops: Memorandum by the Secretary of State for War" January 16, 1939, 2.

ستتحول إلى الدولة اليهودية الجديدة. إلا أن معظم الفلسطينيين عارَضوا بشدة جميع جوانب اقتراحاتها سواءً كانت تقسيم بلادهم، أو تأسيس دولة يهودية فيها مهما كانت صغيرة، أو ترحيل معظم سكانها العرب. عندما وصَلَت الثورة إلى ذروتِها في أواخر سنة 1937 وبداية سنة 1938 ظَهَرَ خلافٌ قاتلٌ أكثر شدّة بين الفلسطينيين وانقسامٌ مرير بين أتباع المُفتي الذين كانوا يرفضون أي تنازل للبريطانيين وبين معارضِيه بقيادة محافظ القدس السابق راغب النَّشاشيبي الذين كانوا أكثر استرضاءً للبريطانيين. كان رأي عيسى العيسى هو أن الصراع بين الفلسطينيين هو الذي أدّى إلى مَقتل مئات منهم في أواخر الثلاثينيات واستنزَف قوة الفلسطينيين بشكلٍ قاتِل. اضطر هو أيضاً للمغادرة إلى بيروت سنة 1938 بسبب تهديدِ حياتِه وحَرقِ بيتِه في رامَ الله وخسارة جميع كتبه وأوراقه. لا يوجد شك بأن ذلك كان من فِعل رجال المُفتي مما جعلَه يشعر بمرارة عميقة[1]. وكتَب قائلاً: "كانت الثورة موجّهة في بدايتها ضد الانكليز واليهود،... إلا أنها تحوّلتْ إلى حربٍ أهلية وأصبح فيها الإرهاب والنهب والسلب والإحراق والقتل أساليبَ عادية"[2].

على الرغم من التضحيات التي قُدِّمَتْ والتي يمكن تقديرها من الأعداد الكبيرة للفلسطينيين الذين قُتِلوا أو جُرِحوا أو سُجِنوا أو تم نَفيُهم، وعلى الرغم من النجاح الأوَّلي للثورة إلا أن نتائجها كانت سلبيةً بشكلٍ كامل تقريباً على الفلسطينيين. أدّى القَمع البريطاني العنيف ووفاة ونَفي كثير من الزعماء والصراع والاختلاف بين فصائل الفلسطينيين إلى تركهم متفرّقين ومنقَسمين في كل اتجاه وإلى إنهاك اقتصادِهم بعد قَمع الثورة في صيف 1939. جَعَلَ ذلك الوضعُ الفلسطينيين في موقفٍ ضعيف جداً بمواجهة الحركة الصهيونية التي تنشّطتْ وأصبَحت أكثر قوة خلال الثورة وحصَلتْ على كميات كبيرة من الأسلحة

(1) وصف نفيه وإحراق بيته في: خَلَفْ Khalaf "مذكرات عيسى العيسى" ص 227-32.
(2) المصدر نفسه، ص 230.

والتدريب الشامل على يد البريطانيين لمساعدتهم في قَمع الثورة[1].

خيَّمَ شبحُ الحرب على أوروبا سنة 1939 وواجهَت الامبراطورية البريطانية تحديات عالمية كبيرة بالإضافة إلى نتائج الثورة العربية مما أدّى إلى حدوث تغيّر مهمّ في سياسة لندن بعيداً عن تأييدها التام السابق للصهيونية. وبينما كان الصهاينة مسرورين بقَمع بريطانيا الساحق للمقاومة الفلسطينية فقد واجَهَ زعماؤهم في هذا التّغير الجديد موقِفاً حَرِجاً. وبينما كانت أوروبا تَنحدِر لا محالة نحو حربٍ عالمية أخرى، فقد عَرِفَ البريطانيون أن جزءاً من هذا الصراع سيَحدُثُ جزئياً مثل سابِقِهِ على أرضٍ عربية، وأصبح ضرورياً للمَصالح الاستراتيجية الأمبريالية الجوهرية تَحسين صورة بريطانيا وتَبديد الغضب الذي حَدَثَ بسبب القمع العنيف للثورة الكبرى في الدول العربية والعالَم الإسلامي خاصة وأن تلك المناطق كانت تُغرَقُ بدعاية دول المِحوَر عن فظائع البريطانيين في فلسطين. أوصَى تقريرٌ في يناير 1939 إلى الوزارة بتغيير المَسار في فلسطين وركَّز على أهمية "كَسبِ ثقة مصر والدول العربية المجاورة"[2]. تضمّن التقرير ملاحظَةً من وزير خارجية الهند الذي قال "مشكلة فلسطين ليست مشكلة عربية فقط ولكنها تصبح بسرعة مشكلة إسلامية عامة"، وحذّر بأنه إذا لم يتم التعامل مع "المشكلة" بشكلٍ سليم فإن "مشكلةً خطيرة في الهند تجب السيطرة عليها"[3].

بعد فَشَل مؤتمرٍ عُقِدَ في ربيع 1939 في قصر سانت جيمس في لندن ضمّ ممثلين عن الفلسطينيين والصهاينة والدول العربية، أصدَرَتْ حكومة نيفيل تشمبرلين Neville Chamberlain ورقةً بيضاء في محاولةٍ لاسترضاء غضب الفلسطينيين والعرب والرأي الهندي المسلم. دعَتْ هذه الوثيقة إلى تقليصٍ شديد في التزام بريطانيا

---

(1) للبحث في شمولية التعاون بين البريطانيين والصهاينة خلال الثورة، انظر Segev, One Palestine, Complete ص 381، 426-32.

(2) British National Archives, Cabinet Papers, CAB 24/283, "Committee on Palestine: Report" January 30, 1939, 24.

(3) المصدر نفسه، ص 27.

بالحركة الصهيونية، واقترحَتْ تحديداً صارماً للهجرة اليهودية وبَيع الأراضي (وهما مَطلَبان رئيسيان من مَطالب العرب) ووعَدتْ بخَلقِ مؤسساتٍ تمثيلية خلال خمس سنوات وحقّ تقرير المصير خلال عَشر (وهي أهمّ المَطالب). وعلى الرغم من تحديد الهجرة عمليـاً، إلا أن بقية الوعود لم تُنَفَّذ تماماً[1]. كما أن خَلقَ مؤسساتٍ تمثيلية وحقّ تقرير المصير كانا مَشروطَين بموافقة جميع الأطراف، وذلك ما لَم تكن الوكالة اليهودية ستوافِقُ عليه أبداً لأنه سيَمنع تأسيسَ دولة يهودية. يوضّح مَحضَرُ اجتماع الوزارة في 23 فبراير 1939 أن بريطانيا كانت تقصد مَنع تنفيذ جَوهَر هذَين التنازلَين الأساسيَين للفلسطينيين لأن الحركةَ الصهيونية سيكون لها عملياً حقّ النَّقض الذي سيُستَخدم لا مَحالة[2].

ربما حصَلَ الفلسطينيون على امتيازٍ بسيط بقبولهم الورقة البيضاء لعام 1939 على الرغم من نقائصِها من وجهة نظرهم. لم يصدّق حسين الخالدي أن الحكومة البريطانية كانت مُخلِصة في أي من وعودها[3]. ذكَر بمرارة أنه أدركَ في مؤتمر قصر سانت جيمس الذي حَضره بعد إخراجه من مَنفاه في جُزر سيشيل أن بريطانيا "لم تكن تريد فِعلاً ولا حتى للحظةٍ واحدة أن تكون مخلصةً لوعودها". كان واضحاً بالنسبة له من الجلسة الأولى أن المؤتمر كان وسيلةً "لكَسب الوقت ولتَخدير العرب لا أكثر ولا أقل... ولكي تَخدَع العربَ لكي يوقِفوا ثورتهم" ويَمنَحوا البريطانيين "الوقتَ لالتقاط أنفاسِهم بينما كانت غيومُ الحرب تتجمع"[4]. ومع ذلك فقد فضَّلَ اتّخاذ موقفٍ مَرِنٍ إيجابي من الورقة البيضاء مثلما فَعَلَ زعماء

---

(1) كان ذلك هو الاستنتاج المرير للدكتور حسين فيما بعد عندما راجَعَ في مذكراته سجلَّ الوعود البريطانية التي لم تُنفَّذ: "مضى عهد المجاملات" الجزء الأول ص 280.

(2) تمت مناقشة اجتماع الوزارة وشَرح الموقف البريطاني في مؤتمر قصر سانت جيمس في Boyle, Betrayal of Palestine ص 13.

(3) للبحث في تفاصيل تقويض الالتزامات البريطانية المهمة في الورقة البيضاء انظر: رشيد خالدي "القفص الحديدي" ص 35-36، 114-15.

(4) حسين الخالدي "مضى وقت المجاملات" الجزء الأول ص 350-51.

فلسطينيون آخرون مثل موسى العَلَمي وجمال الحسيني ابن عمّ المُفتي[1]. وفي النهاية، أصرَّ المُفتي على الرفض التام بعد أن أشارَ إلى أنه يميل إلى القبول، وغيّر موقِفَهُ الحالةَ في ذلك اليوم. بعد مؤتمر قصر سانت جيمس، عادَ البريطانيون إلى نَفي حسين الخالدي إلى لبنان هذه المرّة. وعندما شاهَدَ ما آلَتْ إليه الثورةُ أمام القَمع البريطاني الشديد وكيف كان موقف الفلسطينيين صَعباً فقد دَعا حسين الخالدي إلى وَقف المقاومة، ولكن تمّ تجاوز رأيه في هذه المرّة أيضاً[2].

كان الأمرُ متأخّراً على كل حال فلم يكن أمام حكومة تشمبرلين سوى أشهر قليلة في الحُكم عندما أصدرت الورقة البيضاء ودخَلَت بريطانيا الحرب بعد ذلك بقليل واستلَمَ وينستون تشرشل رئاسةَ الوزارة بعد تشمبرلين وكان أكثر المسؤولين البريطانيين حَماساً للصهيونية. وأهمّ من ذلك كله هو أن الحرب العالمية الثانية تحوّلت بالفعل إلى صراع دَولي مع الغزو النازي للاتحاد السوفييتي ودخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب بعد بيرل هاربور. عالَمٌ جديد كان في طَور الولادة ستُصبح فيه بريطانيا قوة عظمى من الدرجة الثانية في أحسن الأحوال. لن يظلّ مصير فلسطين بيدِها، ولكن كما لاحَظَ الدكتور حسين بمَرارة كانت بريطانيا في تلك المرحلة قد أدَّت واجبها بشكل أكثر من جيِّد لِرَبيبَتِها الصهيونية.

لدى مراجعة الأجزاء الثلاثة من مذكّراته التي كتبَها في بيروت سنة 1949 (خلال واحدة من فترات النّفي الكثيرة التي كان عليه تحملها) اعتَقَد عَمّي أن المشكلة الأساسية التي واجَهت الفلسطينيين خلال الانتداب كانت البريطانيين[3]. استَنكَر عدم الثقة وعدم الكفاءة لدى زعماء الدول العربية وقدَّم انتقاداً متوازناً

(1) المصدر نفسه ص 300-305. توصَّلَتْ بيان الحوت في معالجَتِها الحكيمة لهذا الموضوع إلى الاستنتاج نفسه في "القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، 1917-1948 (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1981) ص 397.

(2) المصدر نفسه ص 352-56.

(3) المصدر نفسه، الجزء الأول ص 230. هذا الجزء من المذكرات الذي يَسترجِع التعامل مع لجنة بيل يتضمَّن واحداً من أمثلة كثيرة يقدِّمها الدكتور حسين عن تحيّز البريطانيين للصهيونية.

وعادِلاً لفشل القيادة الفلسطينية بما فيها أعماله ذاتها أحياناً. أدركَ بوضوح تأثيرَ الحركة الصهيونية الذي تركَّز في السيطرة على كامل فلسطين، وأدركَ كفاءة زعمائها وجرأتهم في الخِداع، وقد تَعرَّفَ شخصياً على كثير منهم. ولكنه مِثلَ كثيرٍ من أفراد جِيلِهِ وطَبَقَتِهِ الاجتماعية صَبَّ غضبه الحقيقي على البريطانيين وعلى عداوتهم للفلسطينيين.

كان يَعرفُ كثيراً من مسؤوليهم بشكل جيّد وكان قد خَدَمَ كمسؤولٍ طبيّ كبير في إدارة الانتداب قبل أن يصبح محافِظاً لمدينة القدس. تعامَلَ معهم فيما بعد كمُفاوِض في مؤتمر قصر سانت جيمس سنة 1939 ثم في القدس خلال القتال 1948-1949 حينما كان واحداً من زعماء الفلسطينيين القلائل الذين ظلّوا في المدينة المقدَّسة (وكان كثير منهم مَنفيين بأوامر بريطانية). يبدو أنه تفاهَمَ مع بعض المسؤولين البريطانيين وساعَدَه في التعامل معهم تمكّنه من اللغة الإنكليزية التي تعلّمها في مدرسة سانت جورج الأنجليكانية في القدس وفي الجامعة الأمريكية في بيروت، إلا أن استياءه من نفاقٍ واستعلاءٍ وازدواجيةِ المسؤولين البريطانيين بشكلٍ عام كان بلا حدود[1]. اعتَبرَ لورنس العرب مِثالاً نموذجياً للخيانة البريطانية (على الرغم من أنه كان حَذِراً في المقارنة بين وَصفِ لورنس الصريح في كتاب "أعمدة الحكمة السبعة" لخِداعِه وخيانته للعرب مقابل الأمانة والاستقامة لدى الأساتذة والمبشّرين البريطانيين الذين عَرفَهُم في القدس قَبل الحرب)[2].

أكثر ما أثار غضب الدكتور حسين هو دَعم البريطانيين الثابت للصهاينة، وعلى الرغم من اقتناع المسؤولين البريطانيين في فلسطين بعدم جَدوى الاستمرار في سياسة الجدار الحديدي في حماية المشروع الصهيوني، إلا أن توصياتهم كانت

---

(1) كتَبَ جزءاً آخر من مذكراته باللغة الإنكليزية عن سنوات نفيه في جزر سيشيل وكان مليئاً بالملاحظات الناقدة للبريطانيين تحت عنوان:

Exiled from Jerusalem: The Diaries of Hussein Fakhri al-Khalidi.

الكتاب تحت الطبع من منشورات بلومزبيري.

(2) حسين الخالدي في "مضى عهد المجاملات" الجزء الأول ص 110-14.

تُلغَى في لندن في أغلب الأحيان (وكان زعماء الصهاينة غالباً غير مُمتَنِّين لكل ما تمّ عمله من أجلهم). تمكّن الصهيانة حتى سنة 1939 على الأقل من وَضعِ مؤيديهم أو زعمائهم في بعض الأحيان مثل حاييم وايزمان في مواقع اتخاذ القرار في الإدارة البريطانية، وكان بعضهم صهيونياً متحمساً. لاحَظَ الدكتور حسين بمرارة أنه عندما كانت اللجان البريطانية الرسمية تأتي إلى فلسطين لاستقصاء الأوضاع في العشرينيات والثلاثينيات كانت جميع توصياتهم المؤيِّدة للعرب تواجَهُ بضغوطٍ صهيونية في لندن حيث سادَتْ علاقاتٌ حميمية بين زعماء الصهيونية والشخصيات السياسية البريطانية الكبيرة[1].

كتَبَ عيسى العيسى مذكراته في المَنفى أيضاً في بيروت بُعَيدَ حرب 1948، وكانت وجهة نظره نحو الفترة ما بين الحربَين مختلِفة في جوانب كثيرة عن آراء عَمّي. اختَلَفَ عيسى العيسى بشدة مع المُفتي بعد تقرير لجنة بيل سنة 1937 وتعرَّض للأذى شخصياً بسبب الانقسام الذي حَدَثَ في القيادة الفلسطينية. وفي رأي عيسى العيسى أن هذا الانقسام الداخلي قد أضرّ كثيراً بالفلسطينيين وكذلك فَعَلَت العلاقات الاجتماعية المتخلفة ونَقصُ التعليم عند العرب، كما أن أكثر ما أضرّ بهم هو تركيز الصهاينة الذي لم يَتزَعزَع على إزاحة السكان المَحَليين والذي دَعَمَهُ البريطانيون، وكان قد كتَبَ عن هذا الموضوع ببلاغةٍ وتكرار على مَدى عقود كثيرة. لم يكن يحبّ البريطانيين ولم يكونوا يحبّونه ولكن في تحليله كانت الصهيونية هي المشكلة المركزية وزادَ مِن تأثيرها ضَعفُ الفلسطينيين والعرب. وبشكلٍ متناسِب مع ذلك جاءَتْ انتقاداتُ أشعاره اللاذعة وكتاباته البليغة للحكّام العرب بعد حرب 1948، وكان وصفُهُ لهم بعيداً عن المَديح، خاصة للأمير عبد الله.

في الخلاصة، يجب التّعرض لأمرَين آخرَين عن الثورة وعن قَمعها بِيَدِ البريطانيين. الأول هو أنها أثبَتت الرؤية الواضحة للمفكّر الصهيوني زيف جابوتنسكي وخِداعَ النفس لكثيرٍ من المسؤولين البريطانيين. كان هدفُ المشروع الصهيوني هو

(1) المصدر نفسه، الجزء الأول ص 230.

الاستيلاء على البلاد، ولا بد من أن يولِّدَ ذلك مقاوَمة. كتَبَ جابوتنسكي سنة 1925 "إذا أردتَ استعمارَ أرضٍ يعيش فيها أناس... فعَليكَ أن تجِدَ حامِيةً عسكرية لها، أو أن تجِدَ راعياً يمكنه تأمين حمايةٍ عسكرية لمصالِحكَ... الصهيونية هي مشروعٌ استعماري ولذا فإنها تقومُ أو تَسقطُ على مسألة القوى العسكرية"[1]. في البداية على الأقل، كانت القوى العسكرية التي قدّمتها بريطانيا هي الوحيدة التي يمكنها القضاء على المقاومة الطبيعية لأولئك الذين كان يتم استعمارهم.

في وقتٍ مبكر قَبل ذلك بكثير، كانت لجنة كينغ-كرين King-Crane Commission التي أرسلَها الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون سنة 1919 لاستطلاع آراء الناس في المنطقة قد توصَّلتْ إلى استنتاجات مماثِلة لاستنتاجات جابوتنسكي. أخبَرَها ممثلون عن الحركة الصهيونية بأنهم "كانوا يتطلَّعون إلى التخلص التام عملياً من جميع سكان فلسطين الحاليين من غير اليهود" من أجل التوصل إلى تحويل فلسطين إلى دولة يهودية، وذَكَرَت اللجنة أن لا أحَد بين جميع الخبراء العسكريين الذين استُشيروا "اعتَقَد بأن البرنامج الصهيوني يمكن تنفيذه دون اللجوء إلى القوة العسكرية". واعتَقَد جميعهم بأن تلك القوة "يجب ألا تقلّ عن 50000 جندي" لتنفيذ ذلك البرنامج. وفي النهاية، احتاج البريطانيون إلى أكثر من ضعف ذلك العدد من الجنود للتَّغلب على الفلسطينيين في الفترة 1936-1939. وحذَّر أعضاءُ اللجنة في رسالة إلى ويلسون من أنه "إذا قرّرت الحكومة الأمريكية دَعم تأسيس دولة يهودية في فلسطين فإنها تُلزِمُ الشعبَ الأمريكي باستِخدام القوة في تلك المنطقة لأنه لا يمكن تأسيس دولة يهودية في فلسطين والاحتفاظ بها دون استخدام القوة"[2]. وبذلك فقد أصابَت اللجنة فيما تنبأتْ به عما سيَحدث في القَرن التالي.

الأمر الثاني هو أنّ الثورةَ وقَمعُها وما تَلَى ذلك من نجاح في زَرع المشروع الصهيوني كانت النتائج الحتمية المباشرة للسياسات التي بَدأتْ منذ وعد بلفور وما

(1) ورَدتْ في Masalha, Expulsion of the Palestinians ص 45.

(2) تقرير لجنة كينغ-كرين في 28 أغسطس 1919.

تضمّنته مفردات بلفور من معاني إعلان الحرب. لم يَعتَقد بلفور "أن الصهيونية ستؤذي العرب" ويبدو أنه اعتقَد في البداية أنه لن يكون هنالك أي ردّ فِعل مهمّ ضد احتلال الصهاينة لبلادهم. ولكن حسب كلمات جورج أوريل "عاجِلاً أو آجِلاً سيصطَدم الاعتقادُ الخاطئ بالواقِع الصَّلب، ويَحدثُ ذلك عادةً في أرض المعركة"[1]. وذلك ما حَدَثَ بالضبط في أرض المعارك أثناء الثورة الكبرى على حساب الفلسطينيين.

وجَدَ الفلسطينيون أنفسَهم بعد سنة 1917 في مأزقٍ ثلاثيّ، وذلك وَضعٌ فريدٌ في تاريخ مقاومة الحركات الاستعمارية الاستيطانية. بشكلٍ مختلف عن بقية الشعوب التي خضَعتْ لحُكمٍ استعماري لم يكن عليهم فقط مواجهة السلطة الاستعمارية في العاصمة، وهي لندن في هذه الحالة، بل كان عليهم أيضاً مواجهة حركةٍ استعمارية استيطانية كانت تَعتمد على بريطانيا إلا أنها كانت مستقلةً عنها ولها أهدافها القومية الخاصة المُزَيَّنَة بِتَبرير مِن الكتاب المقدَّس والمدعومة بقاعدة دولية راسِخة وتمويل عالمي. وعلى حَدِّ قول المسؤول البريطاني عن "الهجرة والإحصائيات" لم تكن الحكومةُ البريطانية "القوة الاستعمارية هنا، بل كانت الشعب اليهودي"[2]. ومما زاد الأمور سوءاً هو أن بريطانيا لم تَحكُم فلسطين بصراحة ووضوح بل فَعلَتْ ذلك بصِفَتِها قوةَ انتدابٍ من عُصبة الأمم، وكانت بذلك مَحكومة ليس فقط بوعد بلفور بل بالالتزام الدولي الوارِد في صَكِّ الانتداب على فلسطين سنة 1922.

تكرّر التعبير مِراراً عن الاستياء الفلسطيني بشكلِ مظاهراتٍ وقلاقل مما دَفَعَ الإداريين البريطانيين في المَوقع وفي لندن لاقتراح تعديلات في السياسة، إلا أن

(1) George Orwell, "In Front of Your Nose", Tribune, March 22, 1946. Reprinted in The Collected Essays, Journalism, and Letters of George Orwell, vol. 4, In Front of Your Nose, 1945-50. Ed. Sonia Orwell and Ian Angus (New York: Harcourt Brace, 1968), 124.

(2) كان المسؤول هو E. Mills يَتحدَّثُ خلال شهادته السرية إلى لجنة بيل كما ورَدت في Leila Parson, "The Secret Testimony to the Peel Commission: A Preliminary Analysis" Journal of Plaestine Studies, 49, no. 1 (Fall 2019).

فلسطين لم تكن مستعمرة خاضعة للتّاج البريطاني أو لأي شكل آخر من الاستِحواز الاستعماري الذي مَنحَ الحكومة البريطانية حرية التصرف كما تشاء. كلما ظَهَرَ أن الضغط الفلسطيني سيُجبر بريطانيا على مخالفة نَصّ أو روح وثيقة الانتداب، ظَهَرَ ضغطٌ شديد في اللجنة الدائمة للانتداب في جنيف لتذكيرها بواجباتها تجاه الصهيونية[1]. وبفَضل التِزام بريطانيا بهذه الواجبات أصبح الوقت متأخراً في نهاية الثلاثينيات لتغيير التحولات في البلاد أو لتغيير الخَلل في توازن القوى الذي حَدَثَ بين الطرفَين.

كان الضّرر الابتدائي الكبير الذي ناضَلَ الفلسطينيون ضدّه قد تضاعَفَ بسبب رأس المال الهائل الذي وظّفتهُ المؤسسة الصهيونية والعمل الدؤوب والتلاعبات القانونية المعقّدة والضغط المستمر والدعاية الفعّالة والوسائل العسكرية السرّية والعَلَنية. تطوّرَت الوحدات المسلحة الاستعمارية اليهودية بشكل شبه سرّي حتى سَمَحَ البريطانيون للحركة الصهيونية بتحريك وحدات عسكرية مُعلَنَة في مواجهة الثورة العربية. في تلك اللحظة، وصَلَ تصادم الوكالة اليهودية مع سلطات الانتداب إلى أقصاه، وهناك اتفاق بين المؤرخين المَوضوعيين أن ذلك التصادم الذي دَعمَته عصبة الأمم قوّضَ تماماً كل فرصة لنجاح النضال الفلسطيني للحصول على مؤسسات تمثيلية وحقّ تقرير المصير والاستقلال الذي آمنوا بأنه من حقّهم[2].

ما الذي كان على الفلسطينيين عَمَلُهُ للخروج من هذا المأزق الثلاثيّ هو سؤالٌ تستحيل الإجابة عليه. اعتَقَد بعضهم بأنه كان عليهم التّخلي عن الطريقة القانونية التي كانت مفضّلة لدى قيادتهم المحافظِة باعتراضاتها الفارغة المتزايدة

(1) أفضل دراسة عن كيفية تعامل اللجنة الدائمة للانتداب في عصبة الأمم مع الانتداب في فلسطين هي:
Susan Pedersen, The Guardians: The League of Nations and the Crisis of Empire (New York: Oxford University Press, 2015).

(2) خرافة أن البريطانيين كانوا مؤيدين للعرب خلال فترة الانتداب كما يدَّعي تاريخ الصهيونية قد تم فَضحُها في كتاب Zegev, One Palestine, Complete.

وإرسال وفود إلى لندن لمُطالَبة البريطانيين بِحُسن النيّة "والعَدالة". واقتَرحَ هؤلاء بدلاً عن ذلك مقاطَعة البريطانيين كلياً ورَفضَ التعاون مع الانتداب (مثلما فَعلَ حزب المؤتمر في الهند أو الشين فين في إيرلندا)، وإذا فشلَ ذلك فقد كان عليهم السير على الطريق الذي سار عليه جيرانهم العرب ورَفع السلاح بشكل أبكَر مما فَعلوه في النهاية[1]. وعلى كل حال فقد كانت أمامهم خيارات جيدة قليلة في مواجهة الثلاثي القوي: بريطانيا والحركة الصهيونية وانتداب عصبة الأمم، بالإضافة إلى عدم وجود حلفاء مُهِمّين فيما عدا تأييد رأيٍ عامٍ عربي غير مُنَظَّم وغير مُتَماسِك وقَفَ معهم بقوة حتى من قَبل سنة 1914 وببشكلٍ متزايد في الفترة ما بين الحربَين. ولكن لم تتمتَّع أية دولة عربية بالاستقلال التام آنذاك فيما عدا المملكة العربية السعودية واليمن، وفي الواقع كانت جميع هذه الدول مازالت تحت تصرف البيرطانيين والفرنسيين، ولم تتمتَّع أي منها بمؤسسات ديموقراطية بحيث يمكن أن يُعَبِّر هذا الرأي المؤيِّد للفلسطينيين عن نفسه بشكلٍ تام.

عندما غادَرَ البريطانيون فلسطين سنة 1948 لم تكن هنالك حاجة لِخَلقِ أجهزةِ دولةٍ يهودية من لا شيء، فقد كانت هذه الأجهزةُ تعمل بشكلٍ واقعي تحت حماية البريطانيين فترة عُقود. كل ما كان يحتاجه تحقيق حُلم هرتسل ونبوءته هو أن تأخذ شبه الدولة التي كانت قائمة بالفعل بِعَرضِ عضلاتِها ضد الفلسطينيين المنهَكين والحصول على السيادة الرسمية، وذلك ما حدَثَ في مايو 1948. مستقبلُ فلسطين كان قد تقرّر قَبل ذلك بثلاثين عاماً على الرغم من أن الوثيقة لم توجد حتى نهاية الانتداب عندما تم سَلبُ الغالبية العربية بالقوة في النهاية.

---

(1) ناقشتُ هذه المسألة بتفصيل أكثر في كتابي "القفص الحديدي"، ص 118-23.

2

إعلان الحرب الثاني
1948-1947

"لا يمكن اعتبار التقسيم من حيث المبدأ والفعل إلا بأنه حَلٌّ مُضادٌ للعَرب"

لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين، تقريرُ أقليّة

جَلَسَ والدي معي في غرفة المَعيشة في بيتِنا قَبل شهورٍ قليلة من وفاته سنة 1968 وقد شَعرَ بأنه لم يَعد له في الحياة سوى القليل، وأخبَرني عن رسالةٍ طُلِبَ منه تسليمها قَبل عَقدَين من الزمن. كنتُ طالباً في التاسعة عشرة من العمر وطَلَبَ مني أن أصغي إليه جيداً.

عادَ والدي اسماعيل راغب الخالدي إلى فلسطين سنة 1947 لأول مرة بعد غيابٍ طال ثماني سنوات. كان قد غادَرها في خريف 1939 ليُتابع دراسته في جامعة ميشيغان ثم في جامعة كولومبيا في نيويورك. ظلّ في الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية وعمل في مكتب معلومات الحرب كمُذيعٍ باللغة العربية في الشرق الأوسط. كانت جدّتي في يافا تظلّ مستيقظة بعد منتصف الليل لكي تستمع إلى الراديو وتصغي إلى صوت ابنها الأصغر الذي لم تره منذ سنين[1]. عندما عاد في

(1) أخبرتني عن ذلك ابنة عمّي ليلى التي ولِدتْ في منتصف العشرينيات في رسالة بريد الكتروني خاصة في 18 مارس 2018 وذكرتْ أنه كان عليها الابقاء مستيقظة مع جدّتنا لكي تضبط المذياع من أجلها.

زيارة إلى فلسطين كان يعمل سكرتيراً للمؤسسة العربية الأمريكية التي أُنشِئتْ حديثاً (عملتْ أمي التي ولِدت في لبنان حيث التقيا هناك أيضاً)[1]. أنشَأ المؤسسةَ مجموعةٌ من الشخصيات العربية الأمريكية البارزة برئاسة فيليب حتّي من جامعة برينستون لتنوير الأمريكان عن الوضع في فلسطين[2]، وقد جاء والدي إلى القدس في رحلةٍ إلى الشرق الأوسط للتعريف بعَمل المؤسسة إلى الزعماء في الدول العربية المستقلّة حَديثاً[3].



اسماعيل الخالدي يذيع إلى الشرق الأوسط من الأمم المتحدة

---

(1) أصبح والِدي بعد ذلك أمين صندوق المؤسسة. كان حيبب كاتبة سكرتيراً في تلك المرحلة أيضاً.
Hani Bawardi, The Making of Arab-Americans: From Syrian Nationalism to U.S. Citizenship (Austin: University of Texas Press, 2014), 239-95.

(2) انظر المصدر نفسه من أجل معلومات أكثر عن تلك المؤسسة.

(3) يمكن الاطلاع على نتيجة رحلة والِدي في صحيفة "فلسطين" 25 يناير 1948 "تصريح اسماعيل الخالدي بعد عودته إلى أمريكا".

كان أخوه الدكتور حسين فخري الخالدي المحافِظ السابق لمدينة القدس يَكبره بعشرين عاماً، وبالنظر إلى تقدّم والدهما في العمر وإلى رفعة مَقام الدكتور حسين فقد وضِعَ اسماعيل وثلاثة من الإخوة الأصغر سناً، غالب وفاطمة ويعقوب، تحت رعاية الدكتور حسين الذي أشرَفَ على الأمور المالية والتربوية وغيرها[1]، بينما كان أخٌ أكبر آخر مسؤولاً عن تعليمهم بحُكم كَونِه معلّماً مَعروفاً وكاتِباً ومديرَ مَدرَسة عربية حكومية في القدس. على الرغم من وجود فَرقٍ في السّن بَلغَ عشرين عاماً وسُمعة الدكتور حسين المعروف بصَرامَته وشدّته فقد كان والدي مقرَّباً له جِدّاً كما يبدو من مراسلاتهما عندما كان حسين مَسجوناً لدى البريطانيين في جُزر سيشيل. انتَقَدَ الدكتور حسين في مذكّراته حينما كان في المَنفى اللغةَ الإنكليزية التي وَرَدَتْ في رسالةٍ استَلَمها مِن والدي قائلاً إنَّ "كتابَتَهُ سيئة" وأنه يأمَل بأن دراسَته في الجامعة الأمريكية في بيروت ستُحَسِّنُ ذلك، وذلك ما حدَثَ بالفعل[2]. تُظهِر الصور أن الدكتور حسين كان رجلاً مَرموقاً حَسَن المَظهر، غَيرَ أنه في أواخر الأربعينيات أصبح مُنهَكاً ونحيفاً أكثر مما كان عليه قَبل السنوات السبع من سَجنه ونَفيه (خَسِرَ حوالي 12 كغ من وزنه حينما كان في سيشيل). وكان مشغولاً جداً حينما كان واحداً من الزعماء العرب القلائل الذين ظَلّوا في القدس في أواخر سنة 1947 وكانت فترة أزمة شديدة للفلسطينيين، ومع ذلك فقد استَدعى شقيقه الأصغر واستجاب والِدي بهمة ونشاط.

عَرفَ الدكتور حسين أن اسماعيل كان ذاهباً إلى عمان بتوصيةٍ من المؤسسة العربية–الأمريكية لمقابلة المَلك عبد الله في الأردن، وأراد أن يُرسل إليه رسالةً

(1) كان لجدّي تسعة أولاد، سبعة صبيان وبنتين. ولِد أبي سنة 1915 وكان أصغرهم سناً.

(2) وجدتُ بعض الرسائل من الدكتور حسين بين أوراق والِدي. ويذكر ابن عمّي وليد الخالدي في:

"On Albert Hourani, The Arab Office and the Anglo-American Committee of 1946" Journal of Palestine Studies 35, ni. 1 (2005-6), 75.

أنه كان يتراسل أيضاً مع عمّنا في مَنفاه وأرسَل إليه كتُباً شَكَرَهُ عليها الدكتور حسين في مذكراته التي ستُنشَر بالإنكليزية "Exciled form Jerusalem".

شخصية رسمية. عندما سَمِعَ والدي الرسالة شحبَ وجهُهُ، فقد كان على اسماعيل أن يُخبِرَ المَلك بالنيابة عن الدكتور حسين واللجنة العربية العليا التي كان سكرتيرها أنّ الفلسطينيين يرحِّبون بِعَرضِهِ في "حماية" أو كما حَدَّدَها بلفظة "الوصاية" إلا أنهم لا يستطيعون قبولها. كان المَعنى الصريح للرسالة هو أنه إذا نجح الفلسطينيون بالخلاص من نير البريطانيين فإنهم لا يريدون الوقوع تحت سلطة الأردن (لأن ذلك يَعني الوضعَ نفسه بحُكم التأثير البريطاني الشَّامل في عَمَّان). كانوا يأملون بالتحكم بمستقبلهم ومصيرهم.

اعترَضَ والدي بلطفٍ على أن نَقَلَ هذا الخَبر غير المرغوب به سيدمِّر زيارته التي تهدف إلى كَسبِ دَعمٍ وتأييد المَلك لعمل المؤسسة العربية-الأمريكية، إلا أن الدكتور حسين قاطَعَهُ لأن وسطاء آخرين كانوا قد نَقَلوا إلى المَلك عبد الله الرسالة ذاتها مِراراً إلا أنه رفَضَ الإصغاء، وربما سيكون عليه تصديقها إذا جاءَت مِن أخو الدكتور حسين نفسه بالنظر إلى أهمية العلاقات العائلية. أخبرَ اسماعيل باقتضاب أن يَفعل ما طُلِبَ منه ورافَقَه في الخروج من المكتب. غادَرَ والدي بقلبٍ مُثقَل بالهمّ لأن احترامَهُ لأخيه الأكبَر يَفرضُ عليه نَقَلَ الرسالة، ولكنه عرف أن زيارته إلى عمان لن تنتهي بخير.

استقبَلَ المَلكُ عبد الله ضيفَه وأصغَى إليه بأدب إنما دون اهتمام زائد بتقرير اسماعيل المتحمّس عن عَمل المؤسسة العربية-الأمريكية في تغيير الرأي العام الأمريكي عن فلسطين، والذي كان آنذاك مؤيِّداً للصهيونية بقوة وجاهِلاً بشكلٍ عام عن القضية الفلسطينية. كان المَلكُ قد رَبَطَ مستقبله منذ عقود ببريطانيا العظمى التي دَعمتْ عَرشَه ومَوَّلَتْ وجَهَّزَتْ قواته المسلحة وزوّدته بضباطِ الجيش العربي بينما كانت الولايات المتحدة تبدو بعيدة جداً وغير مهمّة وظَهَرَ أن المَلك غير مهتمّ. وفشِلَ مثل أغلب الحكّام العرب آنذاك في تقدير دَور الولايات المتحدة في قضايا العالَم بعد الحرب.

بعد أن قام بالجزء الأكبر من مهمّته، نَقَلَ والدي بتردّد الرسالةَ التي حَمَّلَهُ إياها الدكتور حسين. ظَهَرَ الغضبُ والدهشة على وَجهِ المَلك، وفجأة نهض واقفاً مما

اضطرَ جميع الموجودين في المجلس للوقوف كذلك. انتهَت المُقابَلة. وفي تلك اللحظة تماماً دَخَلَ خادمٌ ليُعلِنَ أن إذاعة BBC قد بَثَّت لِتَوّها خَبَرَ قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بالموافقة على قرار تقسيم فلسطين. تصادَفَ اجتماعُ والدي مع المَلك بالتصويت التاريخي في 29 نوفمبر 1947 على القرار رقم 181 الذي نَصَّ على التقسيم. قَبل أن يَخرج من المَجلس، التفتَ المَلك إلى والدي وقال ببرود: "رَفَضَ فلسطِينِيّوكَ عَرضِي وأنتم تَستَحِقّون ما سيَحدُثُ لَكُم".

والذي حَدَثَ مَعروفٌ جيداً للجميع بالطبع، غَيرَ أنه في صيف 1949 كان الكيان الفلسطيني قد دُمِّرَ ونُزِعَتْ جُذورُ مُجتَمعِه. أُجبِرَ بالقوة 80٪ من السكان العرب على الهجرة من المنطقة التي أصبَحتْ بعد الحرب دولةَ إسرائيل الجديدة وفَقَدوا أراضيهم وممتلكاتهم. أصبح 720000 من 1.3 مليون فلسطيني لاجئين، وبفضل هذا التّحول القَسري سيطَرت إسرائيل على 78٪ من فلسطين التي كانت تحت الانتداب وأصبَحت تَحكم أكثر من 170000 فلسطيني عربي تمكّنوا من البقاء، وهو أقلّ من خُمسِ عدد السكان العرب في فلسطين قَبل الحرب. وضِعَتْ أسسُ هذه "النكبة" كما يُسميها الفلسطينيون على هزائم الثورة الكبرى سنة 1939 كما أرادَتْها الدولةُ الصهيونية التي كانت مترصّدة كامِنة، كما أدّت إليها عوامل كانت حيّة جَليّة في القصة التي رَواها لي والدي: التّدخل الأجنبي والصراعات المَريرة بين العرب. وزادَت من تأثير هذه المشكلات تلك الخلافات الداخلية المعنّدة بين الفلسطينيين والتي استمرّت بعد هزيمة الثورة، وكذلك غياب مؤسسات الدولة الفلسطينية الحديثة. لم تتحقق النكبة في النهاية إلا بفضل التغيرات الدولية الهائلة التي حَدَثَتْ في الحرب العالمية الثانية.

أنهَت الحرب العالمية الثانية الجَدَلَ الدّائِرَ حول الورقة البيضاء البريطانية وأحدَثَتْ صَمتاً نسبياً بعد جَيَشَان الثورة، ومع ذلك كان خَطَرُ وصول دبابات البانتزر النازية من ليبيا أو عَبر القوقاز داهِماً ومُستمراً حتى انتَهتْ معركة العَلَمين ومعركة ستالينغراد في خريف 1942. تباطأت هجرة اليهود بشكلٍ مهمّ نتيجةً للورقة

البيضاء وظروف الحرب بينما كان زعماء الصهيونية غاضبين بسبب ما تصوروا أنه تَخلّي بريطانيا عن التزاماتها تجاهَ الحركة الصهيونية، وحاوَلوا بمَكرٍ ودَهاء هندسةَ تغيّر دبلوماسي بعيداً عن بريطانيا باتجاه رعاةٍ جُدد. ومع ذلك فقد تمكّن الصهاينة خلال تلك الفترة من الهدوء النسبي من الاستمرار ببناء وتطوير قدراتهم العسكرية. تم تشكيل مجموعةٍ من كتيبة يهودية في الجيش البريطاني سنة 1944 بضَغط من الحركة الصهيونية وتأييدٍ من رئيس الوزراء وينستون تشرشل، مما أضافَ إلى القوات العسكرية الصهيونية التي كانت مهمّة في ذلك الوقت ودَعمها بالتدريب والخبرة ومَنَحَها امتيازاً حيوياً في الصراع القادم.

وبالمقارنة، على الرغم من حدوث نمو في فلسطين أثناء الحرب سَمَحَ بشيءٍ من التّعافي من دمارِ الاقتصاد العربي الذي حَدَثَ أثناء الثورة، إلا أن الفلسطينيين ظلّوا متَفرِّقين وممزَّقين سياسياً وبَقيَ كثيرٌ من زعمائهم في المَنفى أو في السجون البريطانية وفشلوا في القيام بما يكفي من التحضيرات والاستعدادات للعاصفة القادمة. تطَوّع أكثر من 12 ألف فلسطيني في الجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية (بينما قام آخرون مثل والدي بأداء أعمال لصالح الحلفاء في الحرب) ولكنهم لم يُشكِّلوا وحدةً أو كتيبة واحدة على العكس من الجنود اليهود من فلسطين، ولم تكن هنالك دولة فلسطينية موازية لكي تستفيد من امتيازات الخبرة التي حصَلوا عليها[1].

أتَتْ مرحلةٌ جديدة من الهجوم الاستعماري على فلسطين مع نهاية الحرب العالمية أطلَقَها وصول قوتَين عالميتَين جديدتَين إلى الشرق الأوسط لَعِبَتَا أدواراً إقليمية صغيرة في الماضي: الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي. بعد أن كانت الولايات المتحدة قَبل بيرل هاربور امبراطوريةً لم تَعتَرف تماماً بطبيعتها الاستعمارية وكان مجال سيطرتها محصوراً في الأمريكيتَين والمحيط الهادي

(1) Mustafa Abbasi, "Palestinians Fighting Against Nazis: The Story of Palestinian Volunteers in the Second World War" War in History (November 2017): 1-23.

أصبحَتْ فجأةً قوةً عالَمية بل والقوةُ الأعظم. وصَلَت السفنُ الأمريكية والقوات والقواعد إلى شمال أفريقيا وإيران والسعودية بدءاً من سنة 1942 ولم تُغادِر الشرق الأوسط منذ ذلك الحين. وكان الاتحاد السوفييتي قد انكَفَأ على نفسه بعد الثورة البلشفية وأخَذَ يَنشر نظريته دون إظهار قوّته. وكان لديه أكبر قوات برّية في العالَم نتيجة للحرب وتمكّن من تحرير نصف أوروبا من النازيين ورسَّخ تواجُداً متزايداً في إيران وتركيا وغيرها من المناطق في جنوبه.

تحت قيادة الشخصية السياسية السائدة لدافيد بن غوريون استَشرَفَت الحركةُ الصهيونية التّغير في توازن القوة في العالَم. ظَهَرَ الحَدَثُ الأبرز في هذا التَّوجّه الجديد في إعلان سنة 1942 أثناء مؤتمر صهيوني رئيسي عُقِدَ في فندق بيلتمور في نيويورك فيما سُمِّيَ برنامج بيلتمور[1]. دَعَت الحركة الصهيونية للمرة الأولى عَلَناً لتحويلِ كاملِ فلسطين إلى دولةٍ يهودية: كان المَطلَبُ بِدِقَّةٍ هو "أن تصبح فلسطين كومنولث يهودي". ومثلما كان اصطلاح "وطن قومي" كان هذا تعبيراً آخر عن سيطرة اليهود التامة على كامل فلسطين التي كانت دولةً ثلثي سكانها من الغالبية العربية[2]. لم تكن مصادَفة أن هذا المشروع الطَّموح قد أُعلِنَ في الولايات المتحدة وفي نيويورك بالذات حيث كانت المدينة ومازالت تضمّ أكبر جالية يهودية في العالَم.

قَبل أن يمرّ وقتٌ طويل كانت الحركة الصهيونية قد جَنَّدَتْ كثيراً من السياسيين الأمريكان وجَمَعَت الرأي العام تأييداً لهذا الهدف، وكان ذلك نتيجةً لجهود العلاقات العامة الدؤوبة الفعّالة لهذه الحركة والتي لم يتمكّن الفلسطينيون

---

(1) نصّ إعلان بيلتمور موجود على الانترنت:
https://en.wikipedia.org/wiki/Biltmore_Conference#Declaration.

(2) يلاحظ Denis Charbit, in Retour a Altneuland: La traversee des utopias sionistes (Paris: Editions de l'Eclat, 2018), 17-18، ويذكر أن تأسيس دولة يهودية كان ظاهراً بوضوح دوماً في الكتابات الصهيونية بدءاً من أول المشاريع المثالية الصهيونية في أواخر القرن التاسع عشر إلى ما وضعه هرتسل في كتابه Altneuland.

ولا الدول العربية الوَليدة من مجاراتها، وكذلك بسبب الرعب المنتَشر مع ظهور الدمار الكبير الذي لَحِقَ باليهود الأوروبيين على يد النازيين في المحرقة[1]. بعد أن تَبنّى الرئيسُ الأمريكي هاري ترومان هَدَفَ إنشاء دولةٍ يهودية على أرضٍ غالبيتها من العرب في سنواتٍ ما بَعد الحرب، أصبَحت الصهيونية جزءاً من مشروعِ السيطرة الأمريكية الناشئة في الشرق الأوسط بعدما كانت مشروعاً استعمارياً تدعمه الامبراطوريةُ البريطانية المُتراجِعة.

حَدَثَ أمران مهمّان بعد الحرب في تسلسلٍ سريع وكانت لهما دلالةٌ رمزية تشيرُ إلى العقبات التي ستُواجِه الفلسطينيين. كانت علاقاتهم مع كثير من الأنظمة العربية مَحفوفَةً بالمَخاطر بسبب ارتباط الزعماء العرب ببريطانيا وتدخلهم لإنهاء الإضراب العام سنة 1936 وفي مؤتمر قصر سانت جيمس الفاشل في 1939. أصبَحت الأمورُ أكثر سوءاً في مارس 1945 عندما شكَّلتْ سِتُّ دولٍ عربيةٍ الجامعةَ العربية تحت مظلّة بريطانيا العظمى. وَصَفَ الدكتور حسين في مذكراته خَيبة أمَل الفلسطينيين المَريرة بقرار الدول الأعضاء عدم ذِكر فلسطين في البيان الرسمي التأسيسي للجامعة العربية واحتفاظِهم بالسيطرة على اختيار ممثلين عن فلسطين[2].

مَنَعَ رئيسُ الوزراء المصري المبعوثَ الفلسطيني موسى العَلَمي من حضور المؤتمر التأسيسي للجامعة العربية ثم ألغَى قراره فوراً عندما حَصَلَ العَلَمي على رسالةٍ من اللواء كليتون Clayton الذي كان مسؤولَ المخابرات البريطاني في القاهرة الذي سَمَحَ بمشارَكَتِه. على الرغم من أن برنامج الاسكندرية في أكتوبر 1944 الذي وافقَتْ فيه مصر والعراق وسورية ولبنان والأردن على إنشاء الجامعة العربية وأكَّدَ على أهمية "القَضية الفلسطينية بالنسبة للعرب" واستنكَر "الفظائع التي ارتُكِبَتْ في

---

(1) يقدّم كتاب Amy Kaplan, Our American Israel أكثر شرح مُقنِع وعميق عن كيف ولماذا كان ذلك الجهد متوَّجاً بالنجاح. انظر أيضاً الكتاب الرائع
Peter Novick, The Holocaust in American Life (New York: Houghton Mifflin, 1999).

(2) حسين الخالدي في "مضى عهد المجاملات"، الجزء الأول ص 434-36.

أوروبا ضد اليهود" إلا أن هذه الدول لم تكن قد استقلّت تماماً عن أسيادها المستعمِرين السابقين[1]. كان لبريطانيا بشكلٍ خاص تأثيرٌ قوي على السياسات الخارجية لجميع تلك الدول، ولم تكن المعارَضة البريطانية لأي مبادرة استقلال فلسطيني قد تلاشَت. وهذا يَعني أن الفلسطينيين لم يتمكّنوا من الاعتماد على أي تأييد حقيقي من تلك الأنظِمة العربية الضعيفة التابعة.

كان لإنشاء اللجنة الأنغلو-أمريكية للاستقصاء سنة 1946 نتائج أعمَق. تم تأسيس تلك اللجنة بإشراف الحكومتَين البريطانية والأمريكية لدراسة الوضع البائس الحَرِج للنّاجين من مَحرقة اليهود الذين وضِع مئة ألف منهم في معسكرات لاجئين في أوروبا. فضَّلَ الأمريكان والصهاينة مَنحَ هؤلاء البائسين دخولاً فورياً إلى فلسطين (لم تقبَلهم أمريكا ولا بريطانيا)، ويَعني ذلك عملياً التّخلي عن جوهر الورقة البيضاء التي أُصدِرتْ سنة 1939.

طَرَحَ ألبرت حوراني القضيةَ الفلسطينية أمام اللجنة (أصبح فيما بعد أكبر مؤرخ للشرق الأوسط الحديث) وقدَّم مع زملائه في المكتب الفلسطيني العربي الحديث التّكوين كميةً كبيرة من الوثائق التي سُرِدَتْ كتابةً ومُشافَهَة[2]. وَرَدَ جُهدُهم الرئيسي في شهادَة حوراني[3] التي قدَّمتْ وَصفاً تَنبُؤياً عن الدمار والفوضى التي سيؤدي إليها إنشاءُ دولةٍ يهودية على المجتمع الفلسطيني والعالَم العربي. حذَّر اللجنة من أنه "تَحَدَّثَ صهاينةٌ جادّون في السنوات القليلة الماضية عن تهجيرِ السكان العرب أو جزء منهم إلى أماكن أخرى في العالَم العربي"[4]. وقال إن تنفيذ البرنامج الصهيوني "سيؤدي إلى ظلم كبير ولن يُمكن تطبيقُه إلا بقَمعٍ مخيفٍ

(1) "The Alexandria Protocol" October 7, 1944, Department of State Bulletin, XVI, 411, May 1947 انضمت العربية السعودية واليمن إلى الجامعة العربية سنة 1945.

(2) وليد الخالدي "عن ألبرت حوراني" ص 60-79.

(3) "القضية ضد دولة يهودية في فلسطين: شهادة ألبرت حوراني إلى لجنة الاستقصاء الأنغلو-أمريكية سنة 1946" Journal of Palestine Studies 35, no. 1 (2005-6), 80-90.

(4) المصدر نفسه ص 86.

وفوضى شامِلة والمخاطرة بتدمير الهيكل السياسي في الشرق الأوسط بكامله"[1]. الانقلاباتُ العسكرية العديدة التي قامَ بها ضباطٌ عرب حارَبوا في فلسطين ثم قَلَبوا الأنظمةَ في سورية ومصر والعراق في الفترة 1949-1958، وتَدَخُّلُ الاتحاد السوفييتي في شؤون الشرق الأوسط في منتصف الخمسينيات، وطَردُ بريطانيا من المنطقة... كلها يمكن أن تُعتَبر هَزّات تالية للزلزال الذي تَنَبأ به حوراني. ربما كانت تلك النتائج بعيدة عن التصور آنذاك بالنسبة لأعضاء اللجنة الأمريكان والبريطانيين الإثنَي عشر الذين سَمِعوا شهادةَ حوراني.

أهمَلَت اللجنةُ القضيةَ التي قدَّمَها العربُ وكذلك أهملَتْ ما كانت تفضّله الحكومة البريطانية من الاستمرار في تحديد الهجرة اليهودية إلى فلسطين لتجنب إثارةَ عَداء الأغلبية العربية وشعوب الدول العربية الحديثة الاستقلال، مما يَعكس توازنَ القوى الجديد بين بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية. توصَّلت اللجنة إلى استنتاجات عَكَسَتْ بالضبط رغبات الصهاينة وإدارة الرئيس ترومان بما فيها التوصية بدخول مئة ألف لاجئ يهودي إلى فلسطين. يدلّ هذا على أن الورقة البيضاء لسنة 1939 كانت بالفعل وَرَقَةً ميّتة وأنّ بريطانيا لم يَعد لديها الصوت الحاسم في فلسطين وأنّ الولايات المتحدة ستُصبح العامل الخارجي الأقوى هناك، بل وفي بقية مناطق الشرق الأوسط.

يوضحُ هذان الأمران أنه في هذه المرحَلة المتقدّمة من النضال للمحافَظة على بلادهم، لم يَستَطع الفلسطينيون تَشكيل تحالفٍ عربي فعّال ولم يكن لديهم جهاز دولة حديثة على الرغم من مشاعرهم الوطنية القوية وتَشكيل حركة وطنية كانت قويةً بدرجة كافية لتوجيهِ خَطَرٍ مؤقَّت على السيطرة البريطانية في فلسطين خلال الثورة. دلَّ هذا الغياب على أنهم كانوا يواجِهون الوكالة اليهودية المتطورة جيداً بشكلِ دولةٍ موازية دون أن يكون لديهم نظامُ دولةٍ مركزية، وقد ثَبتَ أن ذلك كان ضَعفاً قاتلاً عسكرياً ومالياً وسياسياً.

---

(1) المصدر نفسه ص 81.

كانت الوكالة اليهودية قد مُنِحَتْ أذرِعَةَ حُكمٍ حيوية من جهةِ انتداب عصبة الأمم، بينما لم يكن لدى الفلسطينيين وزارة خارجية ولا دبلوماسيين، كما تُبَيِّنُ ذلك قصةُ والدي، ولا أية إدارة حكومية ولا قوة عسكرية منظَّمة مَركزياً. لم تكن لديهم القدرة على التمويل ولا المَوارد الدولية لصنع مؤسسات دَولة. عندما كانت الوفودُ الفلسطينية تتمكّن من الاجتماع بمسؤولين أجانب سواء أكان ذلك في لندن أو في جنيف، كان يتم إخبارهم أنه ليس لديهم صِفةٌ رسمية وأنّ اجتماعاتهم كانت بالتالي اجتماعات خاصة وليست رسمية[1]. بالمقارنة مع الإيرلنديين الذين كانوا الشعب الوحيد الذي نجحَ في تحرير نفسه (جزئياً) من الحكم الاستعماري بين الحربَين فمِن المُدهِش أنه على الرغم من الانقسامات في صفوفهم فإن برلمانهم السرّي وفروعهم الحكومية الناشئة وقوّاتهم العسكرية المنظَّمة تمكّنتْ في النهاية من التّغلب على البريطانيين إدارياً وعسكرياً[2].

كانت فوضى الفلسطينيين في عملية بناء المؤسسات خلال السنوات الحَرِجَة التي قادَتْ إلى النكبة عميقةَ الأضرار. تتضح بَساطةُ الهيكل التنظيمي الذي كان لدى الفلسطينيين في مذكرات يوسف صايغ الذي كان المدير العام للصندوق العربي الوطني الذي أُسِّسَ سنة 1946[3]. أَسَّسَت اللجنةُ العربية العليا مؤسسةَ

---

(1) يقدِّم رشيد خالدي في كتاب "القفص الحديدي" أمثلةً على هذه المعاملة لوفود الزعماء الفلسطينيين من جهة السير هربرت صموئيل سنة 1920 ورئيس الوزراء رامزي ماكدونالد ووزير المستعمرات اللورد باسفيلد في 1930. أخبرَ صموئيل الجماعة السابقة: "اجتَمِعُ معكم بصفة شخصية فقط".

(2) يوضِّح O'Malley في كتاب "On Another Man's Wound" تعقيد التنظيم المركزي الذي طوَّره الوطنيون الإيرلنديون في 1919–1920 أثناء نضالهم ضد البريطانيين.

(3) أطلَقَ صايغ اسم "الخزينة العربية الوطنية" على هذه المؤسسة. نشر ذِكره في جزءين، انظر الجزء الأول "Desperately Nationalist, Yusif Sayigh, 1944 to 1948" كما روي وتم تحريره في Rosemary Sayigh, Jerusalem Quarterly 28 (2006), 82 في كتاب يوسف صايغ "سيرة غير مكتملة" (بيروت: رياض الريس، 2009) ص 227–60. نشرت زوجته مذكرات كاملة فيما بعد إلا أنها لم تتضمن بعض الأحداث التي سُرِدَتْ في هذه المقتطفات في
Rosemary Sayigh: Yusif Sayigh: Arab Economist and Palestinian Patriot: A Fractured Life Story (Cairo: American University of Cairo Press, 2015).

الصندوق العربي الوطني سنة 1944 لكي تَعملَ بمَثابة وزارة مالية لدولة وبشكلٍ يُناظِر الصندوق القومي اليهودي الذي بَلَغَ عمره آنذاك حوالي نصف قَرن. في منتصف الثلاثينيات كان الصندوق القومي اليهودي يَجمَع سنوياً حوالي 3.5 مليون دولار لاستعمار فلسطين في الولايات المتحدة الأمريكية وحدَها، وكان ذلك جزءاً من أموال أكبر كانت تُرسَل بانتظام من جميع أنحاء العالَم دَعماً للمشروع الصهيوني[1].

لم يبدأ الصندوق العربي الوطني بجَمع المَوارد إلا بعد تعيين يوسف صايغ وتطوير هيكل أعماله. ذَكَرَ صايغ أن عمَلَهُ واجَهَ كثيراً من العَقبات من تأسيس شَبكةٍ من الصفر على مستوى الدولة، إلى قبول التبرعات، إلى صعوبة التحرك في الأرياف بسبب تدهور الأوضاع الأمنية في فلسطين. في منتصف سنة 1947 نجحَ الصندوق في جَمع 176000 جنيهاً فلسطينياً (ما يعادل أكثر من 700000 دولار آنذاك) وهو مبلغ مثيرٌ للإعجاب بالنظر إلى الفقر النسبي لدى السكان، إلا أنه كان زهيداً بالمقارنة مع قوة جَمع التبرعات لدى الحركة الصهيونية. عندما تبَجَّحَ عزت طَنّوس الذي كان عضواً في هيئة إدارة الصندوق في تصريحٍ للصحافة عن هذا المبلغ ضدّ نصيحة يوسف صايغ، عَلِمَ صايغ وزملاؤه في اليوم التالي عن تقديم هديةٍ بَلَغَتْ مليون جنيهاً فلسطينياً (4 مليون دولار) إلى الصندوق القومي اليهودي من أرمَلة يهودية غنية في جنوب أفريقيا.

لا يَقِلُّ عن ذلك سُوءاً وَصفُ يوسف صايغ للّجنة العربية العليا التي كانت هَيكل القيادة الفلسطينية التي أُسِّسَتْ سنة 1936 وحَلَّها البريطانيون سنة 1937 وأُعيدَ

(1) نصف الأموال كانت مخصصة لشراء الأراضي في فلسطين: "100 Colonies Founded: Established in Palestine by the Jewish National Fund" New York Times, April 17, 1936.
في التسعينيات كان الصندوق الوطني اليهودي يَجمَع حوالي 30 مليون دولار سنوياً في الولايات المتحدة. ولكن حسب تحقيق داخلي سنة 1996 تم تحويل 20٪ منها فقط إلى إسرائيل ويبدو أن بقية المبلغ قد أُنفِق على أمور إدارية وعلى برنامج "برمجة الصهيونية" وعلى "التعليم الصهيوني" في أمريكا كما جاء في:
Cynthia Mann: "JNF: Seeds of Doubt-Report Says Only Fifth of Donations Go to Israel, but No Fraud is Found" October 26, 1966, Jewish Telegraph Agency.

إنشاؤها بعد الحرب، وهو يَرسم صورةً للفوضى وسوء التنظيم والصراعات الداخلية. كما يجب تذكّر أن اللجنة العربية العليا كانت غير قانونية وتم سَجن جميع زعمائها أو نَفيهم على يَدِ البريطانيين خلال الثورة، أو أنهم اضطروا للهرب خارج البلاد لتَجنّب القبض عليهم. نُفِيَ بعضهم نهائياً مثلما حَدَثَ مع المُفتي، بينما سُمِحَ لبعضهم بالعودة إلى فلسطين بعد سنوات عديدة من النّفي في دول مختلفة مثلما حَدَثَ للدكتور حسين وابن عَمّ المُفتي جمال الحسيني وموسى العَلَمي وغيرهم[1]. إلا أن عودتهم لم تحلّ المشكلة. وَصَفَ يوسف صايغ الحالَة عندما واجَهَت اللجنة فجأةً المهمة الصعبة في توثيق القضية الفلسطينية وعَرضِها على لجنة الاستقصاء الأنغلو-أمريكية دون أن يكون لديها جهازٌ إداري. كَتَبَ صايغ قائلاً:

"أدركَتْ اللجنةُ العربية العليا الآن أنها لا تملك المَهارات الفكرية بين أعضائها ولم يكن لديها هَيكلٌ حقيقي بالفعل. عندما غادَرَ جمال الحسيني المكتبَ بعد الظهر أقفَلَ الباب ووَضَعَ المفتاح في جيبه. لم يكن هنالك مكتبُ سكرتاريا. كان هنالك شخصٌ أو اثنان لعَمَلِ القهوة ولم توجَد أية سكرتيرة لتَسجيل الملاحَظات أو لطباعة التقارير. كانت فارِغَة تماماً"[2].

كانت الحالة في الواقع أسوأ من ذلك بالنظر إلى الخلافات السياسية العميقة بين أعضائها والخلافات بين العرب التي أحاطَت باللجنة العربية العليا. شَلَّتْ هذه

(1) نفي عمّي أولاً إلى سيشيل ثم إلى بيروت كما وَرَدَ في مذكرات حسين الخالدي "مضى وقت المجاملات"، الجزء الأول ص 418. سَمَحَ البريطانيون للعَلَمي بالعودة إلى فلسطين عندما عاد عمّي سنة 1943، بينما لم يسمَحوا لجمال الحسيني بالعودة من المَنفى في روديسيا إلا في سنة 1946. تجنَّبَ جمال الحسيني القبضَ عليه في القدس سنة 1937 ووصلَ إلى بغداد، ولكن بعد أن احتلَّ البريطانيون العراق سنة 1941 حسبما وَرد في مذكرات ابنته سيرين، كان الحسيني ورفاقه ممن "رفَضَوا احتمال الذهاب إلى ألمانيا... وقرَّروا تسليم أنفسهم إلى البريطانيين" على العكس مما فعل المفتي. تم القبض عليهم وسُجنوا في إيران ثم أرسِلوا إلى روديسيا:
Serene Husseini Shahid, Jerusalem Memories (Beirut: Naufal Group, 2000) 126-27.

(2) Sayigh, “Desperately Nationalist”, 69-70.

المصاعب مؤسسةً جديدة أخرى تم تشكيلها بعد الحرب مباشرة هي "المكتب العربي" الذي كلَّفَتْهُ اللجنةُ العربية العليا بتقديم القضية الفلسطينية إلى اللجنة الأنغلو-أمريكية. تم تأسيس المكتب كنواةٍ لوزارةٍ خارجية فلسطينية ودَعَمَتْهُ بشكلٍ رئيسي حكومة العراق المؤيِّدة لبريطانيا برئاسة نوري السعيد. كانت مهمّة المكتب العربي دبلوماسيةً وإعلامية بهدَفِ نَشر التوعية عن القضية الفلسطينية.

على العكس من بقية المؤسسات التي كانت تعمّها الفوضى، كان المكتبُ العربي يضمّ مجموعةً من الرجال المتميّزين المتَحمّسين (لم أجِد أي سِجلّ عن وجود امرأة واحدة بينهم)، وكان يضمّ مؤسِّسِهِ موسى العَلَمي، والمعلّم المعروف درويش المقدادي، والمحامي أحمد الشُّقَيري الذي أصبحَ أول رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية، والمؤرخ ألبرت حوراني وأخوه الأصغر سسيل، وشباب آخرين مثل الاقتصادي برهان الدَّجاني، ووصفي التَّل الذي أصبح رئيس وزراء الأردن، وابن عمّي وليد الخالدي الذي أصبحَ أكاديمياً معروفاً. وضَعَتْ هذه المجموعة التقديم الاستشرافي المُقنِع الذي طَرَحَهُ ألبرت حوراني على لجنة الاستقصاء، وتم إهماله.

كان المكتب العربي واعِداً بأداء أعمالِ الخدمات الدبلوماسية المِهَنية بفضل ما يضمّه من مواهب، مثل تجنب اضطرار الدكتور حسين الخالدي إيفاد أخيه الأصغر كممثلٍ شبه رسمي. تَستخدِم الدولُ الحديثة المتقدمة مَندوبين شَخصيين أحياناً لتَوصيل رسائل بالإضافة إلى القنوات العادية، غير أن الانتداب البريطاني لم يَسمَح للفلسطينيين بمِثل هذه القنوات. وعلى كل حال فقد نَشأتْ هذه الحالة جزئياً بسبب الطبيعة الأبوية الهَرَمية المتفرّقة لسياستِهم خاصة في الفترة التي سبَقَتْ ظهورَ الأحزاب السياسية الجماهيرية. إلا أن المكتبَ العربي فشِلَ في إصلاح الحالة: تُظهِرُ شهاداتُ يوسف صايغ ووليد الخالدي وجودَ تحديات أعاقَت الفلسطينيين في كل حَركة وأدَّت في النهاية إلى فشَل جميع الجهود في تأسيس هياكل منظَّمة ذات كفاءة تستطيع تمثيلهم في المَحافل الدولية. وبالإضافة إلى هذا فإن العَلَمي والدكتور حسين اللذَين كانا الزعيمَين الفلسطينيَين المناسبَين للتعامل مع

أمورِ التَّمثيل الدبلوماسي لم يَستَمِرًا حَليفَين. يَصِفُ وليد الخالدي كيف أدّى عِناد وتكبّر العَلَمي إلى نفور زملائه[1] وهناك أدلةٌ كثيرة على هذا في مذكرات الدكتور حسين. والأهمّ من ذلك هو قُربُ العَلَمي من النظام العراقي المؤيِّد لبريطانيا مما أثار شكوكَ كثير من الشخصيات الفلسطينية.

زادَ من حدّة هذه الخلافات بين الفلسطينيين وجودُ صراعات بين الدول العربية التي استقلَّت حَديثاً كما وَصَفَ ذلك الدكتور حسين بتفاصيل مؤلِمة، وكما بَيَّنَ فإنّ كثيراً من الاستقطاب بين المؤيِّدين والمعارِضين للمُفتي الحاج أمين الحسيني الذي يَرجِع إلى الثورة وما سبقَها من أحداث استمرَّ أيضاً في الفترة بَعد الحرب. ازدادَ الاستقطاب بسبب معارَضة البريطانيين العنيدة للمُفتي ولأي وجود سياسي فلسطيني مستقلّ وخوفهم المُبَرَّر من أنه قد يُصبح معادِياً لبريطانيا. حَدَثَتْ أصداءٌ لهذا العَداء ضد الزعامات الفلسطينية عند أغلب الحكومات العربية التي احتفظَتْ بريطانيا بتأثيرٍ كبير عليها. تعامَلَتْ بريطانيا بمَهارة من وراء الستار مع مسألة تمثيل الفلسطينيين في مؤتمر تأسيس الجامعة العربية في مارس 1945، وهذا مثالٌ واضح على تأثيرها الكبير. تمكَّن موسى العَلَمي من حضور المؤتمر بصعوبة في النهاية، وكان محامياً بارعاً حسب رأي الدكتور حسين وتحدَّثَ جيداً في الدفاع عن القضية الفلسطينية، إلا أنه كان في الوقت نفسه موثوقاً لدى البريطانيين الذين أرسَلوه في مهمات دبلوماسية باسمِهم في أرجاء المنطقة في الفترة 1945-1946 ومَنَحوه ذاتَ مرّة طائرةً قاذفة بريطانية وضِعَتْ تحت خِدمَتِه في رحلاتٍ إلى المملكة العربية السعودية والعراق وغيرها من الدول العربية[2].

انتقَدَ الدكتور حسين عَلَناً أداءَ المكتب العربي وأداءَ العَلَمي بشكلٍ ضمنيّ وذلك لاقتناعه بأن بريطانيا التي لم تكن تضمِر الخيرَ لمَصالح الفلسطينيين وكان

---

(1) يتضح هذا في سَردِهِ الشخصي المباشر "عن ألبرت حوراني والمكتب العربي واللجنة الأنغلو-أمريكية سنة 1946".

(2) حسين الخالدي "مضى عهد المجاملات" الجزء الأول ص 432-34. ذكر العَلَمي بنفسه تفاصيل تلك الرحلة للدكتور حسين.

لها تأثير قويّ على العَلَمي بدعمِها للمكتب العربي. وفي ذات يوم في 1947 استقبَلَ في مكتَبه بالقدس ضابطاً من المخابرات العسكرية البريطانية، وبعد حديثٍ عام مَدَحَ العَلَمي وعَمَلَ المكتب العربي من أجل القضية العربية من أجل "فَهْمٍ أعمق وتَقَارب بين الشعب العربي والشعب البريطاني". احتفَظَ الدكتور حسين برأيه لنفسِه ولكنه احتار في فَهم الزيارة، وكانت عداوَتُهُ للبريطانيين قد ازدادَت حدّة بعد القَمع العنيف للثورة الكبرى وسنوات النَّفي الذي تعرَّض له على يد البريطانيين. عندما استمرّ في الانتقاصِ من شأن المكتب العربي عَلَناً بسبب فشلِهِ في التنسيق مع اللجنة العربية العليا، عادَ الضابطُ العسكري لزيارته.

ظلَّ الضابطُ البريطاني واقفاً هذه المرة بينما نَقَلَ رسالَتَه الصريحة: "نحن نحترم مدير المكتب العربي ولدينا ثقة مطلَقة به ونريد منكَ أن تتعاون معه". أجابَ الدكتور حسين ببرود: "احترامكم له وثقتكم به هي أمور ترجع إليكم ولا تخصّني، كما أن تَعاوني أو عدم تعاوني معه هو من شأني الخاص وليس من شؤونكم. وداعاً أيها الكولونيل". منذ اللحظة الأولى التي أدخِلَ فيها العَلَمي إلى المكتب العربي، ذَكَر الدكتور حسين بمَرارة: "لقد أصبح ممثلاً للحكومة البريطانية وليس ممثلاً لِعَربِ فلسطين"[1].

تمكَّنَ موسى العَلَمي من خسارة ثقة الحاج أمين الحسيني به أيضاً بينما كان المُفتي المَنفي والذي انغمَسَ من جديد في السياسة الفلسطينية بعد عودَته إلى القاهرة من ألمانيا سنة 1946. ولم يتمكّن من السيطرة على أحداث فلسطين من موقِعه في

(1) حسين الخالدي في "مضى وقت المجاملات" الجزء الثاني ص 33-35. كان الضابط هو الكولونيل إيرنست ألتونيان Ernest Al-tonyan وهو جرّاح بريطاني سوري أرمني من قدماء المحاربين في الحرب العالمية الأولى وزميل في الجمعية الملكية للجراحين. يَذكُرُ أنه خلال الحرب العالمية الثانية "كان دَوره الرسمي كضابط طبي كان غطاء جيداً لنشاطه كمستشار خبير في شؤون الشرق الأوسط". أخبرَ الدكتور حسين أنه كان يعمل في المخابرات العسكرية. من المثير للاهتمام أنهما كانا طَبيبَين وأن كلاً منهما كان يعمل في مجال مختلف تماماً في الوقت نفسه. لم يذكر الدكتور حسين شيئاً عن خلفية الكولونيل ولا عن اللغة التي تحادثا بها. حسين الخالدي في "مضى عهد المجاملات" الجزء الأول ص 431.

المَنفى إلا أنه ظَلَّ يُعتَبر الزعيم الأبرز واستَمَر في التأثير على الرغم من الضَّرر الدائم الذي لَحِقَ بالقضية الفلسطينية بسبب وجودِهِ في ألمانيا النازية خلال الحرب. كان العَلَمي مَقبولاً في البداية من جميع الأطراف بصِفَتِهِ رئيس المكتب العربي لأنه لم يكن مُنحازاً لأيّ فَصيل فلسطيني (وساعَده في ذلك أنّ أخته كانت متزوجة من جمال الحسيني ابن عمّ المُفتي). إلا أنه في سنة 1947 أزعَجَ حيادَهُ المُفتي الذي كان يُحَبِّذُ الولاء على أي فضيلة أخرى. كان يوسف صايغ مُنحازاً نَحوَه بشكلٍ إيجابي حينما كان يلتقي بالمُفتي مرات عديدة أثناء عمله في الصندوق العربي الوطني، غير أنه كان يدرك القصور العميق في اسلوب زعامة المُفتي التقليدية.

"كان الضعف الأساسي في المُفتي هو أنه كان يفكّر أن فضيلة القضية التي كان يُناضِلُ من أجلها، وهي استقلال فلسطين وإنقاذها من السقوط ضحيةً للصهاينة كانت كافيةً في حَدٍّ ذاتها لأنها كانت قضية عادلة، ولم يُجَنِّدْ قوةً قتالِية كافية بالمَعنى الحديث... أعتَقِدُ أن جزءاً من ذلك يرجع إلى أنه كان يَخشى المؤسسات الكبيرة وأنه لم يكن يستطيع السيطرة على مؤسسةٍ كبيرة. يستطيع السيطرةَ على حاشيةٍ وعلى أناسٍ يستطيع أن يَهمس لهم ويَهمسون له. أما المؤسسة الكبيرة فهي تحتاج إلى اللامَركزية إلى حَدٍّ ما وذلك سيُفقِدُهُ السيطرة على سَير الأمور. وربما يجب عليه الاعتماد عليهم وسَيقل اعتمادهم عليه. وربما كان يَخشى من أن بعض القيادين المقاتلين الشباب سيَظهَرون وسيَتمتَّعون بجماهيرية ويَستَحوذون على بعض الولاء والتأييد الذي كان لديه"[1].

يَنطبق هذا التحليل الدقيق للطبيعة الأبَوية في زعامة المُفتي على كل جيل الرجال من طَبَقَتِهِ الذين ولِدوا في أواخر العصر العثماني والذين سيطَروا على القيادة الفلسطينية بل وعلى السياسة في معظم أرجاء العالَم العربي. كانت هنالك أحزابٌ

(1) Sayigh, "Desperately Nationalist", 69-70.

سياسية ناشئة بقواعد اجتماعية مختلفة في فلسطين وغيرها مثل الحزب القومي السوري الذي كان يوسف صايغ يَنتَمي إليه. ولكن فيما عدا حزب الوَفد في مصر الذي كان بالفعل حِزباً سياسياً جماهيرياً سيطَر على الحياة السياسية في البلاد منذ عام 1919، لم تتطَور هذه التشكيلات في أي مكان لدرجة أنها غطَّت على "سياسة النُّخبة" التي وصَفَها ألبرت حوراني بمَهارة في بَحثِه المَنشور سنة 1968[1].

نفَرَت الدولُ العربية الأخرى في النهاية من التعامل مع المكتب العربي بسبب تمويله الرئيسي من عراق نوري السعيد وحكومته المَدعومة من بريطانيا، وابتَعدَت عنه مصر والسعودية اللتان كانتا تطمحان لقيادة العالَم العربي بشكلٍ خاص، وشكَّكَ زعماؤهما وكذلك زعماء سورية ولبنان ربما بشكلٍ مُحقٍّ بأن خَلقَ المكتب العربي كان وسيلةً لتحقيق طموحات العراق في المنطقة. وكان من بين الوسائل الأخرى أيضاً مشروع توحيدٍ بين دول الهلال الخصيب: العراق وسورية ولبنان والأردن وفلسطين الذي خَشِيَ خصومُ نوري السعيد أنه كان يُحقّق مَصالح راعِيته بريطانيا العظمى[2]. أعلنَتْ جامعةُ الدول العربية في القاهرة والتي كانت تحت النفوذ المصري معارَضَتها للمكتب العربي مما حَدَّدَ كثيراً من قدراتِه وزادَ في النهاية من إضعافِ موقف الفلسطينيين.

في أثناء ذلك كان لدى المَلك عبد الله في الأردن طموحاته الخاصة في السيطرة على أكبر جزء ممكن من فلسطين وسَعى في سبيل ذلك إلى التفاهم مع الصهاينة

---

(1) Albert Hourani, “Ottoman Reform and the Politics of the Notables” in Beginnings of modernization in the Middle East: The Nineteenth Century, ed. William Polk and Richard Chambers (Chicago: Chicago University Press, 1968), 41-68.
أدركَ حوراني في كتابته عن النخبة ما يتحدَّث عنه إذ أن تدريسَهُ في بيروت وعمله لبريطانيا في القاهرة وجهوده مع المكتب العربي منَحتْه فُرَصَ التعامل عن قرب مع كثير من النماذج لهذه الفئة على مر عَقد من الزمن.

(2) "عِبرة فلسطين" (بيروت: دار الكاشف، 1949). يقترح موسى العَلَمي أن تنفيذ مشروع الهلال الخصيب سيكون رَداً مناسباً على خسارة فلسطين وهو ما يعتَبرهُ الدكتور حسين سبباً لتأييد الحكومة العراقية للعَلَمي كما وَرد في مذكراته "مضى عهد المجاملات" الجزء الثاني ص 30.

ومع داعِميه البريطانيين في خطَّته هذه. ذَكَرَ آفي شليم Avi Shlaim في تقريره صِراعٌ عَبرَ نَهر الأردن Collision Across the Jordan ذكرياته عن تلك المرحلة أن محادثات سرّية واسِعة قد أُجرِيتْ بين المَلك عبد الله وزعماء الوكالة اليهودية (أصبح بعضهم رؤساء وزراء إسرائيل) موسى شاريت وغولدا مائير[1]. بينما اتَّجَهت الأمم المتحدة نحو تقسيم فلسطين التقى المَلك معهم مراراً في السرّ أمَلاً في التَّوصل إلى اتفاقٍ يضُمُّ فيه الأردن الجزء من فلسطين الذي كان سيُخصَّص لأغلبيتها العربية. مَنَحَهم المَلكُ تأكيداته بأنّ الفلسطينيين سيتقبلون حُكمَه[2]، وهكذا على العكس من عراق نوري السعيد فإن المَلك عبد الله لم يكن مهتمّاً بأيّ شكلٍ من أشكال استقلال القيادة الفلسطينية ولا بأيّ هَيكلٍ مثل المكتب العربي الذي يمكن أن يَعملَ بمثابة ذراعهم الدبلوماسية.

تمتَّعَ الصهاينةُ بدَعمٍ دولي قوي وواسِع بالمقارَنة مع ضعف وتمزّق الحركة الوطنية الفلسطينية وكانت الدول العربية التي استقلّت حَديثاً (العراق والأردن ومصر وسورية ولبنان) هشَّةً ومُصابَة بالتمزق والخلافات الحَقودة، وكان على الفلسطينيين النضال في طموحاتهم المتنافِسة والمتَصَارعة. كان المَلك عبد الله في نزاعٍ تنافسي على الفلسطينيين مع المَلك فاروق في مصر والمَلك عبد العزيز في السعودية. وخاضَ زعماءٌ عرب آخرون أحياناً مفاوَضات معقَّدة غامضة سرّية مع الحركة الصهيونية لم تكن غالباً في مصلحة الفلسطينيين.

في الوقت نفسه استمر كثيرٌ من الزعماء العرب في الاعتماد بقوة على علاقات شخصية مع مستشارين بريطانيين لا يمكن الاعتماد عليهم على الرغم من اضمحلال القوة البريطانية. اعتَمَد المَلك عبد الله في الأردن وأخوه المَلك فيصل في العراق والمَلك عبد العزيز آل سعود على مسؤولين بريطانيين حالِيين أو سابِقين

---

(1) Avi Shlaim, Collision Across the Jordan: King Abdulla, The Zionist Movement and the Partition of Palestine (New York: Columbia University Press, 1988).

(2) إلا أن ثقة الملك تبخَّرتْ سريعاً في سنة 1947 كما توضحه قصة والِدي.

كانت مناصبهم غامضة (كان أحدهم قائد جيش المَلك عبد الله الجنرال السير جون باغوت غلوب John Bagot Glubb المعروف باسم غلوب باشا). كان هؤلاء الزعماء محكومِين أحيانـاً باتفاقيات لكي يَحتَفظوا بمِثلِ هؤلاء المستشارين الذين كان ولاؤهم الأساسي لبريطانيا وليس لِمَن يَستشيرهم من الزعماء العرب. كان الوضع كذلك مع الدبلوماسيين الأجانب الذين تلقّى منهم الزعماء العرب الاستشارات بل والأوامر أحيانـاً. كان منزل السفير البريطاني في عمان مُتاخِمـاً للقصر المَلَكي ويَسمح ذلك بجولات قصيرة عَبرَ الحديقة الخلفية لتقديم الإرشادات للمَلك[1].

كانت النصائح "قوية" أحيانـاً، ففي سنة 1942 كان السفير السير مايلز لامبسون Miles Lampson مستاءً من الحكومة المصرية آنذاك وأمَرَ الدبابات المصرية بمحاصَرة قصر عابدين في القاهرة ودَخلَ أرضَ القصر بسيارته الرولزرويس وأغلقَ أبوابَ القصر وأمَرَ المَلك فاروق بتَعيين رئيسٍ وزراءٍ اختارَتْهُ بريطانيا. وكان رئيس الوزراء هذا مصطفي النحاس باشا هو الذي لم يَسمَح لموسى العَلَمي بتمثيل فلسطين في الجامعة العربية، ولكن التغيير السريع لقراره بِفَرضٍ مِن ضابطٍ في المخابرات البريطانية أظهَرَ المَكمَن الحقيقي للسُلطة في القاهرة. وعلى كل حال مهما أرادَ كثيرٌ من الزعماء العرب إظهار استقلالهم بعد الحرب إلا أن الدول المتخَلِّفَة التي كانوا يتزعَمونها كانت واقِعة في شبكةٍ معقَّدة من الارتباطات تأسَّست على اتفاقياتٍ غير متوازنة وغير عادلة، واستمر وجود الاحتلال العسكري الأجنبي والسيطرة الخارجية على مواردها الطبيعية وغيرها من المصادر.

أما بالنسبة إلى القوة الصاعدة في الولايات المتحدة الأمريكية فقد كان الزعماء العرب الذين تم اختيار أغلبهم من قِبل أسيادهم الأوروبيين بسبب مرونَتهم وليونَتهم فقد أظهَروا ضَعفاً ممزوجـاً بانخفاض مُذهِل في مستوى الخبرة وعدم

(1) سَرَدَ وليد الخالدي كيف اكتُشِفَ هذا "المدخل الخلفي" للقَصر في زيارة لعمّان في بداية الخمسينيات: اتصال شخصي مع الكاتب في 16 يناير 2016. كانت "النصيحة" البريطانية تقدَّم أحياناً من خلال وسطاء مثل أفراد من العائلة المالكة.

الـوعي للتغيـرات الدوليـة. وقَّـعَ المَلـك عبـد العزيـز في العربيـة السـعودية اتفاقيـةً مسـتقبلية مهمّـة مـع شـركات بـترول أمريكيـة سـنة 1933 علـى حسـاب المصـالح البترولية البريطانية، واجتمَعَ مع الرئيس المريض فرانكلين روزفلت في سفينة حربية أمريكية في ربيع 1945 قَبل أسابيع من وفاة الـرئيس الأمريكـي، وحصَـل علـى وعـود مؤكّدة مباشرة من الرئيس بأن الولايات المتحـدة لـن تفعَـل شيئاً يضرّ بـالعرب في فلسطين وأنها ستتشاور مع العرب قَبـل القيـام بـأي تصـرف هنـاك[1]. تجاوَزَ هـاري ترومان الذي جاء بعد روزفلت جميع هذه الوعود دون اكتراث ولم يَعتَرض المَلك على ذلك ولـم يقـدّم أي محاوَلـة مؤثِّرة لصـالح الفلسـطينيين بسـبب اعتمـاد النظـام السعودي اقتصادياً وعسكرياً على الولايات المتحدة الأمريكيـة. ولـم يَفعَـل ذلـك أيضـاً أي واحِـد مـن أولاده السـتة الـذين جـاؤوا مـن بَعـده. الاعتمـادُ علـى أمريكـا بالإضـافة إلـى جَهـل أجيـالٍ بَعـدَ أجيـالٍ مـن الحكّـام العـرب باسـلوب عَمَـلِ النظـام السياسي الأمريكي والسياسـة الدوليـة حَـرَمَ العـالَم العربـي مـن أيـة فرصـة لمقاومـة التأثير الأمريكي أو لتغيير السياسة الأمريكية.

ومـن الناحيـة الأخـرى فقـد اسـتَخدَمت الحركـةُ الصـهيونية مَعرفَـةً متطـورة بالسياسة الدولية وذلك بفضل نَشأتِها في أوروبا ضمن يَهودٍ مُتعلِّمين مُندَمِجين مثل ثيودور هيرتسل وحاييم وايزمان. كما استفادَتْ الحركة من جذورٍ عميقة وعلاقات وثيقة بالولايات المتحدة الأمريكية تم تأسيسها قبل عُقود مـن لقـاء والـدي بالمَلـك

(1) للاطلاع على رسالة روزفلت التي أكّدتْ هذه الوعود في 5 أبريل 1945 انظر
United States Department of State, Foreign Relations of the United States: Diplomatic Papers (hereafter FRUS), 1945. The Near East and Africa, vol 8 (1945).
أكّدتْ على التزام الحكومة الأمريكية بخصوص فلسطين "وأنه لن يُتخَذ أي قرار يتعلق بالوضع الأساسي في تلك الدولة دون التشاور الكامل مع العرب واليهود" وتضيف أن الرئيس "لن يقوم بأي تصرف ضمن إمكانياته كرئيس تنفيذي لهذه الحكومة يمكن أن يكون عدائياً للشعب العربي". لمزيد من التفصيل انظر رشيد خالدي
Brokers of Deceit: How the US Has Undermined Peace in the Middle East" (Boston: Beacon Press, 2013), 20-25.

عبد الله، إذ أنَّ ديفيد بن غوريون واسحاق بن زڤي، الذي أصبح فيما بعد الرئيس الثاني لإسرائيل، قد قَضَيا سنوات عدّة في نهاية الحرب العالمية الأولى في العمل من أجل القضية الصهيونية في الولايات المتحدة الأمريكية حيث عاشَتْ غولدا مائير منذ طفولتها. (بينما كان والدي هو أول من فَعَلَ ذلك من أفراد العائلة). فهِمَت القيادة الصهيونية المجتمعَ الأوروبي وغيره من المجتمعات الغربية بشكل عميق متطور، وكان أغلب أفراد هذه القيادة مواطنين أو مُقيمين فيها، بينما لم يتمتَّع قادةُ العرب سوى بفهمٍ مَحدود لسياسات وثقافات ومجتمعات الدول الأوروبية، فكيف بفَهم القوى العظمى الناشئة! تحدَّثَ والدي عن تفرّق الفلسطينيين والعرب، وكذلك الدكتور حسين ويوسف صايغ ووليد الخالدي، كما وصَفوا الدسائس والخلافات داخلية التي كانت كارثية في النهاية بالنسبة لخطة المكتب العربي في تمثيل الفلسطينيين دوليّاً، وكذلك بالنسبة لفرصهم في قمّة صراع 1947-1948. لقد دَخَلوا هذا الصراع المصيري باستعدادات هزيلة سياسياً وعسكرياً، وبقيادة ممزَّقة ومتفرِّقة. كما لم يكن لديهم أي دعم خارجي سوى من دول عربية منقَسِمة بعمقٍ وغَير مستقرة وخاضِعة لتأثير القوى الاستعمارية القديمة، وكان سكانها فقراء وغير متعلّمين إلى حَدٍّ كبير. كان هذا بالمقارنة الصارِخَة مع الدَّعم الدولي الكبير وبناء أسس الدولة القوية الحديثة الذي تَمتَّعتْ به الحركة الصهيونية على مدى عقود.

واجهَتْ الحركة الوطنية الفلسطينية منذ 1917 بالتّضامن المُعادي بين بريطانيا وربَيبِها المشروع الصهيوني، غَيرَ أن الصهاينة أصبَحوا بالتدريج أكثر عداوة لأربابِهم البريطانيين بعد إصدار الصحيفة البيضاء سنة 1939. اندَلَعتْ هذه العدوانية باغتيالات مسؤولين بريطانيين مثل اغتيال اللورد مويان Lord Moyne الوزير المُقيم في مصر الذي اغتالَته عصابة شتيرن سنة 1944 وتَبِعَ ذلك حَملة عنف مستمرة ضد القوات البريطانية والإداريين في فلسطين. تُوِّجَتْ تلك الحَملة بتَفجير مَقر القيادة البريطانية في فندق المَلك داوود الذي قَضَى على 91 شخصاً. سرعان ما وجَد البريطانيون أنفسهم غير قادرين على السيطرة على المقاومة المسلحة لجميع

لعصابات الصهيونية تقريباً التي كانوا قد صَنعوا هم أنفسهم تنظيماتها العسكرية القوية واستخباراتها الفعّالة ودَعموها خلال الثورة الفلسطينية الكبرى والحرب العالمية الثانية. كانت بريطانيا العظمى تَترنَّح تحت وَطأة المشاكل الاقتصادية والمالية التي عانَت منها بعد الحرب وتفكّك امبراطوريتها القديمة في الهند فاضطرت إلى الاستسلام أخيراً في فلسطين.

رمَتْ حكومةُ كليمنت أتلي Clement Attlee سنة 1947 مشكلةَ فلسطين في أحضان منظمة الأمم المتحدة الوليدة. أنشَأت الأمم المتحدة لجنةً خاصة بفلسطين (UNSCOP) لتقديم اقتراحات بشأن مستقبل البلد، وكانت القوى المسيطِرة على الأمم المتحدة هي الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي، وقد توقَّعت الحركةُ الصهيونية هذه التطورات بدَهاء بفَضل جهودها الدبلوماسية نحو هاتَين الدولتَين، إلا أن ذلك فاجَأ الفلسطينيين والعرب تماماً. ظهَر توازن القوى العظمى بعد الحرب في أعمال هذه اللجنة وفي تقريرها الذي صَدرَ مؤيِّداً تقسيمَ فلسطين بطريقةٍ كانت في صالح الأقلية اليهودية فمَنَحَتْهم 56٪ من فلسطين مقارنةً بالدولة اليهودية الأصغَر بكثير (17٪) التي اقتَرحَتْها خطةُ تقسيم لجنة بيل Peel سنة 1937. كما ظهَر تأثير توازن القوى العظمى الجديد كذلك في الضغط الذي أدّى لإصدار قرار الجمعية العامة رقم 181 الذي استَند إلى تقرير الأغلبية في اللجنة الخاصة بفلسطين (UNSCOP).

قرارُ الجمعية العمومية للأمم المتحدة رقم 181 الذي صَدرَ في 29 نوفمبر 1947 أقرَّ تقسيم فلسطين إلى دولة يهودية كبيرة ودولة عربية أصغر ووضَع مدينة القدس كمنطقةٍ منفصِلة دولية وعَكَس توازن القوى الدولية الجديد. أصبح واضِحاً أن الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي اللتان أيّدَتا القرار قد لعِبَتا الدَّور الحاسِم في التضحية بالفلسطينيين لصالح دولة يهودية تحلّ محلَّهم وتسيطِر على أغلب مناطق بلادهم. كان قرارُ التقسيم إعلانَ حربٍ آخر منَحَ وثيقةَ ميلادٍ لدولة يهودية في أرضٍ كانت عربية في معظَم أرجائها في مخالفَةٍ صريحة لمبدأ تقرير

المصير الذي أعلَنَه ميثاق تأسيس الأمم المتحدة، وقد تَبعَ ذلك بالضرورة طَردُ عددٍ من العرب يكفي لصنع دولة أغلبية يهودية. ومثلما لم يَعتَقد بلفور بأن الصهيونية ستؤذي العرب، يبدو أن ترومان وستالين عندما ضَغطوا لتَمرير قرار التقسيم رقم 181 في الجمعية العمومية لم ينتَبهوا أو أن مستشاريهِما لم يَمنَحوا أية أهمية لما يمكن أن يَحدُث للفلسطينيين نتيجةً لتَصويتِهما.

في تلك الأثناء لم يَعُدْ خَلقُ دولةٍ يهودية هدف بريطانيا فقد اشتاطَتْ غضباً بسبب الحَملة الصهيونية العنيفة التي أخرجَتها من فلسطين، كما أنها لم تَعد ترغَب بإثارة استياء رعاياها العرب فيما تبقّى لها من امبراطوريتها في الشرق الأوسط، ولذلك فقد امتَنعتْ بريطانيا عن التصويت على قرار التقسيم. أدرك السياسيون البريطانيون منذ الورقة البيضاء سنة 1939 أن مصالح بلادهم الرئيسية في الشرق الأوسط هي مع الدول العربية المستقلة وليست مع المشروع الصهيوني الذي رَعَتْهُ بريطانيا على مدى عَقدَين من الزمن.

أدّى قرارُ التقسيم الذي أصدَرتْه الأمم المتحدة إلى دَعم القوتَين الدوليتَين الناشئتَين في فترة ما بعد الحرب للمؤسسات الصهيونية العسكرية والمدنية، فاستعدّتْ للاستيلاء على أكبر جزء ممكِن من الأرض. كانت المأساة الفلسطينية التي تَبِعَتْ ذلك نتيجةَ ضَعفهم وضَعف العرب وكذلك نتيجةَ قوة الصهاينة وتأثير أحداثٍ كانت تجري في أماكِنَ بعيدة في لندن وواشنطن وموسكو ونيويورك وعمّان.

جَرَتْ أحداثُ النكبة وكأنها حادِثَةُ تحطّم قطار تَجري ببطءٍ وبلا نهاية على مدى أشهر عديدة. بدأتْ مرحلتها الأولى في 30 نوفمبر 1947 واستمرَّت حتى الجلاء النهائي للقوات البريطانية وتأسيس إسرائيل في 15 مايو 1948. شَهِدَتْ هزائمَ متتالية أمام الميليشيات الصهيونية المسلحة مثل الهاغانا والإرغون للفلسطينيين بتسليحِهم الضعيف وتَنظيمِهم الممزَّق ومَن هَرَعَ لمساعدتهم من المتطوعين العرب. شَهِدَت المرحلةُ الأولى جولات قتالٍ مَرير انتهتْ بهجومٍ صهيوني واسع

على مدى البلاد تحت اسم الخطة دال D في ربيع سنة 1948[1]. شَملَت الخطة دال احتلالَ وتفريغ سكان أكبر مدينتَين عربيتَين في يافا وحيفا والأحياء العربية في القدس الغربية خلال شهر أبريل والنصف الأول من شهر مايو، بالإضافة إلى عدد من المُدن والبلدات والقُرى العربية مثل طَبَريا في 18 أبريل، وصَفَد في 10 مايو، وبيسان في 11 مايو. وهكذا بدأ التطهير العرقي للفلسطينيين قَبل إعلان دولة إسرائيل في 15 مايو 1948.

حوصِرتْ يافا وتم قَصفُها دون توقّف بمَدافع الهاون وأنهكَها القَنَّاصة. وعندما احتلَّتها القوات الصهيونية في النهاية خلال الأسبوع الأول من مايو تم تَفريغُها بشكلٍ مَنهَجي من معظم سكانها العرب الذين بلغ عددهم ستون ألفاً آنذاك. على الرغم من أن يافا كان من المفترَض أن تكون جزءاً من الدولة العربية التي ولِدتْ ميتةً حسب قرار التقسيم، إلا أن أحَداً من اللاعبين الدوليين لم يحرك ساكناً لوَقف هذا الخَرق الصارخ لقرار الأمم المتحدة. بعد القصف والهجوم على الأحياء المَدنية الضعيفة، تَكَبَّدَ المصيرَ نفسه 60000 من الفلسطينيين في حيفا، و30000 ألفاً في القدس الغربية، و12000 ألفاً في صَفَد، و6000 في بيسان، و5500 في طَبَريا. وهكذا أصبحت غالبية السكان العرب الحَضَريين لاجئيين وفَقَدوا بيوتهم ومعيشَتهم.

---

(1) مرة أخرى المرجع الأساسي هو العمل الضخم عن هذا الموضوع لوليد خالدي، خاصة مقالته الرائدة "الخطة دال: الخطة العامة لاحتلال فلسطين" في
Journal of Palestine Studies 18, no. 1 (Autumn 1988): 4-33.
ظَهرت المقالة أولاً في 1961 Middle East Forum in أكَّدَ مؤرخون آخرون معظم أبحاثه الأساسية حتى تلك التي أولئك الذين لا يتفقون معه في بعض النقاط مثل بيني موريس
Benny Morris, *The Birth of the Palestinian Refugee Problem Revisited*, 2nd ed. (Cambridge: Cambridge University Press, 2004).
انظر أيضاً
See also Simha Flapan, *The Birth of Israel: Myth and Reality* (New York: Pantheon, 1987); Tom Segev, *1949: The First Israelis*, 2nd ed. (New York: Henry Holt, 1998); and Ilan Pappe, *The Ethnic Cleansing of Palestine*, 2nd ed. (London: Oneworld, 2007).

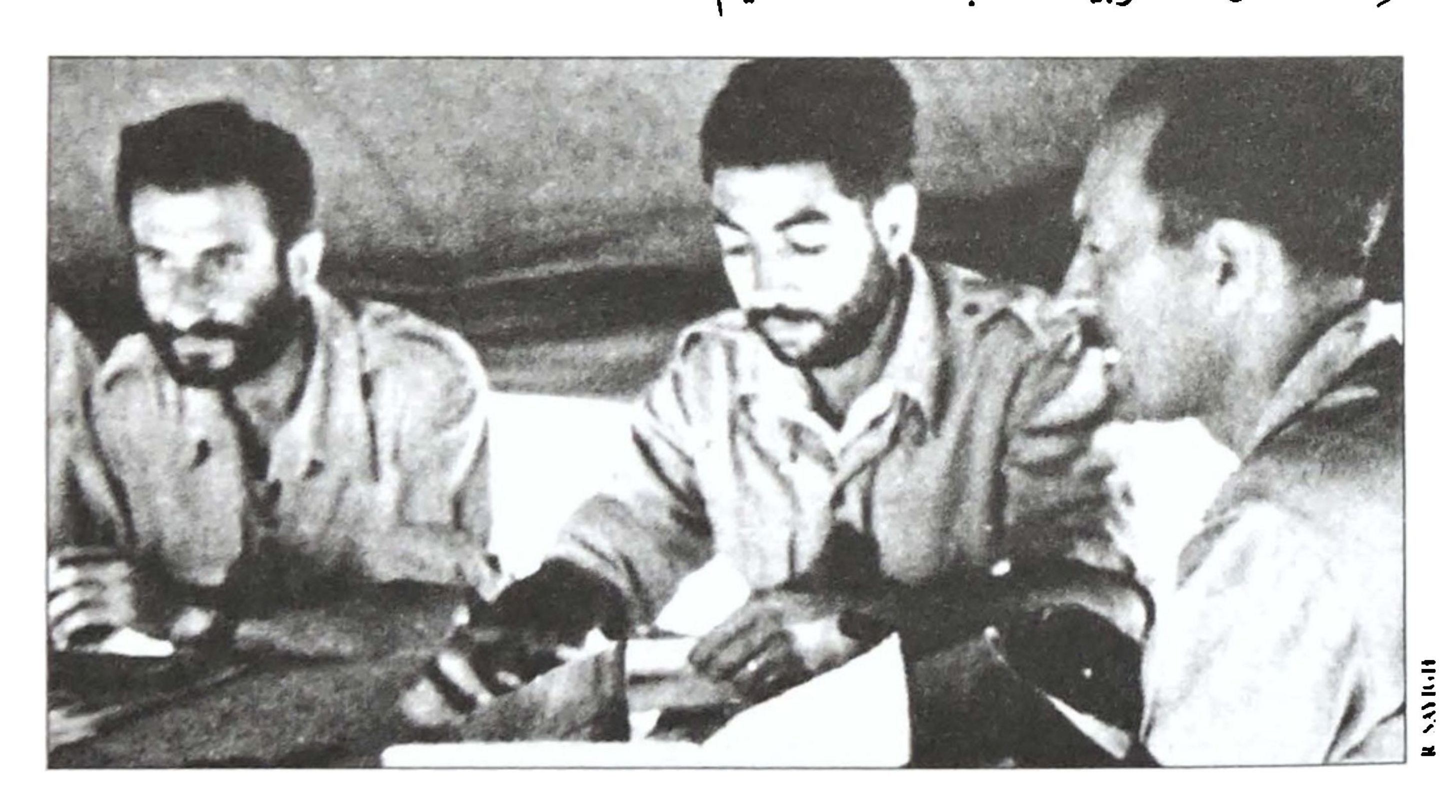
عندما احتلَّت الهاغانا وغيرها من الميليشيات الصهيونية الأحياءَ العربية للقدس الغربية في أبريل 1948 استولَتْ على المركز الرئيسي للصندوق العربي في حَيّ القَطمون وأُسِرَ مُديرُهُ يوسف الصايغ. قَبل ذلك بأسابيع قليلة سافَرَ الصايغ إلى عمّان ليَطلبَ المساعَدة من المَلك عبد الله ليمنَع السقوط المحتّم للأحياء العربية من القدس الغربية، إلا أن القنصل الأردني العام في القدس أخبَرَ المَلك هاتفياً أثناء وجود صايغ بعدم وجود أيّ خَطَر وصرَّح: "مولاي، مَن الذي يخبركَ بهذه القصص وأنَّ القدس ستَسقط بيَد الصهاينة؟ هذا غَير صحيح!"[1] رفضَ المَلك عبد الله طَلَبَ الصايغ نتيجةً لذلك، وسقطَت الأحياء العربية الثرية في القدس الغربية. قضَى الصايغ بقية فترة الحرب في معسكرٍ لسُجَناء الحرب على الرغم من أنه لم يكن عسكرياً.



يافا سنة 1948 تفرّغ من سكانها خلال تنفيذ الخطة دال

(1) مذكّرات صايغ تتضمن وَصفاً أوسَع لتجربته في تلك الفترة. انظر
Yusuf Sayigh, *Sira ghayr muktamala*, 227-60.

اتضَحَت مشاهدُ الهروب في البلدات والقُرى الأصغر في كثير من أنحاء البلاد. هرب الناس مع انتشار أخبار المذابح مثل تلك التي حدَثَت في 9 أبريل 1948 في قرية دير ياسين قُرب القدس حيث قُتل مئة من سكانها بينهم 67 امرأة وطفل ومسنّ عندما اقتَحَمَ القريةَ مهاجمون من الإرغون والهاغانا[1]. وقَبلَها بيومٍ واحد سقطَت قريةُ القَسطَل الاستراتيجية المُجاوِرة بيد القوات الصهيونية في معركةٍ استُشهِد فيها عبد القادر الحسيني القائدُ الفلسطيني لمنطقة القدس أثناء قيادَتِه لمُقاتِليه[2]. كان قد عاد لتَوّه هو أيضاً من رحلةٍ فاشلة إلى عاصمة عربية أخرى هي دمشق طالِباً السلاح من لجنة الجامعة العربية. كان عبد القادر الحسيني أفضَلَ قائد فلسطيني عسكري محترَم (خاصة بعدما قَتَلَ البريطانيون أو أعدَموا أو نَفوا كثيراً منهم خلال الثورة الفلسطينية الكبرى). كان استشهادُه ضربةً قاصِمة للجهود الفلسطينية في الاحتفاظ بمنافِذِ الطرق إلى القدس، وكلها مناطق كان من المُفتَرَض أن تكون خاضِعة للدولة العربية حسب خطة التقسيم.



يوسف صايغ، سَجين حرب، إلى اليسار

(1) Walid Khalidi, *Dayr Yasin: al-Jum'a, 9/4/1948* [Dayr Yasin: Friday, 9/4/1948] (Beirut: Institute for Palestine Studies, 1999), table, 127.

(2) Nir Hasson, "A Fight to the Death and Betrayal by the Arab World," *Haaretz*, January 5, 2018.

خلال المرحلة الأولى من النكبة قَبل 15 مايو 1948، أدى نَمَطٌ من التطهير العرقي إلى طَرد وتهجير وهَرَب حوالي 300000 فلسطيني، وتدمير معظَم المراكز العربية الحَضَرية الرئيسية الاقتصادية والسياسية والمَدَنية والثقافية. جاءَت المرحلة الثانية بعد 15 مايو عندما هَزَمَ الجيشُ الإسرائيلي الجديد الجيوشَ العربية التي انضمَّتْ إلى الحرب. جاء قرارُ الحكومات العربية بالتدخل العسكري متأخِراً تحت ضغطٍ كبير من الجماهير العربية التي كانت مستاءَةً جداً بسبب سقوط المُدن والقُرى الفلسطينية واحدةً تِلوَ أخرى، ووصول موجاتٍ من اللاجئين المَحرومين إلى العواصم المجاورة[1]. أدّت خسارةُ الجيوش العربية وحُدوثُ مزيد مِن قَتلِ المَدنيين إلى هجرة أعداد أكبر من الفلسطينيين، وتم طَرد 400000 فلسطيني آخَر من منازلهم إلى الدول المجاورة في الأردن وسوريا ولبنان وإلى الضفة الغربية وغزة (اللتان شكّلتا بقية 22٪ من فلسطين التي لم تحتَلَّها إسرائيل). لم يُسمَح لأي منهم بالعودة، وتم تدمير بيوتهم وقُراهم لمَنعِهم من العودة[2]. طُرِدَ مزيدٌ من الآخرين مِنَ الدولة الإسرائيلية الجديدة بعد توقيع اتفاقية الهدنة سنة 1949، كما تم تهجير أعداد أخرى بالقوة بعد ذلك، وهكذا يمكن فَهمُ النكبة الفلسطينية كمأساةٍ مستمرة.

كان جدّي وجدّتي بين المهاجرين سنة 1948 وكان عليهما تَركُ منزلِهما في تلّ الرّيش مَسقط رأس والِدي وأغلب إخوته وأخواته. أصرَّ جدّي الذي بلغ عمره آنذاك 85 سنة على البقاء بعِناد ورفَضَ تركَ بيتِه، ولكن بَعدَ أن لَجأ أولادُهُ وأغلب عائلاتهم إلى القدس ونابلس بَقِيَ وحدَهُ بضعة أسابيع حتى جاء صديقٌ للعائلة من يافا خلال فترةٍ من هدوء القتال لأخذِهِ قَلِقاً على سلامَتِه. غادَرَ جدّي بترددٍ كبير حزيناً لأنه لم يتمكّن من أخذ كتُبِه معه. لم يشاهِد هو ولا أولاده بيتَهم بعد ذلك مرة

(1) أفضل وصف لقرار الدول العربية دخول فلسطين يمكن إيجاده في
Walid Khalidi, "The Arab Perspective," in *The End of the Palestine Mandate*, ed. W.R. Louis and Robert Stookey (Austin: University of Texas Press, 1986), 104-36.

(2) ذَكَرَ مصيرَ تلك القرى بالتفصيل في
Walid Khalidi, ed., *All That Remains: The Palestinian Villages Occupied and Depopulated by Israel in 1948* (Washington, DC: Institute for Palestine Studies, 1992).

ثانية، فما زالت أطلالُ بيت جدّي الحَجري الكبير قائمةً ومَهجورة في ضواحي تل أبيب[1].

تُمثِّلُ النكبة شلالاً مستمراً في تاريخ فلسطين والشرق الأوسط، فقد غيّرتْ أغلب مناطق فلسطين عما كانت عليه منذ ألف سنة كانت خلالها منطقةً عربية بشكل عام وتحوَّلتْ إلى دولةٍ جديدة ذات غالبية يهودية كبيرة[2]. حَدَثَ هذا التحول نتيجَةَ مَسارَين: التطهير العرقي المُمنَهج للمناطق العربية من البلاد التي تم احتلالها خلال الحرب، وسَرِقَةُ الأراضي والممتَلكات التي خَلَّفَها اللاجئون وراءهم، بالإضافة إلى كثير مما كان يمتَلِكُهُ العرب الذين بَقوا في إسرائيل. لم يكن ممكناً تحقيق أغلبية يهودية دون هذه الوسائل، وكان هذا هو الهدف الصريح للصهيونية السياسية منذ ولادَتِها. وكذلك لم تكن السيطرة على البلاد ممكِنة دون احتلال الأرض. النتيجة الرئيسية الثالثة التي مازالت مستمرة من نتائج النكبة هي الضحايا. طَردُ مئات الآلاف من الفلسطينيين من بيوتهم أدّى إلى عدم استقرار سوريا ولبنان والأردن التي كانت دولاً فقيرة ضعيفة حديثة الاستقلال، كما أدّى تَهجيرُ الفلسطينيين إلى عدم استقرار المنطقة لسنوات بعد ذلك.

---

(1) البيت المهدَّم هو موضوع بحثٍ معماري يتألف من 62 صفحة باللغة العِبرية تصف مراحل تطوره مع الزمن مع صور لحالته المعاصرة. لم يتهدّم البيت مثل بيوتِ عرب آخرين في المنطقة التي أصبحتْ إسرائيل في 1948 بسبب مكانته المقدّسة في التاريخ الصهيوني. فقبل أن يَشتريه جدّي استأجَرَت غرفاً فيه لبضعة أشهر سنة 1882 جماعةٌ من المهاجرين الصهاينة الأول بقيادة إسرائيل بلكيند Israel Belkind وأخيه شمشون كان اسمهم البيلويم Bilu'im. ثم أسسوا ريشون ليزيون Rishon LeZion ثاني مستعمرة زراعية في فلسطين. يسمى البيت الآن بيت البيلويم. أشكر د. نيلي بلكيند الحفيدة الكبرى لإسرائيل بلكيند لتقديم هذه المعلومات ولإرشادي إلى البحث الذي نشره Lihi Davidovich and Tamir Lavi, titled "Tik Ti'ud: Bet Antun Ayub-Bet Ha-Bilu'im". [Documentation File: The Anton Ayyub House-House of the Bilu'im], 2005/2006. الذي يمكن إيجاده في موقع كلية العمارة في جامعة تل أبيب

(2) أحد أفضل التقارير عن هذا التّحول يمكن إيجاده في Tom Segev, *1949 :The First Israelis* (New York: The Free Press, 1986). See also Ibrahim Abu-Lughod, *The Transformation of Palestine* (Evanston, IL: Northwestern University Press, 1971).



أطلال بيت عائلة الخالدي في تلّ الرّيش

غَيرَ أن المَلك عبد الله في الأردن استفادَ من الحرب على المَدى القصير بعد ذلك. أُطلِقَ عليه لقب "الصقر في قَفَص الكناري"، وكان يريد دائماً أن يحكُم منطقةً أكبر ورعايا أكثر من منطقة شرق الأردن الصغيرة القليلة السكان، إذ كان عدد سكانها حوالي 200000 نَسَمَة عندما وصَلَ إليها سنة 1921[1]. حاوَلَ توسيعَ منطقة سيطَرتِهِ بطُرقٍ عديدة مختلفة، وكان الاتجاه غرباً نحو فلسطين هو أوضَح الطرق أمامه، وهذا يفسّر المباحثات السرّية الطويلة مع الصهاينة للتوصل إلى اتفاقٍ يمنَحُهُ السيطرة على جزء من البلاد. من أجل تحقيق هذا الهدف، وافَقَ عبد الله سِرّاً على توصيات سنة 1937 التي قدَّمَتْها لجنة بيل في تقسيم فلسطين (وكان الزعيم العربي الوحيد الذي وافَقَ عليها)، والتي كانت ستَقتَطِعُ جزءاً من القسم العربي وتضمّه إلى الأردن.

---

(1) هذا عنوان فصل في
Avi Shlaim, *The Politics of Partition: King Abdullah, the Zionists and Palestine, 1921-1951.* (London: Oxford University Press), 18, which is an abridged paperback edition of *Collusion Across the Jordan*.

عارَضَ المَلكُ والبريطانيون السَّماحَ للفلسطينيين الاستفادةَ من قرار التقسيم سنة 1947 أو من الحرب التي تَبِعَتْ ذلك، ولم يرغب أيّ منهما بوجود دولةٍ عربية مستقلة في فلسطين. توصَّلا إلى اتفاقية سرّية لمَنع ذلك "بإرسال الجيش العربي عَبرَ نهر الأردن حالما انتهى الانتداب لاحتلال الجزء الذي خُصِّصَ للعرب من فلسطين"[1]. انسَجَمَ هذا الهدف مع ما أرادَتْهُ الحركة الصهيونية التي تفاوضَتْ مع عبد الله لتحقيق الغاية نفسها. وعلى كل حال، حالَما تم التغلب على مقاومة الفلسطينيين التي كانت عنيدة ولكنها غير منظَّمة في ربيع 1948 في سياق الهجوم الصهيوني الواسع ودخول الجيوش العربية إلى فلسطين بعد ذلك، بادَرَ الجيشُ العربي الذي كان أداةَ تنفيذ طموحات عبد الله التوسعية، وواجَهَ تقدّم الجيش الإسرائيلي الجديد. وبفضل النفوذ البريطاني القوي، كان تسليحُ وتدريب الجيش العربي بريطانياً، بقيادة ضباط بريطانيين، وتمتَّع بخبرة قتالية أفضَل من أيّ جيشٍ آخر في الشرق الأوسط. ونَجَحَ في مَنع إسرائيل من احتلال الضفة الغربية والقدس الشرقية، واحتَفَظَ بتلك المنطقة للمَلك عبد الله بينما مَنعَ الفلسطينيين عنها. وكما لاحَظ المؤرخ آفي شليم Avi Shlaim "لا يُبالَغ في القَول" إن وزير الخارجية البريطاني إرنست بيفين Ernest Bevin "تواطَأَ مع الأردن بشكلٍ مباشر، ومع اليهود بشكل غير مباشر لكي يُجهِضَ ولادةَ دولةٍ عربية فلسطينية"[2].

واجَهتْ بقية الدول العربية الحديثة الاستقلال احتمالات قاتِمة بعد حرب 1948 بسبب تدفّق اللاجئين الفلسطينيين، وبسبب خسارَتهم معركةَ قرارِ تقسيم فلسطين في الأمم المتحدة سنة 1947، ثم هزيمة جيوشهم في حرب 1948 واحداً تلو الآخر أمام تفوق قوات الدولة الإسرائيلية الجديدة. لا نَقبَلُ القولَ الذي يُصِرُّ على

(1) تصف ماري ويلسون بالضبط كيف خطّط البريطانيون وعبد الله فِعل ذلك في *King Abdullah, Britain and the Making of Jordan* (Cambridge: Cambridge University Press, 1987) 166-67ff.

(2) Shlaim, *Collusion Across the Jordan, 139*. يَصِفُ بالتفصيل عناصر ذلك التآمر المعقَّد ضد الفلسطينيين.

ضَآلة الجيش الإسرائيلي أمام جيوش سَبعِ دولٍ عربية مهاجِمة لأننا نَعلَم أنّ جيشَ إسرائيل سنة 1948 كان متفوِّقاً على خصومِه في العَدَد والتَّسليح. كان هنالك في ميدان القتال خمس قوات عسكرية عربية نظامية فقط في حرب سنة 1948 لأن المملكة العربية السعودية واليمن لم تمتلِكا جيوشاً حديثة يمكن اعتبارها. دخَلتْ منها أربعةُ جيوش فقط إلى منطقة الانتداب الفلسطينية (لأن الجيش اللبناني الصغير لم يَعبر خطَّ الجبهة). كما أن اثنين من هذه الجيوش الأربعة (الجيش العربي الأردني والقوات العراقية) منعَهُما حَليفُهُما البريطاني من اختراق حدود المناطق المخصَّصة للدولة اليهودية في قرار التقسيم، وبذلك لم يَقومَا بِغَزو إسرائيل[1].

فشلت الدول العربية فشَلاً ذريعاً في مواجهة أول اختبارٍ دولي لها، وكانت النتائج كارثية، وبدأت سلسلةٌ من الهزائم العسكرية الحاسِمة أمام الآلة العسكرية الإسرائيلية التي سرعان ما أصبَحتْ قوية، واستمرتْ تلك الهزائم حتى حرب لبنان سنة 1982، وأدّت إلى سلسلةٍ من الصَّدَمات في المنطقة صادَقَتْ على جميع تَنَبؤات ألبيرت حوراني المتشائِمَة في سنة 1946. كانت الدول العربية تناضِل في سبيل التَّخلص من أرزاء الفقر والتَّبَعية والاحتلال الأجنبي والسيطَرة غير المباشرة، وأصبح عليها الآن أن تواجِه التحديات الداخلية الجديدة الصعبة ومشاكل أخرى تَخلُقُها إسرائيل، الجارَةُ القوية العُدوانية الجديدة.

وأخيراً، أكّدتْ حربُ فلسطين على أفولِ شَمس بريطانيا العظمى في الشرق الأوسط واستِبدالها بالقوى العظمى المتصارِعة: الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي. وعلى الرغم من صراعهما الشَّرس بعد الحرب، إلا أنهما

---

(1) أول من كَشفَ هذه الأسطورة هم الكتاب الإسرائيليون مثل
Flapan, *The Birth of Israel*; Tom Segev, *1949: The First Israelis*; and Avi Shlaim, *The Iron Wall: Israel and the Arab World.*
الذين يُعتَبرون المؤرخين الجُدد أو الإصلاحيين لأنهم يتَحَدّون الرواية المُرصَّعة التي وصَلتْهم عن تأسيس الدولة اليهودية.

اتَّفقَتا على تأييد قرار تقسيم فلسطين وخَلقِ دولةٍ يهودية لأسباب مختلفة، وما أن تأسَّست دولةُ إسرائيل حتى سارَعَتا للاعتراف بها وقدَّمَتا دَعماً عسكرياً مصيرياً كان حاسِماً في نَصرِها. لم تُحاول أيّ مِنَ الدولتَين عمل أي شيء للمساعدة في خَلقِ الدولة العربية الموصوفة في قرار التقسيم، ولم تَمنَعا إلغاءَ وجود تلك الدولة من خلال تعاونٍ صامِتٍ مع إسرائيل والأردن وبريطانيا[1].

مع الأخذِ بالاعتبار لهذه المواقف المتشابِهة، إلا أن دَعمَ الدولتَين العُظمَتَين لإسرائيل كان مختلِفاً في دوافِعِه واستمراره وطبيعتِه، فسرعان ما غَضِبَ ستالين ورفاقه من زعماء الاتحاد السوفييتي من دولةٍ افترَضوا أنها ستكون تابِعاً اشتراكياً لَهم. توقَّعوا أن إسرائيل ستمثّل ثقلاً تقدّمياً بمواجَهة ما اعتَبرتْه موسكو مَخالب بريطانيا من الملوك العرب الحلفاء لبريطانيا في الأردن والعراق ومصر، وأنها ستَتَحالف تماماً مع الاتحاد السوفييتي. ولكن في عام 1950 اتَّخذَت اسرائيلُ موقف الحِياد خلال الحرب الكورية، وتقاربَت مع الولايات المتحدة الأمريكية، وأصبح واضِحاً أنها لن تكون حليفةً للاتحاد السوفييتي. وفَتُرت العلاقاتُ بسرعة بين البلدَين وطَوَّرَ الاتحاد السوفييتي علاقات وثيقة مع عددٍ من الدول العربية بحلول سنة 1955 بينما تحالَفَتْ اسرائيل سِراً مع القوى الاستعمارية التقليدية، فرنسا وبريطانيا، ضد واحِدٍ من حلفاءِ الاتحاد السوفييتي العرب الجدد في مصر. وهكذا ثَبتَ أن شَهر العَسل بين الاتحاد السوفييتي والصهاينة وإسرائيل كان عابِراً.

تطوّرتْ علاقة إسرائيل بالولايات المتحدة الأمريكية على جبهاتٍ مختلفة تماماً، وعلى العكس من مناطِق قياصِرة روسيا التي كانت بَوتَقةً ساخنة لمُعاداة السامية في أوروبا وولَّدَت الصهيونية، فإن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تُعتَبر دائماً مَلجَأً مَقبولاً لليهود المضطَهَدين الهاربين من أوروبا الشرقية، وهاجَر 90٪ منهم إليها. ارتفَع عددُ اليهود الأمريكان في الفترة 1880–1920 من ربع مليون إلى أربعة ملايين. وجاء

---

(1) Avi Shlaim, *Collusion Across the Jordan* is indispensable for understanding how this happened. See also Mary Wilson, *King Abdullah, Britain and the Making of Jordan*.

أغلب المهاجرين الجدد من أوروبا الشرقية[1]. أسَّست الصهيونية السياسية الحديثة جذوراً عميقة في الولايات المتحدة ضمن الجماعات اليهودية وكذلك مع كثير من المسيحيين. ربِحَت الصهيونيةُ تأييدَ فئات مؤثّرة من الرأي العام الأمريكي مع وصول هتلر إلى السلطة الألمانية في أوائل الثلاثينيات. كما كان نَشرُ أهوال المحرقة (الهولوكوست) حاسِماً في ترسيخ شرعية آمال الصهيونية ومطالَبَتها بدولةٍ يهودية، وفي تَثبيط وخَنق معارِضيها ضمن الجالية اليهودية وفي خارجِها.

كانت هذه التغيرات في الرأي العام التي حَدَثَتْ بَعد الحرب العالمية الثانية كافيةً لتغيير حسابات كثير من السياسيين الأمريكان. تَعرَّفَ الرئيسُ هاري ترومان على الصهيونية من خلال صداقاته الشخصية وتأثير مستشاريه المقرَّبين، وكان مقتَنعاً بأن الدَّعم الكامل لأهدافها كان ضرورةً سياسية مَحَلية[2]. اجتمعَ ترومان مع ابن سعود وصَرَّحَ بتأييده له، إلا أنه بعد تسعة أشهر بعد ذلك أظهَر عَلَناً في نوفمبر 1945 دوافِعَهُ وراء هذا التغيّر الرئيسي عندما أنذَرَتْهُ جماعةٌ من الدبلوماسيين الأمريكيين أن سياسةً صريحةً في تأييد الصهيونية سوف تَضُرُّ بمصالح الولايات المتحدة الأمريكية في العالَم العربي، ولكنه قال: "أنا آسف أيها السادة، ولكن يجب عليَّ الاستجابةَ لمئات الآلاف ممن يريدون نجاح الصهيونية. لا يوجَد لديّ مئات الآلاف من العرب بين الناخِبين"[3].

في بداية الأمر، كانت وزارة الخارجية ووزارة الدفاع ووكالة المخابرات المركزية وما أصبَحَ المؤسسةَ الدائمةَ للسياسة الخارجية للامبراطورية الأمريكية

---

(1) Eli Barnavi, "Jewish Immigration from Eastern Europe," in Eli Barnavi, ed., *A Historical Atlas of the Jewish People from the Time of the Patriarchs to the Present* (New York: Schocken Books, 1994)

(2) هناك كتابات كثيرة عن موضوع فترة إدارة ترومان وفلسطين. هناك سَرد مفصّل حديث جيد في John Judis, *Genesis: Truman, American Jews, and the Origins of the Arab/Israeli Conflict* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2014). See also the authoritative biography: David McCullough, *Truman* (New York: Simon and Schuster, 1992).

(3) Col. William Eddy, *FDR Meets Ibn Saud* (Washington, DC: America-Mideast Educational and Training Services, 1954; repr., Vista, CA: Selwa Press, 2005), 31.

العالمية الجديدة، كانوا جميعاً معارِضين لترومان ومستشارِيهِ في إصرارِهم على التحالف مع الصهيونية ودولة إسرائيل الناشئة. لم يكن ترومان ذو خَلفيةٍ أرستقراطية ولم يتمتَّع بتعليمٍ عال (كان آخر رئيسٍ أمريكي لا يَحمِلُ شهادةً جامعية)، ولم تكن لديه خبرة في الشؤون الخارجية، إلا أنه لم يَرهَب مؤسسةَ السياسة الخارجية التي وَرِثَها. في الفترة التي تَلَت الحرب مباشرة، قامَتْ شخصيات محتَرَمَة مثل وزير الخارجية جورج مارشال George Marshall ودين آتشيسون Dean Acheson وجورج كينان George Kennan وغيرهم من كبار المسؤولين في وزارة الخارجية وغيرها بتقديم مناقشات أن دَعم الدولة اليهودية الجديدة سيَضُر بمصالح أمريكا استراتيجياً واقتصادياً وبترولياً في الشرق الأوسط في سياق الحرب الباردة القادمة. أظهَرَت الباحِثة السياسية أيرين غيندزير Irene Gendzier في أول كتاب يبحثُ بدقةٍ في الوثائق الحكومية المتوفرة من تلك الفترة أن مَعالِم العناصر الرئيسية في المكاتب قد تغيّرت خلال أشهر قليلة. بعد انتصارات اسرائيل العسكرية المذهِلة سرعان ما أدرك كثير من المسؤولين والقادة العسكريين ومعهم صناعة البترول الأمريكية إمكانيات الاستفادة من الدولة اليهودية لصالح الولايات المتحدة في المنطقة[1].

كانت الأسباب الرئيسية وراء هذا التغيّر اقتصادية وسياسية تتعلّق باعتبارات الحرب الباردة ومصادر الطاقة الضخمة في الشرق الأوسط. من وجهة نظر عسكرية، اعتقدت وزارة الدفاع أن إسرائيل يمكن أن تكون حليفاً قوياً، كما أن صنّاع القرار السياسي وشركات البترول لم يتصَوروا أن إسرائيل تشكّل خطَراً على المصالح البترولية الأمريكية بالنظر إلى رِضَى السعودية عما دَارَ في فلسطين (في ذروة حرب 1948 وبينما كانت القوات الإسرائيلية تحتل معظم مناطق البلاد وتطرد مئات الآلاف من الفلسطينيين، وجَدَ مارشال سبباً لكي يَشكر المَلك ابن سعود

(1) Irene L. Gendzier, *Dying to Forget: Oil, Power, Palestine, and the Foundations of U.S. Power in the Middle East* (New York: Columbia University Press, 2015).

على سلوكه التصالحي فيما يتعلق بفلسطين)[1]. لم تُسبِّب المملكةُ العربية السعودية أي اضطراب بعد ذلك فيما يتعلق بتقارب العلاقات الأمريكية-الإسرائيلية. بل في الواقع، رأت العائلةُ السعودية الحاكِمة أن هذه العلاقات تتماشى تماماً مع العلاقات الأمريكية-السعودية الوثيقة التي ترجع إلى أول استكشاف للبترول وعَقد استغلالِه سنة 1933[2].

وعلى كل حال، لم تحصَل إسرائيل خلال العقود الأولى على المستويات العالية من الدَّعم الأمريكي العسكري والاقتصادي التي أصبَحَت دَعماً روتينياً منذ بداية السبعينيات[3]. كما أن الأمم المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية غالباً ما اتَّخذَت مواقف كانت تتعارَض مع مواقف إسرائيل بما فيها التصويت في مجلس الأمن على إداناتٍ واستنكار متكرّر للأعمال العسكرية الإسرائيلية[4]. خلال إدارة الرئيس ترومان وفي الواقع حتى حرب سنة 1967، لم يهتم السياسيون الأمريكان جدِّياً بدولة إسرائيل على الرغم من تفضيلهم لها بشكلٍ عام ودَعمِهم للدولة اليهودية. ولكن اهتمام القادة الأمريكان بالفلسطينيين كان أقلّ من ذلك بَدءاً من ترومان ومَن جاء بَعده.

لم يدرك أغلبُ الفلسطينيين جيداً التغيرات العالمية التي أدّت إلى دَمار بلادهم والتي تركَتْهم في حالةٍ من الصدمة والهزيمة والتّفرق بلا قيادة ولا زَعامة. اعتبَرَ الجِيلُ الأكبر سِناً أن بريطانيا هي الدّاعم الأساسي للصهيونية على مَر عقود، واستمر شعورهم بمَرارة كبيرة واعتِبارهم أن بريطانيا هي السبب الأول وراء مآسيهم. كما انتَقَدَ الفلسطينيون بقسوة فشَلَ قيادتهم وعبَّروا عن استيائهم العميق

---

(1) Secretary of State to Legation, Jedda, August 17, 1948, *FRUS* 1948, vol. 2, pt. 2, 1318.

(2) للمزيد عن العلاقة السعودية الأمريكية في ذلك الوقت انظر في وليد خالدي *Brokers of Deceit*, 20-25.

(3) في الفترة 1949–1971 كانت المساعدات الاقتصادية والعسكرية الأمريكية لإسرائيل أكثر من 100 مليون دولار أربع مرات فقط، ومنذ 1974 أصبحت بلايين الدولارات كل سنة.

(4) في الفترة 1953–1974 أصدَرَ مجلس الأمن على الأقل 23 قراراً لإدانة أو استنكار أو لَوم أعمال إسرائيل في قطاع غزة وسورية والأردن ولبنان والقدس والأراضي المحتلة.

لأداء الدول العربية وعدم قدرة جيوشها على الاحتفاظ بأكثر من 22٪ من فلسطين العربية[1]. أضيفَ إلى ذلك الغضبُ مِنَ الحكّام العرب بسبب تفرّقهم بل وخيانَتهم أحيانـًا، خاصة عبد الله مَلك الأردن، والتآمر مع إسرائيل والقوى العظمى. ولذا كَتَبَ عيسى العيسى منتقِداً الحكّام العرب بعد النكبة من مَنفاه في بيروت:

يا ملوكَ العرب الصغار، بحقّ السماء

كفاكم ضَعفـًا وتقاتلا

كانت آمالُنا يومـًا عليكم

ولكنها جميعـًا ضاعَت هَباءا[2]

نتيجةً لكل هذه الأسباب، استيقظَ أكثر من مليون فلسطيني بعد ظلام النكبة على واقعٍ جديد ليواجِهوا عالَمـًا انقلبَ على عقبيه، وعانوا من خَلَلٍ اجتماعيٍّ عميق سواء كانوا داخل فلسطين أو خارجها. كان ذلك يعني الفقر والعَوَز بالنسبة للأغلبية بعد أن فَقَدوا بيوتهم وأعمالهم وجُذورهم الاجتماعية العميقة. خَسِرَ القرويون أراضيهم ومعيشتهم، وفَقَدَ الحَضَريون ممتَلكاتهم ورأسمالهم، بينما شَتَّت النكبةُ قوةَ أعيان البلاد ودمّرت قاعدتهم الاقتصادية. لن يَستعيدَ المُفتي السُلطة التي تمتّع بها قَبل الحرب بعد ذلك، وكذلك الحال مع آخَرين من طَبَقتِهِ لأن التغيرات الاجتماعية في أغلب أرجاء الوطن العربي التي حَدَثَتْ في الغالب نتيجةَ ثورات وانقلابات عسكرية أدّت إلى استبدال طَبَقة النبلاء والأعيان بزَعاماتٍ شابّة من طَبَقات اجتماعية متنوعة. أدّت النكبة إلى نتائج مماثِلة بين الفلسطينيين.

حُرِمَ الفلسطينيون من مَكانِهم في العالَم حتى أولئك الذين نَجوا بأنفسهم من الفقر والحاجة. كانت تلك حالة جدّي وجدّتي المُسِنّان اللّذان اقتُلِعَا مِن جذورهما

(1) مثال مبكر لانتقاد أداء العرب في كتاب قسطنطين زريق 1948 "معنى النكبة" ص 113.

(2) وردَت القصيدة في كتاب يعقوب عويدات "من أعلام الفكر والأدب في فلسطين" الطبعة الثانية. (القدس، دار الإسراء، 1992). المقصود بوصف "ملوك العرب الصغار" بالإضافة إلى إشارته المُهينة فربما يرمز خاصّة إلى الملك عبد الله بسبب قصر قامته.

فجأة ومِن بَيتِهما وحياتِهما اليومية العادية وفقَدا أغلب ممتلكاتِهما. كانا مَحظوظَين بالنسبة إلى كثير غيرهما فقد كان لديهِما سقفٌ يحميهِما حتى توفّيا في أوائل الخمسينيات، ولكن كان عليهما التّنقل بين بيوت أولادِهما الذين تفرّقوا بين نابلس والقدس في الضفة الغربية إلى بيروت وعمّان والاسكندرية. بعد زيارتِهما سنة 1947، كان على والديَّ العودةَ إلى نيويورك لكي يُتابِعَ والِدي دراسَتَه وهو يَنوي العودةَ إلى فلسطين بعد انتهائه من ذلك، إلا أن أياً منهما لم يُشاهِد فلسطين مرة ثانية بعد ذلك.

كانت النكبةُ بالنسبة للفلسطينيين جميعاً مَهمَا اختَلفَتْ ظروفهم هويةٌ صامِدة استمرّت عَبرَ أجيالٍ عديدة. كانت انقطاعاً جَماعياً مفاجِئاً، وصَدمة يَحملُها كل فلسطيني ويتواصَل فيها بطريقة أو بأخرى بشكلٍ شخصيّ أو من خلال الوالِدَين أو الأجداد. وفي الوقت نفسه تَمنَحُهم النكبةُ بؤرةَ تركيزٍ جديدة لهويتهم الجماعية. لقد فرّقَت العائلات والجماعات وقَسمَت الفلسطينيين ووزّعتْهم في دول مختلفة ومجتمعات متميزة. حتى أولئك الذين احتفَظوا بفلسطينيتهم في نفوسهم، سواء كانوا لاجئين أم غير لاجئين قد خضَعوا لثلاث أنظِمة سياسية: إسرائيل ومصر (في قطاع غزة) والأردن (في الضفة الغربية والقدس الشرقية). ابتُلِيَ الشعبُ الفلسطيني بهذا الشّتات منذ ذلك الحين. تُعطي عائلتي مِثالاً نموذجياً لذلك، فلديَّ أبناءُ عُمومَة في فلسطين، وفي ست دول عربية، ومثلهم تقريباً في أوروبا وأمريكا. واجَهَتْ كل جماعةٍ من الفلسطينيين المنفصِلين طَيفاً من القيود على تحركاتهم، وحَمَلوا وثائقَ شخصية متنوعَة ومختلِفة أو ظلّوا بلا وثائق على الإطلاق، واضطروا إلى العمل تحت ظروف وقوانين مختلفة، واستِخدام لغاتٍ مختلفة.

أما الأقلية الصغيرة من الفلسطينيين الذين تمكّنوا من تجنّب الطّرد والتّهجير (حوالي 160000 شخص) وظلّوا في الجزء من فلسطين الذي أصبَحَ أسرائيل فقد صاروا مواطِنين في تلك الدولة. إلا أن الحكومة الإسرائيلية التي كَرّسَتْ جهودها أولاً وقَبل كل شيء في خِدمة الأغلبية اليهودية الجديدة في الدولة فقد كانت تَنظُرُ

إلى هؤلاء المتبقّين مِنَ السكان بشَكٍّ كبير باعتِبارهم طابوراً خامِساً. عاشَ مُعظَم هؤلاء الفلسطينيين حتى سنة 1966 تحت وطأة قانون طَوارئٍ صارم، وتمّت مصادَرة كثير من أراضيهم (بالإضافة إلى أراضي الذين أُجبِروا على مغادرة بلادهم وأصبحوا لاجئين). مُنِحَتْ هذه الأراضي المَسروقة بالاستملاك الذي اعتَبرَتْهُ دولة إسرائيل قانونياً، وكذلك معظم الأراضي الصالحة للزراعة إلى مستوطِنين يَهود، أو إلى سُلطة الأراضي الإسرائيلية، أو وضِعتْ تحت تصرف الصندوق الوطني اليهودي الذي اشتَرطَ ميثاقُهُ العنصري على أنّ تلك الممتَلكات لا يمكن أن تُستخدَمَ إلا لصالح الشعب اليهودي[1].

دلَّ هذا الشّرط على أن العرب الذين انتُزِعَتْ ممتَلكاتهم لا يستطيعون شراءَها من جَديد ولا تأجيرَها، ولا يستطيع ذلك أي شخصٍ آخر غير يهودي. كانت تلك التصرفاتُ حاسمةً في تغيير فلسطين من دولةٍ عربية إلى دولةٍ يهودية لأن 6٪ فقط من الأرض الفلسطينية كانت مُلكاً ليهود قَبل سنة 1948. عُزِلَ السكانُ العرب داخل إسرائيل بقيود السفر العسكرية، كما أُبعِدوا عن التواصل مع بقية الفلسطينيين في الوطن العربي. كانوا قد اعتادوا على كونهم أغلبية مهمّة في بلادهم وفي المنطقة، وفجأةً أصبح عليهم أن يتعلّموا شقّ طريقهم كأقليةٍ مَكروهة في ظروف عَدائية كمواطنين في دولةٍ يهودية لم تُعَرِّفْ نفسها يوماً بأنها دولةٌ لِجميعِ مواطِنيها. أو كما قال أحد الباحثين: "ما طُبِّقَ على الفلسطينيين عَمَلياً كان مواطَنةً من الدرجة الثانية بسبب تعريف إسرائيل لنفسها كدولةٍ يهودية، وبسبب سياسات الدولة وقوانينها الإقصَائية". وكان الأهمّ من ذلك هو أن النظام العسكري الذي عاش تحتَه الفلسطينيون قد مَنَحَ العسكريين الإسرائيليين سُلطةً غير مَحدودَة في السيطَرة على تفاصيل حياتِهم[2].

---

(1) حسب صياغة الصندوق القومي اليهودي في موقعهم على الانترنت: "الأراضي التي تم شراؤها للمستوطنات اليهودية تعود إلى الشعب اليهودي بكامله".

(2) Leena Dallasheh, "Persevering Through Colonial Transition: Nazareth's Palestinian Residents After 1948," *Journal of Palestine Studies* 45, no. 2 (Winter 2016):8-23.

أصبح أغلبُ الفلسطينيين لاجئين يعيشون في الشّتات خارج حدود دولة إسرائيل (وكذلك كانت حالُ بعض الذين ظلّوا داخل إسرائيل). وشكّل اللاجئون إلى سورية ولبنان والأردن ضغطاً مؤلِماً على إمكانيات الإغاثة المَحدودَة في تلك الدول. في بداية الأمر وَجَدَ معظم اللاجئين أنفسَهم في مخيمات أدارَتْها منظمةُ إغاثة اللاجئين التّابعة للأمم المتحدة (الأنوروا United Nations Relief and Works Agency)، أما اللاجئون الذين توفّرت لديهم إمكانيات مالية، أو تمتّعوا بمهارات مِهَنية، أو كان لديهم أقارب في بلاد عربية فلم يُسَجِّلوا أنفسهم في قيود الأنوروا بل وَجَدوا أماكن أخرى للإقامة. تمكّن بعضُهم في النهاية من الخروج من المخيمات واندَمَجوا في مُدُنٍ مثل دمشق وبيروت وصيدا وعمّان. نجحَ الفلسطينيون الذين تجنّبوا الإقامة في المخيمات والذين تمكّنوا من الخروج منها بسرعة، وشقّوا طريقهم في التعليم والتّمدن. وتَبعهم آخرون على مرّ الزمن وتشكّلت غالبيةٌ كبيرة من اللاجئين وعائلاتهم خارج تلك المخيمات.

سكَنَ في مخيماتٍ في الأردن 2.2 مليون لاجئ مسجّل في الأونوروا، وكانوا أكبر جماعة. بقي منهم 370000 الآن لاجئ في المخيمات، وكذلك بقي ربع اللاجئين من المسجَّلين الذين بلغ عددهم 830000 في مخيمات الضفة الغربية. كما بقي في المخيمات أقل من ربع اللاجئين إلى سورية الذين بلغ عددهم 550000 قَبل الحرب الأهلية التي اندَلَعتْ فيها. وبقي أقلّ من نصف اللاجئين الفلسطينيين إلى لبنان الذين بلغ عددهم 470000 في المخيمات. وربما كانت النسبة ذاتها تقريباً بين اللاجئين المسجّلين في قطاع غزة المزدَحِم وبلغ عددهم فيها 1.4 مليون لاجئ تحت الحُكم المصري حتى سنة 1967. وهكذا، على الرغم من تسجيل 5.5 مليون لاجئ فلسطيني وعائلاتهم في الأنوروا فإن غالبيتهم (حوالي 4 ملايين) لا يعيشون في مخيمات اللاجئين هذه الأيام بالإضافة إلى كثير ممن لم يُسَجَّلوا في الأمم المتحدة.

حقَّقَ المَلك عبد الله سنة 1950 حُلمَهُ بتوسيع مملكَته الصغيرة التي أصبح اسمها الآن الأردن بدلاً من اسمِها السابق المنطقة شرق الأردن وذلك بضمّ الضفة الغربية. لم يَعتَرِف بهذا الضَّم سوى حلفائه المقرّبين المملكة المتحدة وباكستان. مَنَحَ المَلكُ الجنسيةَ الأردنية لجميع الفلسطينيين داخل نطاق مملكتِه الحديثةِ التوسّع. هذا الإجراء الكريم الذي طُبِّقَ أيضاً على الغالبية العظمى من اللاجئين الفلسطينيين الذين يعيشون في المَنفى في العالَم العربي يُكَذِّبُ إدعاءات إسرائيل المكرَّرة بأن الدول العربية مَنعَت اللاجئين من الاندِماج وأجبَرَتْهُم على البقاء في المخيمات كسلاحٍ سياسي مفيد.

خَسِرَ أعيانُ الفلسطينيين السياسيين والاقتصاديين السابقين مكانَتَهم، إلا أن بعضهم، خاصة الذين عارَضوا المُفتي مثل راغب النّشاشيبي الذي كان محافِظ القدس، قد تمكّنوا من التأقلم بسرعة مع ظروفهم الجديدة تحت حُكم المَلكية الهاشمية، بل وتمكّن بعضهم من استلام مناصب في الحكومة الأردنية في عمّان. ظلّ بعض الفلسطينيين يشعرون بالانعزال والمَرارة بسبب خسارتهم الحقّ في تقرير مصيرهم، والأسوأ من ذلك خضوعهم لخَصمهم السابق المَلك عبد الله. على الرغم من أن الجيش العربي الأردني المَدعوم من بريطانيا كان الجيش الوحيد الذي استطاع الاحتفاظ بمَواقِعِه مقابِل القوات الإسرائيلية سنة 1948 ومَنَعَ سقوطَ مزيدٍ من أرضٍ فلسطين تحت السيطرة الإسرائيلية إلا أن ثَمنَ النجاة بهذه الطريقة كان باهِظاً، وهو خضوع الضفة الغربية والقدس الشرقية للحُكم الهاشمي. كان عبد الله تابِعاً للأسياد المستعمِرين البريطانيين، وعارَض الاستقلالَ الفلسطيني، ودارَتْ شائعاتٌ كثيرة عن اتصالاته بالصهاينة، وكانت جميع هذه الأمور في غير صالِحه. جرَّبَ والدي التّعامل مع المَلك عبد الله شخصياً ولذلك رفضَ قبول جوازِ السفر الأردني عندما انتهى جوازُ سَفَرِهِ من الانتداب البريطاني الفلسطيني. حَصَلَ في النهاية على جواز سَفَر سعوديّ بفضل وَساطَة أخيه الدكتور حسين الذي كان قد قابَلَ وزيرَ الخارجية السعودي (الذي أصبح مَلكاً فيما بَعد) فيصل بن عبد العزيز في مؤتمر قصر سانت جيمس في لندن سنة 1939.

في النهاية، دفَعَ المَلكُ عبد الله أغلى ثمن مقابل تعاونِهِ مع إسرائيل[1]، فقد تم اغتيالُهُ في يوليو 1951 في ساحة الحَرَم الشريف في القدس وهو يُغادِر المسجد الأقصى بعد صلاة الجمعة[2]. قُبِضَ على قاتلِهِ فوراً وحوكِمَ بسرعة وتم إعدامُه، ويُقال أنه كان على علاقة بمُفتي القدس السابق. تقع مكاتب المُفتي داخل وحَول الحَرَم الذي كان مَوقِعاً مميّزاً في الهوية الفلسطينية. وبدلاً من دَفن المَلك المَقتول في غرفةٍ قُربَ الحَرَم بجانب قَبرِ والِده الشريف حسين، اتُّخِذَ القرار بدفنِهِ في عاصمة مُلكِهِ عمّان.

أدى الاغتيال إلى تفاقم أزمة العلاقة بين النظام الأردني والوطَنيين الفلسطينيين الذين اعتَبرهم حكّام المَملكة الحديثة التوسع عناصر غير مسؤولة ومتطرّفة وخطيرة تؤدي لعدم الاستقرار. استغلّت المملكة الانقسامات الموجودة بين كثير من الأردنيين والمواطنين الفلسطينيين الجدد الذين أصبحوا أكثرية السكان. إلا أن كثيراً من الأردنيين أيضاً اعتَبروا النظام الهاشمي غير ديموقراطي بل هو مَعقل قَمعي لصالِح الاستعمار وأنه يَحمي الجبهة الشرقية للدولة اليهودية كحاجِزٍ صَديق. على الرغم من أن قِسماً كبيراً من الفلسطينيين استفادوا في النهاية وأصبَحوا من دعائم المجتمع الأردني، إلا أن التوتر بين النظام ومواطِنيه الفلسطينيين استمرّ عقوداً طويلة وانفجَر في النهاية في صِراعٍ مسلَّح سنة 1970.

كذلك تدخَّل الفلسطينيون الذي لَجَؤوا إلى لبنان في سياسةِ الدولة المستَضيفة على الرغم من أن عَددَ اللاجئين ونِسبَتَهم من السكان كان أصغَر بكثير مما كان

(1) نُشرتْ سنة 1959 مذكّرات واحد من أكبر الضباط العرب في الجيش العربي هو عبد الله التل وهي تكشف تفاصيل تلك العلاقات السرية، وقد بُحثتْ بعد ذلك بالتفصيل في
Avi Shlaim *Collusion Across the Jordan*: ‘Abdullah al-Tal, *Karithat Filastin: Mudhakkirat 'Abdullah al-Tal, qa'id ma'rakat al-Quds* [The Palestine disaster: The memoirs of ‘Abdullah al-Tal, commander in the battle for Jerusalem] (Cairo: Dar al-Qalam, 1959).

(2) يمكن إيجاد تفصيل جديد للحادثة ونتائجها في
“Assassination of King Abdullah,” *The Manchester Guardian*, July 21, 1951.

عليه الحال في الأردن. كانت غالبية الفلسطينيين من المسلمين، ولم يتم مَنحهم الجنسيةَ اللبنانية لأن ذلك سيخلّ بالتوازن الطائفي الدقيق في تلك الدولة الذي صَنَعَتْهُ سُلطة الانتداب الفرنسي لكي تَسمحَ بسيطَرة المسيحيين المارونيين. تعاطَفَ بعضُ اللبنانيين السّنة وبعضُ الدروز والشيعة والسياسيين اليساريين مع القضية الفلسطينية وتصَوروا أن الفلسطينيين سيكونون حلفاء مُفيدين في جهودهم لإعادة تشكيل النظام السياسي الطائفي في لبنان، إلا أن أي التزام بالقضية الفلسطينية لم يشمَل اندماجَ الفلسطينيين الذين تمسَّكوا على كل حال بأمَل العودة إلى بلادهم. وهكذا كانت معارَضةُ التوطين والاستقرار الدائم في لبنان مسألةَ معتَقَدٍ وإيمان بالنسبة للّبنانيين والفلسطينيين معاً.

ظلّ سكانُ المخيمات الفلسطينية تحت مراقبةٍ دقيقة للمَكتب الثاني (المخابرات)، ومكتب المخابرات العسكرية، مع تطبيق قيودٍ شديدة على أعمالهم وتملّكهم للعقارات. وفي الوقت نفسه كانت خَدَمات الأنوروا في لبنان وغيرها، خاصة في التعليم والتدريب المِهَني تساعِد الفلسطينيين على أن يُصبحوا أعلى شعوب العالَم العربي تعليماً. وساعدَتهم مَهاراتهم المكتَسبة على الهجرة بشكل خاص إلى البلاد العربية البترولية الغنية التي كانت بحاجة ماسَّة إلى العَمالة الماهرة والخبرات المِهَنية. ولكن على الرغم من صمام الأمان الذي قدَّمَته خدمات الأنوروا التي أخرَجَتْ كثيراً من الفلسطينيين من مخيمات اللجوء، إلا أن القومية والوحدوية كانت منتشِرة بين جميع الطبقات والجماعات. بينما كان الفلسطينيون يتجاوَزون صَدمة النكبة ويُنظّمون أنفسهم سياسياً، أدّت نشاطاتهم إلى مزيد من الاستقطاب بين اللبنانيين على خطوط انقساماتٍ طائفية وسياسية وصَلَت في النهاية إلى صِدامات مع السُلطات في أواخر الستينيات.

وصَلَ عدد صغير من اللاجئين الفلسطينيين إلى سوريا حيث سَكَنَ بعضهم في المخيمات بينما ذهَبَ آخرون الى دمشق وغيرها من المُدن، وذهَبَ عدد أقلّ الى العراق ومصر. لم يكن وجود اللاجئين الفلسطينيين في هذه الدول الأكبر والأكثر

تجانساً والأكثر انسجاماً أيّ تأثير مهمّ في عدم الاستقرار. تمّ تأسيس مخيماتٍ في سوريا، ولكن تمتَّع الفلسطينيون هناك ببعض الامتيازات فقد حصَلوا على امتيازاتٍ كالمواطنين السوريين، وذلك مثل حَقّ امتلاك الارض والدخول الى المدارس العامة والتوظيف في الحكومة، إلا انهم لم يُمنَحوا الجنسية ولا جوازات السفر مثلما حَدَثَ في لبنان، بل حَصَلوا على وثائق سَفر للاجئين، كما لم يحصَلوا على حَقّ التصويت في الانتخابات. وهكذا تمكّن الفلسطينيون في سوريا من الحصول على درجاتٍ عالية من الاندماج الاجتماعي والاقتصادي واحتَفَظوا بحقوقَهم القانونية كلاجئين.

عندما طَورَت دولُ الخليج العربية وليبيا والجزائر صناعاتِها البترولية، تمكّنت من الاحتفاظ بنسبةٍ أعلى من دَخل البترول والغاز، وأصبح كثير من الفلسطينيين مُقيمين هناك حيث لَعِبوا دوراً رئيسياً في بناء هذه الدول اقتصادياً، وفي تطوير خدمات الحكومة ونظام التعليم. إلا أنهم كانوا مثل شخصيات الرواية القصيرة "رجالٌ تحت الشمس" للكاتب الفلسطيني غسان كَنَفاني، فلم يَجِدوا دائماً أن سلوكَ هذا الطريق سَهلٌ ويَسير، بل تضمَّن أحياناً الاغتراب والعزلة، كما أدى ذلك إلى بعض المآسي أحياناً مثلما حَدَثَ عندما حاوَل فلسطينيون عبور الحدود بوثائق اللاجئين[1]. لم تمنَحهم المعيشةُ في دول الخليج العربية الجنسيةَ ولا حَقَّ الإقامة الدائمة: أي أن حقّ الفلسطينيين بالبقاء في أماكنهم يرتبط بعملهم حتى لو عاشوا هناك معظم حياتهم.

شَعَرَ سكان جميع الدول العربية بقلقٍ كبير مستمر بشأن المسألة الفلسطينية بغضّ النظر عن درجة اندماج الفلسطينيين بينهم. نَبعَ ذلك الشعور من التعاطف العام مَعَهم وبسبب الهزيمة المُهينَة في حرب 1948 التي كَشَفَتْ ضعفهم وعجزهم وعدم استقرارهم. تحَدَّثَ جمال عبد الناصر زعيمُ ثورة 1952 بمصر في مذكّراته بكتاب "فلسفة الثورة" كيف كانت فكرة تغيير النظام القديم مسيطِرة على تصورات

---

(1) تُرجمتْ رواية كنفاني في

Hilary Kirkpatrick: *Men in the Sun and Other Palestinian Stories* (Boulder, CO: Lynne Rienner, 1999).

الضباط خلال حرب 1948 في فلسطين: "كنا نُحارِب في فلسطين ولكن أحلامَنا كانت في مصر"[1].

أدّت الهزيمةُ العسكرية في 1948 إلى إثارة مِثلَ تلك الاضطرابات وجَعَلَتْ جيرانها العرب يخشون إسرائيل بشكلٍ عميق لأن جيشها القوي استمر في توجيهِ ضربات مدمّرة كجزء من استراتيجية الانتقام غير المتَناسِب من توغّلات اللاجئين وبهدف إجبار الحكومات العربية للضغط على ميولِ الفلسطينيين الوَحدَوية[2]. طُرِحَتْ أعمالُ الانتقام الإسرائيلية مِراراً في اجتماعات مجلس الأمن (اجتماعات حَضَرها والِدي في الخمسينيات والستينيات بصِفَتِهِ عضواً في قسم القضايا السياسية للأمم المتحدة وشؤون مجلس الأمن) حيث شُجِبَت الاعتداءات الإسرائيلية مِراراً وتكراراً[3]. كانت التقارير التي تلقّاها مجلس الأمن من مراقبي الأمم المتحدة لخطّ الهدنة تختلفُ بشكلٍ واضح عن تصريحات الحكومة الإسرائيلية وعن التغطية المتحيّزة في وسائل الإعلام الأمريكية[4].

أدّت هذه الحالة الديناميكية على الحدود إلى الموقف الغريب للزعماء العرب الذين طَرَحوا المسألة الفلسطينية مِراراً تحت ضغط الجماهير ولكنهم امتَنَعوا عن فِعل أي شيء بشأنها خَشيةً من قوة إسرائيل وخوفاً من عدم قبول القوى العظمى. وهكذا أصبَحت القضية الفلسطينية لُعبةَ كرة قَدَمٍ سياسية يَستغلّها السياسيون

---

(1) Gamal Abdel Nasser, *Philosophy of the Revolution* (New York: Smith, Keynes and Marshall, 1959), 28.

(2) Benny Morris, *Israel's Border Wars: 1949-1956: Arab Infiltration, Israeli Retaliation, and the Countdown to the Suez War* (Oxford: Clarendon Press, 1993).

(3) في الفترة 1953–1968 عندما عمل والِدي في قسم الشؤون السياسية ومجلس الأمن (قسم الشؤون السياسية الآن) أدينتْ إسرائيل أو شُجبتْ تسع مرات في المجلس بسبب أعمالها.

(4) تم تأكيد ذلك في مذكرات ضباط عسكريين خَدَموا كمراقبي الأمم المتحدة لاتفاقية الهدنة مثل E. H. Hutchinson, *Violent Truce: Arab-Israeli Conflict 1951-1955* (New York: Devin-Adair, 1956); Lieutenant General E. L. M. Burns, *Between Arab and Israeli* (London: Harrap, 1962); and Major General Carl Von Horn, *Soldiering for Peace* (New York: D. McKay, 1967).

الانتهازيون حسب اللزوم بينما يَسعى كلّ منهم للمُزايَدة على الآخرين في الزّعم بالإخلاص لَها. أدركَ الفلسطينيون الذين شاهَدوا هذه اللعبة التي تُثير السخرية أنه إذا كان لا بُدَّ من فِعل شيء بشأن قضيتهم، فعَلَيهم أن يَفعَلوا ذلك بأنفسِهم.

تم تَغييبُ الفلسطينيين تماماً مع نهاية حرب 1948 ولم تُذكَر أخبارهم في وسائل الإعلام الغربية، ولم يُسمح لهم بتمثيل أنفسهم دولياً إلا نادراً. استَخدَمَت الحكوماتُ العربية الفلسطينيين وقضيتهم المقدّسة كذَريعةٍ بينما لم يلَعبوا هم أنفسهم أيّ دَور مستقلَ. افترَضَت الدول العربية أنها تتحدث باسمِ الفلسطينيين في المَحافِل الدولية، ولكن بالنظر إلى الانقسام والفوضى فيما بينها والاضطرابات التي كانت تواجِهها لم تتمكّن من القيام بعَمَل موحَّد. تم تلخيص القضية الفلسطينية في الأمم المتحدة وغيرها تحت عنوان "الصراع العربي-الإسرائيلي"، وقامَت الدول العربية بتمثيلِ المَصالح الفلسطينية بشكلٍ ضعيف. بَعدَ النكبة مباشرةً حاوَلَ بعضُ الأعضاء السابقين في اللجنة العربية العليا بقيادة أحمد حلمي باشا ومعهم عمّي حسين تأسيسَ حكومةٍ في المَنفى لدَولةٍ في الجزء العربي من فلسطين حسب قرار التقسيم وأسَّسوا حكومةَ جميع فلسطين في غزة إلا أنها فشِلَتْ في كَسبِ تأييد دولٍ عربية رئيسية، خاصة الأردن التي لم تَشأ أن يكون للفلسطينيين تمثيلٌ مستقل، ولم تَحظَ باعترافٍ دَولي[1]، وانتهى الجهد بلا شيء.

ظلَّ المُفتي وبعضُ الأعيان في المَنفى، وبعضُهم في التقاعد، وعَمِلَ بعضهم في خدمة المَلَكية في عمّان. شاركَ بعضُ الزعماء السابقين في فَسحَةِ الديموقراطية التي استمرت ستة أشهر في الأردن في 1956-1957 ومثَّلتهم الحكومةُ الوطنية برئاسة سليمان النابلسي. كان من بين هؤلاء الزعماء عمّي الدكتور حسين الذي شَغلَ مَنصبَ وزير الخارجية في الحكومة الوطنية، ثم كرئيسٍ للوزراء مدة عشرة أيام بعد إقالةِ النابلسي وقَبلَ أن يُعَيِّنَ الملك حسين حكومَةً متعاوِنَة فَرَضَت الأحكام

(1) عن تلك المرحلة انظر محمد خالد أزعر "حكومة عموم فلسطين في الذكرى الخَمسين" (القاهرة 1998).

العُرفيـة. وَصَـفَ دبلوماسـيٌّ بريطـاني غيـر ودّي انتخابـات سـنة 1956 التـي جـاءَتْ بحكومـة النابلسـي إلـى السُـلطة بأنهـا "أول حكومـة حـرّة تقريبـاً في تـاريخ الأردن" (وربما كانت الحكومة الأخيرة)، إلا أنها واجَهت عَداءً مُطَّرِداً من بريطانيـا والمَلـك الهاشمي[1]. بعد هذه الفترة العابرة، لم يَلعَب أيّ مِنَ الحَرَس الفلسطيني القديم مرة أخرى أي دَور مهمّ في السياسة. ومن المثير للانتباه أيضـاً أنه بعد انتقال الزعامة إلـى جيلٍ جديد من الفلسطينيين وإلى طَبَقَة جديدة، لم يَشمَل ذلك أيّ فَردٍ من العائلات العَريقة التي سيطَرتْ على السياسة الفلسطينية قُبل النكبة[2].

---

(1) للبحـث في رؤيـة التعجـرف والإزدراء التـي حَملَهـا دبلوماسيون بريطـانيون عـن تلـك الحادثـة الوحيدة حتى الآن في الديموقراطية الأردنية انظر رشيد خالدي في
"Perceptions and Reality: The Arab World and the West," in *A Revolutionary Year: The Middle East in 1958*, ed. Wm. Roger Louis (London: I. B. Tauris, 2002).
عندما أُقيلت حكومة عمّي من جهة الملك حسين الشـاب في مـايو 1957 سـاعَدت الملكـة الأم المهمة زين السفير البريطاني في إجبار السياسيين الأردنيين لقبول تشكيل حكومة "مَدَنيـة" لكـي تَخدم كغِطاء للحُكم العسكري الذي أرادته بريطانيا والهاشميون وما تحقق في النهايـة. وَصَـف السفير لذلك الاجتماع في القصر الملكي "كان الوزراء متردّدين في استلام مسؤولياتهم وسـألوا الملـك لمـاذا لا يمكـن تشـكيل حكومـة عسـكرية... أشـارَت الملكـة الأم بقـوة... أن حكومـة عسكرية ستجعل أي شكل آخر من الحكومـات غيـر ضـروري. وأخيـراً أمـرت الملكـة بأنـه لـن يسمح للوزراء المُعَيَّنين بمغادرة القصر حتى يقدِّموا القَسَم لاستلام المَنصب وشكلت الـوزارة الجديدة على هذا الأساس غير المشجع
UK Public Records Office, Ambassador Charles Johnston to Foreign Secretary Selwyn Lloyd, no. 31, May 29, 1957,F.O. 71/127880.197-99.

(2) الاستثناء الوحيد في هذه الفترة هو المرحوم فيصل الحسيني الذي حَصَل على شعبيته بفضل شجاعته وحِنكته السياسية ونشاطه العسكري مع منظمة فتح واعتقاله المتكرّر من جهة الإسرائيليين. عملتُ مع فيصل عن قرب خلال مباحثات مدريد والمفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية في واشنطن سنة 1991–1993، وقد واجَهَ المستوطنين المسلحين وقوات الأمن الإسرائيلية التي كانت تحميهم عندما استولوا على بيوت فلسطينية في القدس. كانت زعامته في القدس بسبب هـذه الميزات ولـيس بسبب انتمائه العائلي على الرغم من أن والِده كـان القائد العسكري المَحبوب عبد القادر الحسيني الـذي استُشهد في معركة في أبريل 1948. كما كان قريبـاً للمُفتي ولجمال الحسيني، وكان حفيد موسى كاظم باشا الحسيني الذي كان محافظـاً للقدس وأقالَه البريطانيون من منصبه. قاد جدّه الحركـة الوطنية الفلسطينية حتى وفاته في 1934 عن عمر 84 سنة وذلك بعد أشهر قليلة بعد أن تعرّض للضرب بالهراوات على يد شرطي بريطاني خلال مظاهرة في يافا.

تَشتَّتَ بَعدَ النكبة كل ما بَقِيَ من المؤسسات السياسية القليلة مثل اتحادات العمال وغيرها من التجمعات غير المهمّة مثل حزب الاستقلال الذي نَشأ في فلسطين تحت ظِلِّ الانتداب. كان الاستثناء الوحيد هو بقايا الحزب الشيوعي الفلسطيني الذي كان أكثر أعضائه من العرب وقياداته من اليهود قَبل 1948. ثم أصبَح نواةَ الحزب الشيوعي الإسرائيلي الذي تطوَّر منذ الخمسينيات إلى وسيلةٍ يهودية-عربية للطموحات السياسية لكَثيرٍ من الفلسطينيين المواطِنين في إسرائيل، وذلك بسبب مَنع النظام العسكري تَشكيل أي هيئةٍ عربية صافية حتى سنة 1966. انحصَرَتْ نشاطاتُ الحزب في النظام الإسرائيلي، ولم يكن له تأثيرٌ يُذكَر على الفلسطينيين في بقية الأماكن لفترة عقود. وهكذا كان لدى الفلسطينيين حالةَ غيابٍ سياسي لأيّ خطة أو هدف واضح بعد 1948.

دخَلَت الدولُ العربية لمَلء هذا الفراغ السياسي بعد النكبة، وحاوَلتْ بعضُها، مثل الأردن تحت حُكم المَلك عبد الله، ضَمَّ الفلسطينيين تحت سيطَرتها. إلا أنهم كانوا أكثر اهتماماً بخططهم الخاصة وتَجنّب الصّراع مع جارَتِهم اسرائيلُ القوية العُدوانية، وكذلك بالتّملق لرعاة إسرائيل من الدول العظمى. وبدلاً من تحالفهم مع الفلسطينيين في مقاوَمتهم للحرب الدائرة ضدهم على مستوى منخفَضٍ مستمر فقد أعاقَت الحكوماتُ العربية جهودَهم، بل واتَّفَقتْ أحياناً مع أعداء الفلسطينيين. كان المِثال الواضح على ذلك هو الأردن التي ضَمَّ إليها المَلك عبد الله الضفة الغربية والتي قَمعَتْ بقوةٍ بعد ذلك أي تعبير عن الوطَنية الفلسطينية، كما أن دولاً عربية أخرى مَنعَت الفلسطينيين من تنظيمِ أو إطلاقِ هَجَمات ضد إسرائيل.

عادَت الحياةُ إلى النشاط الفلسطيني بأشكال مختلفة بعد ظروف النكبة الكالِحة بعد أن حَفَّزَها تَهاون أو فَشل الدول العربية والمجتمع الدولي في حَلِّ النتائج المأساوية لحرب 1948. انخَرَطَتْ جماعاتٌ صغيرة في عملياتٍ عسكرية قَصَدَتْ أساساً إلى تحريكِ الفلسطينيين لاسترجاع مسؤوليتهم نحو قضيتِهم وحَملِ السلاح ضد إسرائيل. بدأ ذلك عَفوياً بشكلِ هجمات غير منَسَّقَة على

مستوطناتٍ إسرائيلية حُدودِية. احتاج الأمر إلى بضع سنوات قَبل أن تَتَنسَّق الأعمال العسكرية العشوائية السريّة بشكلٍ منظماتٍ مثل حركة فَتح سنة 1959.

كان على الفلسطينيين مواجَهة المعارَضة الإسرائيلية ضد أي محاولة لإصلاح الوضع القائم، كما كان عليهم أن يواجِهوا الحكومات العربية المُضيفَة مثل الأردن ولبنان ومصر. كانت هذه الدول تعارِض بقوة شَنَّ هَجمات على جارَتِها بسبب ضَعفها العسكري مقابل الدولة اليهودية. وحتى عندما نَجَحَت الحركاتُ الفلسطينية الناشئة في تنظيم نفسِها، كان عليهم تجنّب محاولات بعض الدول العربية استخدامهم لصالِحها. كان الردّ على هذا النشاط الفلسطيني الناشئ المستقلّ هو تشكيل منظمة التحرير الفلسطينية تحت إشراف الجامعة العربية بطَلَبٍ من مصر، وشكَّلَ ذلك أهمّ محاولة للسيطَرة عليهم من جَهة الدول العربية.

كانت الحكومةُ المصرية تحاولُ الردّ جزئياً على معاناتِها في الفترة التي قادَت إلى حرب السويس سنة 1956. في فَجرَ الثورة المصرية سنة 1952 تحاشَى النظام العسكري الخوضَ في برنامج تسليح مرتفع التكاليف على الرغم من أن الهزيمة في فلسطين كانت ترجع جزئياً إلى سوء تسليح الجيش المصري. ركَّزَ النظامُ بدلاً من ذلك على التطوير الاقتصادي والاجتماعي الداخلي، وأصدر وعوداً كبيرة لتوليد الكهرباء وتحسين الريّ ببناء سَدّ أسوان، والاستثمار في التصنيع، ونَشرِ التعليم الأساسي والتعليم العالي، وقيادة الدولة للتخطيط الاقتصادي. سَعَتْ مصر للحصول على مساعدات اقتصادية أجنبية لتَمويل هذه الجهود من جميع المَصادر المُتاحَة، بينما كانت تحاول الاحتفاظ بحيادِها خلال الحرب الباردة[1].

حاوَل جمال عبد الناصر في بداية عهدِه تجنّبَ إثارة جارةِ مصر القوية إسرائيل بشكلٍ خاص، إلا أن هذا الجهد قد تمّ تقويضُهُ بسبب سياسات زعماء إسرائيل

(1) The best work on this topic is Salim Yaqub, *Containing Arab Nationalism: The Eisenhower Doctrine and the Middle East* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2004).

العُدوانية، خاصة رئيس الوزراء ديفيد بن غوريون[1]، وكذلك بسبب زيادة قوة الاتجاه العسكري الفلسطيني في قطاع غزة. قدَّم اللاجئون الكثيرون في المخيمات المزدَحِمة هناك ظروفاً مثاليةً لنمو الاتجاه العسكري كما بَيَّنَتْ تقارير مؤسّسي حركة فتح الذين كانوا في غزة، مثل ياسر عرفات (أبو عمار) وصلاح خَلَف (أبو إياد) وخليل الوزير (أبو جهاد). تحدَّثوا بعد ذلك بسنوات عن العَقبات التي وضَعتْها المخابراتُ المصرية بعد الانقلاب العسكري، مثل الاعتقال والتعذيب والمضايَقة، لإعاقة تنظيم جهودهم في مواجهة إسرائيل[2].

وهكذا شُنَّتْ حَملةٌ فلسطينية بهجَماتٍ منفصِلة على إسرائيل كانت مميتَةً في أغلب الأحيان على الرغم من محاولات قَمعٍ شديدة من الجيش المصري وقوات الأمن التي سيطَرت بقوة على قطاع غزة. انتقمَتْ إسرائيلُ للإصابات التي لَحِقَتْ بها جَرّاء هجَماتِ الفدائيين الفلسطينيين، وكان انتقامُها شديداً وغَير مُتَناسِب وتَحمَّلَتْ غزة عِبءَ هذه الهجَمات. لم تكن البلاد المجاوِرة منيعةً ضد هذه الهجمات أيضاً. ففي أكتوبر 1953 نَفَّذَت القواتُ الإسرائيلية في قرية قبية في الضفة الغربية مَذبحةً انتقاماً لهجومٍ قام به الفدائيون قُتِلَ فيه ثلاثة مَدَنيين إسرائيليين، امرأةٌ وطفلَين، في بلدة يهود Yehud. قامَت الوحدة 101 من القوات الإسرائيلية الخاصة بقيادة أرييل شارون بتفجير 45 بَيتاً مع سكانِها وقَتلوا 69 مَدَنياً فلسطينياً[3]. شُنَّت الهجمة التي أدانَها مجلس الأمن[4] على الرغم من الجهود الأردنية المستمرة (التي كانت تسيطِر على الضفة

---

(1) This was first shown by Avi Shlaim in a pioneering article, "Conflicting.Approaches to Israel's Relations with the Arabs: Ben Gurion and Sharett, 1953-1956," *Middle East Journal* 37, no. 2 (Spring 1983): 180-201.

(2) These accounts can be found in Abu Iyad with Eric Rouleau, *My Home, My Land: A Narrative of the Palestinian Struggle* (New York, Times Books, 1981); and Alan Hart, *Arafat: A Political Biography* (Bloomington: Indiana University Press, 1989).

(3) انظر شهادة على ما حدَثَ مباشرة بعد الهجوم من ضابط في البحرية الأمريكية كان مسؤولاً عن لجنة الهدنة المشتركة للأمم المتحدة MAC التي حقّقتْ في الهجوم في
E. H. Hutchinson, *Violent Truce.*

(4) قرار مجلس الأمن الدولي رقم 101 في 24 نوفمبر 1953.

الغربية آنذاك) في مَنعِ النشاط العسكري الفلسطيني والتي تَضَمَّنَت سَجنَ بل وقَتلَ المُتَسللين. كانت القواتُ الأردنية تَنشِر غالباً في كَمائن ضد المُحاربين الفلسطينيين وكانت لديها أوامر بإطلاق النار على أي شخصٍ يحاول التسلل إلى إسرائيل[1].

قاوَمَتْ إسرائيلُ بشأن سياسة القوة غير المُتناسِبة في 1954 و1955 حين كان وزير دفاعها آنذاك بن غوريون يأخُذُ موقِفاً معادِياً ضد موقِف رئيس الوزراء موشيه شاريت الأكثر واقعية ودقّة. آمَنَ بن غوريون بأنّ موقف عَدَم التَّهاون في استِخدام القوة هو وَحدَهُ الذي سيُجبِرُ الدولَ العربية على قبول السلام وفق شروط إسرائيل. بينما كانت وجهَةُ نَظَرِ شاريت هي أنّ هذا الموقف العدواني سيَستَفِزّ العرب بلا داعٍ وسيُغلِقُ الطريق أمام فُرَصِ التنازل[2] (إلا أن شاريت كان مِثلَ بن غوريون يَرفضُ التَّخلي عن أيّ أرض كَسِبَتْها إسرائيل في حرب 1948، أو السماح بأي عودةٍ مهمّة للاجئين الفلسطينيين إلى بيوتهم). اقتَرَح بن غوريون في مارس 1955 القيامَ بهجوم واسع على مصر واحتلال قطاع غزة[3]، إلا أن الوزارة الإسرائيلية رفَضَتْ هذا الاقتراح، ثم رضَخَتْ في أكتوبر 1956 بعدما حَلَّ بن غوريون مَحَلَّ شاريت كرئيس للوزراء وربحتْ شعاراتُهُ ومشاريعُهُ. انتقلَتْ سياساتُ بن غوريون العدوانية إلى أتباعِهِ من أمثال موشيه ديان واسحق رابين وآريل شارون وسيطَرت على اسلوب تعامل الحكومة الإسرائيلية مع جيرانها منذ ذلك الحِين.

---

(1) ابن عمّي منذر ثابت خالدي الذي جُنِّدَ في الجيش الأردني وخَدمَ ضابطاً في منطقة حدودية من الضفة الغربية في الخمسينيات ذَكرَ لي في 1960 أن هذه كانت الأوامر التي تلقّاها بشأن الجنود تحت إمرته. مزيد من التفاصيل بشأن جهود الجيش العربي الأردني لوقف تسلل الفلسطينيين في تلك الفترة في مذكرات قائده جون باغوت غلوب John Bagot Glubb, *Soldier with the Arabs* (London: Hodder and Stoughton, 1957). يؤكد هذه الجهود تقرير لرئيس لجنة الهدنة المختلطة للأمم المتحدة Commander E. H. Hutchinson, *Violent Truce*.

(2) This is clear from the extracts from Sharett's diaries in Livia Rokach, *Israel's Sacred Terrorism: A Study Based on Moshe Sharett's Personal Diary and Other Documents* (Belmont, MA: Arab American University Graduates, 1985).

(3) This is attested by Mordechai Bar On, who was a member of the Israeli General Staff at the time: *The Gates of Gaza: Israel's Road to Suez and Back, 1955-57* (New York: St. Martin's Press, 1994), 72-75. See also Benny Morris, *Israel's Border Wars*.

قامَت إسرائيل بالتحضير لهجومِ 1956 من خلال سلسلةٍ من العمليات العسكرية ضد الجيش المصري ومواقع الشرطة في قطاع غزة[1] تصاعَدتْ إلى هَجماتٍ قُتِلَ فيها 39 جندياً مصرياً في رَفَح في فبراير 1955، كما قُتِل 72 في خان يونس بَعدها بستة أشهر. قُتِلَ مزيدٌ من الجنود في هجمات متتالية بالإضافة إلى كثير من المَدَنيين الفلسطينيين[2]. اضطرتْ مصر بعد انكشاف ضَعف جيشِها للتّخلي عن عدم انحيازها وحاوَلَت شراءَ أسلحةٍ من بريطانيا أولاً، ثم من الولايات المتحدة. عندما فشلَتْ تلك الجهود وافقَتْ مصر في سبتمبر 1955 على صفقةٍ كبيرة لشراء السلاح من تشيكوسلوفاكيا، حليفة الاتحاد السوفييتي. كما أَمَرَت الحكومة مخابراتها العسكرية بأن تساعِدَ المقاتلين الفلسطينيين الذين كانت تَمنَعهم قَبل ذلك من شَنِّ عمليات ضد إسرائيل، وذلك بدافعٍ من عدم قُدرَتِها على الردّ على هجماتِ إسرائيل وبسبب حَرَجِها أمام الرأي العام المصري والعربي. لم يتأخّر الردّ على هذه التطورات الجديدة، وكان الردّ مدمِّراً. وهكذا فإن هجمات دامية قليلة شَنَّتها جماعاتٌ فلسطينية مقاتِلة في بداية الخمسينيات ضِدَّ رغبة أغلب الحكومات العربية دفَعَتْ إسرائيل في النهاية إلى شَنِّ حرب السويس في أكتوبر 1956. ولم تَقُم إسرائيل بذلك الهجوم لوحدها، وكان لشركائها أسبابهم الخاصة للهجوم على مصر.

غَضِبَ المستعمرون التقليديون الذين كانوا في مواقع المسؤولية في بريطانيا وفرنسا بسبب تأميم مصر لشركة قناة السويس الفرنسية-البريطانية. تمّ تأميمُ القناة ردّاً على إلغاء وزير خارجية أمريكا لخطّة قَرضٍ من البنك الدولي من أجل بِناء سَدِّ أسوان، كما أنّ فرنسا سَعَتْ لإنهاء دَعم مصر لثوار الجزائر الذين كانوا يَتَدَرَّبون

(1) Avi Shlaim, "Conflicting Approaches."

(2) Lt. Gen. An authoritative account of these events is the memoir of the Canadian officer the Egyptian- Burns, who commanded the UN Truce Supervisory Organization on armistice line between 1954 and 1956: *Between Arab and Israeli*. See also Israeli Shlaim, "Conflicting Approaches."

عسكرياً ويَجعلون من القاهرة منصَّتهم السياسية والإعلامية[1]. كذلك ثار غَضَب حكومة أنتوني إيدن Anthony Eden المحافِظَة في لندن بسبب طَلَبِ النظام الجديد في مصر أن تُنهي بريطانيا وجودَها العسكري هناك (الذي استمر 72 سنة). كما استاءَ البريطانيون من دَعم مصر لأعمال القوميين ضد بريطانيا في العراق والخليج وعَدَن وأجزاء أخرى من الوطن العربي. دفَعَتْ هذه التحديات تلك الدولَتَين للانضمام إلى إسرائيل في غَزوٍ شاملٍ لمصر في أكتوبر 1956[2].

كان لهذه الحرب الرئيسية الثانية بين العرب وإسرائيل عددٌ من الخصوصيات، فقد كانت حربُ السويس ضد دولة عربية واحدة فقط، على العكس من الحروب الأخرى في 1948 و1967 و1973 و1982 التي انضمّ إليها عددٌ من الدول العربية. كما سبقَها تفاهمُ سيفر Protocol of Sèvres بشكل اتفاقية سرّية بين إسرائيل والقوّتَين الاستعماريتَين التقليديتَين فرنسا وبريطانيا تم إجراؤها قَبل أيام قليلة من بَدء الحرب. حَسَمَتْ هذه الاتفاقيةُ نهايةَ التباعد بين بريطانيا والحركة الصهيونية الذي يَرجع إلى الورقة البيضاء في سنة 1939. أدّت الحرب إلى تغيير آخر في التحالفات: إذ أنّ حلفاء إسرائيل أمريكا والاتحاد السوفييتي الذين كانوا إلى جانبها في 1947–1948 انتَقَلوا إلى جانب مصر في حرب السويس.

حالَما تم الاتفاق في سيفر، انطلَقَ الهجومُ الثلاثي في سياقِ أنّ القوات البريطانية والفرنسية تتدخل للفَصل بين المتحاربَين. هُزِمَ الجيشُ المصري بشكلٍ حاسِمٍ وسريع، وعلى الرغم من النتيجة المتوقَّعَة لمَعركةٍ بين إسرائيل القوية ومعها قوّتَين أوربيتَين ضدّ دولةٍ ضعيفة من العالَم الثالث لم تَستوعِبْ بَعدُ سلاحَها السوفييتي الجديد، إلا أن النتائج السياسية لم تكن في صالح المعتَدين. استاءَ

(1) Matthew Connelly, *A Diplomatic Revolution: Algeria's Fight for Independence and the Origin of the Post-ColdWar Era* (New York: Oxford University Press, 2002).

(2) on the There is a vast literature on the 1956 Suez war. For a good collection of essays Roger topic see *Suez 1956: The Crisis and Its Consequences*, ed. Roger Louis and Owen (Oxford: Clarendon Press, 1989). See also Benny Morris, *Israel's Border Wars*.

الرئيسُ دوايت أيزنهاور كثيراً من بريطانيا وفرنسا لأنهما لم تَتشاورا مع واشنطن، ولأنهما قاما بتَدخل استعماري في اللحظة التي كانت الدبابات السوفييتية تكتَسح ثورةً هنغارية سنة 1956. غَضِبَ السوفييت بسبب هذه الهَجمة الأمبريالية على حَليفهم الجديد في مصر ولكنهم كانوا مَسرورين بهذه الحرب التي صَرَفَت الأنظار بعيداً عن قَمعِهم للثورة في بودابست.

عملَت الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي معاً في الشرق الأوسط مثلَما فَعَلَتا في 1948، وتجاوَزَتا عن تنافسِهما الشديد في الحرب الباردة، واتَّخذَتا موقفاً صارماً ضد تحالف العدوان الثلاثي. هدَّد السوفييت باستِخدام السلاح النووي، وحذَّرت الولايات المتحدة بأنها ستقطَع المساعدات الاقتصادية عن حلفائها، وحرَّكتا معاً بسرعةٍ اتخاذَ قرار في الجمعية العمومية في الأمم المتحدة يُطالب بانسحابٍ فوري (اتخاذُ قرارٍ في مجلس الأمن لم يكن ممكِناً بسبب فيتو مؤكَّد من بريطانيا وفرنسا). أَجبَرَ هذا الضغط الشديد من القوى العظمى إسرائيل وفرنسا وبريطانيا على إنهاء احتلال مناطقَ مصرية وقطاع غزة. حاوَلتْ إسرائيل تأخير انسحابها ولم تَسحب آخر قواتِها من سيناء وقطاع غزة حتى بداية 1957. تقَهقَر المهاجِمون وأظهَرتْ أمريكا والاتحاد السوفييتي مَن هو المتَحكّم بالشرق الأوسط، وأصبَح عبد الناصر بطَلاً قومياً عربياً، ولكن معاناة اللاجئين الفلسطينيين في قطاع غزة كانت كبيرة.

عندما اقتَحمَت القوات الإسرائيلية مُدُنَ وبلدات غزة ومخيمات اللاجئين في خان يونس ورَفَح في نوفمبر 1956، قُتِلَ أكثر من 450 رجلاً مَدَنياً، وأعدِم أغلبهم مَيدانياً[1]. حسب تقريرٍ خاص من المدير العام للأنوروا فقد قُتِلَ 275 رجلاً في المذبحة الأولى التي حَدَثَتْ في 3 نوفمبر في مخيمِ اللاجئين قُربَ خان يونس. وبعد ذلك بأسبوع، في 12 نوفمبر، قُتِلَ 111 شخصاً في مخيم

(1) "Special Report of the Director of the United Nations Relief and Works Agency for Palestine Refugees in the Near East," A/3212/Add.1 of December 15, 1956.

رَفَح. وأُطلِقَ الرصاصُ على 66 شخصاً في الفترة بين 1 و21 نوفمبر[1]. كنتُ حاضراً ذات مرة عندما تحدَّثَ محمد الفرّا مندوبُ الأردن في الأمم المتحدة ورَوى كيف أن عدداً من أبناء عمومَتِهِ كانوا في خان يونس وتم تجميعهم وإعدامهم[2]. تدّعي إسرائيل بأن قَتلى الفلسطينيين كانوا نتيجةَ صدامات مع قواتٍ كانت تَبحَث عن فدائيين، إلا أن ذلك تم تكذيبُهُ في تقريرِ الأنوروا. قُتِلَ المَدَنيون بعد أن توقَّفَت المقاومة تماماً في قطاع غزة فيما يبدو انتقاماً من للهَجمات التي تمت داخل إسرائيل قَبل حرب السويس. بالنظر إلى سوابق إسرائيل سنة 1948 في قَتلِ المَدَنيين في دير ياسين وفي عشرين موقعاً آخر على الأقل[3]، بالإضافة إلى ارتفاع عدد الضحايا من المَدَنيين في الهجمات التي قامَت بها في أوائل الخمسينيات، مِثلَ تلك المذبحة التي تمت في القبية، فإن الأحداثَ المروّعة في قطاع غزة لم تكن حوادث منفردة، بل كانت جزءاً من نمَطِ سلوكِ العسكرية الإسرائيلية. تم التكتّم على أخبار المَذابح في إسرائيل وتَغطيتها في وسائل الإعلام الأمريكية الراضِية.

كانت أحداث 1956 نموذجاً مبكراً للثمن الباهظ الذي دَفَعَهُ أهل غزة، ومازالوا يدفَعونه في الحرب المستمرة على الفلسطينيين. سَرَدَ المؤرخُ الفرنسي جان بيير فيليو Jean-Pierre Filiu 12 حَملة إسرائيلية كبيرة ضدّ غزة منذ 1948، كان بعضُها احتلالاً تاماً، بينما كانت حملات أخرى عمليات عسكرية واسعة النطاق[4]. لطالما غَطَّت الحروب الكبيرة بين إسرائيل والدول العربية على استهداف غزة لأن الصراعات

---

(1) كانت هذه المذابح موضوع مناقشة في الكنيست في نوفمبر 1956 حيث استُخدم اصطلاح "القتل الجماعي". ذَكرَ جندي إسرائيلي تقريراً مفصَّلاً كشاهد على المذبحة

Marek Gefen, "The Strip is Taken," *Al-Hamishmar*, April 27, 1982. These massacres are the main focus of Joe Sacco, *Footnotes in Gaza: A Graphic Novel* (New York: Metropolitan Books, 2010).

(2) تحدث الفرّا عن ذلك بعدها في تاريخ شفوي للأمم المتحدة

http://www.unmultimedia.org / oralhistory/2013/01/el-farra-muhammad/.

(3) In the second edition of his book, *The Birth of the Palestinian Refugee Problem Revisited*, Benny Morris lists twenty such massacres.

(4) Jean-Pierre Filiu, *Gaza: A History* (Oxford: Oxford University Press, 2014).

الحامية التي تَشمَل الدول العظمى بشكلٍ مباشر تثير اهتماماً أكثر بالطبع. وليس من المستغرَب أن يُستهدَف قطاع غزة بهذا الشكل لأنه كان بوتَقَةَ المقاومة الفلسطينية لسَلبِهم وتَهجيرهم بَعد 1948. أغلبُ القادةُ المؤسِّسون لحركة فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية نَشَؤوا في الأحياء المزدَحمة في قطاع غزة الساحلي الضّيق، كما أن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين المتشدِّدة قد حَصَلت على أقوى مؤيديها حماسةً من هناك، ثم كانت بعد ذلك مولِدَ ومَعقِلَ حرَكَتَي الجهاد الإسلامي وحَماس، وهما أقوى المتحَمسين للكفاح المسلح ضد إسرائيل.

بعد سنوات قليلة من النكبة، تغيّرت حالةُ الصدمة واليأس التي نتَجَتْ عنها لدى الفلسطينيين إلى رغبةٍ بمقاومة القوى التي هاجَمتهم على الرغم من الاحتمالات الصعبة. أدّى ذلك إلى سلسلةِ هجماتٍ مسلحة قاتلة كنتيجة مباشِرة للنكبة ومتابَعة لما سبقَها من توتر قتالي. أطلَقَت الهجماتُ هجماتٍ انتقامية إسرائيلية غير مُتَناسِبة على الدول العربية المجاوِرة، وأدّى ذلك في النهاية إلى حرب السويس التي نشأتْ في الأصل عن شرارة مقاوَمة الفلسطينيين للنزوح عن وطنهم وكانت جُذوراً مباشرة للقضية الفلسطينية، وكان هذا صحيحاً كذلك بالنسبة لحرب 1948.

اعتُبر هذان الصِّدامان صِراعاً بين جيوش إسرائيل وجيرانها العرب بشكلٍ رئيسي، ولكن رفضَ الفلسطينيين الرضوخ لنزوحِهم شدَّ الدول العربية التي كانت مَشغولةً عنهم ولم تكن تَسعى فعلياً ولا مستعِدة تماماً للحرب ضد إسرائيل. تصاعَدت المواجهات في أكتوبر 1956 ومَنَحَت الفرصة لهجمةٍ إسرائيلية أولى كاسِحة تم التخطيط لها من قَبل، وعلى الرغم من وضوح ضَعف الفلسطينيين المتفرّقين المَهزومين الذين ألغَاهُم المنتصِرون من التاريخ بعد حرب 1948 وتم إهمالهم أو تكميمُ أفواهِهم من جِهة الحكوماتِ العربية، والتضحية بهم على مَذبح طموحات الدول العظمى في صراعاتها الدولية، إلا أنهم تمكّنوا مِراراً من تحريكِ الرّكود في المنطقة الذي لم يكن مناسباً لوضعِهم وحالَتِهم. كانت نتائجُ ذلك سنة 1956 خطيرةً في غزة وغيرها من المناطق، وستكون أسوأ من ذلك في الجَولة التالية.

3

إعلان الحرب الثالث
1967

"كنتُ أبحث عن طريقةِ صنعِ حَدَثٍ ما أو عدم صُنعِهِ لأنـه لا يوجَد حدَثٌ إلا من خلال ما يقوله شخصٌ عنه، وذلك لأن الحَدَثَ يَصنَعُهُ أولئك الذين يَنشُرون اسمَهُ"

جورج دوبي *Georges Duby*[1]

في صباح يـوم مُشرِق مـن أوائـل يونيـو 1967، خرجـتُ مـن المحطـة المَركزيـة في مانهاتن في طريقي من بيتنا في ماونت فيرنون إلى مكتـب والِدي في مَقرّ الأمـم المتحـدة. كانت حربُ الأيـام السـتة قـد انـدلَعتْ في الشـرق الأوسـط وذَكَـرت التقـاريرُ أن القـوات الجوية المصرية والسورية والأردنية قد سُحِقت في الضربة الإسرائيلية الأولـى. خشـيتُ من احتمال نَصرٍ إسرائيلي سـاحِق آخَـر، ولكـن علـى الـرغم مـن اطلاعـي البسـيط علـى الاستراتيجية العسكرية أدركتُ أن جَيشـاً منتَشِراً في الصحـراء دون غطـاء جـوي سـيكون هَدَفـاً سَهلاً لأية قوات جوية، خاصةً إذا كانت قوية مثل سلاح الجو الإسرائيلي.

لاحظتُ هَرَجـاً في الشـارع الثـاني والأربعين. كـان هنالـك بضعةُ أشخاصٍ ممسِكين بأطرافِ مُلاءَةٍ شدَّها إلى الأسفل قبضَةٌ من النقـود المَعدنيـة والورقيـة. جـاءَ آخـرون مـن

(1) *Le dimanche de Bouvines: 27 juillet 1214* (Paris: Gallimard, 1973), 10. The original puisque, quote in French is: "Je tachai de voir comment un événement se fait et se défait en fin de compte, il n'existe que par ce qu'on en dit, puisqu'il est à proprement parler fabriqué par ceux qui en répandent la renommée."

كل مكان ليتَبرعوا بمزيدٍ من المال. توقفتُ برهَة لأراقِبَ ما يَجري وأدركتُ أنهم كانوا يَجمعون تبرعات من أجل المَجهود الحربي الإسرائيلي. صُدمتُ لأنه بينما كانت عائلتي وكثير غيرهم كانوا مشغولين بمصير فلسطين، كان كثير من أهل نيويورك قلِقين بشأن مصير إسرائيل، وآمَنوا مخلِصين بأن الدولةَ اليهودية كانت في خَطَر مَصيري مثلما آمَن كثيرٌ من الإسرائيليين بعد أن أنذَرَتْهم التهديداتُ الفارغة من بعض الزعماء العرب.

عَرفَ الرئيسُ ليندن جونسون أن الأمر يَختلفُ عن ذلك، فقد أخبَرَهُ آبا إيبان الذي كان وزير خارجية إسرائيل خلال اجتماع عُقِدَ في واشنطن بتاريخ 26 مايو أن مصر على وشك القيام بهجوم. طَلَبَ الرئيسُ من وزير دفاعِهِ روبرت ماكنمارا أن يَضَعَ الأمور في نِصابها. بَحَثَتْ ثلاثةُ مجموعات استخباراتية منفصِلة جيداً في هذه القضية، وقالَ ماكنمارا: "حسبَ أفضل تقديراتنا لا يوجَد احتمالٌ للهجوم" أضافَ جونسون: "وقد أجمَع رجالُ استخباراتِنا على ذلك" وعلى أنه "إذا هاجَمتْ مصر فسنوجِّهُ لها ضربةً ساحِقة"[1]. كانت واشنطن تَعلمُ أن القوة العسكرية الإسرائيلية في حرب 1967 كانت أقوى بكثير من كافة جيوش الدول العربية مجتَمِعة مثلما كانت الحالة في جميع الصراعات بينهم.

أكّدت الوثائقُ الحكومية التي نُشرتْ منذ ذلك الوقت على هذه الحقائق. تَوقَّعَتْ مَصادرُ عسكرية واستخباراتية أمريكية نَصراً ساحِقاً لإسرائيل في جميع الأحوال بالنظر إلى تَفوق قواتِها المسلحة[2]. بعد خمس سنوات من حرب 1967

---

(1) Holt, Lyndon Johnson, *The Vantage Point: Perspectives of the Presidency* (New York: Rinehart and Winston, 1971), 293.

(2) كانت التقديرات العسكرية الأمريكية والمخابرات الأمريكية أن إسرائيل ستَهزم بسهولة جميع الجيوش العربية حتى لو بدأتْ تلك الجيوش بالهجوم.

See US Department of State, *Foreign Relations, 1964-1968, Volume XIX, Arab-Israeli Crisis and War, 1967* [hereafter Foreign Relations, 1967].

في اجتماع مع الرئيس جونسون وكبار مساعديه في 26 مليو 1967 ذَكَرَ رئيس الأركان الجنرال إيرل ويلر "تنظيمُ القوات المصرية دفاعي ولا يبدو أنهم مستعدون للهجوم على إسرائيل... إلا أنه استنتج أن إسرائيل ستستطيع الدفاع أو الهجوم وأنها ستربح في النهاية... اعتقدُ بأن الإسرائيليين سيكسبون السيطرة الجوية. ستَخسَر مصر كثيراً من الطائرات. الفلسفة العسكرية

أكّد خمسةُ جنرالات من إسرائيل التقديرات الأمريكية، وذَكَروا في سياقٍ آخر أن إسرائيل لم تكن مُهدَّدَة بالفَناء[1]، بل على العَكس من ذلك فقد كانت قواتُها أقوى من الجيوش العربية سنة 1967 ولم تكن الدولةُ مُهدَّدَة بأيّ خطَر بخسارة أي حَرب حتى لو بَدَأ العربُ بالهجوم[2]، إلا أنّ الأسطورةَ انتشرتْ: في سنة 1967 واجَهتْ

الإسرائيلية هي تحقيق مفاجأة تكتيكية بضرب المطارات أولاً" (ملاحظة للسجلات الوثيقة رقم 72). كان للمخابرات الأمريكية رأيٌ مماثل: "من المؤكد أن إسرائيل ستُحقق السيطرة الجوية على سيناء خلال 24 ساعة بعد المبادرة أو خلال يومين أو ثلاثة إذا بدأت مصر بالهجوم أولاً... نقدِّر أن القوات المدرعة ستَخترق خط الدفاع المصري المضاعَف في سيناء خلال أيام" (الوثيقة 76). ومع ذلك فإن الاعتقاد بأن إسرائيل أضعَف من العرب وأنها كانت على وشك الإبادة استمرَّ بكونه من أقوى الأكاذيب عن الصراع.

(1) كان الجنرالات هم عزرا وايزمان (قائد القوات الجوية 1967 ثم رئيس إسرائيل وهو ابن أخ حاييم وايزمان)، حاييم هيرتزوغ (رئيس المخابرات العسكرية حتى 1962 ثم رئيس إسرائيل فيما بعد)، حاييم بارليف (نائب رئيس الأركان 1967 ثم رئيس الأركان)، ماتيتياهو بيليد (عضو الأركان العامة 1967)، يشياهو غافيش (قائد القيادة الجنوبية 1967) في
Amnon Kapeliouk, "Israëlétait-il réellement menacé d'extermination?" *Le Monde*, June 3, 1972. See also Joseph Ryan, "The Myth of Annihilation and the Six-Day War," *Worldview*, September1973 , 38-42, which summarizes the "war of the generals" waged against this particular untruth.

(2) كان هناك ادعاءٌ كاذب بأن مصر كانت ستبدأ بهجومٍ جوي مباغِت على مطارات إسرائيل في 27 مايو 1967 وتم إلغاؤه فقط بفضل جهود أمريكا والاتحاد السوفييتي. انظر
William Quandt, *Peace Process* (Washington, DC: Brookings Institution, 1993), 512n38.
يبدو أن العسكرية الإسرائيلية قد اعتقدتْ بهذا الاحتمال ولكن على الرغم من وجود خطة احتياطية مصرية بالاسم الرمزي (الفجر) لم تؤخذ جدياً بعين الاعتبار في القيادات المصرية الذين تم تحذيرهم بشدة من الهجوم من جهة الأمريكان والروس. انظر
Avi Shlaim, "Israel: Poor Little Samson," in *The 1967 Arab-Israeli War*, ed. Roger Louis and Avi Shlaim (New York: Cambridge University Press, 2012), 30.
تواجَدَ وفد مصري عال المستوى في موسكو آنذاك ونصحهم المحاورون الروس جميعهم بقوة لضبط النفس، وكان بين الروس رئيس الوزراء ألكسي كوسيجين ووزير الدفاع أندريه غريشنكو ووزير الخارجية أندريه غروميكو. هناك تفاصيل استَندتْ إلى مقابلة مع وزير الدفاع المصري شمس بدران وتقارير عديدة من مشاركين آخرين ومَحاضِر الجلسات. انظر
Hassan Elbahtimy, "Did the Soviet Union Deliberately Instigate the 1967 War?" Wilson Center History and Public Policy blog (his conclusion in response to the question in his title is: no).

دولةٌ صغيرةٌ ضعيفة تهديداً مستمراً بالفَناء ومازالت تواجِهُ هذا الخطر[1]. ساعدَتْ هذه الأسطورةُ على تبرير الدَّعم الكامل لسياسة إسرائيل مهما كانت متطَرفة وعلى الرغم من دَحضِها مِراراً حتى من جهة آراء إسرائيلية مسؤولة[2].

تطَوَّرَ مَسارُ الحرب تماماً مثلما توقَّعَتْ وكالة المخابرات الأمريكية ووزارة الدفاع. دَمَّرَتْ ضربةٌ سريعة قام بها سلاح الجو الإسرائيلي غالبيةَ الطائرات المصرية والسورية والأردنية على الأرض. مَنَحَ ذلك إسرائيل تفوقاً جَوياً تاماً وامتيازاً لقواتِها البرية في تلك المنطقة الصحراوية في ذلك الفَصل من السَّنة. وتمكّنتْ أرتالُ المدرعات الإسرائيلية في ستة أيام من احتلال سيناء وقطاع غزة والضفة الغربية والقدس الشرقية العربية ومرتفعات الجولان.

كانت أسباب انتصار إسرائيل الحاسِم في يونيو 1967 واضِحة، إلا أن العوامل التي أدّت إلى الحرب كانت أقلّ وضوحاً. كان السببُ الرئيسي في ذلك هو تصاعُدُ جماعات الفدائيين الفلسطينيين المسلَّحين. كانت الحكومة الإسرائيلية قد بدأتْ بتحويل مياه نهر

وللبحث أكثر في مصادره واستنتاجاته انظر

Hassan Elbahtimy "Allies at Arm's Length: Redefining Soviet Egyptian Relations in the 1967 Arab-Israeli War," *Journal of Strategic Studies (*February 2018)

وانظر أيضاً في

Hassan Elbahtimy, "Missing the Mark: Dimona and Egypt's Slide into the 1967 Arab-Israeli War," *Nonproliferation Review* 25, nos. 5-6 (2018): 385-97

(1) أحد أوائل وربما الأقوى تأثيراً بين الذين نَشروا هذه الأسطورة كان وزير الخارجية الإسرائيلي آبا إيبان. صَرَّح في مجلس الأمن خلال إحدى مداخلاته الشهيرة في 8 يونيو 1967 أنه بينما شكّ كثيرون "بقدرة إسرائيل على البقاء والأمن... إلا أن الحقيقة هي أننا أقل تعاوناً مما كان يأمَل به البعض مع خطة إبادتِنا". السجلاتُ الرسمية لمجلس الأمن الدولي اجتماع 1351 في 8 يونيو 1967 S/PV. 1351. للنظر في تفاصيل أكثر عن نقد هذه الأسطورة واستمرارها انظر

Joseph Ryan, "The Myth of Annihilation and the Six-Day War,". 38-42.

(2) استَدعَى وزيرُ الخارجية الأمريكي مايك بومبيو اسطورة أن إسرائيل كانت على شَفا الإبادة سنة 1967 لتبرير اعتراف إدارة ترمب بسيادة إسرائيل على مرتفعات الجولان بقوله "هذا موقفٌ فريد لا يصدَّق، كانت إسرائيل تخوض حرب دفاع لإنقاذ أمّتها، ولا يمكن أن يكون قرار الأمم المتحدة ميثاقَ انتحار".

David Halbfinger and Isabel Kershner, "Netanyahu Says Golan Heights Move Proves You Can' Keep Occupied Territory," *New York Times*, March 26, 2019.

الأردن إلى وَسَط البلاد على الرغم من رَفضِ الجماهير العربية وضَعف الأنظمة العربية. شَنَّتْ حركةُ فتح في الأول من يناير 1965 هجوماً لتعطيل محطَّة ضَخّ للمياه في وسَط إسرائيل. كانت هجمةً رمزية هَدفُها الأساسي مِثلَ كثير غيرها هو إظهار أنّ الفلسطينيين يَستطيعون التصرف بكفاءة حينما لا تستطيع الحكومات العربية ذلك. وكذلك لإحراج تلك الحكومات وإجبارها على التصرف. كان المسؤولون المصريون يَنظرون بِعَينِ الشكّ إلى حركة فتح ويَعتَبرونها مدفَعاً مُنفَلِتاً يُحرِّضُ إسرائيل بتَهورٍ في وقتٍ كانت فيه مصر مَشغولة بتَدَخُلٍ عسكري في حربٍ أهلية في اليمن وفي بناءِ اقتصادها.

حَدَثَ ذلك في ذروة ما أَطلَقَ عليه الباحثُ مالكولم كير Malcolm Kerr "الحرب العربية الباردة" حينما قادَتْ مصر تحالُفاً من الأنظمة القومية العربية المتشدّدة ضد التحالف المحافِظ بقيادة السعودية. كانت نقطةُ الصراع بينهم في اليمن حيث قامَتْ ثورةٌ ضد المَلَكية سنة 1962 وأدّت إلى حربٍ أهلية انخَرَطَتْ فيها قوات عسكرية مصرية كبيرة.

بالنظر إلى التفوق العسكري الإسرائيلي الكبير وحقيقة أن أكثر من ستين ألف عسكري مصري وكثير من قواتها الجوية كانوا مَشغولين في الحرب الأهلية في اليمن فإن استِفزازَ مصر لإسرائيل في مايو 1967 بتحريكِ قواتٍ إلى سيناء وطَلَبِ سَحبِ قواتِ حِفظِ السلام التابِعة للأمم المتحدة يبدو غَير منطقي. إلا أن مصر كانت تَستجيب لزيادةٍ في هَجَمات فدائيين فلسطينيين على إسرائيل من قواعِدَ مَنَحَها لَهُم النظامُ السوري الجديد المتشدّد الذي وَصَلَ إلى السُلطة في 1966، وكانت إسرائيل قد ردَّتْ بالهجوم على سورية وتهديدِها. شَعرت القيادة المصرية بأنها مضطرة للرّد على ذلك التهديد لكي تُحافِظ على زعامَتها للعالَم العربي[1]. ومهما كانت دوافِع

(1) For a summary of these issues, see Elbahtimy "Allies at Arm's Length," and Eugene Rogan and Tewfik Aclimandos, "The Yemen War and Egypt's War Preparedness," in Avi *The 1967 Arab-Israeli War: Origins and Consequences*, ed. W. Roger Louis and Shlaim (Cambridge: Cambridge University Press, 2012). See also Jesse Ferris, *Nasser's Gamble: How Intervention in Yemen Caused the Six-Day War and the Decline of Egyptian Power* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2012).

مصر فإن تحركاتِها في سيناء شكَّلتْ تهديداً صَريحاً لإسرائيل، كما أنها مَنَحَتْ إسرائيلَ الحجّة التي سَمَحَت للجيش الإسرائيلي بشَنِّ ضَربةٍ أولى خُطِّطَ لها مُسبقاً أدّت إلى تحطيم ثلاثة جيوش عربية وغيّرت خريطةَ الشرق الأوسط[1].

توجهتُ في كل صباح من أيام الحرب إلى الأمم المتحدة مُغيِّراً طريقي لكي أتفادَى رؤيةَ جامِعي التبرعات ذاهِباً إلى مكتب والِدي في الطابق الخامس والثلاثين والمَنظَر الواسِع الذي يُطِلُّ منه على النهر الشّرقي ومنطقة كوينز. كان يَعملُ في قسم الشؤون السياسية لمَجلس الأمن، وكان من ضمن أعمالِه تقديمُ تقريرٍ عن مُداوَلات المجلس لأمورِ الشرق الأوسط. ولذا فقد حَضَرَ اجتماعات مجلس الأمن كلما دَارَتْ مناقَشةُ الصراع العربي الإسرائيلي، وهذا يَعني نصفَ جلساته تقريباً خلال الخَمس عشرة سنة التي عَمِل فيها هناك حتى وفاتِه سنة 1968. أنصَتُّ في مكتَبِهِ إلى المذياع وقرأتُ الصحف وحاوَلتُ بشكلٍ عام أن أجعَلَ نفسي مفيداً رَيثما يدعى المجلس للاجتماع. استطعتُ أن أجلس في منصّة الزّوار بينما جَلَسَ والدي في مكانِه في الصفّ الأخير وراءَ مُساعِد السكرتير العام المَسؤول عن قِسمِه. كان ذلك المَسؤول إما روسياً أو بيلاروسياً أو أوكرانياً[2] ربما بسبب اتفاقٍ غامِض منذ بدايات الحرب الباردة قد يَرجِع إلى مؤتمر يالتا.

اجتمَعَ المجلس مِراراً بشكلٍ رسمي أو شبه رسمي منذ بَدء الأزمة في الشهر السابق، وخلال أيام الحرب الستة اجتَمَعَ المَجلسُ إحدى عشرة مرّة استمرّتْ كثيرٌ منها حتى ساعات الصباح الأولى. كان تسارُعُ العملِ مُرهِقاً، وكان على والِدي وزملائه قضاء ساعاتٍ طويلة في تحضير المواد للمجلس وللسكرتير العام ثم لكتابة

---

(1) Michael Oren, *Six Days of War: June 1967 and the Making of the Modern Middle East* (Oxford: Oxford University Press, 2002)، ملاحظات عن أن الهجمات الجوية المباغِتة كانت مخطَّطة من قَبل (ص 202)، وأن عدداً من الخطط الاحتياطية السابقة كانت موجودة لاحتلال مرتفعات الجولان السورية (ص 154)، والضفة الغربية والقدس الشرقية (ص 155)، وشبه جزيرة سيناء (ص 153).

(2) تغيّرت الأحوال في الأمم المتحدة: أصبح اسم هذا القِسم الآن الشؤون السياسية، ويرأسه عادةً مسؤولٌ أمريكي.

تقارير عن كل اجتماع، وظَهَرَ عليه التعب والإرهاق في الصور التي التُقطَتْ آنذاك[1].

في يوم الجمعة التاسع من يونيو الذي كان خامس أيام الحرب هَزَمَت القواتُ الإسرائيلية الجيوشَ المصرية والأردنية واحتلّتْ قطاع غزة وسيناء والضفة الغربية والقدس الشرقية العربية. بدأتْ إسرائيلُ صباح ذلك اليوم بالهجوم على مرتفعات الجولان ضد الجيش السوري وكانت تتقدّم بسرعة على الطريق الرئيسي نحو دمشق. كان مجلسُ الأمن قد أمَرَ بوقفٍ كامِلٍ لإطلاق النار في السادس والسابع من يونيو ولكنّ القوات الإسرائيلية الداخِلة إلى سورية تَجاهَلَتْ هذه القرارات على الرغم من أن حكومَتها قد أعلَنَتْ بوضوح موافقَتها والتِزامها بتلك القرارات. في ذلك المساء في الشرق الأوسط (بعد الظهر في نيويورك) اقترَبَت القواتُ الإسرائيلية من مدينة القنيطِرة عاصمة المحافَظة في تلك المَنطقة التي يَقعُ وراءها سَهلُ حوران المنبَسِط، ولم يفصِل بين أرتالِ دباباتها وبين العاصمة السورية سوى أربعون كيلومتراً.

في بداية اجتماع المجلس الذي عُقِدَ في الساعة 12:30 بعد الظهر، اقتَرَح الاتحاد السوفييتي المشروعَ الثالث لوَقف إطلاق النار على وَجهِ السرعة. في تلك اللحظة وبَعد الهزيمة المُذِلّة للجيش المصري ذي التسليح السوفييتي واحتلالِ مرتفعات الجولان كان السوفييت يَسعون جاهِدين لحمايةِ عُملائِهم السوريين من انسحاباتٍ أبعَد خاصة أمامَ تقدّم الإسرائيليين نحو دمشق. ظهَرَ الاستعجال في المُداخَلات الحامية للسفير السوفييتي نيقولاي فيدورينكو Nikolai Fedorenko. صَدَرَ القرار رقم SC 235 بالإجماع حوالي الساعة 1:30 بعد الظهر طالِباً من جميع أطرافِ الصراع "وقفَ جميع أشكال الصراع". كما طَلَبَ بشكلٍ غير عادي من

(1) يمكن مشاهدة والِدي وهو ينهض ببطء في الصف الأخير حول طاولة المجلس في لحظة إصدار القرار (ربما لتأكيد عَدِّ الأصوات) في فيلم إخباري لشركة Universal Newsreel في 9 يونيو عن تصويت وقف إطلاق النار والموجود في مقالة ويكيبيديا عن حرب يونيو.

السكرتير العام للأمم المتحدة "التحضيرَ للالتِزام الفوري" بوَقفِ إطلاقِ النار وتقديم تقرير للمجلس "خلال أربعِ وعشرين ساعة"[1].

تَملمَلتُ بعصبيةٍ بينما استمر الاجتماع بعد الظهر بانتظار تأكيد السكرتير العام للالتزام بِوقفِ إطلاق النار لأن ذلك يَعني نهاية الاقتتال ووقف التقدّم الإسرائيلي، ولكن بينما كانت الساعات تمرّ ببطء استمرّت التقاريرُ الجديدة تَرِدُ بأن القوات الإسرائيلية تَقترِبُ من دمشق أكثر فأكثر. ظَهَرَ كأن المجلس ربما وَصَلَ إلى نقطةِ القيام بعملٍ ما لِفَرضِ طَلَباتِهِ في الوقفِ الفَوري لإطلاق النار عندما طَلَبَ السفير الأمريكي آرثر غولدبرغ Arthur Goldberg تعليقَ الجلسة. وبعد مناقشةٍ غير منضبِطَة وافَقَ المجلسُ على تعليق الجَلسة مدةَ ساعتَين وخَرجَت الوفودُ من القاعة ببطء.



مجلس الأمن في الأمم المتحدة 1967. اسماعيل الخالدي وغليونه هو الثاني من اليمين في الصف الخلفي

---

(1) السجلات الرسمية لمجلس الأمن الدولي 1352 الاجتماع الثاني في 9 يونيو 1967، S/PV.1352

هبطتُ مسرعـاً للقاء والِدي وأنا أتوقَّعُ أن يَشرحَ لي لماذا وافَقَ المَجلسُ على السَّماح بالتأخير ساعتَين. قـال والِـدي أن غولـدبرغ أرادَ التشـاور مـع حكومَتِه. لـم أصدّق ذلك، فكَمْ يَحتاجُ الأمر من التشاور لِفَرضِ قَرارِ وَقفِ إطلاق النـار؟ أجاب والِدي بابتسامةٍ قاسية مَريرة وقال بالعربية: "ألا تفهَم؟ يريدُ الأمريكان مَنحَ إسرائيل مَزيداً من الوقت".

لـم يتوقف التقدم الإسرائيلي داخل سورية بفضـل منـاورة السـفير غولـدبرغ في تأخير تنفيذ قرار وَقفِ إطلاق النار في التاسع من يونيو لفـترة سـاعاتٍ قليلـة أخرى، بل استمرّ حتى عَصر اليوم التالي. قَضى مجلسُ الأمن فترةَ تسع سـاعات إضـافية في حوار لاذِع خلال ثلاثة اجتماعات أخرى استمرّتْ حتى الساعات الأولى من صباح العاشر من يونيو، وكَرَّرَ غولبرغ خلالَها حركات التأخير.

على الـرغم مـن أن تلـك الحادثـة كانـت صـغيرة إلا أن أداءَ السـفير كـان نَـذيراً بتَغيّر كبير في سياسـة الولايـات المتحـدة الأمريكيـة نحـو إسـرائيل، ومـا شَـهِدناهُ في ذلـك اليـوم كـان دلـيلاً علـى اتجـاهٍ جديـد في التصـرف تجـاه الشـرق الأوسـط، فقـد كان رأسُ الحَربـة علـى الأرضِ إسـرائيلياً بينمـا كـان الغطـاء الدبلوماسـي أمريكيـاً، ومازالَ هذا التَّوجُّه مستمراً حتى الآن بعد مـرور نصـف قَـرن. هـذا التغيّـر الـذي بَـدأ قَبل ذلك نَتَجَ أساسـاً لأسباب عالميـة خاصـة نتيجةً لتـأثير الحـرب البـاردة وحـرب فيتنام على سياسة أمريكا في المنطقة، وكـذلك بسـبب اعتبـارات شخصـية وسياسـية في واشنطن. كما تطوَّرت التحالفـاتُ الخارجيـة الإسـرائيلية بشـكلٍ مُتَـوازٍ مـع ذلـك التغيّر بحيـث اتَّجَهـتْ بشـكلٍ حاسِـم بعيـداً عـن رعاتِهـا السـابِقين في الخمسـينيات والسـتينيات في فرنسـا وبريطانيـا (التـي حاربَـت بأسـلحتهم في 1956 و1967) إلـى تحالفٍ تامٍ مع الولايات المتحدة الأمريكية. توافَقَتْ جميعُ هـذه العوامـل في يونيـو 1967 قَبـل بـدء الحـرب عنـدما سَـعَت الحكومـة الإسـرائيلية وراء الـدعم الأمريكـي وتلقّـت الضـوء الأخضـر مـن واشـنطن لشَـنِّ هجـومٍ استباقي علـى سـلاح الطيـران المصري والسوري والأردني.

شكّلَ وعدُ بلفور والانتداب أولَ إعلان حَرب مِن قوةٍ عظمى على الشعب الفلسطيني، وكان قرار الأمم المتحدة في التقسيم سنة 1947 يُمثِّلُ الإعلان الثاني، بينما أدّت حرب 1967 إلى الإعلان الثالث. جاء ذلك الإعلان بشكلِ القرار رقم SC 242 الذي صاغَتْهُ الولاياتُ المتحدة وتمّت الموافَقةُ عليهِ في 22 نوفمبر 1967. لم تتحرك سياسةُ الولايات المتحدة نحو إسرائيل والفلسطينيين على مَسارِ خَطٍّ مستقيم خلال العشرين سَنة بين إصدار هذَين القرارَين، ففي السنوات التي تَلَت حربَ 1948 حاوَلَتْ إدارةُ ترومان وأيزنهاور بشكلٍ هادئ وبلا نجاحٍ يُذكَر إقناعَ إسرائيل بمَنحِ بعضِ التنازلات لخصومِها المَهزومين، وتركّزت جهودهم على عودة حوالي 750000 لاجئٍ فلسطيني إلى ديارِهم واستعادَةِ ممتَلكاتهم التي سَلَبَتْها إسرائيل، وعلى التراجع عن الحدود المتوسّعة التي حصَلَتْ عليها إسرائيل بانتصاراتِها سنة 1948. تَبَخَّرَتْ هذه المحاولات الأمريكية المتواضِعة أمام إصرار ديفيد بن غوريون الذي رَفَضَ التراجع والتنازل في المجالَين معاً[1].

حافظَتْ إداراتُ ترومان وأيزنهاور وكنيدي على علاقاتٍ وثيقة مع إسرائيل مع زيادة المساعدات الاقتصادية للدولة الجديدة على الرغم من أنهم لم يَعتَبروا ذلك عنصراً أساسياً لسياستِهم في المنطقة ولم يوافِقوا على جميع تصرفاتها. أجبَرَ أيزنهاور إسرائيل على التراجع من سيناء وقطاع غزة بعد حرب السويس سنة 1956، كما حاوَل كنيدي بعد ذلك وفَشِلَ في مَنعِ إسرائيل من تطوير أسلحتِها النووية[2]،

(1) See Itamar Rabinovich, *The Road Not Taken: Early Arab-Israeli Negotiations* (New York: Oxford University Press, 1991); and Shlaim, *The Iron Wall*.

(2) أعطَت فرنسا سراً التقنيات اللازمة للأسلحة النووية الإسرائيلية بينما قامَت الحكومة الإسرائيلية بخِداع الأمريكان منهَجياً عن طبيعة برنامجها النووي. هناك تقرير من وزارة الدفاع رُفِعتْ عنه السرية بحُكم مَحكَمة سنة 2015 عن المستوى التقني لتطور أسلحة إسرائيل النووية، وأفضل وَصفٍ لخِداع أسرائيل للولايات المتحدة فيما يتعلق ببرنامجها النووي انظر

Avner Cohen, *Israel and the Bomb* (New York: Columbia University Press, 1999).

أنظر في هذا البحث أيضاً بشأن أسلحة إسرائيل النووية والتاريخ الدولي لانتشار الأسلحة النووية في مركز وودرو ويلسون الدولي للباحثين.

وفي بداية الستينيات تَصَوَّرَ كنيدي أن القومية العربية ومصر عبد الناصر ربما تكون حصناً ضد الشيوعية التي كانت الهَمَّ الأمريكي الأول في الشرق الأوسط. كان ذلك جزئياً بسبب أحداث العراق حيث كان نظام عبد الكريم قاسم مَدعوماً من الحزب الشيوعي العراقي والاتحاد السوفييتي، وكانت مصر تعارِضُه بشدة مع حلفائها القوميين.

ظهَرَتْ عوامل جديدة بعد اغتيال كنيدي ووصول إدارة جونسون في ديسمبر 1963، فمَعَ اشتعال الحرب في جنوب شرق آسيا كانت حكومة جونسون أكثر مَيلاً للنظر إلى بقية أنحاء العالم بشروطٍ صارمة في الحرب الباردة، فتَدَهوَرت العلاقات الأمريكية المصرية بشكلٍ واضح نتيجةً لذلك لأن الحرب الأهلية اليمنية التي بَدَأتْ سنة 1962 قد تطورَتْ إلى صراعٍ إقليمي كبير. دَعَمَ الاتحاد السوفييتي وحلفاؤه النظامَ الجمهوري اليمني الذي اعتَمَد على قواتٍ مصرية كبيرة، بينما أَيَّدَت الولايات المتحدة وبريطانيا وإسرائيل وحلفاؤهم المَلَكيين الذين تدعَمهم السعودية. أصبَحت العلاقات الأمريكية مع مصر فاتِرة جِداً مع حلول سنة 1967 وأسوأ مما كانت عليه أيام كنيدي، وحَدَثَ استقطابٌ في الشرق الأوسط على خطوط الحرب الباردة كانت مصر والسعودية أقطابَهُ المتصارِعة. تطوَّر هذا الصراع بشكل متوازٍ مع الحرب العالمية الباردة إلا أنه كانت لديه مواصفاتٍ مَحَلية لم تشمَل صِراعاً إيديولوجياً بين الشيوعية والرأسمالية، بل كانت صِراعاً بين القومية العربية التسلّطية بزعامة مصر وبين الإسلام السياسي الذي ارتكَز على الوهّابية والمَلَكية المطلّقة بزعامة السعودية والمَلك فيصل.

تأثّر تغيّر الأولويات الأمريكية في الشرق الأوسط كذلك بتَعاطُف الرئيس جونسون الصريح القديم مع إسرائيل، فعندما كان زعيمَ الأغلبية في مجلس الشيوخ سنة 1956 عارَضَ ضغطَ أيزنهاور على إسرائيل للانسحاب من سيناء وقطاع غزة. كما أن جونسون لم يكن عارِفاً بوقائع الشرق الأوسط وغيره من الأمور الدولية. بينما كان كيندي عالَمياً وابناً ثرياً لسِفير، وزارَ فلسطين في في أوائل صيف سنة

1939 حينما كان طالِباً في جامعة هارفارد عمره 22 سنة، وأرسَلَ إلى والِده خطاباً أظهَر فيه إدراكاً جيداً للحقائق ورؤيةً نقدية واعِية لنقاط الجِدال الرئيسية بين طَرَفي النزاع. كان كنيدي بفضلِ هذه الرؤية النقدية أقلّ عرضَة من غالبية السياسيين الأمريكان للتأثر بضغط أصدقاء إسرائيل[1].

من ناحية أخرى انحدَرَ ليندون جونسون من بيئةٍ متواضِعة وكان اهتمامُهُ الأول يَدورُ حول السياسة الداخلية. اتضَّحَ تقارُبَهُ الشديد مع الصهيونية وإسرائيل في دائرة أصدقائِه المقرّبين ومستشاريه التي ضمّت مؤيّدين لإسرائيل مثل أيب فورتاس Abe Fortas الذي عَيَّنَهُ قاضياً في المحكَمة العليا[2]، وآرثر غولدبرغ Arthur Goldberg وماكجورج بندي McGeorge Bundy وكلارك كليفورد Clark Clifford والأخوَين يوجين ووالتر روستو Eugene and Walter Rostow وجميعهم مؤيدون للدولة اليهودية وكان ولاؤهم مُبعِداً لهم عن كنيدي. وهناك آخرون من الدّاعمين لإسرائيل وكانوا قريبين شخصياً إلى جونسون ومتَبرعين رئيسيين للحزب الديموقراطي مثل أبراهام فاينبرغ Abraham Feinberg وآرثر كريم Arthur Krim[3] وكذلك زوجة الأخير الدكتورة ماتيلد كريم Mathilde Krim العالِمة المعروفة التي هرّبت ذات مرّة أسلحة ومتفجرات إلى جماعة الأرغون الإرهابية الصهيونية التصحيحية[4]. وعلى الرغم من أن

---

(1) John F. Kennedy Presidential Library and Archive. يتنبأ الرئيس القادم في هذا الخطاب قبل تسع سنوات من الحدث بأن تقسيم فلسطين سيكون نتيجة هذا الصراع.

(2) Fortas's biographer, Laura Kalman, described him as a "Jew who cared more about Israel than Judaism" in *Abe Fortas: A Biography* (New Haven: Yale University Press, 1990).

(3) كان فاينبرغ رئيس American Bank and Trust Company ومتبرعاً مهماً للحزب الديموقراطي. كان كريم رئيس شركة United Artists ورئيس اللجنة المالية للحزب الديموقراطي.

(4) On Mathilde Krim see Deirdre Carmody, "Painful Political Lessons for AIDS Crusader," *New York Times*, January 30, 1991, Philip Weiss, "The Not-so- Secret Life of Mathilde Krim," Mondoweiss, January 26, 2018, and the account of Grace Halsell, who worked in the White House as a staff writer for the president in 1967, "How LBJ's Vietnam War Paralyzed His Mideast Policymakers," *Washington Report on Middle East Affairs*, June 1993, 20.

جونسون قد وَرِثَ أغلب مستشاري كينيدي في السياسة الخارجية فقد كان لهم ظهورٌ أوضَح في إدارة يقودُها رئيسٌ أقلّ خبرة وثقة في الشؤون الدولية مما تمتّع به الرئيس كينيدي. اجتَمعَتْ هذه العوامل السياسية والشخصية خلال السنوات الثلاث التي قادَت إلى حرب 1967 وهيأت الطريق لضمان التّغير في السياسة الأمريكية.

من ناحية أخرى كانت إسرائيل قد فوجِئتْ بالمعارَضة الأمريكية القوية لمغامَرتها في حرب السويس، وعندما بدأت التحضير للضّربة الأولى سنة 1967 ضد القوات الجوية العربية سَعى زعماؤها للحصول على موافَقَة أمريكية مَبدئية على أعمالها، وهو ما حصَلوا عليه بالفعل. حَدَثَ تبادلٌ حاسِم في اجتماعٍ عُقِدَ في واشنطن بتاريخ الأول من يونيو 1967 أخبَرَ فيه رئيس الموساد الجنرال مائير عاميت Meir Amit وزيرَ الدفاع الأمريكي روبرت ماكنمارا بأنْ يَنصَح حكومَته بأن تقوم إسرائيل بالهجوم، وطَلَبَ من الوزير تأكيدات بأن الولايات المتحدة لن تتّخذ موقِفاً سَلبياً. وبحسب أقوال عاميت فإن ماكنمارا أجابَه "حسناً" وأنه سيُخبر الرئيس بذلك واستفسَر عن الزمن الذي ستستمر به الحرب وكم ستكون الإصابات الإسرائيلية[1]. كان جونسون وماكنمارا قد عَرفوا من مستشاريهم العسكريين

---

(1) التقرير الرسمي للاجتماع في

Foreign Relations, 1967, Document124 , "Memorandum for the Record, June 1, 1967, For Amit's account, see Richard Parker, ed., *The Six-Day War: A Retrospective* (Gainesville: University Press of Florida, 1996), 139.

تقرير الولايات المتحدة أقل وضوحاً من تقرير عاميت ولا يُذكر فيه سوى أن الجنرال قال "أعتقد بأن إجراءات شديدة يجب اتخاذها بسرعة" وأن ماكنمارا "سأل الجنرال عاميت ما هو عدد الإصابات التي يَعتقد بأنها ستَحدث في الهجوم على سيناء" ووعده بأنه "سيَنقل آراء عاميت للرئيس". على الرغم من أن وثائق أمريكية رسمية وتقارير عن هذا الاجتماع من طَرف عاميت وغيره كانت متوفرة منذ فترة فإن الاعتقاد الخاطئ بأن الولايات المتحدة لم تَمنَح إسرائيل الضوء الأخضر للهجوم مازال مستمراً. انظر أيضاً

Michael Oren's detailed but flawed *Six Days of War*, 146-47. Much better on this (and nearly every other) aspect of the 1967 war are Tom Segev, *1967: Israel, the War, and the Year That Transformed the Middle East* (New York: Metropolitan, 2007), 329-34; and Guy Laron, *The Six-Day War: The Breaking of the Middle East* (New Haven: Yale University Press, 2017), 278-80, 283-84.

والاستخباراتيين أن العرب لن يُبادِروا بالهجوم، وأنه من المرجّح أن إسرائيل ستَربح نَصراً كاسِحاً على كل حال. حصَلَ الجيشُ الإسرائيلي الآن على الضوء الأخضر الذي كانوا يحتاجونَهُ للقيام بضربةٍ استِباقية تم التخطيط لها منذ زمن قَبل ذلك[1].

ساعدَتْ أمريكا ضَربةَ إسرائيل الاستِباقية بطرقٍ أخرى، ففي اجتماعٍ صغير عُقِدَ بعد الحرب ضمّ مسؤولين عرب في الأمم المتحدة قال لهم محمد الفرّا سَفير الأردن أنه كان ضحية ازدواجية أمريكية في الطريق إلى الحرب[2]، وذَكَرَ أن السفير غولدبرغ قد نَقَلَ إلى السفراء العرب أن الولايات المتحدة تتوسَّط لدى إسرائيل لحَلّ الأزمة ومَنعِها من الهجوم، بينما قامّ في الوقت نفسه بطَلَبِ ضَبطِ النَّفسِ مِن حكوماتهم. كما ذَكَرَ الفرّا أن إدارة جونسون كانت قد أعطَت الضوء الأخضر لإسرائيل للقيام بهجومها المباغِت قَبل وصول نائب رئيس الجمهورية المصري إلى واشنطن للتَّباحث بشأن حَلِّ الأزمة. شَعَرَ الفرّا أن السفراء العرب قد تم استغلالهم لخداع حكوماتِهم بينما كانت إسرائيل تَستَعدُّ للضَّربة الأولى بموافَقَة الولايات المتحدة الأمريكية.

لا يقلّ عن ذلك أهميةً هو أنه بالنظر إلى التّغير في سياسة أمريكا استطاعَتْ إسرائيل الاعتماد على الرئيس جونسون ومستشاريه لمَنعِ تكرارِ الضغط الذي أجبَرَها على الانسحاب من انتصاراتها في حرب 1956. كان ذلك تحولاً كاملاً عن موقف أمريكا سنة 1956 بشأن سيطَرة إسرائيل على المناطق العربية المحتَلة وما تفرَّع عن ذلك من كوارث على الفلسطينيين. كان قرار مجلس الأمن رقم 242 نتيجةً لهذا القبول الجديد لمَكاسب إسرائيل في احتلال الأرض. تمت صياغة القرار بشكلٍ أساسي على يد اللورد كارادون Caradon ممثل بريطانيا الدائم، ولكنه كان في

---

(1) Oren, *Six Days of War*, 153-55, 202.

(2) كنت موجوداً في هذا الاجتماع الذي أحضرني إليه والِدي. تحدث الفرّا لاحِقاً في السجلات عن هذا التآمر لأمريكا مع إسرائيل في تاريخ شفهي.

الأساس يمثل وجهات نظر الولايات المتحدة وإسرائيل، كما عَكَسَ مَوقِفَ الدول العربية الضعيف وراعِيهم الاتحاد السوفييتي بعد هزيمةِ يونيو السَّاحقة. على الرغم من أن القرار SC 242 أكَّدَ على "عدم قبول مبدأ الاستيلاء على أراض من خلال الحرب" إلا أنه رَبَطَ أي انسحابٍ إسرائيلي باتفاقياتِ سَلام مع الدول العربية وضمان تأسيس حدود آمِنة. يَعني ذلك عَمَليـاً أن أيّ انسحاب سيكون مَشروطاً ومُتأخراً بالنظر إلى تردّد الدول العربية في دخول مفاوضاتٍ مباشرة مع إسرائيل. وبالفعل، لم يتم الانسحاب من الضفة الغربية والقدس الشرقية ومرتفعات الجولان بعد مرور أكثر من نصف قَرن وبعد مرور عُقود من المباحَثات المباشرة وغير المباشرة.

كما أن رَبطَ الانسحابِ الإسرائيلي من أراضٍ محتلَّةٍ بِخَلقِ حدودٍ آمِنَةٍ معترَفٍ بها قد سَمَحَ حسب القرار SC 242 بأن تنطبقَ شروط الحدود الآمِنة على حدود إسرائيل المتوسِّعة كما تُقرِّرها إسرائيل لنفسها، وهكذا فقد قامَت هذه الدولة العظمى في منطقتها والمسلَّحة نووياً بتطبيق تفسيرٍ توسُّعيٍّ مَرِنٍ غير عادي لهذه الشروط. وأخيراً فقد سَمَحَت لغةُ القرار SC 242 الغامِضة بوجود ثَغرَة مَفتوحَة أخرى أتاحَت لإسرائيل فرصةَ الاحتفاظ بمناطق مُحتلَّة: فقد حدَّد النَّص الإنكليزي "الانسحاب من مَناطِقَ مُحتَلَّة" في حرب 1967 بدلاً من ذِكرِ "الانسحاب من المناطق المُحتَلَّة". أصَرَّ آبا إيبان على مجلس الأمن أنّ حكومَتَهُ ستَعتَبر النَّصَ الإنكليزي الأصلي مُلزِماً وليس النَّص الرَّسمِي الفرنسي المماثِل الذي وَرَدَتْ فيه جُملة "الأراضي المحتَلَّة" بشكلٍ لا يَحتَمل التأويل[1]. تصرَّفَتْ إسرائيلُ بكلّ حرية واستغلَّتْ هذه الثغرة اللغوية على مر نصف قَرن بمساعدة أمريكا التي سَمَحَتْ لها باستيطان المَناطق المحتَلَّة من فلسطين وسورية، وكان من بينها القدس الشرقية ومرتفعات الجولان التي اقتَطَعَتْها وضَمَّتْها رسمياً واحتفَظَتْ بسيطَرتِها العسكرية

(1) السجلات الرسمية لمجلس الأمن الدولي، الاجتماع الثاني 1382 في 22 نوفمبر 1967. S/PV. 1382

اللانِهائية في تلك المناطق. استَنكَرتْ وشَجَبَت الأممُ المتحدة هذه الأعمال دون أن تُرفِقَ استِنكاراتِها المُتكَرِّرة بأيّ إيحاءٍ من العقوبات ولا بتطبيق أيٍّ ضغطٍ حقيقيّ على إسرائيل، ولم يَنتُج عن ذلك سوى قبولها الدولي الضّمني.

أصبحَت الولاياتُ المتحدة الأمريكية الآن في صَفِّ إسرائيل تماماً أكثر مما كانت عليه من قَبل، مما يعني التخلي عن التوازن الشَّكلي الذي أظهَرَتْه إدارات ترومان وإيزنهاور وكيندي أحياناً. تلك كانت بدايةَ ما أصبح الفترةَ الكلاسيكية من الصراع العربي الإسرائيلي التي استمرَتْ حتى نهاية الحرب الباردة، وطَوَّرَتْ خلالَها أمريكا وإسرائيل تَحالُفاً فريداً شامِلاً (ولكن غير رسمي) ارتكزَ أساساً على أن تظهر إسرائيل نفسها سنة 1967 كشريكٍ يعتمد عليه ضد من اعتُبروا عملاء للاتحاد السوفييتي في الشرق الأوسط.

جلب هذا التحالف شبه التام على الفلسطينيين تدخُّلاً عُدوانياً آخر من طَرف قوة عظمى أضَرَّ بحقوقهم وبمصالِحِهم وأعطَى رخصة دولِيَّة جديدة لسَلب ممتلكاتهم، وكما حدثَ سنة 1947 ظهَرَتْ معادلةٌ جديدة دولية قانونية ضارةٌ بالفلسطينيين من خلال قرار للأمم المتحدة، وكما حدثَ في وَعد بلفور سنة 1917 لم تضمَّ الوثيقة الرئيسية أي ذِكرٍ لفلسطين ولا للفلسطينيين.

تعامَلَ قرارُ مجلس الأمن رقم 242 مع القضية برمَّتِها كمسألة بين الدول العربية وإسرائيل ومَحَى ذِكرَ الفلسطينيين. لا يُشير النَّص إلى الفلسطينيين ولا إلى أكثر عناصر المسألة الفلسطينية الأصلية، وبَدَلاً عن ذلك أشارَ القَرار بشكلٍ عام إلى "حَلٍّ عادِلٍ لمُشكلة اللاجئين". إذا لم يُذكَر الفلسطينيون ولم يُعتَرف بهم كطَرفٍ في النزاع، يمكن معامَلَتُهم كمَصدرٍ إزعاجٍ لا أكثر، أو كقضيةٍ إنسانية في أفضَل الأحوال. وبالفِعل، بَعدَ سنة 1967 تم الاعتراف بهم غالباً في سياقِ الإرهاب الذي طَرَحَتْهُ إسرائيل وتم اعتمادُه من الولايات المتحدة الأمريكية.

كرَّسَ القرارُ 242 بِعَدَمِ ذِكرِ الفلسطينيين عنصُراً مصيرياً لإسرائيل في سياق المفاوضات، فبما أنه لا يوجد فلسطينيون فإنّ القضيةَ الحقيقية الوحيدة هي رَفض

الدول العربية الاعتراف بإسرائيل واختراعِها لقضيةٍ وهميةٍ هي "مشكلة فلسطين" كسَبَبٍ لهذا الرَّفض. سيطَرت الصهيونية في الصراع المطَّرد على فلسطين منذ 1897، وقد مَنَحَها قرارُ مجلس الأمن 242 شرعيةً لادعاءاتِها الكبيرة ووجَّهَ ضربةً قوية للفلسطينيين المُهجَّرين والمُقيمين تحت الاحتلال. بعد ذلك بسنتَين فقط في سنة 1969 أعلنَتْ غولدا مائير رئيسةُ وزراء إسرائيل تصريحَها الشهير "لم يكن هنالك شيءٌ اسمُهُ الفلسطينيون... لأنهم لم يوجَدوا" ولم يوجَدوا أبداً في الأصل[1]. ثم طُوِّرَت المناقشة النموذجية لمشروعٍ استيطاني استعماري إلى أقصى درجةٍ ممكِنة: السكانُ الأصليون ليسوا أكثر من كِذبة.

ربما كان الأكثر أهمية هو أن القرار 242 قد مَنَحَ الشرعيةَ بالفعل لحُدودِ الهدنة لسَنة 1949 باعتبارها حدود الأمر الواقع لدولة إسرائيل (التي أصبحتْ تُعرَف باسم حدود 1967 أو الخطّ الأخضر)، وبالتالي القبول بشكلٍ غير مباشر باحتلالها لأغلب مناطق فلسطين في حرب 1948. امتدَّ الفشل في ذِكرِ القضايا الأساسية التي تَرجع إلى سنة 1948 إلى إهمال حقوق اللاجئين الفلسطينيين بالعودة إلى بيوتهم والحصول على تعويضات، وكانت تلك ضربةٌ أخرى لآمالِهم. كانت الأمم المتحدة تَبتَعد في القرار 242 عن التِزامها بهذه الحقوق التي أقرَّتْها الجمعيةُ العمومية في القرار رقم 194 في ديسمبر 1948. ومرةً أخرى تعامَلَت الدولُ العظمى مع الفلسطينيين باسلوبٍ متعَجرف، فأهمَلتْ حقوقَهم، واعتُبِروا أنهم لايساوون شيئاً ولا يَستَحقون ذِكرهم بالاسم في القرارات الدولية الأساسية التي هَدَفَتْ إلى حَلّ الصراع وتقرير مصيرهم. أثارَ هذا التَّجاهلُ الحركةَ الوطنية الفلسطينية الناهِضة لوَضعِ قَضيتها ومَطالِبها أمام المجتمع الدولي.

بفَضلِ قرارِ مجلس الأمن 242 أضيفتْ طَبَقَةٌ جديدة من التَّناسي والإلغاء وصُنْعِ الأساطير إلى فقدان الذاكرة المَقصود الذي غطَّى على الأصول الاستعمارية للصراع بين الفلسطينيين والمستوطِنين الصهاينة. تَركيزُ القرار التام على نتائج

(1) *Sunday Times*, June 15, 1969.

حرب 1967 جَعلَ تجاهلَ حقيقة أن أيّاً من القضايا الأساسية التي نَتَجَتْ عن حرب 1948 لم تُحَلَّ بالفعل بعد مرور تسع عشرة سنة، فبالإضافة إلى طَرد اللاجئين الفلسطينيين، وعدم السماح لهم بالعَودة، وسرقة ممتَلكاتهم، ورَفض حقّ تقرير المصير للفلسطينيين، تمّ ضَمُّ الوضع القانوني للقدس وتَوَسُّع إسرائيل فيما وراء حدود قرار التقسيم في سنة 1947. أما بالنسبة إلى المشاكل الجَوهرية التي نشَأتْ بسبب اغتصاب فلسطين، فإن القرار 242 لم يُشِر إليها ولم يقدّم أية حلول. وعلى الرغم من ذلك فقد أصبح القرارُ الأساسَ الذي يَستَنِدُ إليه حَلُّ الصراع بأكمله، وتم قبوله عَمَلياً من جميع الأطراف حتى ولو تجاوز الجوانب الأساسية للصراع وصَمتَ عنها. ليس من المدهش بالنظر إلى شذوذ نشأة هذا القرار أنه بعد مرور أكثر من نصف قَرن على صُدورِهِ يظَلُّ قرار مجلس الأمن رقم 242 غير مُطَبَّق، ويَستمر تَجاهل أسسِ الصراع على فلسطين.

زادَ القرارُ 242 من تفاقم الأزمة لأن حَصرَ الخلاف ضمن أبعادِهِ بين الدول المُتنازِعة بَعد 1948 أتاحَ الفرصةَ لتفكيك التحديات التي تواجِهُها إسرائيل إلى أجزاءَ متوازية منفَصِلة تِدورُ بين كل دولةٍ على حِدة بحيث يُمكِنُ التّعامل مع كل واحدة منها بشكلٍ منعَزلٍ، تماماً مثلما أرادَتْ إسرائيلُ والولايات المتحدة، مع تَجاهُل أصعَب الأسئلة وأكثرها إزعاجاً، فبَدَلاً من الاضطرار لمواجهة موقفٍ عربي موحَّد والانشغال بقضايا صَعبة تتعلق بالفسطينيين، كانت أمامَ إسرائيل مهمّةٌ أسهل بكثير والتعامل بشكلٍ ثنائيّ مع شكايات كل دولة عربية على حِدة بشأن أراضيها المحتَلة مع تَهميش الفلسطينيين.

قدَّمَتْ أمريكا لإسرائيل مساعدةً هائلة في سَعيها لتَفريقِ أعدائها والتعامل معهم بشكل مُنفَرد، واستَخدَمت أمريكا قوتَها ونفوذها للتّلاعب بضعف الدول العربية وإثارة خصوماتِها. اعتُبِر ذلك في مصلحة الولايات المتحدة أيضاً. وَضَعَ هنري كيسنجر هذه الحالة بشكلٍ نموذجي مؤسِف في حديثِهِ عن أزمةٍ أخرى في الشرق الأوسط: "ستكون النتيجة النهائية تماماً ما كنا نُحاوِلُ تجنّبه طوال هذه

السنين: ستُخلَقُ وحدةٌ عربيـة"[1]. كـان لأمريكـا أسـباب عديـدة لمَنـع مِثـلِ هـذه الوحدة، أولاً لمَنع أي تهديد لسيطَرتِها في المنطقة، خاصة بالنسبة لمَمالـك البـترول الهشَّـة في منطقـة الخلـيج التـي كانـت حليفتهـا المقرَّبـة. بعـد أن دَفعَـت الولايـات المتحدة وإسرائيل نحو اتجاه المباحَثات الثنائية، توصَّلَتْ مصر في السبعينيات، ثـم الأردن في التسعينيات إلى اتفاقياتِ سَلام منفصِلة مع إسرائيل، وبذلك أُزيلَتْ هاتان الـدولَتان مـن الصـراع وأصـبَحتْ إسـرائيلُ في وضـعٍ أقـوى للتعامـل مـع خصـومها الأكثر عناداً من السوريين واللبنانيين والفلسطينيين بالطبع. أما بالنسبة لغالبية الناس في العالَم العربي فقد كان الفَرقُ شاسعـاً بين التَّطبيـع العربي مـع إسـرائيل والمأسـاة التي ألحَقَها استعمارها واحتلالها بالفلسطينيين، مما أفقَدَهـم الثقةَ بأية عمليـة سَـلام تحت رعاية أمريكا[2].

لم يُجبِر قـرارُ مجلـس الأمـن رقـم 242 الـدولَ العربيـة في حَدِّ ذاتِه على قبـول المحادثات الثنائية وتَجزِئة الصراع، بل ساقَتْهم إلى ذلك عواملُ أخرى مثـل هزيمـة مصر سنة 1967 ثم انسحابِها مـن اليـمن في إشـارةِ النهايـة لمحاولاتهـا تحقيـقَ هيمَنـة إقليميـة. تَـرَكَ تَضـاؤلُ مصـر السـاحةَ لمنافِسَتِها المملكـةُ العربيـة السـعودية كعامِـلٍ مُسيطِرٍ في العالَم العربي، واستمر هذا الوضـع حتـى يومنـا الحاضـر. فَشَـلُ النمـوذج

(1) كان ذلك في فترة حامية من الحرب الأهلية اللبنانية

Adam Howard, ed., *FRUS 1969-1976*, XXVI, *Arab-Israeli Dispute*, "Memorandum of Conversation," March 24, 1976 (Washington, DC: US Government Printing Office, 2012), 967.

(2) حسب نتائج استطلاع للرأي سنة 2018 قام به المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ففي كل سنة منـذ 2011 كـان أكثـر مـن 84٪ مـن المسـتجوَبين في 11 دولـة عربيـة عارَضـوا الاعـترافَ بإسرائيل وأكثر سبب أعطِي لهذه المعارَضة هـو احتلالهـا لأراضـي فلسـطين. وفي 2017–2018 كـان 87٪ كـانوا معارِضـين للاعـتراف بإسـرائيل و8٪ موافقـون. ثلاثـة أربـاع الـذين أجـابوا على الاستبيان في تلك السنة اعتَبروا فلسطين قضية عربية، بينما 82٪ اعتَبروا إسرائيل الخطر الأجنبي الرئيسي على المنطقة. ارتَفعت نسبة الانطباعات السلبية عن سياسة الولايات المتحدة من 49٪ سنة 2014 إلى 79٪ في 2017–2018: مؤشّر الرأي العربي 2017–2018: ملخّص النتائج الرئيسية (واشنطن: المركز العربي، 2018).

الاشتراكي العربي للأنظمة القومية المستبدَّة وضَعفُ الاتحاد السوفييتي في المنطقة لَعِبَ دَوراً كذلك في هذا الاستسلام. سقَطَت الدول العربية في فَخِّ الاتفاقيات المنفَصِلة بعيونٍ مفتوحة في مَراتٍ مختلفة بتشجيعٍ من الولايات المتحدة الأمريكية. وانتهَتْ أخيراً إلى التَّخلي عن أي مَظهَر من مظاهر الوحدة أو حتى مجرد التَّنسيق. وحتى الفلسطينيين الذين تمثّلهم منظمةُ التحرير ساروا في النهاية على الطريق التي رَسَمَها قرار مجلس الأمن 242. بَعدَ سنواتٍ قليلة من قبول الدول العربية للقرار 242 والمفاوضات الثنائية كأساس لحلِّ النزاع، تَبِعَتْهم منظمةُ التحرير الفلسطينية[1].

هناك جانب آخر لقصة ما حدَثَ سنة 1967، فعَلى الرغم من جميع أضرار الحرب التي أصابت الفلسطينيين والقرار 242، إلا أن كلّ ذلك حَرَّكَ شرارةَ انطلاقِ حركَتِهم الوطنية التي كانت تَضعف منذ ثورة 1936–1939. كانت عمليةُ الإحياء قد بدأت قَبل حرب 1967 بالطبع ولَعِبتْ دَوراً مهمّاً في إشعالِ تلك الحرب وحرب السويس أيضاً، إلا أن 1967 كانت بَعثاً غير عادي للوعي الوطني الفلسطيني ومقاومة إنكار إسرائيل للهوية الفلسطينية، وهو إنكارٌ كان ممكِناً بتآمُرِ كثير من المجتمع الدولي. وحسب صِياغةِ أحَدِ المراقِبين المُخَضرَمين: "التناقضُ المركزي في سنة 1967 هو أن إسرائيل بَعَثَت الفلسطينيين من جديد بهزيمَتِها للعرب"[2].

واجهَتْ انطلاقةُ فكرة فلسطين صِراعاً صَعباً في حرب 1967 في أغلب أرجاء العالَم. انضَممتُ في السنة التي تَلَت الحربَ إلى مظاهرةٍ صغيرة اعتراضاً على حضور غولدا مائير التي كانت قد دُعِيَتْ للحديث في كلية القانون بجامعة ييل.

---

(1) منذ سنة 2017 عملت الولايات المتحدة جاهِدة لإقناع منظمة التحرير الفلسطينية لقبول قرار مجلس الأمن رقم 242 من خلال اتصالات غير مباشرة مع المنظمة. انظر
Adam Howard, ed., *FRUS*, 1977-1980, vol. VIII, Arab-Israeli Dispute, January 1977-August1978 , "Telegram from the Department of State to the Embassy in Lebanon," Washington, DC, August 17, 1977, 477.

(2) Ahmad Samih Khalidi, "Ripples of the 1967 War," *Cairo Review of Global Affairs* 20 (2017), 8.

استقبَلَها جمهورٌ كبير بحَماس وتَرحاب بينما كانت مظاهَرتُنا كما أذكُرُها تتألف من أربعة متظاهرين: أنا وصديقٌ لبناني أمريكي وطالِبُ دراساتٍ عُليا سوداني وأمريكي واحد عاشَ فترةً في الشرق الأوسط. يمثّل ذلك المَشهد بشكلٍ صحيح التوازن بين إسرائيل والفلسطينيين في الرأي العام الأمريكي. تمتَّعَت الادعاءاتُ الصهيونية بسيطَرة تامة بينما كانت مجرد كلمة "فلسطيني" لا تكاد تُذكَر.

من جهة أخرى في بيروت حيث أقضي فصولَ الصيف مع والدتي وإخوتي فقد شاهدتُ نهضةً مهمة لمؤسسةٍ سياسية فلسطينية. لَعِبَ كتابٌ وشعراء من الشّتات الفلسطيني ومن داخِلِ فلسطين دَوراً حيوياً في هذه النهضة ثقافياً وسياسياً من أمثال غسان كَنَفاني ومحمود درويش وإميل حَبيبي وفدوى طوقان وتوفيق زيّاد بالإضافة إلى غيرهم من المَوهوبين المُهتَمّين من الرسامين والمثقفين. ساعَدَتْ أعمالُهم على إعادة تشكيل الهوية الفلسطينية والأمَل الفلسطيني الذي تم تحَدّيهِ في النكبة والسنوات البائسة التي تَلَتْها. مَنَحوا صوتاً لتجربةٍ وطنية من خلال رواياتهم وقصصهم القصيرة ومسرحياتهم وشِعرِهم عَبَّروا من خلالها عن الخسارة والهجرة والتغريب، وأظهَروا في الوقت نفسه إصراراً عَنيداً على استمرار الهوية الفلسطينية وصمودها في وَجهِ احتمالاتٍ محبِطَةٍ رهيبة.

تتضحُ هذه الجوانبُ المختلفة في واحِدٍ من أشهر هذه الأعمال وهي قصة "المُتَشَائِل" لإميل حَبيبي الرائعة التي تَسردُ حكايةً مأساوية مضحكة لبَطَلها سعيد باستِخدام مصيره لتصوير مأزقِ الفلسطينيين وصمودهم. عنوانُ القصة الكامل هو "الأحداثُ الغريبة حول اختفاء سعيد أبو النَّحس، المُتَشَائِل" وهو يصوّر التّناقضَ الأساسي للوَضع الفلسطيني: السعادةُ التي يُعبِّرُ عنها اسمُ سعيد، والمأساةُ في النَّحس، وكلاهما معاً ضمن محتوى "المُتَشَائِل"[1].

(1) العنوان باللغة العربية هو "الوقائع الغريبة في اختفاء أبي نحس، المتشائل" نُشر الكتاب أولاً في حيفا سنة 1974 وأُعيدتْ طباعته مباشرة في بيروت وأصبح متوفراً ومنتشِراً بشكل واسع منذ ذلك الوقت. ثم أُعدَّ بنجاح للمسرح بشكل مسرحية الشخص الواحد قام بأدائها الممثل الفلسطيني القدير محمد بكري وشاهدتُه يمثلها على مسرح القصبة في القدس في التسعينيات.

يُعتَبر كَنَفاني بين الشخصيات الأدبية التي لَعبَتْ أفكارها وصورها دَوراً كبيراً في إحياء الهوية الفلسطينية، وربما كان أهمّ كتّاب النثر وأكثر الذين تُرجِمَتْ أعمالهم إلى لغاتٍ مختلفة[1]. اشتهرتْ قصصه الخمس، خاصةً رجالٌ تحت الشمس (1963) والعودة إلى حيفا (1969) ربما لأنها تُصَوِّرُ بشكلٍ حَيّ التناقضات التي واجَهها الفلسطينيون: مصاعب النَّفي وآلام الحياة في فلسطين بعد سنة 1967 التي أصبَحتْ كلياً تحت سيطَرة إسرائيل. تشجّعُ القصصُ الفلسطينيين على مواجهة مأزِقِهم الصعب والإصرار على مقاومة القوى التي تضطَهدهم. أكّدتْ قصة العودة إلى حيفا على أهمية الكفاح المسلح بينما تُصَوّر بشكلٍ مؤثّر أحَدَ النَّاجين من المَحرَقة الإسرائيلية الذي يعيشُ في بيتِ عائلةٍ فلسطينية ترجع لزيارتِهِ سنة 1967.

كان كَنَفاني صحفياً مُنتِجاً غارِقاً في أدَبِ المقاومة الفلسطينية، وفي الحقيقة ربما كان هو الذي صاغَ هذا الاصطلاح في مجموعةٍ نَشَرَها تحت ذلك العنوان[2]، وكان منغَمِساً بعمقٍ في السياسة منذ شبابه. ولِد في عكّا سنة 1936 واضطر للهجرة مع عائلته أثناء الهجوم الصهيوني سنة 1948، واستقروا أولاً بدمشق. عندما التقيتُهُ في بيروت كان عمره 33 سنة وكان رئيس تحرير المجلّة الأسبوعية "الهَدَف" للجماعة المتشدِّدة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي كان كَنَفاني المُتَحَدِّث العام باسمِها. كَسِبَ آخرين إلى صَفِّهِ بفضل موهِبَتِهِ الأدبية وبفضل ذكائِه الواضِح وتواضُعِه وسُخرِيَتِه اللاذِعة وسلوكِه المُنفِتح وابتسامَته الدائمة. كان كَنَفاني شخصيةً مهمّة في

---

(1) للبحث عن أفضل تَعامل مع كتابات كنفاني انظر الأقسام عَنهُ في
Bashir Abu Manneh, *The Palestinian Novel: From 1948 to the Present* (Cambridge: Cambridge University Press, 2016), 71-95;and Barbara Harlow, *After Lives: Legacies of Revolutionary Writing* (Chicago: Haymarket, 1996).
تُرجِمت أعمال كنفاني إلى الإنكليزية بقلم Barbara Harlow, Hilary Kilpatrick, and May Jayyusi وغيرهم.

(2) بشكل خاص في "الأدب الفلسطيني المقاوِم تحت الاحتلال، 1948–1968، الطبعة الثالثة (بيروت، مركز الدراسات الفلسطينية، 2012).



جنازة غسان كنفاني الذي اغتيل في تفجير سيارة أعدّتها الموساد في بيروت، يوليو 1972

الحركة الوطنية الفلسطينية الناهِضَة لما تمتَّع به من شهرة أدبية ونشاطٍ قتالي، ولذلك كان هدَفًا لأعداء الجبهة الشعبية، وأكثرهم أهميةً هي الحكومةُ الإسرائيلية ومؤسساتها الأمنية.

اغتيلَ غسان كَنَفاني في يوليو 1972 في تفجيرِ سيارةٍ مفخَّخة قامَتْ به الموساد توفي فيه مع ابنة أختِهِ لميس نجم[1]. حَضَرَ جنازته الضخمة مئات الآلاف من الناس

(1) لا تَتبنّى قواتُ الأمن الإسرائيلية عادةً مثل هذه الاغتيالات ولكن حسبما وَرَدَ في كتاب من 700 صفحة ارتَكَز على مقابلات مع مئات من المسؤولين الأمنيين الكبار وتوثيقٍ واسِع في
Ronen Bergman, *Rise and Kill First: The Secret History of Israel's Targeted Assassinations* (New York: Random House, 2018), 656fn.
اغتيل كنفاني بيد الموساد. كتاب برغمان غنيّ بالتفاصيل وهو سجلٌ موثوق من شخص قريب من الأوساط الأمنية في إسرائيل واغتيال مئات من القادة والمناضلين الفلسطينيين على مر أجيال. يُشوِّهُ الكتابَ بشكل كبير اسلوبُ إعجابٍ عميق بالذين خطّطوا ونفّذوا هذه الاغتيالات ومنطِقُ قبوله غير المتفاعل والإقصائي التام الذي يَظهَر في عنوانه المستَوحَى من وصايا تلمودية "إذا جاء شخصٌ ليقتلكَ فانهض واقتلهُ أولاً". يدلّ العنوان ويَقترِحُ أن اغتيالات

حُزناً عليه، وكنتُ أنا بينهم. كانت واحدةً من جنازاتٍ متالية لقادَةٍ فلسطينيين وعسكريين سأحضُرُها خلال خمس عشرة سنة من وجودي في بيروت[1].

أُعيدَ تشكيل الهوية الفلسطينية وبَعثِها مِن جديد بجهودِ كَنَفاني ودرويش وزيّاد وطوقان وحَبيبي وغيرهم من الذين أطلَقوا شرارتها بأعمالهم الأدبية، وسار ذلك بالتوازي مع ظهور حركاتٍ سياسية وجماعات مسلحَة. غابَتْ فلسطين عن الوجود في الخرائط بعد سنة 1948 وتم ضَمُّ أغلب مناطِقها إلى إسرائيل فيما خَضَعَ ما بَقِي منها لسُلطة الأردن ومصر. لم يكن للفلسطينيين أي صوت ولا عنوان ولا أبطال بعيداً عن الدول العربية المتخاصِمة الأنانية. كانت أكبرُ آمال الحركة الصهيونية هي تحويل فلسطين إلى إسرائيل واستِبدال سكان البلد الأصليين بمهاجِرين يهود. بدا الوضع بَعد 1948 وكأنما اختَفَتْ فلسطين فيزيائياً وفكرياً.

لم يَختَفِ الفلسطينيون بالطبع في السنوات التي تَلَت 1948، بل أن الصدمة الجَماعية للنكبة قد صَهَرَتْ ودَعَّمَتْ هويتهم، وكان للجماعات المقاتِلة المتشدّدة الصغيرة التي نَشأت في الخمسينيات تأثيرٌ مهمٌّ في الشرق الأوسط ولَعِبَتْ دَوراً في إشعال حروب 1956 و1967. أسَّسَ هذه الجماعات شبابٌ متحمّس من الطبقات الوسطى والدنيا، واعتبَر كثيرٌ منهم أنفسَهم أحفاداً للشيخ عز الدين القسام الذي استُشهِدَ في معركةٍ ضد البريطانيين وكان استشهادُهُ أحَدَ أسباب إشعال ثورة 1936، وظلَّ رمزاً مقدَّساً للكفاح البطولي المسلح. استمروا بعد سنة 1956 في إعادة تأسيس الفلسطينيين كقوةٍ إقليمية وفي تمثيل حقوقهم ومصالحهم. تصاعَدَتْ هذه الجهود في الستينيات في اتجاهَين رئيسيَين، أدى الأول إلى تأسيس حركة القوميين العرب التي

إسرائيل للقادة الفلسطينيين مبرَّرة لأنهم كانوا سيَقتلون إسرائيليين لولا هذه "الإغتيالات الموجَّهة". لقراءة نقد مؤيدٍ للكتاب انظر الدراسة

Paul Aaron, "How Israel Assassinates Its 'Enemies': Ronen Bergman Counts the Ways," *Journal of Palestine Studies* 47, no.3 (Spring 2018), 103-5.

(1) تمت ملاحقة كنفاني حتى بعد استشهاده، فقد كُلِّفَ المسرح الشعبي في نيويورك بتقديم إعداد لقصة "العودة إلى حيفا" باللغة الإنكليزية، إلا أنها لم تُعرَض أبداً. فقد اعترَض بعضُ أعضاء الإدارة على عَرض عملٍ لكنفاني لأنه كان يُعتَبر إرهابياً.

كانت حركةً قومية عربية أسسها فلسطينيون بشكلٍ رئيسي، وتطَورت سنة 1967 إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ذات الاتّجاه الماركسي. قادَتْ الاتجاهَ الآخر جماعةٌ تأسَّست رسمياً في الكويت سنة 1959 وأعلنَتْ عن نفسها جماهيرياً سنة 1965 باسم حركة فتح. ترجع أصولُ الحركَتَين إلى أواخر الأربعينيات وبداية الخمسينيات عندما كان زعماؤها الأوائل طَلَبَةً جامعيين أو حَديثي التَّخرج.

أسَّسَ جورج حَبَش حركةَ القوميين العرب وكان طبيباً متدَرباً في الجامعة الأمريكية في بيروت عاشَ النكبة في فتُوتِهِ في مدينة اللِّد التي تم إجلاءُ سكانها بعد سنة 1948 واستوطَنها مهاجِرون يهود وتَغيّر اسمُها إلى اللُّد Lod. أسَّس حَبَش حركةَ القوميين العرب مع جماعة من الشباب الفلسطيني والعربي، وكان أغلبهم مِهَنيون من الطبقة الوسطى مثلُهُ ومِثل رفيقِهِ وديع حدّاد الذي كان طبيباً متخَرجاً من الجامعة الأمريكية في بيروت كذلك. دافَعَ حَبَش ورفاقه عن فكرة الوحدة العربية حول المسألة الفلسطينية كوسيلةٍ وحيدة لإزالة آثار النكبة. حينما أصبَحَتْ مصر عبد الناصر حامِلَةَ راية القومية العربية في منتصف الخمسينيات حَدَثَ تحالُفٌ وَثيق بين حركة القوميين العرب والنظام المصري. استفادَتْ حركةُ القوميين العرب كثيراً من هذا التحالف وأصبحَتْ قوةً عربية سياسية نَمَتْ في بلادٍ امتَدتْ من ليبيا واليمن إلى الكويت والعراق وسورية ولبنان. استفادَت السياسةُ الخارجية المصرية كذلك من صِلاتِها بالحركة وشَبَكَتِها الواسعة من المناضلين الشباب[1].

اعتبَر حَبَش وحدّاد ورفاقهم أن فلسطين هي قضيةٌ مَركزية للعالَم العربي وقد استَلهَموا ذلك بشكلٍ كبير من المؤرخ المثقف قسطنطين زريق في الجامعة الأمريكية في بيروت من خلال مؤسَّسة طلابية اسمُها "العروةُ الوثقى" التي كان راعيها زريق والتي انتَمى إليها والِدي كذلك[2]. ساهَمَ ذلك البروفسور السوري

(1) The best study of MAN is Walid Kazziha, *Revolutionary Transformation in the Arab World: Habash and His Comrades from Nationalism to Marxism* (London: Charles Knight, 1975).

(2) لتفاصيل أكثر انظر مذكّرات أمجَد غانمة "جمعية العروة الوثقى، نشأتها ونشاطاتها" (بيروت: رياض الريس، 2002). في الصفحة 124 نَشرَ صورةَ "اللجنة الإدارية" للجماعة سنة 1937–1938

الأصل والذي تخرَّج من جامعة برنستون في نَشرِ فكرة القومية العربية ومَركزية القضية الفلسطينية في محاضَراتِهِ ببيروت ولِجَماهير الوطن العربي من خلال كتاباتِه. كان كتابُهُ الصغير "مَعنى النكبة" الذي تألَّفَ من 86 صفحة واحِداً من أوائل محاولات دراسة هزيمة 1948 وكتَبَهُ بينما كانت الحربُ قائمةً وربما كان أول من استَخدَم كلمة "النكبة" في هذا السياق[1]. دَعى فيه زريق إلى مناقَشَةٍ جدّية ونَقدٍ ذاتيّ عميق لضِعفِ العرب وإخفاقاتِهم، وضرورة التعاون العربي والوحدة العربية كوسيلةٍ وحيدةٍ للتّغلبِ على نتائج كارثة 1948. دَرَسَ والِدي مع زريق في الجامعة الأمريكية في أواخر الثلاثينيات وتأثَّر به كثيراً. وجدتُ كثيراً من كتُبِ زريق التاريخية والسياسية في مكتبة والِدي، وبعضُها بتوقيع المؤلِّف. التقيتُ بزريق أول مرة في بداية السبعينيات في بيروت في مركز الدراسات الفلسطينية الذي شارَكَ في تأسيسِهِ. شجَّعَني وغَيري من المؤرخين الشباب العامِلين في المركز للتركيز على المستقبل. لَمَّحَ إلى أنّ المستقبل أكثر أهمية من التاريخ الذي كَتَبَهُ هو وجِيلُهُ.

واجَهتْ حركةُ القوميين العرب فورةً من النشاط والحميّة القومية التي حرَّكتْها أولى العمليات العسكرية التي قامَتْ بها حركة فتح في يناير 1965، وشَعرتْ بالحاجة إلى متابَعَةِ نواة أنصارِها واضطرت الحركةُ للابتعاد عن موقفها القومي العربي العام، والتركيز أكثر على فلسطين. دَقَّتْ خسارةُ مصر وسوريا في 1967 آخر مسمارٍ في نَعشِ حركة القوميين العرب واعتمادِها على الأنظمةِ العربية في حَلِّ مسألة فلسطين[2]،

وفيها والِدي مع زريق ورئيس الجامعة الأمريكية بيارد دودج جالِساً في الصف الأول. يعكس اسم الجماعة النشرة الإسلامية القومية الشهيرة التي أصدَرَها في باريس جمال الدين الأفغاني ومحمد عبدو في أوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر والتي اتّخذتْ اسمها من آية قرآنية 2:256.

(1) "معنى النكبة" (بيروت: دار العلم للملايين، 1948). أُعيد نَشر هذا العمل الصغير مرات عديدة آخرها سنة 2009 من مركز الدراسات الفلسطينية مع كتابات أخرى مبكرة عن دروس هزيمة 1948 بقلم موسى العَلَمي "عبرة فلسطين"، وقدري طوقان "بعد النكبة"، وجورج حنّا "طريق الخلاص".

(2) انظر مقالَتي في

"The 1967 War and the Demise of Arab Nationalism: Chronicle of a Death Foretold," in *The 1967 Arab-Israeli War*, ed. Louis and Shlaim, 264-84.

لمناقشة كيف أثَّرتْ هزيمة 1967 على القومية العربية وبَعثَت الحركة الوطنية الفلسطينية.

وكانت النتيجةُ تأسيسُ حَبَش ورفاقِه للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين سنة 1967. على الرغم من أنها لم تكن أكبر جماعةٍ فلسطينية، إلا أنها سرعان ما أصبَحتْ أكثرها نشاطًا، واحتَفَظتْ بهذا المركز لسنوات عديدة. نَفَّذَتْ عمليات خَطفٍ لطائراتٍ كثيرة خلال فترةٍ وجيزة قام وديع حدّاد بتخطيطِها، وكذلك أغلب ما يسمى بالعمليات الخارجية التي اعتبَرتْها أغلب دول العالَم هجماتٍ إرهابية.

استَنَدَ أغلبُ الاحترام الذي حَظِيَتْ به الجماعة بين الفلسطينيين على صورةِ ونَزَاهَةِ حَبَش الذي كان محترَمًا حتى من جِهة خصومِه السياسيين. كان يُعرَفُ باسم "الحكيم" الذي يَدلُّ على عمَلِهِ كطبيب وكذلك على حِكمَتِه أيضًا. كان خَطيبًا مفوّهًا جذّابًا خاصةً في الجماعات الصغيرة حيث كان لفصاحَتِه وثقافَتِه وتواضُعِه أكبر الأثَر. تحدَّثَ بلطفٍ إنما بِحَزم وبدون غَوغائية. شاهدتُ بنفسي في جنوب لبنان في أوائل السبعينيات كيف تمكَّن حَبَش من شدّ انتباه السامِعين ساعات على الرغم من تعقيد أفكارِه. كانت الجبهة الشعبية مفضَّلَة بين الطلاب والمثقفين والطبقة الوسطى بسبب ميولها الماركسية-اللينينية، خاصةً أولئك الذين يميلون إلى اليسار السياسي. كما كان لها أتباعٌ مخلِصون في مخيمات اللاجئين حيث وَجَدَتْ رسالَتُها المتشدّدة استجابةً بين الفلسطينيين الذين كانت مُعاناتُهم أكثر قسوة.

من جهة أخرى، كانت حركة فتح حاسِمَةً وغير فِكرية في موقِفها السياسي بالمقارنة مع الجبهة الشعبية وغيرها من الجماعات التي أعلَنَتْ موقِفَها اليساري. مثَّلَتْ حركةُ فتح عند تأسيسِها رَدَّ فِعلٍ على الجماعات ذات الاتجاه القومي العربي مثل حركة القوميين العرب وحزب البعث، وكذلك رَدّاً على الشيوعيين واليساريين وجماعات الإسلاميين مثل الإخوان المسلمين الذين دَعوا إلى الإصلاح الاجتماعي قَبلَ مواجَهة المشاكل الأخرى، وخاصة مشكلة فلسطين. دَعوةُ فتح إلى عَمَل الفلسطينيين المباشَر الفَوري، وموقِفَها العام غير الإيديولوجي كان من العوامل التي مَكَّنَتْها بسرعة لتصبح أكبر فَصيلٍ سياسي. كانت بعضُ التفاصيل

غامضة ولكننا نَعلَمُ أن حركة فتح قد تأسَّستْ في الكويت سنة 1959 على يد فئةٍ من المهندسين والمدرّسين وغيرهم من المِهَنيين الفلسطينيين برئاسة ياسر عرفات. تجمَّعَتْ نواةُ الحركة قَبل ذلك في قطاع غزة وفي جامعات القاهرة حيث تنافَسَتْ مع الجبهة الشعبية لقيادة اتحاد الطلبة الفلسطينيين.

أخبرَني صلاح خَلَف (أبو إياد) ذات مرة قصةً رمزية عن عرفات وسياسات الجامعة في القاهرة، فقد كان مهدَّداً بخسارة انتخابات الطلبة في اليوم التالي لصالح الجبهة الشعبية، وقال عرفات أن لديه فكرة، وأخَذَ خَلَف معه لزيارة شخصٍ كان يَعرفُهُ في وزارة الداخلية المصرية. جَلَسوا يشربون الشاي والقهوة ويتحدثون معاً حتى كان على الرجل الخروج من مكتبه لعمل ما، وعندها قَفَزَ عرفات وذهَبَ وراءَ مكتب المسؤول وقامَ بعملٍ ما خِلسَة وعادَ إلى مقعدِه. عندما رَجعَ الرجل غادَرا معاً. اعترَضَ خَلَف على أنهما لم يتحَدَّثا بشيءٍ عن الانتخابات القادمة، فطَلَبَ منه عرفات أن يَذهَبَ إلى بيتِهِ قائلاً إنّ المسألةَ قد حُلَّتْ. ذهَبَ خَلَف في اليوم التالي حزيناً إلى مكتب اتحاد الطلبة لينتَظر الانتخابات فوجَدَ خطاباً رسمياً على الباب بختم وزارة الداخلية المصرية يأمُر بتأجيل الانتخابات. كان ذلك من عَمَلِ عرفات الذي استَخدَم التأخير كما قال خَلَف لكي يَضمّ طلاباً فلسطينيين يَدرسون في جامعة الأزهر، وكان أغلبهم من العميان، ولم يَطلُب أصواتهم أحَدٌ من الفصائل المتنافِسَة. وعندما أُقيمَت الانتخابات في النهاية قاموا بالتصويت جميعاً لصالح قائمةِ فتح وضمنوا فَوزها.

كان تركيز فتح الأساسي بالفعل على القضية الفلسطينية. نادَتْ حركة فتح بشَنِّ حَملة من الكفاح المسلح المباشر ضد إسرائيل بدأته بهجومٍ في الأول من يناير 1965 لكي تدفَعَ نحو تحقيق هذا الهدف. كان هدفُ الهجوم تعطيل محطة ضخّ للماء في وسَط إسرائيل. وكان الهجومُ رَمزياً أكثر منه عَملياً مثلَ كثيرٍ مما فَعَلَتْهُ فتح في تلك المَرحلة. ومع ذلك اعتبَر مسؤولون مصريون أنّ فتح مُغامِرة وخطيرة في وقتٍ كانت فيه مصر لا تحتمل مثل هذا التحريض عَبرَ حدودِها. بينما لَجأت حركةُ

القوميين العرب وغيرها إلى التماس الأعذار لعدم قيام الأنظمة القومية بأية عمليات لأنها كانت متحالِفَة معها. حاوَلَتْ فتح قصداً إظهار ضَعف الدول العربية وعدم الالتزام الحقيقي بفلسطين. أثارَ هذا الموقف استياءَ الأنظمة (خاصة لأن حَماسَ خِطاب حركة فتح لم يَترافَق مع عمليات عسكرية فعَّالة)، إلا أن ذلك تَماشَى جيداً مع أغلب الفلسطينيين الذين كانوا مُحبَطين بسبب عدم قيام الدول العربية بأي اشتباك. كما كان ذلك الموقفُ جذّاباً لكثير من المواطنين العرب الذين أيّدوا الفلسطينيين وشارَكوهم في احباطاتِهم.

كان إعجابُ الرأي العام فوقَ رؤوس زعَماء الأنظمةِ العربية من خلال العمل المباشر ضد إسرائيل أحَدَ الأسرار العظيمة للنّجاح الأوّلي لجماعات المقاومة الفلسطينية، خاصة لحركة فتح. فقد حرَكوا الشعور العام بين العرب بأنّ ظُلماً قد وَقَعَ في فلسطين وأن حكوماتهم لا تفعل شيئاً مهمّاً بشأنها. خلال السنوات التي كان فيها هذا الإعجاب فعّالاً في الستينيات والسبعينيات استُخدِم دَعمُ قطاع كبير من الرأي العام للمقاومة الفلسطينية لكَبحِ جَماح حتى الحكومات العربية غير الديموقراطية، غير أن ضَبطَ النفس هذا كان مَحدوداً وطَفَحَ به الكَيل عندما هَدَّدَت الروح النضالية الفلسطينية الوضعَ الداخلي السَّاكِن في الدول العربية وحَرَّضَ إسرائيل على التصرف.

تزايَدتْ قوةُ الجماعات المقاتلة تدريجياً وأصبح واضِحاً أن إحياءً شامِلاً للحركة الوطنية الفلسطينية كان قادِماً. في منتصف الستينيات هَدَّدَتْ هذه الحركةُ المتَجَمِّعَة بأخذِ زمام المبادَرة من الدول العربية في الصراع مع إسرائيل، وساعَدَتْ بالفعل على تدهور الأحداث التي أدّت إلى حرب 1967. على الرغم من شعاراتها كانت أغلبُ الدول العربية (باستثناء سورية في ظِلِّ النظام المتشدّد الذي وصَل إلى الحُكم في الفترة 1966-1970) مشغولةً بقضايا أخرى وكانت متردّدة كثيراً بتغيير الوضع الرّاهن الذي كان في مصلحة إسرائيل إلى حَدٍّ كبير، وأظهَرتْ خشيةً من قوة إسرائيل العسكرية. وفي الوقت الذي كان الغرب يَحتفِظُ لإسرائيل بصورةِ الضَّحيةِ

التي تُحاصِرها عُدوانية العرب، كانت صورَتُها مختلفةً عن ذلك كثيراً في العالَم العربي الذي شَهِدَ انتصاراتها العسكرية الحاسِمة واحتمال حصولها على أسلحة نَووية كأدلّة على قوتها المتفوقة.

أَسَّسَت الجامعةُ العربية بقيادة مصر منظمةَ التحرير الفلسطينية سنة 1964 لكي تَشتركَ معها وتسيطِرَ على المَدِّ المتصاعِد لحَماسِ الوطنيةِ الفلسطينية. كان من المَفروض أن تكونَ المنظمةُ تابعةً للسياسة الخارجية المصرية وتحت سيطَرتها الحازِمة، وأنَّ الوزارةَ ستُديرُ وستُنظِّمُ الحَماسة الفلسطينية للهجوم على إسرائيل، إلا أن هذه المحاولة لوضع الفلسطينيين تحت وصايةٍ عربية سرعان ما انحَلَّتْ. وبعد حرب 1967 مباشرة، استَلَمَتْ جماعاتُ المقاومة الفلسطينية المسلحة قيادةَ منظمة التحرير وأزاحَتْ قيادَتَها التابعة لمصر. وسرعان ما أصبَحَ عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير بصفَتِهِ زعيم حركة فتح أكبر الفصائل. احتفَظَ عرفاتُ بهذا المَنصب ومَناصِب غيرها حتى وفاتِه سنة 2004.

وهكذا اضطرت الدول العربية لاعتِبار منظمة التحرير لاعِباً فلسطينياً سياسياً مستقلاً قاعِدَتُهُ الرئيسية في الدول المحيطَة بإسرائيل. سرعان ما اتَّضَح أن هذا الوضع أصبحَ مشكلةً لهذه الدول، وسيُصبح في المستقبل مَصدرَ حساسية وضَعف كبير للحركة الفلسطينية. أدّى صعودُ هذا اللاعب المستقل لزيادة تَعقيدِ الوَضع الاستراتيجي لِدُوَلِ المُواجَهَة، خاصة مصر وسورية، كما خَلَقَ مشكلةً داخلية خطيرة في الأردن ولبنان اللّتان ضَمَّتا عدداً كبيراً من اللاجئين الفلسطينيين المشاكِسين.

أما بالنسبة لإسرائيل فقد أثارَ إحياءُ الحركة الوطنية الفلسطينية كقوةٍ في الشرق الأوسط تَزايُدَ وجودُها على الساحةِ الدولية تناقُضاً كبيراً: لقد أدّى انتصارُها سنة 1967 إلى ظهور مقاوَمةٍ فلسطينية أشدّ إصراراً وعِناداً، وكان ذلك انعكاساً حادّاً لواحِدٍ من أعظم انتصارات إسرائيل في الفترة 1948-1967 حين كادت قضيةُ وجودِ هويةٍ فلسطينية تَختَفي تماماً في الساحَتَين. كاد اختفاءُ الفلسطينيين أن يكون انتصاراً

كاملاً ونهائياً للمشروع الصهيوني، إلا أن عودَتَهم كانت شَبَحاً غير مُرَحَّبٍ به أبداً لدى زعماء إسرائيل، مثلما هو عَدَمُ تَرحيبِ أيّ كيان استيطاني استعماري بعودة أيّ من السكان الأصليين بعد أن ظَنَّ أنه قد تَخلَّصَ منهم. كانت الفكرة المريحة أن "الكبار سيموتون والأطفال سَينسون"، وهي مقولةٌ ربما نُسِبَتْ خَطَأً إلى ديفيد بن غوريون، ولكنها تُعَبِّرُ عن واحِدٍ من أعمَقِ طموحات قادة الإسرائيليين بعد حرب 1948، إلا أنها لم تَحدُث.

بينما لم يشكّل اللاجئون الفلسطينيون أي خطر استراتيجي على إسرائيل (على الرغم من أن هجمات الفدائيين كانت خَطَراً أمنِياً جدّياً) إلا أنهم شكَّلوا تحدياً مختلفاً تماماً على المَدى البعيد، لأنه تحدياً وجودياً. اعتَمَد النجاحُ النهائي للمشروع الصهيوني كما يَعرِفُهُ الصهيانة المتشدّدون بشكلٍ كبير على استِبدال إسرائيل بفلسطين. بالنسبة لهم، إذا وجِدتْ فلسطين لا يمكن أن توجَد إسرائيل. ولذا كانت إسرائيل مضطرةً لتركيز وسائل دعايتِها القوية على هدفٍ جديد، بينما عليها في الوقت نفسه أن تتابعَ مواجَهة جهود الدول العربية. من وجهةِ نَظَرِ الصهيونية فإن اسم فلسطين ومجرد وجود الفلسطينيين يمثّل خَطَراً قاتِلاً على إسرائيل، ولذا فقد كانت المهمّة تقتضي الرّبط بين هذه المفردات وبين الإرهاب والكراهية على نحو ثابت، هذا إذا وَرَدَ ذِكرُها أصلاً، وليس رَبطُها بقضيةٍ عادلةٍ مَنسِية. ظَلَّتْ هذه الفكرة الرئيسية جَوهر هجومِ العلاقات العامة الذي نَجَحَ بوضوح جَليّ في الولايات المتحدة الأمريكية.

وأخيراً، شكّلتْ عودةُ المسألة الفلسطينية مشكلةً للدبلوماسية الأمريكية بعد أن تم إهمالُها في قرار مجلس الأمن 242 والتصرف كأن الفلسطينيين لم يوجَدوا. سَعَت الولايات المتحدة مدة عَقدٍ من الزمن بعد ذلك لتَجاهل هذا الأمر حتى بعد أن بَدَأَ المجتمعُ الدولي يُظهِر بعضَ الاعتراف بالحركة الفلسطينية. كان ذلك الموقفُ الأمريكي منسَجماً مع الأهداف الإسرائيلية المعلَنَة، وكان ممكِناً بفضل ضَعف طَرحِ الفلسطينيين لقضيتهم في أمريكا وضَعف التعاطف معهم في الرأي العام

الأمريكي. وفي الوقت نفسه، مَنَحَت الإداراتُ الأمريكية منذ عهد نيكسون وما بَعده دَعماً سرّياً وعَلَنياً بأشكال مختلفة للعمليات العسكرية التي قامَتْ بها إسرائيل والأردن وسورية وفصائل لبنانية ضد منظمة التحرير.

نَجَحَ الفلسطينيون في استعادَةِ أمرٍ كانوا قد حُرِموا منه، وفَرَضوا أنفسَهم في خريطة الشرق الأوسط على الرغم من جهودٍ كبيرة قامَتْ بها إسرائيل والولايات المتحدة وكثير من الحكومات العربية. أَطلَقَ إدوارد سعيد على ذلك اصطلاح "السَّماح بِسَردِ الرواية" وهو يَعني الحقّ بِسَردِ قصَّتهم بأنفسِهم واستعادة السيطرة على ذلك مقابِلَ السَّرد الإسرائيلي الظاهر دائماً في الغرب حيث نادراً ما يتم تَصَوُّر الفلسطينيين إلا بشكلٍ سيء شرير (كما هو الحال في فيلم الخروج Exodus)، ومن الحكومات العربية أيضاً. تمسَّكَت الحكومات العربية على مَرّ سنين عديدة برواية الجانب الفلسطيني وكأنها قصّتهم ويَربطونها بشكلٍ باهِتٍ كصراع بين إسرائيل وبينهم على الحدود وعلى اللاجئين[1].

كان أحدُ جوانب التَّحَسن السريع في فُرَصِ حركَتِهم الوطنية الذي لم يُنتبَه إليه وهو كفاءة استراتيجية التواصل الفلسطينية في الدول العربية والدول النامية وإلى حَدٍّ أقلّ في أوروبا والغرب. كان للعالَم الثالث حضورٌ أكبر في الأمم المتحدة خلال الستينيات، وظَهَر ذلك بوجود ظروفٍ أكثر حَمَاساً للقضية الفلسطينية، ولذا فقد تضاءَلَت الفَجوة التاريخية بين نجاح الصهيونية في تشكيل الرأي العام العالمي

(1) العمل الأساسي عن حركة المقاومة الفلسطينية بقلم يزيد صايغ في *Armed Struggle and the Search for State: The Palestinian National Movement, 1949-1993* (Oxford: Oxford University Press, 1997).

روايتَين تاريخيتَين ممتازتَين عن الصراع في Charles D. Smith, *Palestine and the Arab-Israeli Conflict: A History with Documents*, 9th ed. (New York: Bedford/St. Martin's, 2016); and James Gelvin, *The Israel-Palestine Conflict: One Hundred Years of War*, 3rd ed. (Cambridge: Cambridge University Press, 2014). See also Baruch Kimmerling and Joel Migdal, *Palestinians: The Making of a People* (New York: The Free Press, 1993); and William Quandt, Fuad Jabber, and Ann Lesch, *The Politics of Palestinian Nationalism* (Oakland: University of California Press, 1973).

وعدم كفاءة الفلسطينيين في هذا المَجال، وكان ذلك جزئياً بسبب زيادة عدد الفلسطينيين الذين انغَمَسوا في الثقافة الغربية أو بسبب زيادة خبرتهم في مناطق أخرى من العالَم.

تلقَّت الحركةُ في العالَم العربي دَعماً قوياً في مارس 1968 بعد تسعة أشهر من الحرب في معركة الكرامة التي جَرَتْ في قريةٍ أردنية صغيرة (التي صادَفَ أن أشارَ اسمُها إلى مَعنى الكرامة). زَجَّتْ إسرائيلُ في تلك المعركة التي كانت أكبر عملية عسكرية منذ الحرب بحوالي 15000 جندي مع مدرعات ومدفعية ودَعم جويّ وعَبَروا نهر الأردن للقضاء على مقاتِلين فلسطينيين كانوا متمَركزين في قَرية الكرامة وما حَولَها. فوجئ المهاجِمون بمقاومَةٍ عنيفة من الجيش الأردني ومنظمة التحرير مما أدّى إلى سقوط حوالي 100 إلى 200 مصاب من الجيش الإسرائيلي الذي لا يُقهَر وأجبِروا على تَركِ عَددٍ من الدبابات المحطَّمة والعربات المدرَّعة وغيرها من العَتاد.

حدَثَتْ هذه المعركة الصغيرة نسبياً بعد أقلّ من سنة على حرب 1967 واضطر فيها الإسرائيليون للانسحاب من ميدان المعركة بشكلٍ عشوائي مما أثار الحَماس في العالَم العربي وبَثَّ روحَ الثورة في صورة الفلسطينيين. على الرغم من أن المَدفعية الأردنية والمدرّعات التي تَمَركَزت في التلال المشرفة على وادي الأردن قد سبَّبَت أغلبَ الضّرر الذي لَحِقَ بالقوات الإسرائيلية، إلا أن الفلسطينيين الذين قاتَلوا داخل الكرامة قد حَصَدوا أغلبَ المَجد في هذه المَوقعة. كانت معركة الكرامة نعمةً إلهيةً لدعايَةِ حركة المقاومة الفلسطينية التي نَشَرَتْ أخبار المعركة بكفاءة كموقف كرامَةٍ عربية كانت قد مُرِّغَتْ في التراب بسبب فَشَلِ الأنظمة العربية. كانت النتيجة أن تم تَمجيدُ وتَعظيم بطولة المقاومة الفلسطينية في الوطن العربي.

كانت السخرية في هذه الطريقة بتقديم نفسِها هي أن منظمةَ التحرير في عِزِّ مَجدِها لم تشكّل أي خطر عسكري للقوات الإسرائيلية التي هَزَمَتْ جميعَ الجيوش العربية في ميدان الحرب في كل مواجِهة عسكرية تقليدية. وحتى عندما دَافَعَتْ

قواتُ منظمة التحرير بشكلٍ جيد، مثلما حَدَثَ في معركة الكرامة، إلا أنها نادراً ما استطاعَتْ أن تواجِهَ بشكلٍ مباشر ولفترة طويلة واحداً من أكثر الجيوش خبرة وأفضلها تدريباً وعَتاداً في العالَم. وبالإضافة إلى ذلك فمنذ أن بَدَأَ الكفاح الفلسطيني المسلح في الستينيات وحتى أعلَنَتْ منظمةُ التحرير بعد ذلك التَّخلي عن ذلك المَنهج لم تتمكَّن أبداً من تطوير استراتيجية عَمَلٍ فدائيّ ناجِح يمكن أن تُضاهي تَفوقَ القوات الإسرائيلية التقليدية، ولا أنْ تتغلَّبَ على مشكلةِ وجودِ قواعدِها في دولٍ عربية معرَّضَة للضغط العسكري الإسرائيلي.

في الواقع، كان أكبر نجاحٍ لمنظمة التحرير في ذروتِها أواخر الستينيات والسبعينيات قد حَدَثَ في المَجال الدبلوماسي على الرغم من رَفضِ الولايات المتحدة التّعامل مع الفلسطينيين. كان ذلك واضِحاً في العالَم العربي وفي الكتلة الشرقية التي مَنحَتْ دعماً مَحدوداً لمنظمة التحرير منذ أواخر الستينيات، وكذلك في كثير من دول العالَم الثالث وأوربا الغربية وحتى في الأمم المتحدة باستثناء القرار 242. حَصَلَتْ منظمةُ التحرير على تأييد الأغلبية في الجمعية العمومية التي لا يؤثِّر فيها حقّ الفيتو التي استَخدَمَته أمريكا في مجلس الأمن. حقَّقتْ منظمةُ التحرير هناك وفي مجالات أخرى مستويات عاليةِ من الاعتراف الدبلوماسي ونجَحتْ إلى حَدٍّ ما في عَزلِ إسرائيل. اعترَفتْ جامعةُ الدول العربية بمنظمة التحرير سنة 1974 كممثِّلٍ شرعيٍّ وَحيدٍ للشعب الفلسطيني، وافتُتحَتْ بعثات دبلوماسية لمنظمة التحرير في أكثر من 100 دولة. وكانت دَعوةُ ياسر عرفات للحَديث في الجمعية العمومية للأمم المتحدة في تلك السَّنة أعظَمَ نَصرٍ دبلوماسي في تاريخ فلسطين بعد عقود كثيرة من عدم الاعتراف بها في عُصبة الأمم وفي الأمم المتحدة ومن جهة القوى العظمى.

هناك أسبابٌ مختلفة لهذه الانتصارات المحدودَة، فقد كانت تلك فترةُ نجاحِ حركات التحرر الوطني في الجزائر وجنوب أفريقيا وجنوب شرق آسيا وحَصَلَتْ هذه الحركات على الدَّعم والتأييد حتى بين الشباب في الغرب. تَجاوبَت الصين

والاتحاد السوفييتي وتوابِعه كذلك مع موقِف منظمة التحرير المُعادي للاستعمار والدَّاعي إلى ثوريةِ العالَم الثالث، كما تَجاوبَتْ دولُ العالَم الثالث وممثِّليها في الأمم المتحدة[1]. اعتبَرتْ أغلبُ الدول الحديثة الاستقلال في آسيا وأفريقيا أن الفلسطينيين هم شعبٌ آخر يُناضِل ضد مشروعٍ استعماري استيطاني تَدعَمه القوى الغربية، ولذا فهم يَستَحقون تَعاطف الذين تَخلَّصوا حَديثاً من سيطَرة الاستعمار. وفي ذروة حرب فيتنام كان لهذه المواقف جاذبية كبيرة عند الشباب الساخِط في أوروبا وأمريكا. وأخيراً، نَجَحَتْ منظمة التحرير إلى حَدٍّ ما في استقطاب الفلسطينيين والعرب في شَتاتِ الأمريكيتين الذين أصبَحوا مؤيّدين للقضية القومية.

إلا أن جميع هذه الجهود كانت محدودَةً بشدة بسبب فَشَلِ منظمة التحرير في تكريس طاقةٍ كافية وموهِبة ومصادِرَ وافِيةٍ في مجال الدبلوماسية والمعلومات على الرغم من المُكتَسبات التي تحقَّقتْ في تلك المَجالات. ولم تَبذل منظمةُ التحرير جُهداً كافياً لِفَهمِ جمهورها المُستهدَف، خاصة في المناطق الأكثر أهمية في الولايات المتحدة وإسرائيل. فقد فَشلَتْ منظمةُ التحرير هناك في التَّغلب على الطَّرح الأكثر فاعلية الذي قَدَّمَتْهُ إسرائيل وأنصارُها في مساواة "الفلسطيني" مع "الإرهابي"[2]. بَدَأ عَجزُ منظمة التحرير في إدراك أهمية هاتَين المنطقتَين الحيوتَين من قِمّةِ زعمائها. كان هنالك أكادِيمِيّون فلسطينيون أمريكيون محترَمون في الولايات المتحدة مثل إدوارد سعيد وإبراهيم أبو لغد ووليد خالدي وهشام شَرابي وفؤاد مغربي وسميح فرسون ممن حاوَلوا مِراراً إقناعَ زعماء فلسطينيين بأن عليهم الاهتمام بالرأي العام الأمريكي وتَخصيص مصادِرَ وطاقَة كافية لذلك، إنما دون جَدوى.

---

(1) An excellent study of this topic is Paul Chamberlin, *The Global Offensive: The United States, the Palestine Liberation Organization, and the Making of the Post-Cold War Order* (Oxford, Oxford University Press, 2012).

(2) أفضل تحليل عن كيفية تَعامل إسرائيل لتَرسيخ هَيمنَتها المتواصِلة في الولايات المتحدة انظر Kaplan, *Our American Israel*, and Novick, *The Holocaust in American Life*.

عُقِدَ اجتماعٌ في عمّان سنة 1984 ضمَّ المجلس الوطني الفلسطيني الذي يَحكم منظمةَ التحرير وجماعةً من الولايات المتحدة الأمريكية شارَكتُ فيها وحاوَلنا تأكيد هذه النقطة لياسر عرفات الذي وافَقَ على الاجتماع مَعَنا واستَمَع بكياسَة ولُطفٍ حتى دَخَلَ مُساعِدٌ له بعد دقيقتين وهَمَس في أذنه، وسرعان ما تم إخراجنا بينما استقبَلَ عرفات قائدَ جبهةِ تحرير فلسطين أبو العباس، وهي فَصيلٌ صغير غير مهمّ سبَّبَ أذىً كثيراً للقضية الفلسطينية (إلا أنه كان مُمَوَّلاً من العراق). انتَهى الاستماع لنا وتَبَخَّرتْ فِرصَتُنا نحن الفلسطينيين الأمريكان لِعَرضِ قضيةِ أهمية توجيهِ الخِطاب إلى الرأي العام الأمريكي. كانت أولويات اهتمام قيادة منظمة التحرير مركَّزة بشكلٍ خاطئ على تحقيق التوازن في العلاقات العربية الذي بَرعَ فيه عرفات أكثر من اهتمامِها بتعزيز القضية الفلسطينية لدى شعوب الدول العظمى البارزة دَولياً.

بغَضِّ النظر عن هذا الفَشل فقد حَصَلَت القضيةُ الفلسطينية على بعض النجاح في الولايات المتحدة الأمريكية بعد 1967، ويَرجِعُ الفَضلُ في ذلك بشكل رئيسي إلى جهود الفريق ذاته من الأكاديميين الفلسطينيين الأمريكان الذين كانوا أكفّاء في عَرضِ الخِطاب الفلسطيني في الجامعات ووسائل الإعلام ومجالات أخرى للرأي العام. حقَّقَ إدوارد سعيد بشكلٍ خاصّ تأثيراً بالِغاً بعرضِهِ قضية الفلسطينيين بشكلٍ بليغٍ وبِطُرُقٍ لم يَسمَعها الجمهورُ من قَبل. وبينما لم يتمكّن هو وزملاؤه الفلسطينيون الأمريكان من تحقيق اختراقٍ في وسائل الإعلام الرئيسية التي استمرّت غالباً في تكرار الدعاية الإسرائيلية، إلا أنهم وَضَعوا الأساس لفَهمٍ متزايد أفضَل لوجهَةِ النظر الفلسطينية في السنوات التالية.

بينما سارَتْ منظمةُ التحرير من نَصرٍ دبلوماسي ودِعائي إلى نَصرْ آخر بعد 1967، لم تَمُرَّ هذه النجاحات دون مواجَهة، فقد أدّى كل نجاحٍ لإثارة معارَضة شَرِسة من خصومِها الكُثُر. كان الاعتداءُ الإسرائيلي على قرية الكرامة واحِداً من جهودها الأولى لمواجَهة نمو منظمة التحرير، كذلك كان هجومُها المدمِّر على

مطار بيروت سنة 1968. أدّى اختطافُ الطائرات سنة 1970 الذي قامَتْ به الجبهةُ الشعبية وتجاوزاتُ الفلسطينيين في الأردن إلى مواجَهَةٍ كارثية مع النظام الهاشمي لم تكن حركةُ المقاومة قادرةً على الفوز فيها. ففي مواجَهَةِ قوةٍ أكبَر وبَعدَ خسارَةِ التعاطف الجماهيري طُرِدَت الحركةُ من عمّان في تلك السنة فيما أُطلِقَ عليه اسمُ أيلول الأسود، ثم طُرِدَتْ كلياً من الأردن في ربيع عام 1971. كانت إحدى ضحايا الكارِثة في الأردن هي نَشوةُ الحيوية الناجِحة التي حافَظَتْ عليها بعضُ فصائل الحركة، خاصة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، حتى ذلك الوقت. هذا النَّمَطُ من سلوك حركة المقاومة في التَّهور بإثارة أعدائِها وخَلقِ عَداواتٍ مع مُستَضيفِيها وطَردها في النهاية تم تكراره في بيروت بعد 11 سنة.

تابَعَت إسرائيلُ القيامَ بهجمات عِقابية على سورية ولبنان التي شَنَّتْ منها منظمةُ التحرير عمليات عسكرية. شَمَلَتْ هَجَماتُ إسرائيل غَزواً بَرّياً كبيراً في جنوب لبنان سنة 1972، وضَربةً جوية لمُخَيَّم النَّبَطِية للفلسطينيين في لبنان سنة 1974 مما أدّى إلى تدميره تماماً ولم يُعادَ بناؤه، وغَزوٍ أدّى إلى احتلالٍ طويلٍ لأجزاءَ من جنوب لبنان سنة 1978. جميع هذه العمليات ضدّ منظمة التحرير استفادَتْ من دَعمٍ أمريكي قويّ إذ تلقَّت القوات الإسرائيلية والأردنية أسلحةً أمريكية وتمَكَّنَتَا من الاعتماد على دَعم دبلوماسي أمريكي كامِل.

رَدَّت الولاياتُ المتحدة الأمريكية على زيادة ظُهور منظمة التحرير الفلسطينية وما ظَهَر من علامات كتلة عربية موحَدَّة بطريقةٍ مختلفة أيضاً، فبالنظر إلى دَعم الاتحاد السوفييتي لمنظمة التحرير والكتلة العربية قامَ الرئيس نيكسون ومستشارُهُ لشؤون الأمن القومي هنري كيسنجر الذي أصبَحَ فيما بعد وزيراً للخارجية بِبَذلِ جهودٍ لإضعاف ارتباط الاتحاد السوفييتي بمَن اعتَبروهم عُملاءَهُ العرب في الشرق الأوسط. كانت نقطة ارتكاز استراتيجية الحرب الباردة هذه هي محاولةُ أمريكا إبعادَ مصر عن الاتحاد السوفييتي وإغراءها بالتحالف مع أمريكا وتَحفيزَها للموافقة على عَقدِ صُلحٍ مُنفَرد مع إسرائيل. عندما نَجَحَتْ هذه المبادرة الأمريكية

أخيراً في أواخر السبعينيات تحت إدارة كارتر كان لها تأثيرُ شَقِّ الجبهةِ العربية المتحدة وتَركِ الفلسطينيين وبقية اللاعبين العرب لمواجهة إسرائيل بموقِفٍ أكثر ضَعفاً. خلال هذه الأحداث تمسَّكتْ أمريكا بالخطوط التي رسَمَها قرارُ مجلس الأمن رقم 242 الذي أبعَدَ الفلسطينيين عن أي مشاركة في مفاوضات السلام. دفَعَتْ كراهيةُ المسؤولين الأمريكيين لمنظمة التحرير الفلسطينية نحو هذا التَّوجّه بسبب عُدوانيتها القتالية وتَحالفها مع الاتحاد السوفييتي، وكذلك بسبب معارَضة إسرائيل القوية لأي حِوار حول أي جانب من جوانب المسألة الفلسطينية.

وهكذا انحصَرتْ منظمةُ التحرير في إشكالية: كيف تستطيع تحقيق الآمال الوطنية الفلسطينية من خلال المشارَكة في اتفاقيةِ سَلام في الشرق الأوسط في حين أن الشروط المُعتَرَف بها دولياً لمثل هذه الاتفاقية تتمثل في القرار 242 الذي يَنفي هذه الآمال؟ كانت إشكاليةً تشبه كثيراً الإشكاليةَ التي طَرَحَها وعدُ بلفور والانتداب على فلسطين: لكي يتم الاعتراف بالفلسطينيين يجب عليهم قبول صيغةٍ دولية تم تصميمها بحيث تَنفي وجودَهم.

أعادَت المجموعاتُ القتالية الصغيرة إطلاقَ الحركة الوطنية الفلسطينية في الخمسينيات والستينيات وطرَحَتْ أهدافاً بسيطةً لنضالِها، فقد كانت فلسطين بالنسبة لهم دائماً أرضاً عربيةً ذات غالبية عربية، وقد سُلِبتْ بيوتُ أهلِها ظُلماً وحُرموا من ممتَلكاتهم ووطَنهم وحقّهم في تقرير مصيرهم. كان الهدف الرئيسي لهذه المجموعات هو عودة الفلسطينيين إلى ديارهم واستعادة حقوقهم وطَرد أولئك الذين اعتَبروهم مغتَصِبين. كان شعارُ "العودة" مَركزياً مثلما كان بالنسبة للفلسطينيين دائماً. لم يَعتَبروا وجودَ شعبَين في فلسطين يتمتَّع كلّ منهما بحقوق قومية أمراً منطقياً. كان الإسرائيليون بالنسبة لهم لا أكثر من مستوطِنين ومهاجِرين أجانِب في بلدهم. كان ذلك الموقف مماثِلاً تماماً لموقف أغلب الإسرائيليين الذين آمَنوا بأن هنالك شَعبٌ واحِد له حقوق قومية في "أرض إسرائيل" هو الشعب اليهودي، بينما لم يكن العربُ أكثر من مُتطَفّلين عابِرين. كانت إسرائيل في القراءة

الفلسطينية تلك الأيام مَشروعاً استعمارياً استيطانياً خَلَقَهُ الغرب ودَعَمَهُ (وهذا صحيح إلى حَدٍّ كبير) وأن اليهود الإسرائيليين كانوا جُزءاً من جماعة دينية فقط وليسوا شعباً ولا أمّة (كان الخَلقُ الناجح لدولة قومية قوية ذات هوية قومية واضحة قد ظَهَرَ خَطَؤه). لم يُدرك الفلسطينيون واقِع الأمور في تلك الفترة ووجود هوية قومية جديدة في فلسطين، ويَرجِع ذلك جزئياً لأن ذلك حَدَثَ على حسابِهم وبنتائِجَ كارثية عليهم.

بلَغَتْ ذروة التعبير عن هذا التَّصَور لأهدافِ النضال الفلسطيني في الميثاق الوطني الذي تَبَنَّتْهُ منظمةُ التحرير الفلسطينية سنة 1964. نَصَّ الميثاقُ على أن فلسطين دولةٌ عربية يمتلك الحقوقَ القومية لها مَن كان يعيشُ فيها قَبل عام 1917 وذُرّيَتِهم فقط، ويَشملُ ذلك اليهود الذين كانوا يعيشون في فلسطين آنذاك، ولا يَشمل الذين هاجَروا إليها بَعد صُدورِ وَعد بلفور، وعلى هؤلاء أن يُغادِروها. يَعني التحرير من وجهة النظر هذه عَكسَ كلِّ شيءٍ حَدَثَ في فلسطين منذ وعد بلفور والانتداب البريطاني وتقسيم البلاد والنكبة. يَعني إعادةَ الساعة إلى الوراء وإعادة تشكيلِ فلسطين إلى دولةٍ عربية مِن جَديد. على الرغم من أن الأفكار المتضَمَّنة في الميثاق كانت تُعبِّرُ عن كثيرٍ إنْ لم يكن أغلب المَشاعر الفلسطينية في ذلك الوقت، إلا أنه تم تَبَنّيها من جهة جامعة الدول العربية وليس من جهةٍ منتَخَبةٍ أو تمثّل الفلسطينيين.

ستتغير هذه الأهدافُ سريعاً مع تغيّر الظروف وتَحَوّل السياسات الفلسطينية بعد 1964. عندما سيطَرت فتح وفصائلُ المقاومة الأخرى على منظمة التحرير سنة 1968 وضَعَت الحركةُ الوطنية هَدَفاً جديداً هو تَبنّي فكرة فلسطين كدولة ديموقراطية واحدة لجميع مواطِنيها من اليهود والعرب (أشارَتْ بعضُ الشعارات إلى دولةٍ عَلمانية ديموقراطية). قَصَدَ ذلك إلى تَجاوز الأهداف التي وضِعَتْ في الميثاق الوطني والاعتراف بأن يهود إسرائيل قد حَصَلوا على حقّ المَعيشة في فلسطين ولا يمكن طَردهم. دَلَّ التغيير أيضاً على إعادة تشكيل صورة منظمة

التحرير لكي تُصبِحَ أكثر قبولاً لدى الإسرائيليين الذين تمّت مُعامَلتهم في ميثاق سنة 1964 وكأنهم غير موجودين. كان إعلانُ أن اليهود والعرب الذين يعيشون في فلسطين يَحقّ لهم أن يكونوا مواطِنين متساوِين في البلاد يمثّل تطَوراً كبيراً في تفكير الحركة، غير أن اقتراح الدولة الديموقراطية الواحِدة لم يَعتَرف بالإسرائيليين كشعب له حقوق قومية ولم يَقبل بشرعيةِ دولةِ إسرائيل ولا بالصهيونية.

تم قبول هذا الهدف الجديد تدريجياً بشكلٍ واسَع بين الفلسطينيين ووَرَدَ في إعلاناتٍ رسمية متتابعة لسياساتِ منظمة التحرير الفلسطينية في قراراتِ المجلس الوطني الفلسطيني. وفي النهاية، حَلَّ مَحَلَّ الميثاق الأصلي الذي أصبَح قديماً، إلا أن هذه التغيرات الأساسية تم تجاهلها بإصرار من طَرَفِ خصوم منظمة التحرير واستمَروا في ترديد مصطَلَحات الميثاق القديم فترة عقودٍ من الزمن. لم يَحصَل التغيير على شَعبيةٍ لدى غالبية الإسرائيليين وفَشِلَ في إقناع كثير من الغربيين. ومرةً أخرى لم تُدرك قيادةُ منظمة التحرير مدى أهمية تلك الجماهير، ولم ترغَبْ في تكريسِ مَصادر كافية لِشَرح أهمية هذا التطور لكي تكَسَبهم إلى صَفِّها، مما حَكَمَ بالفشل على أي جُهد في إقناع آخرين بصلاحية هذه الأهداف.

والأكثر أهمية من ذلك هو أن تحقيق هَدَفٍ على هذه الدرجة من الأهمية كان سيحتاج إلى تبديل إسرائيلَ بدولةٍ جديدة في فلسطين تَحِلُّ مَحلَّها. وهذا يَعني تغيير ما اعتُبِر اجماعاً دولياً منذ 1947 على وجود إسرائيل كدولةٍ يهودية كما وَرَدَ في قرار الجمعية العمومية رقم 181. لا يمكن تحقيق مثل هذا التّغير ألا بحدوثِ تحوّل جَذري ثَوري في توازن القوى داخل إسرائيل وعلى المستوى الدولي، ولا يستطيع الفلسطينيون تحقيق ذلك ولا حتى محاوَلَةَ ذلك لوحدِهم. كما أنهم لم يتمكّنوا من الاعتماد على إخوتِهم في النُّظُم العربية. استمرّت الدول العربية المتطرّفة مثل سورية والعراق وليبيا في تقديم لُعبةِ كلماتٍ كبيرة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية، غير أن خطاباتهم كانت فارغة، وما فَعَلَتْهُ هذه الدول في الحقيقة كان خَطفَ منظمة التحرير الفلسطينية بِدعمِ فَصائِلَ إرهابية عَدَميّة مثل منظمة أبو نضال التي اغتالَتْ

عدَداً من قادة منظمة التحرير وإسرائيليين ويهوداً دون تمييز. أما بالنسبة للدول العربية الأخرى المهمّة مصر والأردن وبتأييدٍ من السعودية فقد قَبِلَتْ قرارَ مجلس الأمن رقم 242 مع حلول سنة 1970، وتَبِعَتْهم سورية سنة 1973. وصَلَ هذا التطور الكبير في هذه الدول إلى اعترافٍ بإسرائيل كأمرٍ واقع (لم تُقِرَّ به إسرائيل) على الأقل ضمن حدود الهدنة لعام 1949. أدّى هذا التّنافر بين التّحول الحاسِم لعَدَدٍ من الدول العربية المهمّة وموقف منظمة التحرير إلى نتائج خطيرة بالنسبة للفلسطينيين.

قادَتْ تغيراتُ الظروف الإقليمية كثيراً من زعماء منظمة التحرير إلى تغيير أهدافِهم تحت تأثير عددٍ من العوامل: عدم استطاعة منظمة التحرير الاستمرار بحَملة عَمَلٍ فدائيّ فعّال ضد إسرائيل بعدما خَسِروا قواعدهم في الأردن، وتزايد قبول الدول العربية للصراع مع إسرائيل ليس بشكلٍ مصيري بل بشكلِ صراعٍ بين دولٍ على حُدود، والضغط الدولي والعربي على منظمة التحرير لكي تتوافَق مع أهدافٍ أكثر مَحدودِية. أعلَنَتْ جامعةُ الدول العربية في مؤتمر القمة الذي عُقِدَ في مدينة الخُرطوم سنة 1967 أنه لا سَلام ولا اعتِراف ولا مفاوَضات مع إسرائيل (اللاءات الثلاث التي تم ترديدها في الإعلام الإسرائيلي). بينما في واقع الحال رَحَّبَتْ مصر والأردن بالوساطة مع إسرائيل عَبرَ الممثل الخاص للأمم المتحدة غونار يارنغ Gunnar Jarring ثم بوساطة وزير الخارجية الأمريكي ويليام روجرز William Rogers. تمّ تَجاوز مؤتمر الخُرطوم من جهةٍ أقوى الدول العربية على حدود إسرائيل بقبولها قرارَ مجلس الأمن رقم 242 واعترافِها من حيث المبدأ بأنّ جارَتها لها الحقّ بحدودٍ آمِنة معتَرفٍ بها. ولم يبقَ إلا أن تتفاوَض الدولُ العربية مع إسرائيل على هذه الحدود والشروط الأخرى لاتفاقية سَلام. أشارَ ضغطُ الأردن على منظمة التحرير في سبتمبر 1970 إلى معاقَبة الفلسطينيين بسبب عدم قبولهم الأهداف الجديدة المَحدودَة للدول العربية الرئيسية وإلى أمور أخرى كذلك على الرغم من أنه كان نتيجة الاستفزاز الذي قامَت به الجبهة الشعبية عندما خطَفَت الطائرات.

رَدَّ أعضاءٌ في منظمة التحرير الفلسطينية على هذه الضغوط في بداية السبعينيات، وبشكلٍ خاص بتَحريضٍ من الاتحاد السوفييتي، بِنَشرِ فِكرة دولةٍ فلسطينيةٍ إلى جانب إسرائيل، أي حَلُّ الدولتَين. تم دَفعُ هذا الحَلّ بشكلٍ رئيسي من جهة الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين (التي انشقَّت عن الجبهة الشعبية سنة 1969)، بالإضافة إلى فصائل مَدعومة من سورية بتشجيع حَذِرٍ من قيادات فتح. على الرغم من وجود معارَضة مبكرة لِحَلِّ الدولتَين من طَرف الجبهة الشعبية وبعض عناصر فتح، إلا أنه أصبح واضحاً مع مرور الوقت أن عرفات وقادة آخرين أيّدوا ذلك. أشارَ ذلك إلى بداية عملية طويلة بطيئة للابتعاد التدريجي عن الهَدَفِ العظيم لإنشاء دولة واحدة ديموقراطية بما فيه من انعكاسات ثورية نحو هَدَفٍ ظاهرٍ أكثر واقعية لإنشاء دولةٍ فلسطينية إلى جانب إسرائيل يمكن تحقيقُه بالمفاوضات استناداً إلى القرار 242.

لم تكن الطريق نحو هذه التحولات سَهلة على منظمة التحرير التي لم تَقبَل حَلَّ الدولتَين استناداً إلى القرار 242 إلا بعد أن تلقَّت الحركة الوطنية الفلسطينية ضَرباتٍ موجِعة منذ النكبة. جاءتْ هذا الضربات في تسلسلٍ سريع خلال الحرب الأهلية اللبنانية التي بدأتْ بشكل رسمي في أبريل 1975، إلا أنها بدأت بالنسبة للفلسطينيين قَبل ذلك بسنتَين في 10 أبريل 1973 باغتيال ثلاثةٍ من زعماء منظمة التحرير في بيوتِهم في بيروت الغربية بِيَدِ قواتٍ خاصة إسرائيلية قادَها إيهود باراك (الذي أصبح فيما بعد رئيسَ وزراء إسرائيل)[1]. سارَتْ جماهيرُ غفيرة في جنازة الشاعر والمتحدث باسم منظمة التحرير كمال ناصر، وقادة فتح كمال عدوان وأبو يوسف نجار. بينما مشيتُ مع جماهير المشيّعين لم يُفاجئني أنهم كانوا أكثر ممن شارَكوا في جنازة غسان كَنَفاني.

كان هؤلاء الرجال الأربعة بين كثيرٍ من زعماء الفلسطينيين وعناصِرِهم الذين سَقَطوا ضحايا فرق اغتيالات الموساد. كما أن بعضَ الفصائل الفلسطينية

(1) Bergman, *Rise and Kill First*, 162-74, gives a detailed description of this operation, in which Barak dressed as a woman.

اغتالَتْ شخصياتٍ فلسطينية أخرى، بمن فيهم ثلاثةٌ من أعضاء اللجنة المركزية لحركة فتح وسفراءَ لمنظمة التحرير في لندن وللاشتراكية الدولية، إلا أن تلك الفصائل كانت عَميلَةً لثلاثةٍ من الأنظمة العربية الدكتاتورية هم حافِظ الأسد في سورية وصدّام حسين في العراق ومعمّر القذافي في ليبيا، وكانوا جميعاً يَصرَخون عالياً بدَعمِهم للقضية الفلسطينية ولكنهم كانوا قُساةً في التعامل مع منظمة التحرير. كانت تلك الأنظمة تَرعَى في أوقات مختلفة مسلّحي منظمةِ أبو نضال التي نفَّذَتْ معظَم هذه الاغتيالات بالإضافة إلى بعض الجماعات المتفرّعة الصغيرة.

دلّتْ نتائجُ هذه الاغتيالات التي قامَتْ بها إسرائيل والقوى العدوانية العربية على الطريق الصعب الذي خاضَتْهُ الحركةُ الوطنية الفلسطينية، غير أنها كانت اغتيالات مختلفة لأن الدول العربية التي استخدَمتْ مثل هذه الوسيلة كانت تريد إخضاعَ منظمة التحرير لإرادتها حتى باستخدِام القوة الغاشمة مثلما فَعَل نظام الأسد عندما أرسَلَ قواتِهِ لمواجهة منظمة التحرير في لبنان سنة 1976، ولكنها تصرّفتْ على كل حال على أساس تقدير الحالة بشكلٍ بارد ومَحسوب. لم تَشأ هذه الدول تَدميرَ منظمة التحرير أو القضاء على القضية الفلسطينية، بينما كانت الحالة مختلفة تماماً من جانب إسرائيل لأن ذلك كان هدفها دائماً. اتَّبعَتْ إسرائيلُ سياسَتها المستمرة في القضاء على زعماء الفلسطينيين التي ورثَتْها من الحركة الصهيونية في أواخر فترة الانتداب، وأرادَتْ بذلك إنهاء الحقيقة الفلسطينية سكّانياً وفكرياً وسياسياً. كانت الاغتيالات عنصُراً مركزياً في سَعيِ إسرائيل لتحويل الدولة بأكمَلِها من النهر إلى البحر مِنْ دولةٍ عربية إلى دولةٍ يهودية. باستعارةِ تَعبيرِ باروخ كيمرلينغ Baruch Kimmerling مرة أخرى فقد كان ذلك مِثالاً على الاغتيال السياسي بمَعناه اللفظي حَرفياً.

لدينا تقريرَين جَديدَين على مَدى استخدِام حَملة الاغتيالات، يَستندُ أحدهما على وثائقَ إسرائيلية سرّية مخابراتية وعسكرية تحتوي على تقارير مثيرة عن

محاولات متكررة لاغتيال ياسر عرفات وكثير من الأمور الجديدة[1]. لا يمكن ببساطة قبول الذريعة بأن مثل هذه الاغتيالات تمثل ضربةً ضد "الإرهاب" عندما يكون المستهدَف هو قائد حركة وطنية، إلا إذا كان الغَرض هو تحطيم تلك الحركة. كثيراً ما تمّت شَيطَنة قادَة حركاتٍ أخرى مناهِضة للاستعمار من جهة أسيادِهم المستَعمِرين باستِخدام اصطلاحاتٍ مشابِهة (إرهابيين وقطّاع طرق وقَتَلَة) سواءً كانوا إيرلنديين أو هنوداً أو كينيين أو جزائريين. وبالمِثل، فإن شَيطَنة إسرائيل لمنظمة التحرير الفلسطينية كمنظمةٍ "إرهابية" يقدّم ذريعةً لاستِئصالها. وأوضَحُ مِثال على ذلك هو التصريحات الخاصة التي سَرَدَها وزيرُ الدفاع الإسرائيلي آرييل شارون سنة 1982 عن "الإرهابيين" الفلسطينيين في بيروت[2].

---

(1) كتاب برغمان *Rise and Kill First*, 117-18, 248-61 يتضمَّن أمثلة كثيرة على مثل تلك المحاولات لاغتيال عرفات. تحليل استراتيجية الاغتيال هذه ومعارَضة مَنهج التبرئة عند برغمان انظر Paul Aaron's review of the book, "How Israel Assassinates Its 'Enemies,'" and his two-part article, "The Idolatry of Force: How Israel Embraced Targeted Killing," and "The Idolatry of Force (Part II): Militarism in Israel's Garrison State," *Journal of Palestine Studies* 46, no. 4 (Summer 2017), 75-99, and 48, no. 2 (Winter 2019), 58-77.

(2) أغلب موادّ هذا الفصل والذي يليه تَستند إلى ترجمةٍ انكليزية لوثائق من الملحقات السّرية للجنة كاهان للتحقيق في مذابح صبرا وشاتيلا سنة 1982. ذكرتُهم فيما تلى ذلك في أوراق كاهان I إلى VI. الوثائق موجودة على مَوقع مركز الدراسات الفلسطينية. كما أن ويليام كندت William Quandt البروفسور المتقاعِد في جامعة فرجينيا والعضو الكبير في مجلس الأمن القومي في إدارة الرئيس كارتر قدَّم لمركز الدراسات الفلسطينية نسخاً من تلك الوثائق. في سياق دعوى تَشهير رَفعَها آرييل شارون ضد مجلة التايم عَمِلَ كندت كمستشار لمحامي الدفاع عن المجلة. تلقى هذه الوثائق كاختيارات مترجمة عن الأصل العبري من مكتب محاماة المجلة. شهد خبراء في مثل هذه الوثائق أنها تشكّل أغلب ما لم يُنشر من الملحقات في تقرير لجنة كاهان. وَرَدَ في الوثيقة الرابعة للجنة كاهان اجتماعٌ بين شارون وبشير الجميّل ببيروت في 8 يوليو 1982 الوثيقة 5,229ff حيث يَسأل بشير الجميل فيما إذا كان لدى إسرائيل أي اعتراض ضد جَرفِهِ وإزالَتِهِ لمخيمات اللاجئين الفلسطينيين في جنوب لبنان لئلا يظلّ اللاجئون في الجنوب، وأجابَ شارون "هذا ليس شأننا ولا نريد أن نتدخل في شؤون لبنان الداخلية". خلال اجتماع بين شارون وبيير وبشير الجميّل في 21 أغسطس 1982 (KP V, 2-9) أخبرهم شارون "طُرِحَ سؤالٌ من قَبل، ما الذي سيَحدث للمخيمات الفلسطينية بعد انسحاب الإرهابيين... عليكم أن تتصرفوا... لئلا يبقى أي إرهابي، يجب أن تُنظّفوا المخيمات". انظر الفصل الخامس عن مزيد من منطق الإقصاء والإفناء عند شارون والجميّل وضباطِهم.

تَبريرُ الاغتيالات كضرورةٍ للحِماية ضد الإرهابيين الذين سيَقومون بالقَتل إذا لم يُقتَلوا أولاً يبدو فارغاً عندما يكون كثيرٌ من الذين تم اغتيالهم، مثل غسان كَنَفاني وكمال ناصر وممثلي منظمة التحرير في الخارج من أمثال محمود هَمشري ووائل زعيتَر، هم من المثقفين والمناضِلين في سبيل القضية الفلسطينية وليسوا من المقاتِلين. كانت مساهَماتهم الأدبية مُكَمِّلة ومُرتَبطة بنشاطاتهم السياسية: كان كَنَفاني روائياً موهوباً ورسّاماً، وكان ناصر شاعراً، وزعيتَر كاتباً ومترجِماً ناشِئاً. لم يكونوا "إرهابيين" بل كانوا أهمّ أصوات التعبير عن حركة تحرّر وطني، كانوا أصواتاً أرادَتْ إسرائيل خَنقَها.

بعد شهرٍ واحدٍ من اغتيال ناصر وعدوان ونجار بلبنان في أبريل 1973، حَدَثَتْ مواجهةٌ مسلحة مع الجيش اللبناني هاجَمَت القوات الجوية خلالَها مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في صَبرا وشاتيلا في الضواحي الجنوبية لبيروت. وخلال بقية الحرب الأهلية اللبنانية التي استمرت حتى 1990، كانت مخيماتُ اللاجئين الفلسطينيين ومراكزهم السكانية أهدافاً متكرّرة، وتمّت محاصَرتها وتدميرها وحَدَثَتْ فيها مَجازر وتهجير إجباري، وتعرَّضَ الفلسطينيون إلى مثل هذه الفظائع في مواقع تلّ الزّعتر والكارانتينا وضبيّة وجسر الباشا وعين الحلوة وصَبرا وشاتيلا. حدثَتْ مَجازر مروِّعَة للمسيحيين اللبنانيين كذلك أثناء الحرب قامَتْ بها فصائلُ من منظمة التحرير وحلفاؤها من اللبنانيين، خاصةً في منطقة الدّامور في يناير 1976 حيث قُتِلَ مئات من المسيحيين، ودُمِّرَت البلدة وتم نَهبُها وسَلبُها.

كان تل الزعتر أكبر وأفقَر مخيم فلسطيني في منطقة بيروت وأكثرها انعِزالاً، وكان عدد سكانه حوالي 20000 فلسطيني وربما 10000 لبناني فقير أكثرهم من شيعة الجنوب. كان يقع في ضاحية الدكوانة شرق بيروت التي كان يقطنها غالبية من اللبنانيين المارونيين المؤيدين لحزب الكتائب اليميني المُعادي للفلسطينيين. كنتُ أعيشُ في بيروت مع زوجتي مُنى في السنوات التي سبقَت الحرب الأهلية. كنت أعملُ على أطروحة الدكتوراة أولاً، ثم قمتُ بالتدريس في الجامعة اللبنانية

والجامعة الأمريكية في بيروت. افتتحتُ مع جماعة من الأصدقاء الفلسطينيين المتخرجين والمقيمين في تل الزعتر أول مدرسة حضانة في المخيم بدعمٍ من جمعية إنعاش المخيم التي كانت جمعية خيرية لبنانية-فلسطينية.

أصبَحَت العلاقات بين المخيم وما حوله خطِرة بشكل متزايد حينما تدهور الوضع في لبنان. ومع حلول شهر مايو 1973 أصبح واضحاً أن تل الزعتر ومخيمات اللاجئين القريبة منه في ضبية وجسر الباشا والفلسطينيين المقيمين في منطقة الكارانتينا قد أصبحوا في منطقة مُعادية بالتأكيد. رفَض جيرانهم بشدة وجود مسلحين فلسطينيين في المخيمات، وخلال تلك الأوضاع الخطرة كنا قَلقِين بشأن سلامة الأطفال الصغار في مدرسة الحضانة، ولذلك حَفَرنا ملجأً تحت المدرسة. قامَتْ جماعاتٌ أخرى ببناء ملاجئ، وكذلك فعَلَتْ منظمة التحرير، مما أنقَذَ كثيراً من الأرواح عندما استعَرت الحرب بشدة سنة 1975.

في يوم أحَد من شهر أبريل ذلك العام كنتُ أتناول طعام الغداء مع زوجتي مُنى في تل الزعتر في بيت عائلة صديقنا قاسم عندما سمعنا بوقوع حادث على الطريق المؤدي إلى المخيم الذي يمر عَبر ضاحية عين الرمانة المارونية. نُصِحنا بالمغادرة فوراً، وبينما قُدنا السيارة عائدين إلى بيروت الغربية لمَحنا حافلةً صغيرة متوقفة بزاوية غريبة في منتصف الطريق. كانت قد تم التربّص بها في كَمين أقامَهُ مقاتلون من حزب الكتائب على طريق عودتها إلى تل الزعتر وقَتلوا كل من فيها من الركاب السبعة وعشرين. اتضَح أن الكتائب كانوا ينتَقمون من إطلاق نار حدَثَ في كنيسةٍ مارونية مجاورة كان فيها زعيمهم بيير الجميّل[1]، وهكذا اندلَعَت الحرب الأهلية اللبنانية التي استمرت خمس عشرة سنة.

لم نتمكن بعد ذلك أبداً من العودة إلى تل الزعتر الذي حاصَرَتْه ما سمّيت بَعد ذلك القوات اللبنانية التي يرأسها بشير بن بيير الجميِّل. تم اجتياحُ المخيم في

---

(1) أسّس بيير الجميّل الحزب بعد أن زار ألمانيا النازية خلال الألعاب الأولمبية سنة 1939 حين شارَكَ كحارس مَرمَى فريق كرة القدم اللبناني.

أغسطس 1976 وطُرِدَ جميع سكانه. ربما قُتِلَ حوالي ألفي شخص فيما كانت أكبر مذبحة في الحرب. توفي بعضهم أثناء الحصار، وبعضهم أثناء هربهم من المخيم، وقُتل آخرون على حواجز القوات اللبنانية حيث كان يتم انتقاء الفلسطينيين وأخذهم للإعدام. قُتل اثنان من أساتذة مدرَستِنا بهذه الطريقة، كما قُتلَتْ جهاد ابنة أخ صديقنا قاسم التي لم يبلغ عمرها إحدى عشرة سنة بعد أن خُطِفتْ وقُتلتْ على حاجزٍ مع والدتها.

قامَت القواتُ اللبنانية بمذبحة تل الزعتر بدعم سرّي من إسرائيل. بعد ذلك بسنوات في 1982 تمسَّك آريل شارون أثناء مواجَهةِ هجومٍ عليه شَنَّهُ زعماءُ حزب العمال في البرلمان بالدفاع عمّا قام به في مذابح صبرا وشاتيلا الشّنيعة في شهر سبتمبر من تلك السنة (قُتل فيها أكثر من ألف مَدَني)، وأشار إلى دَعم الحكومة الإسرائيلية لحزب الكتائب أثناء مذبحة تل الزعتر سنة 1976[1]، وفي اجتماع سرّي للجنة الكنيست لشؤون الدفاع والخارجية كشَفَ شارون أن ضباط المخابرات العسكرية الإسرائيلية الذين تَواجَدوا في المكان حين حَدثتْ مذبحة تل الزعتر قد ذَكَروا أن الكتائبيين كانوا يَقتلون الناس "بأسلحةٍ قدَّمناها لَهم، وبالقوات التي ساعَدناهم على إنشائها"[2]. تابَعَ شارون أقواله إلى شيمون بيريز زعيم حزب العمال المعارِض الذي كان في السلطة سنة 1976:

> نحن وأنتم نعمل وفق المبادئ الأخلاقية ذاتها... قَتَلَ الكتائبيون في شاتيلا مثلما قَتَلوا في تل الزعتر. العلاقة أخلاقية: هل نتدخل مع

---

(1) *Jerusalem Post*, October 15, 1982. Ze'ev Schiff and Ehud Ya'ari, in *Israel's Lebanon War* (New York: Simon and Schuster, 1983), 20، تبيَّنَ أن بنيامين بن أليعازر ضابط الاتصال الإسرائيلي الكبير مع القوات اللبنانية والذي أصبح فيما بعد وزير الدفاع الإسرائيلي ونائب رئيس الوزراء كان موجوداً في مركز القيادة حيث وجّهت القوات اللبنانية حصار تل الزعتر في يوليو قبل أسابيع من سقوط المخيم. ذَكرَ شيف وياري Schiff and Yaari التعاون الوثيق بين العسكريين الإسرائيليين والمخابرات الإسرائيلية مع القوات اللبنانية في تلك الفترة وما بَعدها، كما ذُكر ذلك برغمان في *Rise and Kill First*.

(2) الوثيقة KP III ومحضر اجتماع لجنة الدفاع والشؤون الخارجية في الكنيست في 24 سبتمبر 1982، ص 224-224.

الكتـائبيين أم لا نتـدخل. أنـتم سـاعَدتموهم وتـابَعتم فِعـل ذلـك في تل الزعتر[1].

ربمـا لـم يكـن الضـباط العسـكريون والمخـابراتيون الإسـرائيليون داخـل المخيمات كما بَيَّنَ شارون للجنة الكنيست، إلا أنهم كانوا موجودين في مراكز القيادة التي أدارَت العَمليتَين. وحسبما صرّح به مذعوراً حسن صبري الخولي وسيط جامعة الدول العربية في لبنان الذي كان موجوداً في غرفة القوات اللبنانية وحاوَلَ وَقفَ مذبحة سنة 1976 أثناء حدوثها وقال إن ضباطاً إسرائيليين وشخصَين يمثلان سورية هما الكولونيل علي المَدَني والكولونيل محمد الخولي كانوا موجودين آنذاك[2]. لا توجَد صورٌ أكثر تعبيراً عن الاحتمالات الصعبة التي واجَهَت الفلسطينيين أثناء الحرب اللبنانية من صور الضباط الإسرائيليين والسوريين الذين جَمَعَهم في لبنان هنري كيسنجر "لكَسرِ ظَهر" منظمة التحرير الفلسطينية[3] وهم ينظرون بينما أدارَ زعماءُ القوات اللبنانية مذبحةً في مخيم اللاجئين الفلسطينيين. ولكن كما قال كيسنجر في سياقٍ آخر "يجب ألا يرتَبكَ أو يَختلطَ العمل السرّي بالعملِ الإعلامي أو التَّبشيري"[4].

---

(1) المصدر نفسه، ص 225-226.

(2) عرفتْ وكالة الأنباء الفلسطينية وفا في 13 أغسطس 1976 ضابط المخابرات العسكرية السورية الكبير في لبنان العميد علي مدني وأنه كان موجوداً في مركز قيادة القوات اللبنانية "للإشراف" على العمليات ضد المخيم. انظر جرائد النهار والسفير في 13 أغسطس 1976 لتقارير عن المؤتمر الصحفي الذي عقده حسن صبري الخولي في 12 أغسطس 1976. غطَّتْ هيلينا كوبان Helena Cobban الحرب كمراسلة صحفية لمجلة *Christian Science Monitor* وكانت شاهدة على سقوط المخيم وذكَرتْ أن العميد مدني قد شاهَده صحفيون غربيون غيرها كذلك في مركز قيادة القوات اللبنانية *The Palestinian Liberation Organization* (Cambridge: Cambridge University Press, 1984), 281n35 تعرفت تقارير أخرى على تواجُد العميد محمد الخولي كذلك.

(3) Dispute, "Minutes of Adam Howard, ed., *FRUS* 1969-1976, XXVI, Arab-Israeli Washington Special Actions Group Meeting," Washington, DC, March 24, 1976, 963.

(4) صرَّح كيسنجر بذلك فيما يتعلق بتخلّي أمريكا عن الكُرد في العراق أمام لجنة الاختيار الدائمة لمجلس النواب لشؤون المخابرات التي يرأسها عضو مجلس الشيوخ أوتيس بايك Otis Pike سنة 1975.

كان للحرب في لبنان مُحَرِّكون كُثُر، لبنانيون وغير لبنانيين، وكل واحد منهم لديه دوافع مختلفة، إلا أن منظمة التحرير كانت هدفاً رئيسياً لبعضهم. بالنسبة للبنانيين المعارِضين لمنظمة التحرير، وأغلبهم من المسيحيين المارونيين، كانت معارَضتهم للوجود الفلسطيني المسلح تَندفِعُ باسم الوطنية اللبنانية والاستقلال. كانت غالبية اللاجئين الفلسطينيين في لبنان من المسلمين السّنيين، وكانت منظمة التحرير العلمانية قد تحالَفتْ مع اليسار اللبناني وجماعاتٍ إسلامية، ولذا خشي المارونيون من اختلال النظام السياسي الطائفي في البلاد الذي زوَّرَهُ الانتدابُ الفرنسي لصالحهم في أوائل العشرينيات.

أما بالنسبة لسورية، فقد كانت لبنان ساحةً استراتيجية حيوية سَعَت للسيطرة عليها، ونقطةَ ضعف في الصراع مع إسرائيل، وموقِعَ صراعها مع منظمة التحرير الفلسطينية حول زعامة الجبهة العربية ضد إسرائيل. أصبَحتْ هذه الأمور قضايا حاسِمة بالنسبة لدمشق عندما تحركتْ مصر بشكل مؤكَّد نحو اتفاقية سَلام منفَرد مع إسرائيل لتصبح بالفعل الدولةَ التابعة لأمريكا وهو الوضع الذي استمرّتْ عليه منذ ذلك الحين. عندما خَسرتْ سورية حليفَها المصري احتاجتْ إلى إيجاد حليفٍ آخر يوازن موقفَها ضدّ إسرائيل، وكانت السيطرة على لبنان والفلسطينيين والأردن تبدو الاختيارات الممكِنة الوحيدة. زادَ الموقفَ سوءاً انعدامُ الثقة التام بين الرئيس السوري حافظ الأسد وزعيم منظمة التحرير ياسر عرفات، كذلك دَعمُ منظمة التحرير للتشكيلات اليسارية اللبنانية التي أصبَحتْ قادرة على اتخاذ موقف أكثر استقلالية عن دمشق.

أما بالنسبة للحكومة الإسرائيلية فقد كان التدخل المباشر وغير المباشر في حرب لبنان فرصةً سانِحَة لكَسبِ عملاءَ لبنانيين، وتطوير دائرة نفوذ جديدة، وإضعاف سورية وحلفائها. والأهم من ذلك هو أن الحرب منَحتْ إسرائيل فرصةَ الانتقام من هجمات منظمة التحرير المتفرقة على الإسرائيليين وتقويضها وربما شَلِّها تماماً. كما أن ذلك سيُبطل تهديدَ الحركة الوطنية الفلسطينية على سيطرة

إسرائيل النهائية في الأراضي المحتلة حيث أصبح ملايين الفلسطينيين المتذمّرين تحت حُكم إسرائيل بعد سنة 1967. كانت الهجمات التي شَنَّتْها منظمةُ التحرير من لبنان والتي استهدَفتْ مَدَنيين في الغالب قد منَحتْ حكومات إسرائيلية مختلفة كل التحريضات التي احتاجتْ لها لتبرير التَّدخل ضد جيرانهم في الشمال. اختَلَفت الطرق الإسرائيلية من الدعم المباشر بشكلٍ أسلحة وتدريبٍ لخصوم منظمة التحرير، خاصة القوات اللبنانية (التي استلمتْ عَتاداً قيمته 118.5 مليون دولار وتدريب 1300 مقاتلٍ ميليشيا حسبما جاء في مصدر إسرائيلي[1])، إلى اغتيالات وتفجير سيارات مفخّخة قتلتْ قادةً فلسطينيين وكثيراً من المَدَنيين. ذَكرتْ شخصياتٌ إسرائيلية عسكرية ومخابراتية رفيعة المستوى تفاصيلَ بعض هذه العمليات في كتابٍ كان عنوان فَصلِهِ عن لبنان هو "زمرةٌ من الكلاب المَسعورة"[2]. تحدَّثَ المُحتوى عن وصفِ عملاء إسرائيليين لحلفائهم في القوات اللبنانية التي وظَّفوها لتنفيذ أغلب هذه العمليات المميتة.

دعمَت الولاياتُ المتحدة الأمريكية أهدافَ إسرائيل في ظلّ إداراتٍ مختلفة مثل نيكسون وفورد وكيسنجر، ثم كارتر وفانس وبيرزينسكي وخلال إدراة ريغان. كان الهدفان الرئيسيان في السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط هو استمالة مصر، أهمّ دولة عربية، بعيداً عن الاتحاد السوفييتي، مع عدم السماح للصراع في الشرق الأوسط بتَعقيدِ حالَةِ الانفراج بين أمريكا والاتحاد السوفييتي. اقتضَى ذلك دَفعُ مصر نحو قبول إسرائيل، لأن تحالفَ مصر التام مع أمريكا سيَسمحُ للقيادة الأمريكية بالإدعاء أنها ربِحَت الحرب الباردة في الشرق الأوسط وبتشكيل حِلفٍ أمريكي. بالنظر إلى أهمية هذه الأهداف الاستراتيجية بالنسبة لواشنطن، فإن موقفَ

(1) وثيقة لجنة كاهان KP, I, 18 يبدو أن تلك الوثيقة قد حضَّرتها وزارة الدفاع للجنة كاهان دفاعاً عن اتهامات ضد شارون. يُذكر في الصفحة 48 من هذه الوثيقة أن شارون يقول "حوالي 130 من رجال الكتائب" قد تلقّوا تدريبات في إسرائيل ولكنه يَذكر الرقم نفسه بشأن المساعدات العسكرية.

(2) Bergman, *Rise and Kill First*, 225-61.

منظمة التحرير الفلسطينية كان عَقَبةً صغيرة نسبياً، وكان هنالك كثير من الفُرَقاء في الشرق الأوسط ممن ستُسعدُهم مساعدةُ أمريكا في العمل ضد المنظمة.

شَنَّ أحدُ هؤلاء الفُرَقاء في سورية هجوماً عسكرياً مباشراً على منظمة التحرير الفلسطيينة في لبنان بموافقة مُعلَنة من أمريكا سنة 1976 حينما كانت الحرب الأهلية مُستَعِرة هنالك. بينما كانت واشنطن وسورية تعمَلان وفق تفاهم بشأن ذلك التدخل، وضَّحَ كيسنجر أهدافَ أمريكا: "نستطيع السماحَ للسوريين بالتحرك لكَسر ظَهر منظمة التحرير الفلسطينية"[1]. لم تترك أمريكا تلك الفرصة تمر في النهاية، وانخَرطَت القواتُ السورية في معاركَ عنيفة مع الفدائيين الفلسطينيين في صَيدا وجبال الشوف وغيرها من المناطق. لم يكن التدخل السوري ممكِناً إلا بعد أن حرَّضَ كيسنجر إسرائيل على عدم معارَضته من خلال موافقةٍ ضمنية على "خطٍّ أحمر" وضع حدوداً جغرافية أمام التقدم السوري[2].

بدأتْ مشاركةُ أمريكا في الأعمال المُعادية للفلسطينيين قَبل إعطائها الضوء الأخضر لسورية سنة 1976 بزمن طويل، لم يكن هنالك أي مكان لمنظمة التحرير ولا لِحَلِّ المشكلة الفلسطينية في مخططات هنري كيسنجر للشرق الأوسط التي رسَمَتْها حَربُهُ الباردة. فقد كان الفلسطينيون بالنسبة له حلفاءَ للسوفييت والأنظمة العربية "المتطرّفة"، وكانوا في أسوأ الأحوال عائقاً يجب إزالتُهُ، أو في أحسن الأحوال مشكلة يجب تجاهلها. ساهَمَ كيسنجر في مفاوضات ثلاث اتفاقيات لفَضِّ الاشتباك بين إسرائيل ومصر وسورية بعد حرب 1973 ودَفَعَ نحو تحقيق أهداف الحرب الباردة الأمريكية بتركيزه الأحاديّ التفكير على هذه الأهداف. مَهَّدَتْ هذه الاتفاقيات لاتفاقية السلام المنفَرد بين مصر وإسرائيل، ولكي يحقّق ذلك، سَعى كيسنجر فقط لاحتواء القضيةالفلسطينية ومَنعِها من التشويش على سياسته وجَعلها سَهلة القياد حتى لو احتاج ذلك لاستخدام القوة من طَرف مجموعةٍ من الوكلاء.

---

(1) Adam Howard, ed., *FRUS* 1969-1976, XXVI, Arab-Israeli Dispute, "Minutes of Washington Special Actions Group Meeting," Washington, DC, March 24, 1976, 963.

(2) المصدر نفسه.

كانت تلك هي الحال في الأردن من أواخر الستينيات حتى 1971، وبعد ذلك في لبنان من بداية إلى منتصف السبعينيات عندما عارَضتْ منظمةُ التحرير تحول مصر الذي دفَعَتْهُ أمريكا نحو اتفاقٍ مباشر مع إسرائيل. تآمَرَ كيسنجر في كِلتا الحالتَين مع حلفاء أمريكا في المنطقة لتحطيم الحركة الفلسطينية. وقَفتْ أمريكا وراءَهم جميعاً في الخَفاء وكانت في الغالب مسؤولة بشكل غير مباشر.

ومع ذلك فقد اعتَرفَ كيسنجر في مذكراته بأن "مصير الفلسطينيين كان أصل المشكلة". وكان عملياً وواقعياً مثلما يستطيع أن يَشهَد بذلك أيّ شخص تابَعَ سيرتَهُ الطويلة[1]. حتى عندما كان يفاوِضُ شروطَ التدخل العسكري السوري ضد الفلسطينيين سنة 1975 فقد سمَحَ كيسنجر كذلك بمحادثات سرّية غير مباشرة مع منظمة التحرير الفلسطينية. كانت تلك المباحثات سرّية بحُكم الضرورة بسبب تَعَهُّدٍ قَدَّمَهُ وزيرُ الخارجية في مذكرة تفاهم أمريكية-إسرائيلية سرّية في سبتمبر من تلك السنة. وعَدَت الولايات المتحدة الأمريكية في ذلك التَّعَهد "بعدم الاعتراف أو التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية" حتى تَعتَرف المنظمة "بحقّ إسرائيل في الوجود" وتتخَلّى عن الكفاح المسلح (وَرَدَ باسم الإرهاب) وتَقبَلَ قرارَي مجلس الأمن رقم 242 و338 (الذي صدَرَ سنة 1973 وأكّدَ على القرار 242 وطالَبَ "بمفاوضات... بين الأطراف المَعنية برعايةٍ مناسبة" بمَعنى مؤتمر سَلام متعدّد الأطراف عُقِدَ فيما بَعد في جنيف)[2].

---

(1) Henry Kissinger, *Years of Renewal* (New York: Touchstone, 1999), 351.

(2) كانت هذه الملاحظة في البداية متوفرة فقط في

Meron Medzini, ed., *Israel's Foreign Relations: Selected Documents, 1974-1977*, vol. 3 (Jerusalem: Ministry of Foreign Affairs, 1982), 281-90.

ثم نَشَرتها الولايات المتحدة بعد 20 سنة في

Adam Howard, ed., *FRUS*, 1969-1976, XXVI, Arab-Israeli Dispute, "Memorandum of Agreement between the Governments of Israel and the United States".

رسالة ثانية في التاريخ نفسه من الرئيس فورد إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي اسحق رابين أكّدت على التزام أساسي آخر تلتزم فيه الولايات المتحدة أنها خلال أية مباحثات للسلام "ستبذل كل جهد لتنسيق اقتراحاتها مع إسرائيل مع عدم تقديم أي اقتراح لا ترضَى عنه إسرائيل" 838-840.

تجاهَلَ كيسنجر ذلك التَّعهد السرّي لإسرائيل بعد وقتٍ قصير عندما طلَبَ من الرئيس جيرالد فورد السماح باتصالِ أمريكا مع منظمة التحرير. كانت حجّته هي "لن يكون هنالك أي تغيير في موقِفنا نحو منظمة التحرير الفلسطينية في مسألة الشرق الأوسط ولكننا لم نلتَزم لإسرائيل بعدم الحديث مع منظمة التحرير بشأن الوضع في لبنان حَصرياً"[1]. كان الهدفُ الظاهري لتلك المحادثات هو ضمان سَلامة السفارة الأمريكية في بيروت وسَلامة المواطنين الأمريكان خلال الحرب الأهلية اللبنانية، وهو ما وافقَتْ عليه منظمة التحرير الفلسطينية. استمر التنسيق المكثّف بين شخصياتٍ مخابراتية من الطرفَين على مدى عدة سنوات بعد ذلك بشأن ضمانات السلامة التي قدَّمتْها منظمة التحرير. عندما أصبَحتْ هذه التفاهمات معروفة، كان رَدُّ إسرائيل متقِداً بشدّة، ولكن الولايات المتحدة الأمريكية أكّدت على طبيعتها المَحدودَة. وعلى كل حال، سرعان ما اتّسَعت الاتصالات الأمريكية مع منظمة التحرير فيما وراء تلك الأهداف المَحدودَة الأصلية لتَشملَ الوضعَ السياسي العام في لبنان. كُلِّفَ السفيرُ الأمريكي في بيروت ريتشارد باركر Richard Parker سنة 1977 بمتابعة التواصل فيما يتعلّق بعَددٍ من القضايا السياسية من خلال وسطاء مرتَبطِين بمنظمة التحرير كان من بينهم أستاذٌ في الجامعة الأمريكية في بيروت ورَجُلُ أعمالٍ فلسطيني بارز.

لا يوجد شك بأن محادثات أمريكا مع منظمة التحرير قد خالَفتْ شروطَ مذكرة التفاهم مع إسرائيل التي وقِّعتْ سنة 1975 على الرغم من تبريرات كيسنجر[2]. ما أن اكتشَفت الحكومةُ الإسرائيلية ما كان يَحدث حتى ردَّتْ بقوة على تلك الخيانة كما تصَورتْها. في يناير 1979 اغتالَ عملاءٌ إسرائيليون في بيروت أبو حسن سَلامة الشخصية الفلسطينية الرئيسية التي كانت متورطَةً بهذه الاتصالات، وذلك بتفجير سيارته الذي أدّى إلى "تفجيرٍ كبير" بشكل "كُرَةٍ من النار". كان سَلامة

(1) Adam Howard, ed., *FRUS*, 1969-1976, XXVI, Arab-Israeli Dispute, "Minutes of National Security Council Meeting," Washington, DC, April 7, 1976, 1017.

(2) المصدر نفسه 831–832. انظر أيضاً Patrick Seale, *Asad: The Struggle for the Middle East* (Oakland: University of California Press, 1989), 278-84.

رئيس الفرقة 17 المسؤولة عن الأمن الشخصي لياسر عرفات. ادَّعتْ إسرائيل أنه كان متورطاً في هجومٍ سنة 1972 على الرياضيين الإسرائيليين في أولمبياد ميونيخ. غير أن تقريراً استَندَ إلى مقابلاتٍ مع ضباط مخابرات إسرائيليين شارَكوا في العملية ذَكَرَ أن "استَنتَجت الموساد في النهاية إلى أن قَطعَ قناة التواصل هذه كان ضرورياً... لإعطاء الأمريكان إشارةً بأن هذه الطريقة لم تكن مناسبة بين الأصدقاء"[1]. لم يَقطَع الاغتيالُ ذلك التواصل على الرغم من أنه أصبح أكثر سرّية بعد أن فَهِمَتْ أمريكا ومنظمة التحرير تلميحَ إسرائيل.

في سنة 1978 خَلَفَ السفيرُ جون هنتر دين John Gunther Dean السفيرَ باركر في لبنان، وأمر بمتابعة قَنَوات التواصل التي توسَّعتْ لتضمّ أول مباحثاتٍ مباشرة بين مسؤولين أمريكان ومنظمة التحرير الفلسطينية بَحثتْ مواضيع سياسية أوسَع كان من بينها شروطُ قبول منظمة التحرير لقرار مجلس الأمن 242، واعترافُ أمريكا بمنظمة التحرير، ودخول المنظمة في مباحثات السلام، والثورة الإيرانية الإسلامية، وتحرير رهائن أمريكان كانوا مُحتجَزين في طهران. كانت الولايات المتحدة الأمريكية مستمرة في التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية على مدى أربع سنوات على الأقل متجاهِلَةً تعهّدها لإسرائيل.

كان السفير دِين هَدَفاً لمحاولة اغتيال سنة 1980. ادَّعتْ جبهةُ تحرير لبنان من الأجانب مسؤوليتها عن ذلك، ولكن تبيَّنَ أن تلك الجماعة كانت عمليةً تحت سيطرة إسرائيل كما وَرَدَ في مقابلات مع مصادر مخابراتية إسرائيلية[2]. أصَرَّ السفيرُ

(1) وصِفتْ هذه العملية في Bergman, *Rise and Kill First*, 214-24 فيه بعض الأخطاء مثل ذِكر أنه في 1978 استَخدم عميلٌ سري إسرائيلي صفة عامل في منظمة غير حكومية "في ملجأ في مخيم تل الزعتر للاجئين" إلا أن المخيم كان قد دمِّر قبل ذلك بسنتَين. تلك المنظمة غير الحكومية ربما كانت بيت أيتام للأطفال الذين ظلّوا أحياء بعد المذبحة في المخيم هو "بيت أطفال الصمود".

(2) Bergman, *Rise and Kill First*, 242-43ff. في موضوع "جبهة تحرير لبنان من الأجانب" التي نعرفُ الآن أنها لم تكن أكثر من واجِهة لأجهزة الأمن الإسرائيلية. انظر
Remi Brulin, “The Remarkable Disappearing Act of Israel’s Car-Bombing Campaign in Lebanon,” Mondoweiss, May 7, 2018.

دِين دائماً أن إسرائيل كانت وراء محاولة اغتيالِه، ويبدو أن هذا الدليل بالإضافة إلى اغتيال إسرائيل لعَدَدٍ من الفلسطينيين المشارِكين في الاتصالات مع الولايات المتحدة يدعَم مَقولَةَ السفير[1].

تُظهِر مراسلات مع وزارة الخارجية خلال 1979 أطلَعَني عليها السفير دِين مَدَى ذلك التواصل بين أمريكا ومنظمة التحرير بِطُرُقٍ لا تَظهَر تماماً في المسلسل الوثائقي الرسمي لوزارة الخارجية عن العلاقات الخارجية للولايات المتحدة[2]، وهي تَشمل مثلاً مباحثاتٍ كبيرة حول جهود منظمة التحرير لتحرير الرهائن الأمريكان المحتَجَزين في السفارة بطهران (يبدو أن بعضهم قد أُطلِق سراحُهُ على الأقل جزئياً بفضل التّوسط الفلسطيني لدى النظام الإيراني الثوري). بدأ الاتصال من خلال وسطاء، إلا أنه تطوّر إلى لقاءاتٍ بين السفير دِين والعميد سعد سايل (أبو الوليد) الضابط السابق في الجيش الأردني وقائد الأركان في منظمة التحرير وضابطها العسكري الكبير[3]. اغتيلَ هو أيضاً فيما بعد بِيَدِ عملاءَ سوريين أو ربما إسرائيليين.

كان مضمونُ تلك الاتصالات مهمّاً مثلما كان مَدى اتّساع نطاقها. قام الوسطاء الفلسطينيون بمباحثاتٍ طويلة مع السفير دِين وأحَدِ زملائه حول شروط قبول منظمة التحرير للقرار 242 (كانت مستعدة لِفعل ذلك مع بعض التّحفظات)، وكيف يمكن أن يؤدي ذلك إلى اتصالاتٍ رسمية مفتوحة بين أمريكا والفلسطينيين. لم يتم التوصل إلى اتفاق بهذا الشأن. نَقَلَ الفلسطينيون المعنيون مِراراً رغبةَ منظمة

---

(1) For more on Dean's charges, see Philip Weiss, "New Book Gives Credence to US Ambassador's Claim That Israel Tried to Assassinate Him," Mondoweiss, August 23, 2018.

(2) تفضَّل السفير المتوفى دين بتقديم وثائق إليّ تغطي فترة سفارته في بيروت بكاملها من أواخر 1978 حتى 1981. الوثائق التي تتعلق بمنظمة التحرير في 1979 بشكل رئيسي. هناك أيضاً ست برقيات سرّية على الأقل تتعلق بالاتصالات التي قام بها باركر ودين مع واحد من هؤلاء الوسطاء هو ابن عمّي وليد خالدي. في ويكيليكس.

(3) قدَّم السفير دين نسخاً من هذه الوثائق إلى مركز الدراسات الفلسطينية وهي متوفّرة للباحثِين.

التحرير بالحصول على اعتراف واشنطن بجهودها لحساب المصالح الأمريكية إلا أن دِين لم يكن مُخَوَّلاً سوى بالتعبير عن شُكرِ حكومَتِه على ضمان سَلامة المؤسسات الأمريكية. لم تقدّم الولايات المتحدة أبداً التّعويض السياسي الذي توقّعته القيادات الفلسطينية عن تلك الخَدَمات.

بينما استمرّت الاتصالات الأمريكية مع منظمة التحرير في بيروت قامَتْ إدارة الرئيس جيمي كارتر في سّعيها لعَقدِ مؤتمرِ سَلامٍ في الشرق الأوسط متعدّد الأطراف في جنيف بإصدار بيان مشترك مع الاتحاد السوفييتي في أكتوبر 1977. بادَرَ البيانُ بالإشارة إلى مشارَكة جميع أطراف الصراع بما فيهم "الشعب الفلسطيني". وأشار تصريحٌ للرئيس كارتر قَبل ذلك بشهور يدعو فيه إلى وطنٍ للفلسطينيين وأظهَرَ لهجةً مختلفة في واشنطن. ولكن سرعان ما تخلّت الإدارة عن دَفعِها للوصول إلى اتفاقية شاملة تحت ضغطٍ من حكومة إسرائيل المنتخَبَة الجديدة لحزب الليكود بقيادة مَناحم بيجن، ومن رئيس مصر أنور السادات، وتخلَّتْ عن ضمّ الفلسطينيين إلى المباحثات[1]. تَبنَّتْ بدلاً عن ذلك عمليةَ كامب ديفيد الثنائية التي توصَّلتْ إلى اتفاقية سلام منفصِلة بين مصر وإسرائيل سنة 1979.

تم التخطيط لهذه العملية من طَرَفِ بيجن لتَجميد منظمة التحرير الفلسطينية والسماح باستيطانٍ غير مقيَّد للأراضي المحتَلّة سنة 1967 وتأجيل حَلِّ القضية الفلسطينية التي ظلَّتْ قَيدَ الانتظار مدة عَقد كامل. وبينما اعترَض الساداتُ والمسؤولين الأمريكان بشكلٍ ضعيف على ذلك التَّجاهل للقضية الفلسطينية التي كان كارتر قد أكّد على أهميتها في بداية رئاسَتِه، غير أنهم أذعَنوا في النهاية. استعادَ الساداتُ سيناء لمصر في الاتفاقية، أما بالنسبة لبيجن فقد رسَّختْ اتفاقية السلام المصرية الأحادية سيطَرَةَ إسرائيل على بقية الأراضي المحتلة وأَخرجَتْ مصر نهائياً من الصراع العربي الإسرائيلي. وبالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية أكمَلَت

(1) "Telegram from Secretary of State Vance's Delegation to Certain Diplomatic.Posts," October 1, 1977, *FRUS*, 1977-80, *Arab-Israeli Dispute*, vol. 8, 634-36.

الاتفاقية انحياز مصر بعيداً عن الاتحاد السوفييتي إلى مخيم الولايات المتحدة ونَزعَتْ فتيلَ أخطر جوانب صراع القوى العظمى في الشرق الأوسط.

بالنظر إلى الأهمية الحيوية لهذه الأهداف القومية للأطراف الثلاثة فقد سُمِحَ لبيجن بِفرضِ شروطه فيما يتعلق بفلسطين في كامب ديفيد وفي اتفاقية سَلام 1979[1]. كل ذلك كان واضحاً لقيادة منظمة التحرير الفلسطينية، وانعكَسَ في مرارتهم المتزايدة في المراحل الأخيرة من محادثاتهم غير المباشرة مع حكومة الولايات المتحدة. أدرَكوا أن تعاون منظمة التحرير في لبنان لم يكن متبادَلاً، بل تم التَّعويض عنه بمَزيد من عَزلِ وإبعادِ المنظمة من جهة أمريكا وحليفتها إسرائيل.

على الرغم من أن الولايات المتحدة قد اقتربَتْ من الاعتراف بالحقوق الوطنية للفلسطينيين في عَهد كارتر، ومن الموافقة على اشتراكِهم في المفاوضات، إلا أن الطرفَين وَجَدا أنفسهما أكثر تباعداً من أي وقت مضى. أشارَتْ كامب ديفيد واتفاقية السلام الإسرائيلي - المصري انحيازَ أمريكا إلى جانبِ أكثر المواقفِ تطَرفاً في رَفضِ إسرائيل لحقوق الفلسطينيين، وهو انحيازٌ تم ترسيخُهُ في إدارة رونالد ريغان. كان بيجن وخلفاؤه في الليكود إسحق شامير وآرييل شارون وبنيامين نتنياهو معارِضين بعِناد للدولة الفلسطينية أو لسيادَتِها أو لسيطَرتِها على الضفة الغربية والقدس الشرقية. لقد كانوا الورَثَةَ العقائديين لزيف جابوتنسكي Ze'ev Jabotinsky وآمنوا بأن كل فلسطين تَنتَمي إلى الشعب اليهودي وحده، وأن الشعبَ الفلسطيني غير موجود لا هو ولا حقوقه القومية. وربما يُمنَحُ "العرب المَحَليون" حُكماً ذاتياً كحدٍّ أقصى، غير أن هذا الحُكم الذاتي سينطَبق فقط على الشعب وليس على الأرض. كان هدفُهُم المعلَن هو تحويل كل فلسطين إلى أرض إسرائيل.

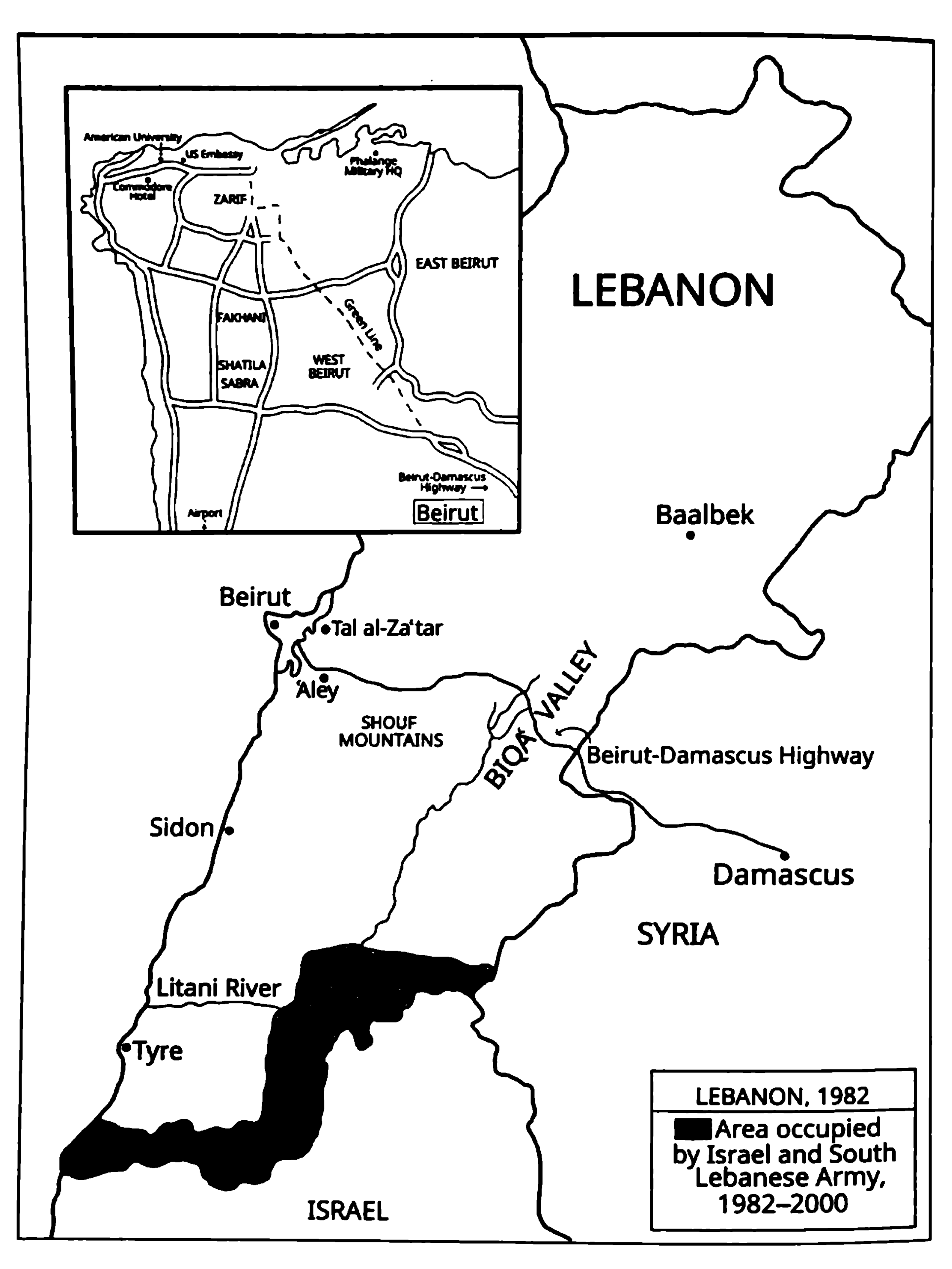
ضَمِنَ بيجن من خلال معاهدة السلام مع مصر عدم تدخّل أحَدٍ في تطبيق رؤية الليكود. كان قد وضَعَ الأساسَ بِحَذَرٍ، وتم قبوله من جهة أمريكا، وشكّل هذا

(1) The definitive study of this topic is Seth Anziska, *Preventing Palestine: A Political History from Camp David to Oslo* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2018).

الأساس مُنطَلَقاً لكل ما جاء بَعده[1]. ستكون المفاوضات التالية مَحصورَة بشروطِ الحُكم الذاتي خلال فترة انتقالية ممتدّة بلا نهاية مع الامتِناع عن أي بَحثٍ للسيادة والدولة والقدس ومصير اللاجئين والسُلطة على الأرض والماء والهواء في فلسطين. اندفَعَتْ إسرائيلُ خلال ذلك في تدعيم استعمارِها للأراضي المحتلّة. وعلى الرغم من اعتراضاتٍ أمريكية ومصرية متواضِعة أحياناً، إلا أن الشروط التي وضَعَها بيجن كانت السقف الذي سُمِحَ للفلسطينيين بالتفاوض عليه.

أصبحَت الأمور أكثر سوءاً بالنسبة للفلسطينيين بعد اتفاقية السلام سنة 1979 واستمرتْ حربُ لبنان الطاحِنة في تدمير أغلب مناطق البلاد وأرهقَتْ سكانَها واستنزَفتْ منظمة التحرير. وفي مراحل مختلفة، وجدَتْ منظمةُ التحرير نفسها بمواجهة القوات الإسرائيلية والسورية واللبنانية بالإضافة إلى ميليشيات لبنانية مَدعومة سرّاً من جهة دول عديدة شَملتْ إسرائيل وأمريكا وإيران والسعودية. ومع ذلك، وبعد كل هذا، وعلى الرغم من الغزو الإسرائيلي سنة 1978 في عمليةِ الليطاني التي تركتْ رقعةً من جنوب لبنان تحت سيطرة عملائها في جيش لبنان الجنوبي، فقد ظلَّتْ منظمة التحرير الفلسطينية قائِمَة. بل وظلَّت أقوى قوة في أجزاء كبيرة من لبنان لم تكن بيد جيوش أجنبية أو عملائهم بما فيها بيروت الغربية وطرابلس وصيدا وجبال الشوف وكثير من مناطق الجنوب. سيحتاج الأمر إلى حَملة عسكرية أخرى لطَرد منظمة التحرير. وفي سنة 1982 وافَقَ وزيرُ الخارجية الأمريكي الجنرال ألكسندر هيغ Alexander Haig على خطة آرييل شارون لكي تُنهي إسرائيلُ منظمةَ التحرير ووطنيتها الفلسطينية.

(1) أفضل تقرير عن كيفية قيام بيجن بذلك يستند إلى دراسة مفصلة لوثائق إسرائيلية وأمريكية لم تكن مُعلَنة سابقاً وكيف وضَع بعدها أسس المفاوضات التالية بما فيها مباحثات مدريد وواشنطن وأوسلو في التسعينيات، في أنزيسكا Anziska, *Preventing Palestine*.



خريطة لبنان وبيروت والمناطق التي احتلتها إسرائيل وجيش لبنان الجنوبي 1982–2000

4

إعلان الحرب الرابع
1982

يُمنَـع الهجـوم أو القصـف بالمدفعيـة علـى المُـدن أو القُـرى أو المَسـاكن أو المَنازل المُسالِمة

المادة 25، ملحق مؤتمر هيغ، 29 يوليو 1899[1]

أنتم تَخشَون إعلامَ قرائنا ومَن يستطيعون الاحتجاج عليكم بأن الإسرائيليين يستطيعون قَصفَ مدينة كاملة بشكل عشوائي

جريدة نيويورك تايمز، رئيس مكتب بيروت
توماس فريدمان إلى محرريه[2]

مع حلول سنة 1982، كان أهلُ بيروت قد مرّوا بسنوات حرب طويلة، واعتادوا على أصوات الانفجارات، وتعلّموا التمييز بينها من الخبرة والتجربة. وفي يوم الجمعة في الرابع من يونيو من تلك السنة كنتُ في اجتماعٍ للجنة القبول في الجامعة الأمريكية في بيروت حيث كنتُ أدرِّسُ منذ ستّ سنوات. كانت نهاية أسبوع عادية، وفجأة سَمِعنا صوتاً رَعدياً لما يبدو أنها قنابلُ عديدة ضخمة تنفجر في مكانٍ

(1) http://avalon.law.yale.edu/19th century/hague02.asp#art25.

(2) Quoted in Alexander Cockburn, "A Word Not Fit to Print," *Village Voice*, September 22, 1982.

بعيـد. أدركْنـا فـوراً خطـورةَ مـا يَحـدث وانفـضَّ الاجتمـاع بسـرعة. كانـت تلـك الغارةُ الجوية التّحيةَ الافتتاحية للغَزو الإسرائيلي في لبنان سنة 1982 والـذي كـان موجَّهـاً ضـد منظمـة التحريـر الفلسـطينية. توقَّـع ذلـك جميعُ سـكان الـبلاد وكـانوا يَخشَونه.

كانت ابنتُنا لميا في الخامسة والنصف من عمرهـا، وديمة في الثالثة، وكانَتا في روضـة أطفـال ومدرسـة حضـانة في مكـانَين مختلفَـين. هرعـتُ إلـى سـيارتي لجَلـبِ البنات من مدارسِهم بينما كان هَدير الطائرات الحربية الأسرع مـن الصـوت يُزمجِر وهي تَنقضُّ للهجوم (واحدٌ من أكثر الأصوات ترويعـاً على وَجهِ الأرض). كان كل واحد في الطريق ذلك اليوم يقودُ سيارته بالطريقة غَير المُكترَثة التي طالما أظهَروهـا كلما بدأ القتال ثانية في بيروت، أي أنهم قادوا سياراتهم بطريقةٍ أكثر تهوراً بقليلٍ ممـا اعتادوا عليه.

كانت زوجَتي مُنى آنـذاك في الشـهر الرابـع مـن حَملهـا، وكانـت تعمـل في وفـا WAFA وكالة فلسطين الأخبارية التابعة لمنظمة التحرير حيـث كانـت رئيسـةَ تحريـرِ نَشرتِها باللغة الإنكليزية. أفضلُ ما أذكُرُه هـو أن الانفجـارات الضـخمة التـي هزّت العاصـمة اللبنانيـة كانـت تبـدو صـادرةً عـن منطقـة الفاكهـاني المزدَحِمـة في بيـروت الغربية على بعد ميلَين. كان مكتبُ وفا قريبـاً من مخيم اللاجئين في صَبرا وشـاتيلا، وكذلك كانت معظم مكاتب منظمة التحرير الإعلامية والسياسية، وسـرعان مـا تـم تأكيد موقع الانفجارات في تقارير الراديو.

لـم تكن خدماتُ الهواتف جيدة في بيروت وأصبَحتْ أسـوأ بعـد سـبع سـنوات من الحرب وكانت مزدحمـةً لدرجـة أننـي لـم أتمكـن مـن الاتصـال بمُنـى. لـم تكـن هنالك أية وسيلة للاتصال بها ولم تكن لدي أيـة فكـرة عمـا يجـري. تمنيـتُ لـو أنهـا لجأتْ إلى قبوِ بناءِ وفا المُتهالِك. ولِحُسنِ الحظّ كانت الجامعة الأمريكية قريبةً مـن مدارس البنات. كنا قلقَين دائمـاً أنا ومُنى بشأن تمكّننا مـن الوصـول إليهمـا بسـرعة كلما اندَلَع القتال ثانية. لم نكن نخـافُ على أنفسنا أبـداً خـلال السـنين الأولـى مـن

الحرب المتقطّعة في لبنان ولكن كان هناك دوماً قلقٌ مستمر عندما بدأت البنتان بالذهاب إلى المدرسة.

ولِدت بنتانا في بيروت خلال الحرب وكذلك ولِد ابنُنا فيما بَعد، ولأن والديَّ كانا منهمكَين في السياسة (مثلما كان أغلب الثلاثمئة ألف فلسطيني في لبنان)، فقد اعتَبرَتْهما الحكومة الإسرائيلية وغيرها إرهابيَين، وكذلك اعتُبِرتُ أنا ومُنى. وقد أثار قلقي وتوتّري أن أولئك الذين يَستعِدُّونَ الآن لِغَزو المدينة هم أكثر مَن كانوا يَعتَبرونَنا من الإرهابيين. على الرغم من أنّ أَخذَ الأولاد من المدرسة كان كأي يوم جمعةٍ عاديّ في بيروت حتى مع الانفجارات المرتَجِفة من بعيد، إلا أنني أدركتُ أنَّ حياتَنا لن تظلَّ طبيعية لفترة طويلة. ضمَمتُ البنتَين في أمانِ البيت، وهدَّأتُ من رَوعِهما مع والدتي ما استَطَعنا مع وجود الضَّجة المدَوّية القاسية في الخارج.

عندما وصَلتْ مُنى أخيراً إلى البيت عرفتُ أنها لم تَستمِع إلى النصيحة بالنزول إلى الملجأ على الرغم من القصف الجوي العنيف. لقد تعلَّمتْ من تجربتها خلال سِنيّ الحرب أن الهجوم المستمر (مثل هذا الهجوم) يعني أنها قد تَعلَقَ هناك وتنفَصل عن البنتَين ساعاتٍ طويلة. ولذلك فقد انسَلَّتْ بسرعة خارِجَةً من المكتب وانطلقَتْ إلى البيت. كان الجميع يَجْرونَ في الشارع بعيداً عن القصف ولم تكن هنالك أيةُ سيارات أو سيارات أجرة، فقرَّرَت الجَري أيضاً. وعلى بعد حوالي ميل واحد كانت تقع مكاتب اليونسكو حيث وَجَدَتْ سيارةَ أجرة وافقَتْ على نقلها بقية المسافة بأمان. لم تؤثّر تلك المغامرة على الجَنين الذي كانت تَحمله، ووِلد ابنُنا اسماعيل بعد ذلك بأشهر قليلة، ولكنه ظلَّ لفترة طويلة حسّاساً جِداً للأصوات العالية.

قصَفَت الطائراتُ الإسرائيلية في ذلك اليوم ودَمَّرتْ عشراتٍ من الأبنية بما فيها استاد رياضي قرب حي الفاكهاني بفَرَضِ أنه كان يضمّ مكاتب ومرافق لمنظمة التحرير الفلسطينية. استمرّ القصف العنيف لأهداف في بيروت وجنوب لبنان خلال اليوم التالي، وكانت تلك افتتاحيةً لغزوٍ بريٍّ كبير بدأ في السادس من يونيو وأدّى إلى احتلال إسرائيل لأغلب مناطق لبنان.



حيّ الفاكهاني في بيروت الغربية في يونيو 1982. كانت مكاتب وفا تقع هناك وكذلك أغلب مكاتب منظمة التحرير الإعلامية والسياسية

تطور الغزو إلى حصارٍ لبيروت استمرّ سبعة أسابيع وانتهى أخيراً بوقفِ إطلاق النار في 12 أغسطس. دُمِّرَتْ أبنيةٌ بكاملها خلال الحصار وخُرِّبَتْ مناطقُ واسعة في الجزء الغربي من المدينة التي كانت محطَّمة بشكلٍ سيء. قُتِلَ أو جُرِحَ حوالي 50000 شخص في بيروت وبقية أنحاء لبنان، وكان الحصارُ أخطر هجوم شَنَّهُ جيشٌ نظامي على عاصمةٍ عربية منذ الحرب العالمية الثانية. لم يَحدُثْ ما يُماثلهُ حتى احتلال الولايات المتحدة لبَغداد في 2003.

كان غزو لبنان سنة 1982 نقطةَ تحوّل في الصراع بين إسرائيل والفلسطينيين، وكانت أول حربٍ كبيرة منذ 15 مايو 1948 استَهدَفت الفلسطينيين وليس جيوشَ الدول العربية. واجَهَ الفدائيون الفلسطينيون قواتٍ إسرائيلية في معارك منذ منتصف الستينيات، في قرية الكرامة في الأردن، وفي جنوب لبنان في أواخر الستينيات والسبعينيات، وبشكلٍ مميّز في عملية الليطاني سنة 1978، وخلال تبادلٍ مَحموم لإطلاق النار عَبرَ الحدود اللبنانية - الإسرائيلية في صيف 1981. وعلى الرغم من المحاولات المتكرِّرة لاستئصال منظمة التحرير إلا أنها أنشأت موقِفاً قوياً في لبنان سياسياً وعسكرياً بحيث لم تتمكّن عملياتٌ مَحدودَة من هذا النوع من إحداثِ تأثير مهمّ.

كـان غـزو 1982 مـن مسـتوى مختلـف تمامـاً مـن حيـث أهدافـه ودَرَجَتـه واسـتمراره والخسـائر الثقيلـة التـي نتَجَـتْ عنـه وتـأثيره علـى المَـدى البعيـد. غـزو إسرائيل للبنان كانت له أهدافٌ متعدّدة، ولكن ما يميّزه هـو تَركيزُه الأساسـي علـى الفلسطينيين وهدَفُه الأكبر في تغيير الموقـف داخـل فلسـطين. وافَـقَ رئـيسُ الـوزراء مناحم بيجن ومجلس الـوزراء الإسرائيلي على الخطـوط العامـة للحـرب، إلا أن مهندسَ الغزو وزير الـدفاع آريـل شـارون لـم يُطلِعهـم في أغلـب الأوقـات علـى مـا يتعلّق بأهدافِه الحقيقية وخطَطِ عملياته. على الرغم من أن شارون أراد طَرد منظمـة التحرير والقوات السورية من لبنان ووضْعَ حكومةٍ متعاوِنة حَليفة في بيـروت لتغييـر الظـروف في تلـك الدولـة، إلا أن هدفَـهُ الرئيسـي كانـت فلسـطين ذاتهـا. مـن وجهـة أصحاب نظرية إسـرائيل الكـبرى مثـل شـارون وبـيجن وإسـحاق شـامير فـإن تـدمير منظمـة التحريـر عسـكرياً ونَـزع قوّتهـا في لبنـان سيَضَـع كـذلك نهايـةً لقـوة الوطنيـة الفلسـطينية في الضـفة الغربيـة المحتلّـة وفي قطـاع غـزة والقـدس الشـرقية كـذلك، وسيُصـبح سَـهلاً علـى إسـرائيل السيطرة علـى تلـك المنـاطق والاسـتيلاء عليهـا في النهاية. في حديثٍ قدَّمَهُ رئيسُ الأركان الإسرائيلي السابق موردخاي غور في اجتماع سرّي عَقَدَتْهُ لجنةُ الكنيست في بداية الحـرب لخَّص هدفَـهُ: "الفكـرة النهائيـة كانـت تقليص نفوذ قيادة منظمة التحرير الفلسطينية في الأراضي المحتلة لكي نحصل على حرية أكبر في التصرف"[1].

شَمَلَ نطاقُ الغزو الإسرائيلي للبنان مـا يعـادل ثمانيـة فِرَقٍ (أكثـر مـن 120000 جندي، أغلبهم من الاحتياط)، وكانت أكبر تَعبئة منذ حرب 1973[2]. خاضَـتْ هـذه

(1) وثـائق لجنـة كاهـان KP III ص 196. غـور كـان يتحـدَّث إلـى شـارون خـلال اجتمـاع للجنـة الكنيست لشؤون الدفاع والخارجية في 10 يونيو 1982.

(2) Chaim Herzog, *The Arab-Israeli Wars: War and Peace in the Middle East from the War of Independence Through Lebanon*, rev. ed. (New York: Random House, 1985), 344، يَذكر العدد ثماني فرق. كـان هيرتزوغ جنـرالاً متقاعـداً ورئيسـاً سـابقاً للمخـابرات العسـكرية ثـم رئيسـاً لإسرائيل. ذَكَرتْ مصادر إسرائيلية موثوقة أخرى أن تسع فرق كانت مشتركة في قوة الغزو.

القوة الضخمة في الأسابيع الأولى من الحرب معاركَ متفرّقة عنيفة ضد آلاف قليلة من المقاتلين الفلسطينيين واللبنانيين في جنوب لبنان، وقِتالاً عنيفاً مع فرقتَين سوريتَين من المشاة والمدرعات في وادي البقاع وجبال الشوف ومنطقة المَتن شرق بيروت. في 26 يونيو قَبِلَتْ سورية وقفَ إطلاق النار (استَبعَد صَراحةً منظمةَ التحرير الفلسطينية) وجلَسَتْ على الهامش بقية الحرب. شَمَلَ حصارُ بيروت بعد ذلك قصفاً جوياً ومدفعياً على المدينة ومعاركَ بريّة متفرقة مع قوات منظمة التحرير وحلفائها اللبنانيين فقط.

خلال الأسابيع العشرة من القتال منذ بداية يونيو حتى منتصف أغسطس 1982 قُتل أكثر من 19000 فلسطيني ولبناني وكان أغلبهم من المَدَنيين حسب الإحصائيات اللبنانية الرسمية، كما جُرح أكثر من 30000 شخص[1]. تم تدميرٌ كاملٌ تقريباً لمخيم اللاجئين الفلسطينيين الاستراتيجي الموقع في عين الحلوة قُربَ صيدا وكان المخيم الأكبر في لبنان وعدد سكانه حوالي 40000 شخص قاوَموا التقدم الإسرائيلي بضراوة. لاقَت المصيرَ نفسه في سبتمبر مخيمات صَبرا وشاتيلا في ضواحي بيروت التي كانت مَسرَحاً لمَذبحة مروّعة مَعروفة حدَثتْ بعد أن كان من المُفترَض وَقف القتال. تلقَّت بيروت وكثير من مناطق الجنوب وجبال الشوف دَماراً شديداً بينما قامَت القوات الإسرائيلية مراراً بقَطع المياه والكهرباء والطعام والوقود عن القسم الغربي من العاصمة اللبنانية المحاصَرة وقَصفوها بشكلٍ متقطّع وعنيف جداً في بعض الأحيان من الجو والبر والبحر. كانت الخسائر الإسرائيلية العسكرية الرسمية خلال أسابيع الحرب والحصار العشرة أكثر من 2700، قُتِلَ منهم 364 جندياً وجُرح 2400[2]. أدّى

(1) ذلك حسب التقرير الرسمي لدائرة الأمن العام اللبناني الذي ذكَر أن 84٪ من الإصابات في بيروت كانت من المَدَنيين *Washington Post*, December 2, 1982. من المفهوم أن هذه الأرقام ليست دقيقة تماماً بالنظر إلى ظروف الحرب.

(2) وكالة الأنباء الفلسطينية وفا في 14 أغسطس 1982 ذكَرت النَّعي في الصحف الإسرائيلية أن عدد الجنود المقتولين في لبنان خلال 10 أسابيع من القتال بلغ 453. ربما نشأ هذا التفاوت بسبب أن العسكرية الإسرائيلية نَشَرت أرقاماً فقط عن الذين قُتِلوا في ميدان المعركة كما ورَد في *Under Siege*, 199-200n4.

غزو لبنان والاحتلال الطويل الذي تَلاه في جنوبها (الذي انتهى سنة 2000) إلى ثالث أكبر إصابات عسكرية تتلقاها إسرائيل في الحروب الستة الرئيسية التي حدَثتْ خلال السبعين سنة من تاريخها[1].

خلال الأسابيع العشرة من قصفٍ وحصار بيروت الغربية بقينا أنا وزوجتي وابنَتانا ووالدتي سلوى وأخي الأصغر رجاء مع بعضِنا في شقّتنا في ضاحية الظريف في بيروت الغربية. أصبح خطّ الجبهة الأمامي قريباً جداً من منزل والدتي في الضاحية الجنوبية من حارة حريك مما اضطرها للقدوم إلينا مع أخي. عندما تمكّنا من زيارة شقّتهم بعد انتهاء القتال وَجَدْنا أن المطبخ قد أصابَتْهُ قذيفةُ مدفعية إسرائيلية بشكلٍ مباشر.

اطمأنّ كلٌّ منّا على الآخر لوجودنا معاً طيلة الوقت واستطَعنا مساعدَة بعضنا بعضاً وأن نرفَع معنوياتنا على الرغم من مَوانع الحصار الكثيرة، ومصاعب العِناية بطفلتَين صغيرتَين محبوستَين في المنزل، والتعامل مع النّقص الحادّ في الماء والكهرباء والطعام الطازج، ورائحة الفضلات المحترقة الكريهة التي صَبرنا عليها مع مئات الآلاف من سكان بيروت الغربية. صَمدنا طيلة سنين الحرب الأهلية وتعوَّدنا على القصف الثقيل وتحمَّلنا هجمات الطيران الإسرائيلي ولكن هذا الحصار وحجم نيران المدفعية الإسرائيلية من البر والبحر والقصف الجوي المتكرِّر كان أكثر من مكثَّف وشَرس.

خلال صراع البقاء هذا للقضية الفلسطينية الذي شَعرَ فيه كثيرٌ منّا وكأن الحياة والموت معلَّقان في الميزان، عمِلتُ كمَصدرٍ غير مُسَجَّلٍ لصحفيين غربيين أصبحتُ

(1) حسب صحيفة الجيروزالم بوست في 10 أكتوبر 1983 ذكَر شارون نفسه 2500 إصابة إسرائيلية إلى بيير وبشير الجميّل في 21 أغسطس 1982 (لجنة كاهان KP IV, 5) بلغَت الإصابات الإسرائيلية العسكرية من يونيو 1982 حتى الانسحاب الجزئي في يونيو 1985 كانت أكثر من 4500. وقتِل أكثر من 500 جندي إسرائيلي آخر بين 1985 ونهاية احتلال جنوب لبنان في مايو 2000 ليبلغ المجموع الكلي أكثر من 800 قتِلوا بين 1982 حتى 2000. وهكذا فقد كانت خسائر الحرب والاحتلال في لبنان ثالث أعلى خسائر إسرائيلية عسكرية عامة بعد حرب 1948 وحرب 1973، وأكثر من خسائر حرب 1956 وحرب 1967 وحرب الاستنزاف في 1968-1970 في قناة السويس.

صديقاً لبعضهم على مرّ السنين. كنتُ حرّاً من الالتزام بتمثيل الخطّ الرسمي لمنظمة التحرير الفلسطينية ولكن مع المحافَظة على صِلةٍ وثيقة بزملاء في وفا WAFA حيث عملتُ ذات مرة، واستطعتُ تقديم تصَوّري الخاص الصريح للأحداث. بينما تابَعتْ مُنى تحريرَ نشرة أخبار وفا باللغة الإنكليزية إلا أن حَملها جَعَلَ من الخطّر عليها الذهاب إلى المكتب القديم في حيّ الفاكهاني واضطرتْ للعمل من بعيد[1].

كان من حظٍّ تمثيل وجهةِ النظر الفلسطينية أن بيروت كانت دائماً المَركَز العصبي للصحافة في الشرق الأوسط (كما أنها كانت مَركَزاً للتجسس)، وكان معظم الصحفيين في بيروت الغربية. كان من بينهم مراسلين مُخضرَمين في الحروب قاموا بتغطية الصراعات العربية – الإسرائيلية وحرب لبنان فترة سنوات، وتشكّلت لديهم مَناعة ضد الدعاية المباشرة سواءً كانت رسالة صريحة من منظمة التحرير الفلسطينية، أو الخطابات الخشِنة للجبهة المارونية اللبنانية، أو صِيَغُ تبجُّحِ النظام السوري، أو الشَّرح الزَّلِق المُلتَوي الذي أتقَنَتْهُ إسرائيل. كانت تغطيةُ الحرب جيدة بالطبع بفضل وجود وسائل الإعلام الدولية في بيروت.

انخرطَتْ إسرائيلُ ومنظمة التحرير الفلسطينية في تبادلٍ عنيف لإطلاق النار عبر الحدود في يوليو السابق حين قصَفَ سلاحُ الجو الإسرائيلي والمدفعية جنوب

---

(1) ربما بسبب دَوري السابق في وكالة الأنباء الفلسطينية وفا حيث كنت أساعد مُنى في تأسيس قسم اللغة الإنكليزية، أخطأ بعض الصحفيين الذين لم يعرفوا القواعد الأساسية التي اتبعتُها في حديثي معهم أثناء الحرب وظنّوا أنني "مدير وفا" أو "الناطق الرسمي لمنظمة التحرير" ولم أكن أياً منهما. (Thomas Friedman, "Palestinians Say Invaders Are Seeking to Destroy P.L.O. and Idea of a State," *New York Times*, June 9, 1982). الألقاب السابقة ربما ستفاجئ المدير الحقيقي لوكالة وفا وكان زياد عبد الفتاح والمتحدث الرسمي لمنظمة التحرير وهو أحمد عبد الرحمن ومحمود اللبدي، الأول لوسائل الإعلام العربية والثاني للصحافة الأجنبية. كان اللبدي رئيس قسم المعلومات الأجنبية لمنظمة التحرير وكان المسؤول الوحيد في التعامل مع الصحفيين الأجانب. كان هؤلاء الثلاثة ملتزمين بوظائفهم لتقديم موقف منظمة التحرير بينما لم أكن أنا مضطراً لذلك. عندما تحدثتُ للصحفيين الغربيين لم يكن ذلك بأية صفة رسمية بل بصفة شخص مجهول "كمصدر فلسطيني مطلع". احتَرَمَ جميع الصحفيين تقريباً ذلك التفاهم.



الكاتب إلى اليمين يساعد في مؤتمر صحفي في فندق الكومودور في بيروت

لبنان، وأصابَتْ صواريخُ ومدفعية منظمة التحرير أهدافاً في شمال إسرائيل[1]. كانت النتيجةُ هَربُ أعدادٍ كبيرة من المَدَنيين اللبنانيين والفلسطينيين من بيوتهم بينما اضطرّ إسرائيليون في الجليل للبقاء في الملاجئ أو للهرب. تَصاعَدَ ذلك القتال العنيف في يوليو 1981 حتى تمكّن السفير فيليب حَبيب ممثّل رئيس الولايات المتحدة الأمريكية من التّوصل لوقف إطلاق النار الذي ظلّ صامداً بشكلٍ جيد لعشرة أشهر فيما عدا بعض الانتهاكات النادرة[2]، ولكن كان واضحاً أن حكومة بيجن وآرييل شارون لم يكونوا راضين عن تلك النتيجة.

---

(1) David Shipler, "Cease-Fire in Border Fighting Declared by Israel and PLO," *New York Times*, July 25, 1981.

(2) تعرفتُ على فيليب حبيب بشكل عابر عندما كنت شاباً في سيؤول برفقة والِدي الذي شغل أعلى منصب مَدَني للأمم المتحدة في كوريا الجنوبية في الفترة 1962-1965. وكان حبيب دبلوماسياً كبيراً في سفارة الولايات المتحدة. كان وزوجته أصدقاء والِدي، وكانت أمي وزوجة فيليب حبيب تلعبان البريدج كثيراً في منزلنا. استفدتُ من ذلك التعارف عندما وافَقَ حبيب على إجراء مقابلة معي من أجل كتابي عن منظمة التحرير خلال حرب لبنان: "تحت الحصار: اتخاذ القرار في منظمة التحرير الفلسطينية خلال حرب 1982".

وصَلَتْ إنذاراتٌ عن تحضيراتِ إسرائيل للحرب للقادة اللبنانيين والفلسطينيين ولوسائل الإعلام وغيرها. طُرِح أحد تلك الإنذارات في ربيع 1982 خلال بيان موجَز لباحثين في مركز الدراسات الفلسطينية كنتُ موجوداً فيه. طَرَحَ الإنذار الدكتور يفجيني بريماكوف Yevgeny Primakov الذي كان مدير معهد الدراسات الشرقية في الاتحاد السوفييتي وكان معروفاً بكونِهِ مسؤولاً رفيعاً في المخابرات السوفييتية KGB. كان بريماكوف صَريحاً: ستُهاجِم إسرائيلُ لبنان قريباً، وستَدعَمها الولاياتُ المتحدة بشكلٍ تام، ولا يَملكُ الاتحاد السوفييتي القدرةَ على مَنع الهجوم ولا حماية حلفائه اللبنانيين والفلسطينيين. ذَكَرَ أن ضغطاً كبيراً سيُطَبَّق على موسكو لمَنع انتشار الحرب إلى سورية أو للمحافَظة على النظام السوري الذي كان حليفَها الرئيسي في المنطقة. أُخبِرنا أنه قالَ الأمورَ ذاتها لقيادة منظمة التحرير الفلسطينية[1].

لذلك لا يجب أن يكون أيّ مِنّا مُتَفاجِئاً عندما بدأت الحرب بقصفِ بيروت في الرابع من يونيو 1982. إلا أن سِعَةَ الهجوم ودَرَجَته وما تَبِعَهُ فيما بَعد كان أكثر بكثير مما توقّعتُهُ أنا وغَيري. من جهة أخرى كان ياسر عرفات وغيره من قيادات منظمة التحرير قد أدرَكوا منذ فترة أنه عندما بدأت الحرب فإن شارون سيَدفَع جيشَه على طول الطريق إلى بيروت. كان من الواضح أنهم يَستعدون لذلك الأمر ويَجمعون الذخائر والإمدادات ويَنقلون المكاتب والمَلفات ويَحضّرون الملاجئ

(1) لم تكن تلك أول مرة ألتقي فيها مع بريماكوف، وكنتُ معجباً كالعادة بمعرفته عن سياسات الشرق الأوسط وذكائه وصراحته. بعدما زال الاتحاد السوفييتي أصبح بريماكوف أول رئيس للمخابرات الروسية ثم وزير الخارجية وأخيراً رئيس الوزراء. عندما كان رئيساً للوزراء ساعدَني وزميل نمساوي للتوصل إلى اتفاق مع أرشيف الدولة الروسية لنَشر وثائق دبلوماسية سوفييتية عن الشرق الأوسط من الأربعينيات إلى الثمانينيات. أُجهِضَ المشروع بسبب إزاحة بريماكوف من منصبه من طرف الرئيس بوريس يلتسين سنة 1999. يمكن مراجعة تقريره عن حرب 1982 في

Russia and the Arabs: Behind the Scenes in the Middle East from the Cold War to the Present (New York: Basic Books, 2009), 199-205.

ومراكـز القيـادة الاحتياطيـة[1]. في السـادس مـن يونيـو تَحركَـتْ أرتـالٌ كبيـرة مـن المـدرعات الإسـرائيلية يَسبِقها عـادةً إنـزالُ قـواتٍ خاصـة مـن البحـر وطـائرات الهليكوبتر. تحرَّكتْ بسرعة في اتجاه الشمال فيما وراء صيدا وعلى طول السـاحل نحو بيروت. تقدَّمتْ في الوقت نفسه وحدات مدرّعـة إسـرائيلية أخرى عبر جبال الشوف في وسَـط البلاد، كما قاتَلتْ قواتٌ أخرى نحو سـهل البقـاع إلى الشرق. تمتَّعتْ هذه القوة الغازية التي تألَّفتْ من ثمـاني فِرق بتفوقٍ كامل في العـدد والعَتـاد على كافة الجبهات بالإضافة إلى سيطَرةٍ شامِلة في الجو والبحر. أعاقَتْ صعوبةُ الأرض والمناطق المحصَّنة جيداً مع المقاومة الصامدة إلى حَدٍّ ما تقدّم الهجوم القوي الذي لن يوقِفَهُ شيء إلا إذا تكبَّدتْ إسرائيلُ خسائرَ بشرية كبيرة.

وهكذا وصَلَت القوات الإسرائيلية في 13 يونيو إلى تقاطُع خَلدَة الاستراتيجي على الطريق الساحلي في جنوب بيروت مباشرة حيث قُهِرَ المقاتلون الفلسطينيون واللبنانيون والسـوريون في النهايـة[2]، وسـرعان مـا ظَهَـرت الـدبابات والمدفعيـة الإسـرائيلية قُـربَ القصر الرئاسي في بْعَبْدا وغيرها من ضواحي الأجزاء الشرقية من العاصمة. أصبَحتْ بيروت الغربية مُحاطَةً تمامـاً، وبدأ الحصار. طَرَدَ الهجوم الإسرائيلي القوات السورية وأخرجَها من القُرى الجبلية المُشرِفة على بيروت، وتم ترتيبٌ منفَصِلٌ لوقف إطلاق النار. أصبَحتْ منظمةُ التحرير الفلسطينية وحدَها في الميدان مع حلفائها من الحركة الوطنية اللبنانية. ازدادَتْ شدّة الحصار وقَصَفَت القواتُ الإسرائيلية بيروت الغربية كما تشاء. لم يكن هنالك أي أمَل بالخلاص أو بالدَّعم الجّاد من أي اتجاه.

---

(1) في مقابلات في تونس بعد ذلك أكّد لي أبو إياد وأبو جهاد أن قيادة منظمة التحرير عرفتْ أن الحرب قادمة واستعدّتْ لذلك. "تحت الحصار".

(2) يبدو أن عرفات لم يفاجَأ. في خطاب في مارس 1982 تَنبأ بأن منظمة التحرير وحلفاءها سيضطرون للقتال في خَلدة "تحت الحصار" n20198. قائد المنطقة في منظمة التحرير هناك كان العميد عبد الله صيام وقتِل في هذه المعركة في 12 يونيو وكان أعلى ضباط منظمة التحرير رتبة قتِل خلال الحرب. قبل ذلك بيومَين سقَط في القتال أعلى ضابط إسرائيلي رتبةً وكان الجنرال يوكوتيل آدم Yukutiel Adam وكان نائباً سابقاً لرئيس الأركان ورئيس الموساد بالوكالة وقتَلَه الفلسطينيون قرب ساحل الدامور في منطقةٍ كان يُظَنُّ أنها هادئة، "تحت الحصار" ص 80-81.

كان القصفُ والقذائف الإسرائيلية موجَّهة بدقّة في بعض الأحيان استناداً إلى معلومات استخباراتية جيدة أحياناً، إلا أنها لم تكن كذلك في أغلب الأحيان. تَحطَّمتْ أبنيةٌ سكَنية من ثمانية إلى اثني عشر طابقاً في كثير من الأحيان بضرباتٍ جوية في كافة أنحاء الجزء الغربي من المدينة، خاصة في منطقة الفاكهاني - الجامعة العربية، وأصابَتْ كثيراً من المكاتب الفارغة لمنظمة التحرير والبيوت السكنية. تم تدمير كثير من الأبنية هناك وفي مناطق أخرى تماماً، وعلى طول الشاطئ ولم يكن لها أية فوائد عسكرية، في حيّ الرّوشة مثلاً حيث دُمِّرتْ تماماً شقّة ابن عمّي وليد بقذيفة مدفعية.

وصَفَ المراسِل توماس فريدمان القصفَ الإسرائيلي ذات مرّة بأنه "عشوائي"[1]، إلا أن المُحَرِّرين في جريدة نيويورك تايمز حَذَفوا هذه الكلمة المُزعِجة مِن مَقالَتِه. كان يُشير بشكلٍ محدَّد إلى قصفِ أحياء مثل المنطقة حول فندق الكومودور حيث كان يُقيم مع أغلب الصحفيين، والتي من المؤكّد أنه لم يكن فيها أي هدف عسكري[2]. الهدف الوحيد الممكن لمثل هذا القصف الشامل كان تَرويع سكان بيروت وتَشغيلهم ضد منظمة التحرير الفلسطينية.

على الرغم من تلك العاصفة النارية وحتى مع إمكانيات الاستطلاع الجوي الإسرائيلي الواسعة والمئات من عملائها وجواسيسها المَزروعين في لبنان[3] (حدَثَت الحربُ قَبلَ عَصر الاستطلاع بالطائرات المسيَّرة)، إلا أنه لم تَحدُثْ إصابةٌ

(1) This was revealed by Alexander Cockburn, "A Word Not Fit to Print," *Village Voice*, September 22, 1982.

(2) أغلب الصحفيين الغربيين انتقلوا إلى فندق الكومودور من فندق السانت جورج العَريق على البحر قرب الكورنيش والذي تم نهبه وإحراقه سنة 1975. كان السانت جورج مركز إقامة الصحفيين الأجانب والدبلوماسيين والجواسيس وتجار السلاح وغيرهم. وعلى الرغم من أن الكومودور أقل فخامة من السانت جورج ولا يتمتع بمناظر البحر الخلابة، إلا أنه كانت له ميزة ثمينة هي بعده عن معظم جبهات الحرب الأهلية. يَذكر سعيد أبو ريش في *The St. George Hotel Bar* (London: Bloomsbury, 1989) بعض المكائد التي حُبِكتْ هناك وأن بعض الجواسيس المشهورين مثل كيم فيلبي ومايلز كوبلاند أقاموا هناك.

(3) Ze'ev Schiff and Ehud Ya'ari, *Israel's Lebanon War* (New York: Simon and Schuster, 1983), show in some detail how extensive the Israeli espionage network in Lebanon was, as does Bergman, *Rise and Kill First*.

لأيّ من مراكز قيادة عمليات منظمة التحرير تحت الأرض، ولا لمراكز اتصالاتها العديدة. ولم يُقتَل أيّ قائدٍ من منظمة التحرير في الهجمات، على الرغم من أن كثيراً من المَدَنيين قد قُتِلوا عندما فَشِلَ سلاح الجو الإسرائيلي في إصابة أهدافه. يُثيرُ هذا الأمر الدهشةَ بالنظر إلى جهود إسرائيل المكثَّفة للتَّخلص منهم[1]. من الواضح أن قادة إسرائيل لم يهتَموا بقَتل المَدنيين في محاولاتِهم لتَنفيذ ذلك. دَمَّرتْ هجمةٌ جوية في يوليو 1981 بناءً في بيروت أدّى إلى استِشهاد عددٍ كبير من المَدَنيين، وصَرَّحَ مكتب بيجن بأن "إسرائيل لم تعد تَمنَعُ نفسَها من الهجوم على أهداف العصابات في المناطق المَدَنية"[2] كان عرفاتُ نفسه هَدَفاً رئيسياً. كتَبَ بيجن في رسالةٍ إلى رونالد ريغان في الخامس من أغسطس أنه شَعرَ في "هذه الأيام" وكأنه مع "جيشِهِ الشجاع" يواجِهُ "برلين حيث قَبَعَ هتلر ومُريدِيهِ بين مَدَنيين أبرياء مُختَبئين في مَلجأٍ عميقٍ تحت الأرض"[3]. كثيراً ما كان بيجن يوازي بين عرفات وهتلر: إذا كان عرفات مثل هتلر فإن قَتلَهُ مسموحٌ به ومبرَّر مهما كانت الخسائر في أرواح المَدنيين"[4].

أحدُ الجواسيس المشهورين بسوء السُّمعة كان يَعرفُهُ أهلُ بيروت باسم أبو ريشة لأنه كان يَضَعُ أحياناً ريشةً في قبعته. كان يجلس أحياناً مقابل البناء الذي تقَعُ فيه شقّة حماتي في منطقة المَنارة في بيروت الغربية ويجلس أحياناً في رُدهَتِها. كان مَظهَرُهُ الغريب مألوفاً للمارّين ولِبَناتِي وهما ترقُبانِه من الشّرفة في الأعلى وتَتذكَّرانه بعد مرور أكثر من 35 سنة[5]. ذَكَرَ بعض البيروتيين أنه شوهِدَ بعد ذلك وهو يُرشِد

---

(1) Bergman, *Rise and Kill First*, says that concerted efforts to kill the entire PLO leadership dated back at least to 1981: 244-47.

(2) "123 Reported Dead, 550 Injured as Israelis Bomb PLO Targets," *New York Times*, July 18, 1981.

(3) "Begin Compares Arafat to Hitler," UPI, August 5, 1982.

(4) يَذكر برغمان في *Rise and Kill First* جهود إسرائيل لاغتيال عرفات بدأتْ في 1967، صفحة 117-118. وفي الصفحات 248-261 يَشمل تقارير عن محاولات عديدة لاغتياله أثناء حرب 1982.

(5) في مقابلة مع ابنة أخي لمياء خالدي في 1 يونيو 2018. هناك صورة في بيرغمان *Rise and Kill First* بين الصفحات 264-265 لقائد فرقة اغتيال إسرائيلية "يرتدي ثياب شحاذ" يجلس على الطريق في مدينة عربية مجهولة ربما كانت بيروت.

الجنود الإسرائيليين على الرغم من أن ذلك قد يكون اسطورةً مَدَنية.

في مقابلةٍ معي في تونس بعد الحرب بسنتَين ساعَدَ مسؤولُ المخابرات في منظمة التحرير أبو إياد (صلاح خَلَف) في توضيح سبب فَشَلِ إسرائيل في إصابة بعض أهدافِها المقصودة على الرغم من تبَجُّحِها بإمكانياتِها الاستخباراتية. نَجحَتْ منظمةُ التحرير خلال الحصار في الحصول على إمدادٍ مستمر من الوقود والطعام والذخائر بنَقلِها عَبرَ خطوطٍ سيطَرَ عليها بشكلٍ رئيسي فَرعٌ من الجبهة اللبنانية المارونية التي تَحالَفتْ مع إسرائيل. قالَ بصوتِ المدخِّنِ الخَشِن الخافِتْ أنها كانت ببساطة مسألةَ مال والاستِخدام الممنهِج للعملاء المزدَوجين الذين ساعَدوا كذلك على معدَّلِ نجاةٍ وبَقاءٍ مرتفع لقادة منظمة التحرير. وأكَّد لي: "ولكن يجب ألا يَثِقَ المرءُ أبداً بالعملاء المزدَوجين" وأنَّ "أيّ شخص تستطيعُ شراءَه يمكن أن يُشتَرى كذلك". وفي سخريةٍ مُرَّةٍ، كانت خيانَةُ أحَدِ العملاء المزدَوجِين هي التي أدّت إلى اغتيال أبو إياد في تونس سنة 1991[1].

عندما شارَفَ الحصارُ على نهايته في السادس من أغسطس، كنتُ قَربَ بناءٍ سَكَني قارَبَ على الانتهاء وارتفَعَ ثمانيةَ طَوابق على بُعدٍ قليل من مكان سَكَننا عندَما دمَّرَته قذيفةٌ موجَّهة دَقيقَة[2]. كنتُ قد توقَّفتُ لتوصيل صديقٍ إلى سيارتِهِ

---

(1) تم اختراق هذا العميل المزدوج من فريق أبو إياد إلى فصيل أبو نضال المعارِض لمنظمة التحرير وقاعدته في ليبيا لتقويض ذلك الفصيل، وكانت عملية ناجحة جداً. تم توظيفه فيما بعد كسائق من طرف أحد كبار ضباط أبو إياد (ربما من جهة النظام العراقي الذي دعَمَ فصيل أبو نضال والذي كان غاضباً جداً لأن أبو إياد عارَضَ عَلَناً غزو الكويت) اغتالَ أبو إياد وأبو الهول ومساعداً لهم في 14 يناير 1991 قبل يومَين من هجوم الولايات المتحدة لطرد القوات العراقية من الكويت.

(2) ربما كان هذا هو التفجير الذي ذُكِرَ في كتاب بيرغمان *Rise and Kill First* صفحة 256: "ما أن سمعتْ مجموعة الاغتيال صوت عرفات على الهاتف حتى أرسلتْ طائرتان دمَّرتا البناء ولكن عرفات كان قد غادَرَ قبل ذلك بأقل من ثلاثين ثانية حسب تقرير ديان قائد المجموعة". ربما كانت تلك الهجمة ذاتها التي ذُكِرتْ في الصفحة 258-259 بتاريخ مَغلوط في 5 أغسطس ووصِفتْ خطأ بأنها كانت موجّهة ضد "مكاتب صنعي في بيروت الغربية حيث كان من المفترض أن عرفات يحضر اجتماعاً". وحسب بيرغمان فإن رافاييل إيتان رئيس الأركان شارك شخصياً في ذلك القصف.

الواقِفة قريباً من ذلك البناء. كنتُ على وشك الوصول إلى البيت عندما انقضَّت الطائرات، وسمعتُ انفجاراً هائلاً ورائي. شاهدتُ البِناء بعد ذلك وقد دمِّرَ تماماً وانْهارَ في كتلةٍ واحدة من الركام والدخان. كان البناء مليئاً باللاجئين الفلسطينيين من صَبرا وشاتيلا وقد خرَجَ مِنْهُ ياسر عرفات قَبل ذلك بقَلِيل. قُتل حوالي مئة شخص على الأقل وأكثرهم من النساء والأطفال[1]. أخبرَني صديقي بعدها بأيام أنه بعد الضربة الجوية مباشرة حينما كان يَدخلُ سيارته مضطرباً ولكنه غير مُصاب، انفجَرَتْ سيارةٌ مفخَّخَة قُرب المكان ربما تم تجهيزها لقَتل المُنقِذين الذين كانوا يُساعدون العائلات في البحث عن أحبائهم بين الأنقاض. كانت السيارات المفخَّخة سلاحاً مفضَّلاً لدى القوات الإسرائيلية التي تحاصِر بيروت وأحد أدواتِهم القاتلة المدمِّرة المخيفة، وقد وَصَفَها أحَدُ ضباط الموساد بأنها "قتلٌ لمجرد القَتل"[2].

استمرتْ هذه الحرب القذرة حتى أُجبِرَتْ منظمةُ التحرير الفلسطينية للموافقَة على إخلاء بيروت تحت ضغطٍ هائل من إسرائيل والولايات المتحدة وحلفائهم اللبنانيين، وفي غيابِ دعمٍ جادّ من الحكومات العربية[3]. تمت مباحثات خروجَهم بشكلٍ رئيسي من خلال مباحثات السفير فيليب حَبيب مع وسطاء لبنانيين، وشَمَلَتْ

---

(1) "تحت الحصار"، صفحة 97، كان مراسل النيوزويك توني كليفتون Tony Clifton موجوداً في المكان وكذلك الصحفي جون بولوك John Bulloch من الديلي تليغراف. يقدِّم كليفتون وصفاً مخيفاً لما حدَثَ ويقول إن حصيلة الوفيات ربما بلغتْ 260.
Tony Clifton and Catherine Leroy, *God Cried* (London: Quartet Books, 1983), 45-46.See also John Bulloch, *Final Conflict: The War in Lebanon* (London: Century, 1983), 132-33.

(2) للتفاصيل انظر كتاب "تحت الحصار" صفحة 88 و202. انظر أيضاً بيرغمان *Rise and Kill First* صفحة 242–243 التي تقدِّم تفاصيل استخدام سيارات مفخَّخة في لبنان من جهة أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية.

(3) ذكرتُ في كتاب "تحت الحصار" كيف توصلتْ منظمة التحرير لقرار الانسحاب من بيروت. كتبتُ الكتاب استناداً على وصولي إلى أرشيف منظمة التحرير الذي كان محفوظاً في تونس آنذاك (قصفتْ إسرائيلُ الأرشيفَ وغيره من مكاتب منظمة التحرير في 1 أكتوبر 1985 وقتلتْ أحد الموظفين الذين ساعدوني)، بالإضافة إلى مقابلات مع مشاركين رئيسيين في المفاوضات من الأمريكان والفرنسيين والفلسطينيين.



حيّ الظريف في بيروت الغربية في 6 أغسطس 1982: "سمعتُ انفجاراً هائلاً ورائي. شاهدتُ البناء بعد ذلك وقد دُمِّرَ تماماً وانْهارَ في كتلة واحدة من الرّكام والدّخان"

كذلك فرنسا وبعض الحكومات العربية، خاصة السعودية وسورية. وعلى الرغم من بعض التغيرات في الشخصيات الأمريكية ومشاعرهم نحو إسرائيل، ظلّت الولايات المتحدة الأمريكية حتى النهاية متمسِّكة بتحقيق هَدَفِ إسرائيل الرئيسي من الحرب: هزيمة منظمة التحرير الفلسطينية وطَردها من بيروت.

طالَبتْ إسرائيلُ بانسحابٍ كامل غير مَشروط لمنظمة التحرير الفلسطينية من المدينة، وتَبَنَّتْ أمريكا هذه الغاية تماماً. استَخدَم بيجن وشارون تَعابير الحرب الباردة التي يَعرفان أنها ستُسمَع جيداً في واشنطن، وأقنَعا مُسبقاً الرئيسَ ريغان وإدارته بأن منظمة التحرير الفلسطينية كانت جماعةً إرهابية متحالِفة مع امبراطورية الشرّ السوفييتية، وأن القضاء عليها سيَخدُم الولايات المتحدة وإسرائيل. انطلَقتْ جميع سياسات أمريكا أثناء الحرب من تلك القَناعة المشترَكة، وهكذا كانت منظمةُ التحرير لا تواجِه ضغطاً عسكرياً شديداً من إسرائيل فقط، بل واجَهتْ كذلك ضغطاً ديبلوماسياً متواصِلاً من أمريكا المتحالِفة مع إسرائيل. كان ذلك الضغطُ

قوياً ومستمراً ورافقَتْه حَملةُ تضليلٍ وخِداع إسرائيلية وأمريكية خلال المفاوضات كانت تَرمي إلى استنزاف معنويات الفلسطينيين واللبنانيين للوصول إلى استسلامٍ سريع.

قدّمتْ أمريكا في تلك الأثناء كذلك مساعَدات مادية قيّمة لحلفائها بلغَت قيمتها 1.4 بليون دولار كمساعدات عسكرية سنوية في 1981 و1982. غطَّتْ هذه المساعداتُ ثمن عناصرَ لا تُحصَى من الأسلحة الأمريكية والذخائر التي استخدَمتْها إسرائيلُ في لبنان، من طائرات F16 القاذِفة المقاتِلة إلى حاملات الجنود المدرّعة من طراز M-113، والمَدافع 155 مم و175 مم، وصواريخ جو- أرض، والقنابل العنقودية.

بالإضافة إلى الأدوار المُتداخِلة بين إسرائيل وأمريكا، كانت أسوأ وأكثر الجوانب دناءةً في الحرب هو خضوع الأنظمة العربية القائدة للضغط الأمريكي. صَرَّحتْ حكوماتهم عَلَناً بتأييدها للقضية الفلسطينية ولكنها لم تفعَل شيئاً لدَعم منظمة التحرير التي وقَفتْ وحدَها مع حلفائها اللبنانيين في وَجهِ الهجوم العسكري الإسرائيلي بينما كانت عاصمةٌ عربيةٌ تُحاصَر وتُقصَف وتُحتَل. لم يفعَلوا شيئاً أكثر من إصدار اعتراضات شَكليّة بينما كانت أمريكا تشجّع المَطالِب الإسرائيلية لطَرد منظمة التحرير من بيروت. اجتمَعَ وزراءُ خارجية جامعة الدول العربية في 13 يوليو للتحضير لمؤتمرِ قمّةٍ عربيّ سيُعقَد فيما بَعد في تلك السنة، ولم يَقترحوا القيامَ بأي فِعل ردّاً على الحرب التي كانت مستمرة آنذاك مدّة خمسة أسابيع، وبدلاً عن ذلك أذعَنَت الدول العربية راضِخة.

انطَبَقّ ذلك بشكلٍ خاص على سورية والسعودية اللتان تم اختيارهما من جهةِ جامعة الدول العربية لتمثيل الموقف العربي في مهمّة إلى واشنطن في صِيف 1982. موقِفُ الحكومات العربية ومعارَضتها للحرب تمّ شراؤه بثمَن بَخسٍ بوعودٍ أمريكية زائفَة لإصدار مبادَرةٍ دبلوماسية أمريكية جديدة للشرق الأوسط صَدرَتْ في النهاية في الأول من سبتمبر، والتي سُمّيَتْ فيما بَعد "خطّة ريغان". كانت الخطة

ستَضَعُ حدوداً للمستوطنات الإسرائيلية، وتَخلقُ سُلطَةً فلسطينية بحُكمٍ ذاتيّ في الضفة الغربية وقطاع غزة، غيرَ أنها استَبعَدتْ وجودَ دولة فلسطينية ذات سيادة في تلك المناطق. خطّة ريغان التي لم تَفرضَها الولايات المتحدة بقوة أبداً، بل أسقَطَتْها حكومةُ بيجن بسهولة كبيرة ولم تَصِل إلى أيّ شيء في النهاية.

كان غزو لبنان وحِصار بيروت بالنسبة للرأي العام العربي مثيراً للصّدمة والغضب بصُورِهِ المُتلفَزَة المُحزِنَة التي انتشَرتْ في وسائل الإعلام بشكلٍ واسِع. ومع ذلك لم يظهَر ضغطٌ شعبيٌّ واضِحٌ بدرجةٍ كافية على أيّ من الحكومات العربية الاستبدادية غير الديموقراطية لإنهاء حِصار إسرائيل على عاصِمةٍ عربية، أو لضمان شروطٍ أفضَل لانسحابِ منظمة التحرير الفلسطينية. حدثَتْ مظاهراتٌ شعبية قليلة وبعض الاضطرابات العَلَنية في بعض المُدُن العربية التي خَضَع معظمها لسُلطاتٍ بوليسية. ومن السخرية أن أكبر مظاهرةٍ في الشرق الأوسط ضدّ الحرب قد حدثَتْ في تل أبيب احتجاجاً على مذبحة صَبرا وشاتيلا.

ربما كانت إسرائيلُ هي التي قامَتْ بالقتال وتكبدَّتْ خسائر، ولكن مرةً أخرى وَجَدَتْ منظمةُ التحرير أن الخصمَ في ميدان القتال كان مَدعوماً بقوةٍ عظمى من ورائِه منذ البداية. اتَّخذَتْ حكومةُ إسرائيل قرارَ بَدء الهجوم على لبنان ولكنها لم تكن تستطيع فِعل ذلك دون موافَقةٍ صريحة من طَرَفِ وزير الخارجية ألكسندر هيغ، أو بدون الدَّعم الأمريكي الدبلوماسي والعسكري، بالإضافة إلى السَّلبية التّامة للحكومات العربية. مَنَحَ هيغ الضوءَ الأخضر لإسرائيل للقيام بما كان يُفتَرَض أنها "عملية مَحدودَة"، وكان ذلك جَلياً وواضِحاً تماماً. ففي 25 مايو قَبل عشرة أيام من بدء الهجوم اجتمَعَ شارون مع هيغ في واشنطن وقدَّم خطّة حَربِهِ الطّموحة بتفصيلٍ صريح، وبالفعل، قدَّم شارون إلى هيغ صورةً أكثر شمولاً مما قدَّمَهُ فيما بَعد للوزارة الإسرائيلية. كان ردُّ فِعل هيغ الوحيد هو أنه "يجب أن يتوفَّر مبرّر واضِح" يمكن أن "يُفهَمَ دولياً"[1]. بعد ذلك بقليل، حدثَتْ محاولةُ اغتيالِ سَفير

(1) Anziska, *Preventing Palestine*, 201.

إسرائيل في لندن شلومو آرغون Shlomo Argov (قامَتْ بها مجموعة أبو نضال المعارِضة لمنظمة التحرير الفلسطينية) وقدَّمَت التبريرَ المطلوب تماماً[1].

فَسَّرَ شارون لهيغ أن القوات الإسرائيلية ستَستأصِل وجودَ منظمة التحرير في لبنان بما فيها جميع "المنظّمات الإرهابية" والهياكل العسكرية والمراكز السياسية الموجودة في بيروت (هذا العنصر من الخطّة وَحدَهُ يُكذِّب وَصفَ شارون لعَمليةٍ مَحدودَة). ستَطرُدُ إسرائيلُ سورية أيضاً من لبنان "كَمَكسَبٍ هامشِي" على الرغم من أن شارون أصَرَّ على أنه "لا يريد حَرباً مع سورية". كما أن إسرائيل ستَسعى لوضعِ حكومةٍ لبنانية ألعوبَةٍ مُتعاوِنة. كان العَرضُ واضِحاً مثلما كان "الضوء الأخضر لعمليةٍ مَحدودَة" الذي قدَّمَهُ هيغ حسبما ذَكَرَ الدبلوماسي الأمريكي الذي سَجَّلَ هذا كنتيجةٍ للاجتماع[2].

أدركَتْ منظمةُ التحرير أنها لن تتوقّع دَعماً كبيراً من الأنظمة العربية الحاكِمة سنة 1982، وكان على المنظمة أن تَعتَمد على تَعاطف الشعب اللبناني. غَيرَ أن سلوكَ منظمة التحرير الثقيل الوطأة والذي كان مُستَعلِياً في كثيرٍ من الأحيان خلال العَقد السابق أدّى لخسارةٍ مهمّة في التأييد الشعبي لقضية فلسطين بشكلٍ عام، وبالنسبة للوجود الفلسطيني في لبنان بشكلٍ خاص. جَرَتْ حادِثةٌ نموذجية توضِّح ذلك قُربَ مركز الدراسات الفلسطينية في حيّ الفَردان الأنيق ببيروت. قام حرّاس قائدٍ كبير في منظمة التحرير هو الكولونيل أبو الزعيم (ولم يكن هو نفسه مِثالاً للفضيلة)، بإطلاقِ

(1) شكَّ الفلسطينيون دوماً بأن جماعة أبو نضال التي خدَمَتْ في فترات مختلفة أجهزة مخابرات ليبيا والعراق وسورية كان أيضاً مختَرَقَة من الموساد الإسرائيلي. يذكُر بيرغمان في كتاب *Rise and Kill First* حسب مصادره الإسرائيلية "كان لدى المخابرات البريطانية عميل مزدوج داخل خلية أبو نضال" التي قامتْ بالهجوم على أرغوف (249). على الرغم من أن بيرغمان يصفُ العملاء المزدوجين الإسرائيليين بأنهم موجودين تقريباً في كل جماعة اعتُبرتْ معادية لإسرائيل، وعلى الرغم من هجمات مثيرة قامتْ بها جماعة أبو نضال على أهداف إسرائيلية ويهودية، إلا أن كتابه لا يَذكر اختراقها بعملاء مزدوجين إسرائيليين، ولا يَرد فيه إدخالٌ مفهرَسٌ صحيح لتلك الجماعة.

(2) Anziska, *Preventing Palestine*, 201-2.

النار وقَتلِ شابَّين لبنانيَين في سيارَتِهما أثناء الليل عندما لم يَتوقَّفا عند حاجزٍ نُصِبَ بسرعة قُربَ شقّته[1]. ولم يُعاقَب أحدٌ على هذا القَتل حسبَ عَدمِ الانضباط المعتاد في منظمة التحرير. كانت مثلُ هذه الحوادث المؤسِفة تصرفاتٍ عادية.

كان من المَفروض أن تَنضَبطَ عملياتُ منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان بضَوابط رسمية حسب اتفاقية القاهرة التي اعتُمِدَتْ سنة 1969 والتي مَنحَتْ منظمةَ التحرير السيطَرة على مخيمات اللاجئين الفلسطينيين وحريةَ التصرف في أغلب مناطق جنوب لبنان. غَيرَ أنّ منظمة التحرير المسلحة جيداً أصبَحتْ مسيطِرةً بشكلٍ متزايد والقوة الغالِبة في كثير من أنحاء البلاد. شَعَرَ اللبنانيون العاديون بالظُّلم لأنَ هذا الوجود الفلسطيني المستبِّد ازدادَ سَطوةً مع استمرار الحرب الأهلية الطويلة. أصبَحَ خَلقُ ما يُشبهُ دولةَ منظمة التحرير الفلسطينية في وطَنِهم غير مقبول في النهاية وأصبَح لا يُحتَمل بالنسبة لكثيرٍ من اللبنانيين. كان هنالك أيضاً استياءٌ عميق من الهجمات الإسرائيلية المتكرِّرة على المَدَنيين اللبنانيين والتي حَرَّضَتها العملياتُ العسكرية الفلسطينية. كانت هجماتُ منظمة التحرير في إسرائيل موجَّهةً غالباً ضد أهداف مَدَنية ولم تساعِد كثيراً في تأييد القضية الوطنية الفلسطينية، بل ربما أضَرَّتْ بها في الواقع. كان لا محالة من أن تؤدي هذه العوامل إلى تحويل أجزاءَ مهمّة من السكان اللبنانيين ضد منظمة التحرير. لم تتمكّن منظمةُ التحرير الفلسطينية من إدراك شدّة العَداء الذي خَلَقَهُ سوءُ تَصرفها واستراتيجيتها الخاطئة، وكان ذلك من أخطَر نقائِص منظمة التحرير في تلك الفترة.

هكذا كانت الحالة عندما جاءَتْ لحظةُ الحقيقة سنة 1982 فوجَدَتْ منظمةُ التحرير نفسها محرومةً من دَعمِ كثيرٍ من حلفائها التقليديين، حتى من الجماعات الرئيسية مثل حركة أمَل المُتحالِفة مع سورية ويَرأسُها نبيه بَريّ ولَديها أتباعٌ كُثُرٌ من الشيعة في جنوب لبنان وسَهلِ البقاع (على الرغم من أن مقاتِلين شباب من حركة

---

(1) أطلِقت النار على والِدتي وكانت محظوظة لأنها أصيبتْ فقط بجرح طفيف عندما كانت تقود السيارة عبر حاجز آخر مماثل كان مَحروساً بجنود سوريين في فبراير 1977.

أمَل قاتَلوا بحَماس إلى جانب منظمة التحرير في كثير من المناطق)، ومثل إقطاعية الدروز الاستراتيجية المَوقع والتي يقودُها وليد جنبلاط في جبال الشوف جنوب شرق بيروت، والحَضَريون السّنة في بيروت وطرابلس وصيدا. كان تأييدُ الزعماء السياسيين السّنة ضرورياً للدفاع عن وجود الفلسطينيين السياسي والعسكري في لبنان منذ الستينيات[1].

ليس من الصعب تصوّر تفكير هؤلاء الزعماء والجماعات التي يمثّلونها لأن الجنوبيين ومعظمهم من الشيعة كانوا قد عانوا من أعمال منظمة التحرير أكثر من أي لبناني آخر، وبالإضافة إلى انتهاكات وسوء تصرف منظمة التحرير ضد أهل الجنوب، فإن مجرّد وجود منظمة التحرير كان يُعرِّضُهم لهجماتِ إسرائيل ويُجبِرُ كثيرٌ منهم للهرب من قُراهم وبلداتهم مرّاتٍ عديدة. يُفهَمُ من كل ذلك أن إسرائيل كانت تتعَمد عِقابَ المَدَنيين لكي تُنفِّرَهم من الفلسطينيين، ولكن كان هنالك مَرارة كبيرة ضد منظمة التحرير أصلاً.

كان تفكير وليد جنبلاط مماثلاً لذلك، وقد عبَّرَ فيما بعد أنه لم يكن لديه الخيار إلا الانحناء أمام القوة الغاشِمة للتقدّم الإسرائيلي في مناطِق الدروز في جبال الشوف. ربما شَعَرَ بأن التطمينات التي مَنَحَها ضباطٌ دروز في الجيش الإسرائيلي سَتؤمِّنُ نَوعاً من الحِماية لجَماعته، وقد نَدِمَ على قراره بَدءاً من يونيو 1982 عندما دَعَمت القوات العسكرية والأمنية الإسرائيلية دخولَ الميليشيات المارونية الانتقامية غير المنضَبطَة إلى المناطق التي يُسيطِر عليها الدروز مثل عاليه وبيت الدّين حيث ارتكَبوا مزيداً من الفظائع التي اشتُهروا بها[2].

---

(1) كان بينهم سياسيين مثل رشيد كرامي وصائب سلام وسليم الحصّ الذين كانوا رؤساء وزراء لبنان وفق صيغةٍ ترجع إلى فترة استقلال الدولة سنة 1943 وكانوا حلفاء تقليديين للوجود السياسي والعسكري الفلسطيني السّني في لبنان.

(2) "تحت الحصار" صفحة 65 و88 و201. وثائق كثيرة من الملحقات السرية لأوراق لجنة كاهان للتحقيق في مذبحة صبرا وشاتيلا تُشير إلى مذابح الدروز على يد القوات اللبنانية في الشوف:
KP I, 5; KP II, 107-108; KP III, 192; KP IV, 254, 265, 296; KP V, 56, 58; KP VI, 78.

أما بالنسبة للسّنة، خاصةً في بيروت الغربية فقد وَضَعَ قَصفُ وحِصار العاصمة اللبنانية نهايةً لدَعمهم القويّ لمنظمة التحرير الفلسطينية التي كانوا يَعتَبرونها حَليفاً حيوياً ضد سيطرة المارونيين وميليشياتهم المسلّحة على الدولة اللبنانية. ربما حَرَّكتْ بعضَهم نداءاتٍ فلسطينية بجعلِ بيروت مثل ستالينغراد أو فِردان، إلا أن غالبيتهم كانت تَخشَى احتمالات تدمير المدينة بالمدفعية الإسرائيلية وضرباتها الجوية. كانت مقاومَةُ إسرائيل ضروريةً وجيّدة ولكن ليس على حساب التّدمير المُحَتَّم لبيوتِهم وممتلكاتِهم. كان ذلك تحولاً مَصيرياً: فبِدونِ دَعمٍ وتأييد أهل بيروت السّنة وكثيرٍ من سكانها الشيعة فإن استمرار مقاوَمةَ منظمة التحرير الفلسطينية لهجوم إسرائيل غير ممكن في نهاية المَطاف.

أدّتْ هذه الحسابات إلى تآكل التأييد لمنظمة التحرير الذي كان قد بدأ بالضّعف سابقاً، وازداد ضَعفاً في الأيام الأولى من القتال عندما احتُلَّ الجنوب وجبال الشوف، وكانت بيروت تُقصَف وتُحاصَر، وخَرجتْ سورية من الحرب، ونَقَلَ فيليب حَبيب مَطالِب إسرائيل القاسِية لانسحاب منظمة التحرير الفلسطينية الفَوري وغير المَشروط. ولكن بعد أسابيع قليلة من المعارك غَيَّرَ زعماءُ ثلاثةٍ من الطوائف اللبنانية المسلِمة موقفَهم بشكلٍ مهمّ، وأصبحوا أكثر تأييداً لمنظمة التحرير. حَدَثَ ذلك التغيّر بعدما وافَقتْ منظمة التحرير على الانسحاب من بيروت مقابل ضماناتٍ مؤكّدة بحماية المَدَنيين الذين سيَبقون وراءَهم.

قدَّمتْ منظمةُ التحرير الفلسطينية في 8 يوليو خطّتها التي تألَّفت من أحَدَ عشر بَنداً لسَحب قواتها من بيروت. طَلَبتْ تلك الخطّة تأسيسَ منطقةٍ عازِلة بين القوات الإسرائيلية وبيروت الغربية مع انسحابٍ جزئيٍّ للجيش الإسرائيلي ونَشرَ قوات دولية وتقديمَ ضمانات دولية للسكان الفلسطينيين (واللبنانيين) الذين سيَبقون بدون أيّ دفاع بعد انسحاب مُقاتِلي منظمة التحرير الفلسطينية[1]. أقنَعتْ قوّة هذه الخطّة الزعماءَ اللبنانيين المسلمين بأن منظمة التحرير كانت جادَّة في رغبَتها

(1) يمكن قراءة نَصّ خطة الإحدى عشرة نقطة في كتاب "تحت الحصار" صفحة 183-184.

بالانسحاب لإنقاذ المدينة، كما أنهم كانوا قلِقين بشدّة بسبب الدلائل القوية على دَعم إسرائيل الواضح للقوات اللبنانية المارونية لأن ذلك يُعرِّض جماعاتهم للخطر في لبنان من جِهةِ إسرائيل وحلفائها المسلَّحين بَعدَ مُغادَرة منظمة التحرير الفلسطينية.

ازدادَتْ هذه الشكوكُ عمقاً بعد الدخول المَدعوم لميليشيا القوات اللبنانية إلى جبال الشوف أواخر يونيو والمَذابح الكثيرة والخَطف والقَتل الذي قامَت به في تلك المناطق وفي الجنوب تحت سيطَرة إسرائيل[1]. كانت تلك المَذابح الطائفية كثيرةَ الحدوث في تلك المرحَلة بعد سبع سنوات من الحرب الأهلية، وكانت قواتُ منظمة التحرير المُدافِعَ الرئيسي عن المسلمين واليساريين في البلاد. ولذا أكَّدَ زعماءُ السّنة والشيعة والدروز تأييدهم لمَطالِب منظمة التحرير وخطّتها ذات الأحَد عشر بَنداً.

هناك خيطٌ من المسؤولية الأمريكية الحيوية يجب تَتبّعهُ لفَهمِ ما حدَثَ بعد ذلك. لم تكن النتائج متعلِّقة فقط بقرارات شارون وبيجن وغيرهم من قادَةِ إسرائيل أو بأعمالِ حلفاء إسرائيل من الميليشيات اللبنانية، بل كانت مرتَبطِة كذلك بالمسؤولية المباشرة لإدارة ريغان التي رَفضَتْ بعِنادٍ تحت ضغطِ إسرائيل قبول الحاجَة لأية ضَمانات رسمية لسَلامة المَدَنيين ورَفَضَتْ تقديم ضمانات دولية ومَنعَتْ نَشرَ قوات دولية يمكن أن تقدّم حمايةً للمسالمين، وبدلاً عن ذلك قدَّم فيليب حَبيب عَبرَ وسطاءَ لبنانيين للفلسطينيين تعهُّداتٍ رسمية مكتوبة قاطعة بحماية المَدَنيين في مخيمات اللاجئين وضواحي بيروت الغربية من أجل ضَمان انسحاب منظمة التحرير. نُقِلَتْ هذه المذكّرات مطبوعةً على أوراق بيضاء غَير رسمية دون أيّ تواقيع أو تعريف، وقام بِنَقلِها إلى منظمة التحرير رئيسُ الوزراء

---

(1) بالإضافة إلى مذابح الشوف في أواخر يونيو وأوائل يوليو، ففي وثائق الملحقات السرّية في تقرير لجنة كاهان فظائع أخرى: اختفاء وربما قَتل 1200 شخص في بيروت بيد القوات التي قادها إيلي حبيقة رئيس مخابرات القوات اللبنانية (KP II, 1 وKP V, 58) وتقرير للموساد عن "تصفية" 500 شخص عند حواجز القوات اللبنانية حتى 23 يونيو: KP II, 23 وKP VI, 56.

شـفيق الـوزّان وتـم حِفظُهـا فيمـا بِعـدَ في سـجلات الحكومـة اللبنانيـة. أولُ تلـك المذكّرات مُؤرَّخَة في 4 أغسطس وَوَرَدَ فيها "ضماناتُ الولايات المتحدة الأمريكية لسَلامة... المخيمات"، وذَكَرَت الثانية في اليـوم التـالي: "كمـا نؤكِّـدُ على ضـمانات الولايـات المتحـدة فيمـا يتعلـق بسَـلامة وأمـن... للمخيمـات في بيـروت"[1]. كمـا وَرَدَتْ ملاحظةٌ أمريكيـة في 18 أغسـطس إلى وزيـر الخارجيـة اللبنـاني تكرِّسُ هـذه التعهدات أنّ:

الفلسطينيون غير المقاتلين الذين يَحترمـون القـانون البـاقون في بيـروت، بمَن فيهم عائلات الـذين غـادَروا، سيُسـمح لهـم بـالعيش بسـلام وأمـان. ستقدّم الحكومة اللبنانية والحكومة الأمريكية ضمانات أمنيـة مناسِـبة... بالاستناد إلى ضماناتٍ تم الحصول عليها من حكومة إسرائيل ومن قادة جماعات لبنانية معيَّنة تم الاتصال بها[2].

اعتبَرتْ منظمةُ التحرير الفلسطينية هـذه الضـمانات التزامـاتٍ مُلزِمَـة ووافَقَـتْ بالاستناد إليها على مغادرة بيروت.

في الثاني عشر من أغسـطس وبَعـدَ مباحثـاتٍ مَلحَمِيّـة تـم التوصُـل إلـى شـروطٍ نهائيـة لانسـحاب منظمـة التحريـر الفلسـطينية. أُجرِيَـت المفاوضـاتُ بينمـا كانـت إسرائيل تستمر ليومٍ آخر بأقسَى قَصفٍ وهجومٍ بَريٍّ في الحِصار. بَعدَ مُرورِ أكثر مـن شـهر علـى قبـول منظمـة التحريـر مبـدئياً مغـادرةَ بيـروت، أدّى الهجـومُ الجـويّ والمِدفعيّ في ذلك اليوم وحده إلى أكثر من خمسمئة إصابة، وكـان القَصـفُ شـديداً لدرجة أنه حتى رونالد ريغان تأثّرَ وتَحرَّكَ ليَطلُب من بيجن وَقـفَ المَذبحـة[3]. وَرَدَ

(1) "تحت الحصار" صفحة 171 نقلاً عن الوثائق الأصلية في أرشيف منظمة التحرير الفلسطينية.

(2) يمكن الاطلاع على جميع المراسلات اللبنانية الأمريكية في
the *Department of State Bulletin*, September 1982, vol. 82, no. 2066, 2-5.

(3) ذكَرتْ تقارير الشرطة اللبنانية "128 على الأقل قتِلوا" وأكثر من 400 جُرِحوا في ذلك اليوم "تحت الحصار" صفحة 204 نقلاً عن تقرير AP نُشِر في صحيفة النيويورك تايمز في 13 أغسطس 1982.

في مذكرات ريغان أنه اتَّصَل برئيس الورزاء الإسرائيلي خلال الهجوم الشَّرس، وأضاف: "لقد كنتُ غاضباً. أخبرتُهُ بأن الهجوم يجب أن يَتَوقَّف وإلا فستكون علاقاتُنا المستقبلية كلّها في خَطَر. استَخدمتُ كلمة "المَحرقة" قَصداً وذَكَرتُ أن رَمزَ هذه الحرب سيُصبِحُ صورةً لطِفلٍ في الشهر السابع من عمره وقد نُسِفَتْ ذراعاه[1]. دَفَعَتْ تلك المُكالَمة الهاتفية الحادّة حكومةَ بيجن لوَقفِ سَيلِ نيرانِها على الفَور تقريباً، غَيرَ أنَّ إسرائيل رَفضَت التَّزحزحَ عن موقِفها بشأن القضية الحسّاسة في الحِماية الدولية للمَدَنيين الفلسطينيين كَشَرطٍ لانسحاب منظمة التحرير الفلسطينية.

انسحابُ آلاف المقاتلين وقوات منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت من 21 أغسطس حتى الأول من سبتمبر تَرَافَقَ بتدفُقٍ عَريضٍ للمَشاعر في بيروت الغربية حيث اصطَفَّتْ جَماهير تَبكي وتُغني وتُزغرِد على طول الطريق الذي سَلَكَتْهُ قَوافِلُ الشّاحنات التي نَقَلت المقاتِلين الفلسطينيين إلى الميناء. راقَبوا منظمةَ التحرير الفلسطينية وهي تُضطَرُّ للانسحاب من العاصمة اللبنانية مع زعمائهم وطَواقمهم ومقاتليهم وهم مُتَّجِهين نحو مستقبلٍ مجهول. انتهى بهم المَطاف مُتفرِّقين عَبرَ البرّ والبحر إلى أكثر من ستّ دولٍ عربية.

اضطر رجالٌ ونساء للذهاب في نَفيٍ غامِض، بعضُهم للمرة الثانية أو الثالثة في حياتهم، اعتُبِرَ بعضُهم أبطالاً في نظر كثير من البيروتيين بسبب صمودِهم عشرة أسابيع أمام أقوى الجيوش في الشرق الأوسط بلا دَعم خارجي يُذكَر. بينما سارَتْ قوافلُهم عَبرَ بيروت لم يَنتَبه أحَدٌ إلى أن قراراً أمريكياً مفاجئاً أحادِيّ الجانب اتُّخِذَ تحت ضغطٍ إسرائيلي يَعني أن القوات الدولية الأمريكية والفرنسية والإيطالية التي كانت تُشرِفُ على الانسحاب ستَنسَحِبُ حالما تُغادِر آخر سفينة. أدّى الإصرار الإسرائيلي والرضوخ الأمريكي إلى تَركِ السكان المَدَنيين بلا حِماية.

---

(1) Ronald Reagan, *The Reagan Diaries*, ed. Douglas Brinkley (New York: HarperCollins, 2007), 98. مذكّرات دونالد ريغان اليومية في 12 أغسطس 1982.

لم تَتهدَّم سوى بنايات قليلة في ضاحية الظّريف حيث كنا نَسكن، ولذا فقد تمكّنا من البقاء خلال حصار بيروت سالِمين بدون أذى (على الرغم من أنني كنتُ قلقاً بسبب التأثير البعيد للحرب الذي يمكن أن تَحمله ابنَتيّ الصغيرتَين[1]). عندما غادَرتْ قواتُ منظمة التحرير ورُفِعَ الحصار، عادَت الحياة ببطءٍ إلى أحوالها الطبيعية على الرغم من أن قوات إسرائيلية ظلّت تحيط ببيروت الغربية وظلّ التوتر عالياً. انتهَت الحالة الطبيعية الظاهرية بسرعة وعَرفنَا أن تلك التعهّدات التي مُنِحتْ لمنظمة التحرير لم تساوي ولا حتى الأوراق البيضاء التي كُتبتْ عليها.

في 14 سبتمبر تم اغتيال الرئيس المنتَخَب بشير الجميّل زعيمُ القوات اللبنانية والكتائب في انفجارٍ ضخمٍ دمَّر المكتب الرئيسي للكتائب. أدّى ذلك إلى دخول القوات الإسرائيلية فوراً واجتياح الجزء الغربي من المدينة على الرغم من تعهُدها للولايات المتحدة بأنها لن تفعَل ذلك. احتلَّت المقرّ الرئيسي لمنظمة التحرير الفلسطينية وحيث كان يتمركَز حلفاؤها من حركة التحرير اللبنانية. في اليوم التالي اجتاحَت القوات الإسرائيلية بيروت الغربية بسرعة كبيرة وتغلَّبتْ على مقاوَمةٍ متفرّقة لمُقاتلي حركة التحرير اللبنانية. خَشيتُ أنا وعائلتي على مَصيرنا مثلما فَعَل فلسطينيون غَيرنا ممن كانت لهم علاقاتٌ بمنظمة التحرير، أي جميع الفلسطينيين في لبنان تقريباً من اللاجئين المُسجَّلين والمَولودين في لبنان وكذلك حامِلي جنسيات أخرى وبطاقة عَمل وإقامَة قانونية مثلنا.

كان أكبر ما تَوارَد إلى إذهانِنا هي مَجزرة الكتائب التي ارتكَبوها في مخيم اللاجئين تل الزعتر سنة 1976 حيث ذُبِحَ 2000 مَدَني فلسطيني. بالنظر إلى التحالف بين إسرائيل والقوات اللبنانية فقد ذَكَرتْ منظمةُ التحرير الفلسطينية تلَّ الزعتر بشكلٍ خاص في خطّتها التي تألّفتْ من 11 بنداً وخلال المفاوضات بشأن انسحابِها. زادَ في مَخاوِفنا بالطبع القَتلُ الذي قامَتْ به القواتُ اللبنانية في مناطق احتلَّتها إسرائيلُ حَديثاً، ووَصفُ إسرائيل لمنظمة التحرير الفلسطينية بأنها إرهابية دون تمييز بين المقاتِلين والمَدَنيين.

---

(1) ظلّوا خائفين فترة بعد ذلك كلما سَمعوا طائرة أو مروحية تمرّ فوق رؤوسهم.

في صباح اليوم التالي لاغتيال الجميّل سَمِعنا أصواتَ إطلاق نارٍ كثيف من النوافذ المفتوحة في شقّتِنا، وسَمِعنا هديرَ محركاتِ الديزل وصَلصَلة جنازير الدبابات. صَدرَ الضجيج عن أرتالِ مدرعاتٍ إسرائيلية تتحركُ في بيروت الغربية. أدرَكنا أن علينا البحثَ عن الأمان فوراً. كنتُ محظوظاً في الاتصال مع صديقي مالكولم كير Malcolm Kerr رئيسُ الجامعة الأمريكية في بيروت والذي سَمحَ لنا فوراً باللجوء إلى شقّةٍ فارغةٍ لِهيئَةِ التَّدريس[1]. ركِبنا في سيارتَين أنا وزوجتي مُنى ووالدتي وأخي وابنتَينا، وحَملنا بعض الأغراض التي حَزمناها بسرعة وأسرَعنا نحو الجامعة قُبيلَ وصولَ القوات الإسرائيلية إلى أبوابها.

وفي اليوم التالي، 16 سبتمبر، كنت جالِساً مع كير وعددٍ من زملائي في الجامعة الأمريكية في شُرفَةِ منزلِهِ عندما وَصَلَ حارسٌ من حرّاس الجامعة وهو يَلهَث ليُخبره أن ضباطاً إسرائيليين على رأسِ طابورٍ من المدرعات يَطلبون دخولَ الحَرم الجامعي للبحث عن إرهابيين. أسرعَ كير نحو بوابة الجامعة حيث رَفَضَ طَلَبَ الضباط كما قالَ لنا فيما بَعد "لا يوجَد إرهابيون في حَرم الجامعة الأمريكية، وإذا كنتُم تبحثون عن إرهابيين فابحَثوا في جيشِكم عمّن دمَّروا بيروت".

نَجَونا مؤقَّتاً بفضلِ شجاعَةِ مالكولم كير وبَقينا في شقّة هيئةِ التَّدريس في الجامعة الأمريكية، ولكننا عَرفنا بَعدَ ذلك أنَّ آخرين كانوا في تلك اللحظة في خَطَرٍ مميتٍ. في تلك الليلة، ليلة 16 سبتمبر، كنتُ وأخي رجاء مُلتَبِسينَ في حِيرةٍ ونحن نُشاهِد مَشهداً سيريالياً: قنابلُ ضوئية إسرائيلية تَنحَدر ببطءٍ إلى الأسفل واحدةً تِلوَ الأخرى في عَتمَةِ صَمتٍ تامٍّ فوق المناطق الجنوبية من بيروت في مَشهَدٍ استمرّ وكأنه بلا نهاية. ارتَبكنَا عندما شاهَدنا الأضواءَ السَّاقطة لأنّ الجيوشَ تَستخدِم هذه القنابل الضوئية عادةً لتُنيرَ أرضَ معركةٍ. ولكنّ وقفَ إطلاق النار قد تم توقيعُه قَبل شَهر، وجميعَ المقاتلين الفلسطينيين قد انسَحبوا قَبل أسابيع، وانتَهتْ

---

(1) قُتِلَ مالكولم كير خارج مكتبِه بعد ذلك بستة عشرة شهراً وكذلك قُتِلَ عددٌ من زملائي في الجامعة الأمريكية.









كاريكاتير من دونسبري يصوّر تَخيّل الحكومة الإسرائيلية الموسّع للإرهابي.
الإشارة إلى 7000 إرهابيّ طفل جعلَتْني أفكّر دائماً بابنَتَيَّ الصغيرتَين

في اليوم السابق المقاوَمة اللبنانية المتواضِعة أمام تقدّم القوات الإسرائيلية. لم نَسمع أيّ انفجارات ولا إطلاقَ نار. كانت المدينة هادئة وخائفة.

في ذلك المساء كان الصحفيان الأمريكيان لورن جنكينز Loren Jenkins وجوناثان راندال Jonathan Randal من جريدة الواشنطن بوست بين أوائِل الصحفيين الغَربيين الذين دَخَلوا مخيم صَبرا وشاتيلا للاجئين الفلسطينيين، وقَدِما ليُخبِرانا وهما يَرتَجِفان لما شاهَداه هناك[1]. كانا برفقَةِ رايان كروكر Ryan Crocker الذي كان أول دبلوماسي أمريكي يُرسِلُ تقريراً عمّا شاهَدَهُ ثلاثتُهم: دلائِلُ بَشِعة على حدوثِ مَذبحة. علِمنا أن القنابلَ الضوئية التي أطلَقَها الجيشُ الإسرائيلي خلال الليلة السابقة قد أنارَت المخيم لميليشيا القوات اللبنانية التي أرسَلَها "للتنظيف" حينما قامَتْ بقَتل مَدَنيين عُزّل. قَتَلَ رجالُ الميليشيا من 16 سبتمبر إلى صباح 18 سبتمبر أكثر من 1300 رجل وامرأة وطفل فلسطيني ولبناني[2].

---

(1) حصَلَ جنكينز فيما بعد على جائزة بوليتزر بالاشتراك مع توماس فريدمان من النيويورك تايمز بسبب تقاريريهما عن مذبحة صبرا وشاتيلا.

(2) أكمَلَ تحليلٍ عن عدد ضحايا المذبحة استند على مقابلات واسعة وبحث عميق قامتْ به المؤرّخة الفَلسطينية المتميزة بيان نويحد الحوت في *Sabra and Shatila: September 1982* (Ann Arbor: Pluto, 2004) ذكَرَتْ فيه قَتلَ حوالي 1400 على الأقل. إلا أنها تلاحظ أن عدداً مماثلاً من الضحايا تم خطفهم ولم يُعثر لهم على أثر، والعدد الحقيقي لا بد أنه كان أكبر وهو غير معروف.

القنابلُ الضوئية التي أثارَتْ استِغرابنا أنا وأخي تم وَصفُها بشكلٍ مُغايرٍ تماماً في فيلمٍ وكِتاب تحت عنوان "الرَّقص مع بَشير" شارَكَ في كتابَتِهِ آري فولمان Ari Folman الذي كان جنديـاً إسرائيليـاً أثناء حِصار بيروت، وكان متَمركِزاً على سِطح منزلٍ أثناء المَذبحة مع وحدة أطلَقَت القنابِلَ الضوئية[1]. يُشير فولمان في كتاب "الرَّقص مع بَشير" إلى دوائرَ متداخِلَة من المسؤولية عن القَتل الجَّماعي الذي ساعَدَ عليه ذلك التّصرف، واقتَرحَ أن المَوجودين في الدوائر الخارجية كانوا متَورطّين أيضاً. ففي رأيِهِ "القَتلةُ والدوائرُ المحيطةُ بهم كانوا جميعاً شيئاً واحداً متماثلاً"[2].

يَنطبقُ هذا التصريح بشكل صحيح على الحرب بكاملها مثلما يَنطبقُ على المذبحة في صَبرا وشاتيلا. شُكلَتْ لجنةُ تحقيقٍ بعد ذلك يرأسها إسحق كاهان Yitzhak Kahan القاضي في المحكَمة الإسرائيلية العليا والتي وَضعَت المسؤولية المباشرة وغير المباشرة للمَذبحة على بيجن وشارون والضباط القادَة العسكريين الكبار[3]. فقَدَ معظم الذين وَرَدَتْ أسماؤهم مَراكزهم نتيجةً للتحقيق ونتيجةً للنّفور العام في إسرائيل بشأن المذبحة. وعلى كل حال فإن الوثائق التي نَشَرها أرشيف

---

(1) الرواية التصويرية قدَّمَها Ari Folman and David Polonsky (New York: Metropolitan Books, 2009). وحسب رواية فولمان في *Waltz with Bashir* فإن وحدتَهُ أطلقَت القنابل الضوئية التي صَنَعتْ "سماءً مُنارَةً بشدة ساعَدتْ آخرين على القتل". (صفحة 107). على الرغم من أن الرواية والفيلم لا تَرحَم في وصف الفظائع الموجودة في صُلب القصة بكاملها إلا أن تركيزها الأساسي يقع على المصاعب النفسية التي تشكّلتْ فيما بعد لدى الإسرائيليين الذين ساعَدوا القتلة على القيام بالجريمة وليس على الضحايا التي لا تَحمل أسماء وهو ما يُصَوَّر في النهاية. وهي تَحمِل بذلك أكثرَ من شَبَهٍ عابرٍ للأسلوب الإسرائيلي المعروف في "القتل والتباكي".

(2) في النهاية، يُخلِّصُ فولمان صديقُهُ من الألم بنوعٍ من التشجيع المعنوي بقوله إنها لم تكن سوى "ما تصَوَّرتَه من خيال" كشابٍ في التاسعة عشرةَ من عمره وطفلٍ لأحد الناجين من المَحرقة اليهودية، وأنه لا يوجد فرق بين الذين قاموا بالمذبحة والإسرائيليّين في الدوائر التي تحيط بهم وأنك "قد شَعرتَ بالذنب... ضد إرادتكَ لأنك لعبتَ دَوراً نازياً... لقد أطلقتَ القنابل الضوئية ولكنك لم تقم بالمذبحة".

(3) يمكن الاطلاع على نَصّ تقرير لجنة كاهان على الانترنت. يمكن الاطلاع على نقدٍ لاذِعٍ للتقرير وما فيه من نقائص ومَحذوفات في كتاب نعوم تشومسكي Noam Chomsky, *Fateful Triangle: The United States, Israel, and the Palestinians*, 2nd ed. Cambridge, MA: South End Press, 1999), 397-410.

الدولة الإسرائيلية سنة 2012[1] والمُلحَقات السرّية غير المَنشورة للجنة كاهان[2] تُظهِر أدلّةً أكثر إدانةً على مشارَكة هؤلاء الأفراد التي كانت أوسَع بكثيرٍ مما وَرَدَ في تقرير سنة 1983. تفضَحُ الوثائقُ قراراتٍ تمّت مُداولتها طويلاً قامَ بها شارون وغيره لإرسال قَتَلَةٍ مدرَّبين من الكتائب إلى معسكرات اللاجئين الفلسطينيين بقَصد قَتلِ وتَهجيرِ سكّانها. كما تُظهِر أن الدبلوماسيين الأمريكان كانوا كثيراً ما يَهابون المُحاورين الإسرائيليين ويَفشلون في رَدعِهم ووَقفِ المذبحة التي تعهّدت حكومةُ الولايات المتحدة بحمايتهم منها.

حسب تلك الوثائق، بعد خروج جميع العسكريين المسلحين التابِعين لمنظمة التحرير الفلسطينية في نهاية أغسطس 1982 فإن بيجن وشامير وشارون وغيرهم من المسؤولين الإسرائيليين أكّدُوا كَذِباً بقاءَ حوالي ألفَي مُقاتِل فلسطيني مع أسلِحة ثقيلة في المدينة بما يُخالِف اتفاقية الخروج[3]. صَرَّحَ شامير بذلك في اجتماعٍ مع دبلوماسي أمريكي في 17 سبتمبر[4] على الرغم من أن حكومة الولايات المتحدة

(1) الوثائق التي نَشَرها أرشيفُ دولة إسرائيل في 2012 متوفرة على الانترنت وفي النيويورك تايمز بمناسبة مرور 30 سنة على مذبحة صبرا وشاتيلا مرفقة بتقرير رأي عن الموضوع بقلم سيث أنزيسكا Seth Anziska الذي اكتشَفَ هذه الوثائق في الأرشيف في

"A Preventable Massacre," *New York Times*, September 16, 2012.

يمكن الاطلاع على الوثائق على الانترنت تحت عنوان:

"Declassified Documents Shed Light on a 1982 Massacre," *New York Times*, September 16, 2012.

(2) كما ذُكِرَ سابقاً فإن الترجمة الإنكليزية للملحقات السرّية في التقرير موجودة على موقع مركز الدراسات الفلسطينية، وقد ذكرتُهم تحت عنوان أوراق كاهان KP I إلى KP VI.

(3) أخبَرَ شارون فيليب حبيب في 19 يوليو أن تقارير المخابرات الإسرائيلية أشارتْ إلى أن منظمة التحرير قرّرتْ أن تترك وراءها "خلايا من هيكل إرهابيين" وأن "تلك الفكرة كانت مخفية وراء طلب حماية القوات الدولية لحماية مخيمات اللاجئين" (KP III صفحة 163). وبما أن ذلك لم يكن صحيحاً فإما أن شارون لم يكن مطّلعاً على الأمور بشكل جيد، أو أنه كان يُحضِّر سلفاً لسياق تحركٍ مرتّبٍ ضد ما يتبقى من الوجود الفلسطيني في لبنان بعد انسحاب منظمة التحرير الفلسطينية.

(4) "Declassified Documents Shed Light on a 1982 Massacre," *New York Times*, September 16, 2012.

كانت تَعرفُ جيداً عدم صِحّة ذلك، كما أنّ شارون بنفسه قد أخبَرَ مجلسَ الوزراء الإسرائيلي قَبلَ ذلك بيوم أن "15000 إرهابي مسلح قد انسَحبوا من بيروت"[1]، وكذلك لا يوجَد أيّ شكّ بأن المخابرات العسكرية الإسرائيلية كانت تَعرفُ أن ذلك العَدد قد شَملَ جميع الوحدات العسكرية النظامية لمنظمة التحرير الفلسطينية في بيروت.

وللأسف لم يَعترض الدبلوماسيون الأمريكان على زعماءِ إسرائيل بشأن أرقامِهم الخاطئة، بل إن الوثائق تُظهِر أن المسؤولين الأمريكان وجَدوا صعوبةً في مواجَهة الإسرائيليين في أيّ أمرٍ يتعلق باحتلالهم لبيروت الغربية. اضطرَّ موشيه آرينز Moshe Arens سَفير إسرائيل في واشنطن للاستماع إلى سلسلةٍ من المناقشات القاسية والنقاط الصعبة التي قُرِأتْ عليه حسبما كَتبَها وزير الخارجية جورج شولتز George Shultz (الذي استَلَمَ المَنصب بعد هيغ) واتَّهَمَ إسرائيلَ بالخِداع وطالَبَها بالانسحاب الفَوري لجميع قواتِها من بيروت الغربية، رَدَّ آرينز باحتِقار: "لستُ متأكداً من أنكم أيها الشباب تَعرفون ما تَفعَلونه"، كما أخبَرَ لورنس إيغلبرغر Lawrence Eagleburger نائبُ وزير الخارجية، ووَصَفَ النقاط الأمريكية بأنها "مُفبرَكَة" و"مُخطِئة تماماً". اقترَحَ إيغلبرغر أن وزارة الخارجية قد تُصدِر بياناً تَصِفُ فيه احتلالَ إسرائيل لبيروت الغربية بأنه "يُخالِف التَّعهدات"، وعند ذلك تدَخَّل بنيامين نتنياهو الذي كان شاباً في الثالثة والثلاثين من عمره وكان نائباً لأرينز وقال "أقترحُ أن تَحذفوا ذلك وإلا فلن تَتركوا لنا خياراً سوى الدفاع عن مِصداقيَّتنا بتَصحيحِ السِّجِل، وسنَنتَهي بحربٍ كلامية بَينَنا". أضافَ أرينز بعد أن تبادَلَ حديثاً جانبياً بالعبرية مع نتنياهو "أعتقدُ بأنّ هذا صحيح"[2]. من النادِر في التاريخ أن دبلوماسياً صَغيراً لدولةٍ صغيرة يتَحدَّثُ بهذه الطريقة مع ممثّلٍ كبير لقوةٍ عُظمى، وتم تأييد تصرّفه هذا.

---

(1) وثائق كاهان KP IV صفحة 273. ذكَر شارون ذلك أيضاً اجتماع مجلس المجلس بأن القوات اللبنانية قد أُرسِلَتْ إلى مخيم صبرا.

(2) "Declassified Documents Shed Light on a 1982 Massacre." See also Anziska, *Preventing Palestine*, 217-18.

في 17 سبتمبر بينما كانت المَجزرة مستمرة حسبما ذَكَرَ لورن جنكينز Loren Jenkins وجوناثان راندال Jonathan Randal، طَلَبَتْ واشنطن من السفير موريس درابر Morris Draper مساعد فيليب حَبيب أن يضغَطَ على شامير وشارون لضَمان الخروج من بيروت الغربية، غَيرَ أن شارون صَعَّدَ الموقف كعادَته وأخبَرَ درابر "هناك آلافٌ من الإرهابيين في بيروت، هل مِن مَصلَحَتِكم أنْ يُتركوا هناك؟" لم يعلّق درابر على هذه الادّعاءات الكاذبة، وعندما قال ممثّل الولايات المتحدة لِجَمعٍ من المسؤولين الإسرائليين ثائِراً "لَمْ نَعتَقد أنه كان يجب عليكم الدخول إلى هناك { إلى بيروت الغربية} بل كان عليكم البقاء خارجها". إلا أنّ شارون ردَّ على السفير بجَفاء "سواء لَم تَعتَقدوا أو اعتَقدتم فعندما يتعلَّق الأمرُ بأمنِنا فَلَمْ نَسألْ مِنْ قَبل، ولَن نَسألَ أبداً. عندما يتعلّقُ الأمرُ بالوجود والأمن فإنها مسؤوليتِنا، ولن نُعطي لأيّ أحَدٍ كان حقَّ اتخاذِ القرار عَنّا". بَعدَ أن اعترَضَ درابر قليلاً على شارون بشأن ادِّعاء آخر يتعلَّق "بالإرهابيين" قال وزيرُ الدفاع الإسرائيلي بكلِّ صَراحة "سنَقتُلُهم. لن يُتركوا هناك. ولن تُنقِذَهم. لن تُنقِذَ هذه الجماعات الإرهابية الدولية"[1].

لم يكن شارون أكثر وضوحاً وتحديداً في تَصريحِه المرعِب مما حَدَثَ بالفِعل، ففي تلك اللحظة لم يكن درابر ولا الحكومة الأمريكية على عِلمٍ بأنّ ميليشيا القوات اللبنانية التي أَدخَلَتْها قواتُ شارون إلى مخيمات اللاجئين كانت تَقومُ بالقَتل الذي كان يَتحدَّثُ عنه للمسنّين والنساء والأطفال العزّل وغير الإرهابيين. لم تَقمْ قواتُ شارون بالقَتل الفِعلي إلا أنها سَلَّحَت القوات اللبنانية بحدود 118.5 مليون دولار، ودرَّبتهم وأرسَلَتهم لتَنفيذ العَمل، بل وأضاءَتْ لهم المكان وسَهَّلَتْ لهم تَنفيذَ العملية الدموية بالقنابل الضوئية.

---

(1) ذكَر شارون لمجلس الوزراء في 16 سبتمبر 1982 محادثة سابقة مع درابر واتهمَه "بالصَّفاقة غير العادية" لأنه عارَضَهُ. وثائق كاهان KP IV صفحة 274.

“Declassified Documents Shed Light on a 1982 Massacre.”

تتضِحُ نوايا شارون المُسبقَة باستِخدام القوات اللبنانية بهذه الطريقة في صفحاتٍ عديدة من المُلحَقات السرّية في تقرير اللجنة. كان شارون رئيس أركان الجيش، والجنرال رافائيل إيتان رئيس المخابرات العسكرية، والجنرال يهوشوا ساغوي رئيس الموساد، وإسحاق يوفي ونائبه ناحوم أدومي الذي خَلَفَه... جميعهم عَرفوا جيداً بالمَذابح التي ارتكَبتْها القواتُ اللبنانية قَبل ذلك في الحرب اللبنانية[1]، كما عَرفوا بالنوايا المميتة التي حَمَلَها بشير الجميّل وأتباعُه نحو الفلسطينيين[2]، وبينما أنكَرَ المَذكورون بشدّة مَعرفتِهم تلك أمام لجنة كاهان، إلا أن الأدلة التي جَمَعتْها واحتَفَظتْ بسرِّيَتِها تُدينُهم جميعاً وظَهَرتْ في قرارات اللجنة. وعلى كل

(1) وثائق كاهان KP III صفحة 222-226 كما ورَد في الفصل الثالث. تحدَّثَ شارون بالتفصيل عن تل الزعتر في اجتماعٍ مغلق مع لجنة الكنيست للدفاع والشؤون الخارجية في 24 سبتمبر 1982، وفي الكنيست في أكتوبر 1982. وحسب تقرير للموساد بتاريخ 23 يونيو 1982 فإن بشير الجميّل قال لممثل الموساد في اجتماع حضره ستة من كبار مستشاريه فيما يتعلق بالتعامل مع الشيعة إنهم "قد يحتاجون إلى عدد من دير ياسين". للاطلاع على معرفة إسرائيل بمذابح سابقة قامت بها القوات اللبنانية خلال الغزو الإسرائيلي سنة 1982 انظر الملاحظات السابقة في 32 و34.

(2) في 8 يوليو 1982 سأل بشير الجميّل فيما إذا كان شارون سيعارِض استخدام القوات اللبنانية للجرافات لإزالة المخيمات الفلسطينية في الجنوب، أجابَ شارون "هذا ليس شأننا، لا نريد التعامل مع الشؤون الداخلية في لبنان"، KP IV صفحة 230. في اجتماع مع الجنرال ساغوي Saguy في 23 يوليو 1982 صرَّح بشير الجميّل بأن هناك ضرورة للتعامل مع "المشكلة السكانية" الفلسطينية، وأنه إذا تم تدمير المخيمات الفلسطينية في الجنوب فإن أغلب اللبنانيين لن يهتموا لذلك. KP VI صفحة 244. وفي اجتماع 1 أغسطس 1982 ذكَر الجنرال ساغوي "أن الوقت قد حانَ لكي يضَع رجالُ بشير خطة للتعامل مع الفلسطينيين" KP VI صفحة 243. ورَداً على سؤال طرحه شارون عما خطّطت القوات اللبنانية لِفعله مع المخيمات الفلسطينية أجاب بشير الجميّل "نخطط لحديقة حيوانات حقيقية". KP V صفحة 8. صرَّح الشاهد العميد هارنوف Harnof أمام لجنة كاهان بأن قادة القوات اللبنانية ذكَروا "ستصبح صبرا حديقة حيوانات، وشاتيلا موقف سيارات لبيروت" مشيراً إلى أنهم كانوا قد ارتكَبوا مجازر سابقة للفلسطينيين في الجنوب. KP VI صفحة 78. قال رئيس الموساد (اعتباراً من سبتمبر 1982) ناحوم أدموني Nahum Admoni للجنة أن بشير الجميّل "كان مشغولاً بالتوازن السكاني في لبنان... عندما تحدَّث عن تغيير سكاني كان ذلك دوماً بمفردات القَتل والاستِئصال" KP VI صفحة 80. وقال رئيس الموساد حتى سبتمبر 1982 اسحق حوفي YitzhakHofi "تحدَّث عن حل المشكلة الفلسطينية بإشاراتٍ تعني الاستئصال الجسدي" KP VI صفحة 81.

حال، لم يكن القَتل في صَبرا وشاتيلا نتيجةً لتعطّش ميليشيا القوات اللبنانية للانتقام، ولا حتى نتيجةً لتخطيط هؤلاء القادَة الإسرائيليين فقط، فقد كانت الوفيات كذلك مسؤوليةً مباشرة لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية.

كان قادَةُ إسرائيل أثناء تخطيط غَزو لبنان يَخشَون تكرار خَيبة 1956 عندما هاجَمتْ دَولَتُهم مصرَ دون موافَقة أمريكا واضطرتْ للانسحاب. بعد أن تعلَّموا من تلك التجربة المرَّة لم تَدخُلْ إسرائيلُ حرب 1967 إلا بعد أن حصَلتْ على دَعمِ حَليفِها الأمريكي، والآن في 1982 فإن إشعالَ هذه "الحرب الاختيارية" كما أطلَقَ عليها كثيرٌ من المُعلِّقين الإسرائيليين، كان يَعتَمد كلّياً على ضوء أخضر أعطاهُ ألكسندر هيغ، وأكّد على هذه النقطة صحفيون إسرائيليون مطَّلِعون جيداً بعد الحرب مباشرة[1]. ظهَرَتْ التفاصيل الأحدَث الأكثر تفصيلاً التي كُشِفَتْ في وثائق لم تكن مُتاحَة من قَبل وبَيَّنَت القضيةَ بوضوح: أخبرَ شارون الجنرالَ هيغ تماماً ما الذي كان سيَفعَله بتفصيلاتٍ كبيرة، وأعطاهُ هيغ موافَقَتَهُ التي أشارَتْ إلى إعلانِ حربٍ آخر من الولايات المتحدة على الفلسطينيين. وحتى بعد الاحتجاج العام على قَتل كثيرٍ من المَدَنيين اللبنانيين والفلسطينيين، وبعد الصور المُتلفَزة لِقَصفِ بيروت، وبعد مَذابح صَبرا وشاتيلا، استمر الدَّعم الأمريكي دون أن يَتناقَص.

حسبما أطلَقَ عليه الصحفي آري فولمان الدائرةَ الخارجية للمسؤولية، فإن لَومَ أمريكا على الغزو الإسرائيلي يمتدُّ فيما وراء الضوء الأخضر الذي مَنَحَهُ هيغ، لأن أمريكا زَوَّدتْ إسرائيل بأنظمةِ الأسلحة الفتّاكة التي قَتلَتْ آلافَ المَدَنيين وكان واضحاً أنها لم تُستخدَم ضِمن حدود الأغراض الدفاعية التي يَشترطُها القانونُ الأمريكي. أنذَرَ شارون مسؤولين أمريكيين بكل وضوح بأن ذلك سيَحدُث. وحسبما تَذكَّرَهُ درابر فيما بَعد أنه بَعدَ الاجتماع برفقة فيليب حَبيب مع شارون في

(1) الكتاب *Israel's Lebanon War* الذي كتَبَهُ صحفيان إسرائيليان مطَّلعان ومحترَمان هما زيف شيف Ze'ev Schiff وإيهود ياري Ehud Ya'ari مليء بتقارير عن لحظات مهمة في اتخاذ القرار الإسرائيلي والدور الدبلوماسي الداعم للدبلوماسية الأمريكية، وجاء كثير منها في وثائق رُفِعَتْ عنها السرّية مؤخَّراً من الطرفَين.

ديسمبر 1981 قد ذَكَرَ لواشنطن أنه في خطّة الهجوم الإسرائيلية "سنُشاهِد ذخائرَ أمريكية تُقذَفُ من طائراتٍ أمريكية على لبنان، وأنّ مَدَنيين سيُقتَلون"[1]، كما أن القيادة الإسرائيلية العليا والمخابرات لم يكونوا وحدَهم العَارفين بالمُيول الإجرامية لدى القوات اللبنانية نحو المَدَنيين الفلسطينيين، لأن نُظَراءَهم الأمريكان كانوا يَعرفون كذلك التاريخ الدموي للقوات اللبنانية.

يجب أن يُنظَر إلى غزو سنة 1982 كعملية مشتركة بين إسرائيل وأمريكا بسبب هذه المَعرفة، والدَّعم الأمريكي لإسرائيل، وتَحمّل أعمالها، وبسبب تَقديم الأسلحة والذخائر لكي تُستخدَم ضد المَدَنيين، وضَغطِها على منظمة التحرير الفلسطينية للانسحاب من بيروت ورَفضِها التعامل المباشر معها، وتَعهّداتها الباطِلة في الحماية. كان ذلك الغزو هو حربَهما الأولى ضد الفلسطينيين على وَجهِ التّحديد. اتَّخذَت الولايات المتحدة بذلكَ مَوقِفاً مماثِلاً لما فَعَلَتْهُ بريطانيا في الثلاثينيات بمساعدَتِها على قَهر الفلسطينيين بالقوة خِدمَةً لأهدافِ الصهيونية. إلا أن البريطانيين كانوا الطَّرفَ القائد في الثلاثينيات، بينما في سنة 1982 كانت إسرائيل هي التي صاغَت المسيرة وأطلَقَتْ قوتها وقامَت بالقَتل. لَعِبتْ أمريكا دَوراً داعماً لا يمكن الاستِغناء عنه.

بعد أن عَرفنَا بالمَذبحة في صَبرا وشاتيلا أدرَكنا أنّ لم بقاءَنا في بيروت لم يَعُدْ آمناً، خاصةً مع بنتانا الصغيرتان ومُنى التي كانت حامِلاً بالثالث. وضَعنَا صديقُنا الصحفي على صِلَةٍ مع رايان كروكر المسؤول السياسي الأمريكي الكبير والدبلوماسي الأمريكي الوحيد الذي ظلّ في السفارة في بيروت الغربية[2]. عَرَضَ كروكر ترتيبَ خروجِنا كمواطنين أمريكان ومرافَقَتِنا إلى خارج بيروت التي تحتلّها إسرائيل في عربة مصفَّحة تابِعة للسفارة، غَيرَ أنه سيوصِلنا فقط إلى الخطوط

---

(1) Anziska, *Preventing Palestine*, 200-201, citing Morris Draper, "Marines in Lebanon, A Ten Year Retrospective: Lessons Learned" (Quantico, VA, 1992), courtesy of Jon Randal.

(2) خلال مسيرة مِهنية مميزة عمل رايان كروكر Ryan Crocker سفيراً لدى ست دول، كثير منها صعبةٌ جداً مثل بغداد وكابل.

الإسرائيلية-السورية بين بْحَمدون وصوفَر في جبال لبنان بسبب تقاريرَ عن وجود الحرس الثوري الجمهوري في مناطق السيطَرة السورية. وعندما أخبَرتُهُ أن علينا الذهاب أبعدَ من ذلك إلى شتورا في سَهل البقاع حيث نستطيعُ أَخْذَ سيارة أُجرَة إلى دمشق، وافَقَ على ذلك. كان كروكر طيباً ووَفى بما وَعدَ بِه. في 21 سبتمبر، اليوم الذي انتُخِبَ فيه أمين الجميّل رئيساً للبنان ليَحِلَّ مَحَلَّ أخيهِ القَتيل، غادَرنا بيروتَ مع سائقٍ وعَبرنا الخطوطَ الإسرائيلية والقوات اللبنانية ووصَلنا إلى شتورا ثم ذَهَبنا إلى دمشق في سيارة أُجرة.

عنما وصَلنا إلى هناك، حَطَّ بنا السائقُ في أحَد مكاتب المخابرات السورية بدلاً من أن يوصِلَنا إلى فندُقِنا. كانت مُنى حامِلاً في شَهرها السابع، وتم الاحتفاظ بنا وبأخي عدة ساعات استُجوِبَ كلّ مِنّا خلالَها بشكلٍ منفرد بأسئلةٍ ثاقِبة مِثل: "هل شاهدتُم جنوداً إسرائيليين في بيروت؟" مِن حُسنِ الحَظّ أن جهاز المخابرات السورية لم يَستجوب أمّي التي كانت في السّابعة والستين من عمرها، ولا ابنتَينا الصغيرتَين. ثم أُطلِقَ سَراحُنا وذَهبنا إلى فُندقِنا، ثم غادَرنا دمشق بأسرع ما نستطيع[1]. ذهَبنا بالطائرة إلى تونس حيث التَمَّ شَملنا مع بعض أصدقائنا الفلسطينيين من بيروت الذين تم إخلاؤهم إلى هناك. في تونس، تشكّلتْ لديّ الفكرة الأولية التي تطورتْ إلى كتابي عن القرارات التي اتَّخَذَتْها منظمةُ التحرير الفلسطينية خلال حرب 1982 الذي نُشِرَ تحت عنوان "تحت الحِصار"، وبدأتُ المناقشَة مع بعض قادَة منظمة التحرير الذين حاوَرتُهم فيما بَعد من أجل الكتاب. ثم ذهَبنا إلى القاهرة حيث كان لَديّ ولَدَى مُنى بعضُ الأقارب وأدركنا مَدى سوء

(1) لم يكن ذلك آخر احتكاك لي مع المخابرات السورية. بعد ذلك بسنوات قليلة مُنِعَتْ ترجمةٌ عربية لكتابي "تحت الحصار" لأن فيه وصفاً ناقداً لدور نظام الأسد في حرب 1982 بسبب خوف الناشر اللبناني من تهديد أجهزة المخابرات السورية التي كانت تسيطر على بيروت في تلك الأيام. تمكنتُ من نشره باللغة العربية بشكل متسلسل في الصحافة الكويتية. وأخيراً نَشَرَ مركز الدراسات الفلسطينية الترجمة العربية للكتاب سنة 2018. على الرغم من أنه لم يُنشَر باللغة العربية في بيروت آنذاك، إلا أن ماراشوت Marachot دار النشر التابعة لوزارة الدفاع الإسرائيلية نَشَرتْ ترجمته العبرية سنة 1988 مع إضافة هوامش حساسة وضيعة أحياناً.

تأثير الحرب على طِفلتَينا فقد انتابَهما رُعبٌ شديدٌ عندما سَمِعَتَا قَعقَعة وصَرير عربات الترام في شارعٍ مُجاورٍ وحَسِبتَا أنها دبابات إسرائيلية.

عُدنَا إلى المدينة حالَما انسَحبَ الجيشُ الإسرائيلي من بيروت الغربية وفُتِح المطار. أصَرَّتْ مُنى على أن تُنجِبَ ولَدَنا الثالث بمساعَدة طبيبِ التوليد نفسه الذي ساعَدَ في توليدِ ابنتَينا (والذي ساعَدَ أبوه في ولادة مُنى قَبلَ ثلاثين عاماً). ولِد ابنُنا اسماعيل في نوفمبر 1982[1]، وعدتُ أنا للتَّدريس في الجامعة الأمريكية والعَمل في مَعهد دراسة السياسات. بعد أشهر قليلة صَعبة شَهِدَت التفجير الانتحاري للسفارة الأمريكية في ربيع 1983، غادَرنا بيروت فيما حَسِبْنا أنه لن يطولَ أكثرَ من سنة، إلا أن الحرب الأهلية اللبنانية انفجَرتْ بقوة مرّة ثانية ولم نَعُدْ بَعدَ ذلك إلى بيتِنا في بيروت[2].

كانت النتائج السياسية لحرب 1982 هائلةً، فقد أدّت إلى تغييرات إقليميةٍ كبيرة أثّرتْ على الشرق الأوسط حتى يومِنا هذا. كان من نتائِجها المهمّة المستمرّة

---

(1) استغرق الأمر ثمانية أشهر قبل أن تتمكّن الجامعة الأمريكية في بيروت من إصدار إقامة له، وهو أمرٌ كان لا يستغرق أكثر من أسبوعين: كان ذلك هو الأمن العام للنظام الجديد الذي أسّسه شارون. يمكن الاطلاع على طبيعة انتخاب أمين الجميّل في كتاب برغمان ***Rise and Kill First***, 673n262 الذي يفصِّل كيف قام أفرادٌ من الجيش والأمن الإسرائيلي "بمرافقة" نواب لبنانيين إلى الانتخابات، وساعَدوا أحياناً على "إقناعهم".

(2) قبل مغادرة بيروت زرتُ رجلَ الدولة اللبناني الكبير صائب سلام الذي يَقرَبنا بالمصاهرة لإجراء مقابلة معه عن دوره خلال حرب 1982. أجاب على أسئلتي ولكنه طلبَ عدم ذِكرها في الكتاب. وقبل مغادَرتي أخبَرني عن زيارته المزعومة لبشير الجميّل قبل اغتياله بأيام. جاء اللقاء المنفرد بعد اجتماع سرّي حادّ بين الجميّل وبيجن رفضَ فيه الجميّل طلَبَ بيجن منه أن يوقّع فوراً على معاهدة سلام مع إسرائيل. يمكن الاطلاع على التفاصيل في كتاب **Schiff and Yaari,** ***Israel's Lebanon War*** أكد لي **Schiff** بعض ما جاء فيه أثناء مقابلة (واشنطن، 30 يناير 1984). أخبره الجميّل قبل اغتياله "أنت تعرف يا صائب بك أن كثيراً من كبار ضباطي قد تم تدريبهم في إسرائيل. لستُ متأكداً تماماً من منهم مخلِصٌ لإسرائيل ومن هو مُخلِصٌ لي". على الرغم من أن علاقته مع بيجن أصبحتْ سيئة قبل اغتياله إلا أن الجميّل كان لديه كثير من الأعداء. يُعتَقد أن الرجل الذي زَرَعَ المتفجرات التي قَتَلَتْه هو لبناني يساري يَعمل في المخابرات السورية. يمكن الاطلاع على تسجيل استجواب أحد المتهمين، حبيب الشرتوني، في صحيفة الكتائب الأعمال.

هي صُعودُ حزب الله في لبنان وزيادة حِدَّة وطولِ الحرب الأهلية اللبنانية التي أصبَحتْ صِراعاً إقليمياً أكثر تعقيداً. كان غزو 1982 مناسبةً لكثيرٍ من الأحداث الأولى: أول تدخّل أمريكي مباشَر في الشرق الأوسط منذ أن أُرسِلَت القوات الأمريكية لفترةٍ وَجيزة إلى لبنان سنة 1958، وكانت أولَ وآخِر محاولة إسرائيلية لتغيير نظامٍ بالقوة في العالَم العربي. ولَّدَتْ هذه الأحداثُ بدورِها مَشاعرَ عَداء أشدّ ضد إسرائيل والولايات المتحدة لدى كثيرٍ من اللبنانيين والفلسطينيين وغيرِهم من العرب مما فاقَمَ الصراع العربي الإسرائيلي. كانت كل هذه الأمور نتائج مباشرة من القرارات التي اتَّخَذَها صَانِعو السياسة الإسرائيليون والأمريكان في شَنِّ حرب 1982.

أثارَت الحرب كذلك ردودَ فِعلٍ قوية مثل انتشار الاستياء من نتائجها بين قطاعات مهمّة من المجتمع الإسرائيلي مما أدّى إلى نمو حركة السَّلام الآن التي تأسَّست سنة 1978. كما أثَّرتْ في ظُهورِ وتَطورِ أول مَشاعر سلبية أمريكية وأوروبية تجاه إسرائيل منذ عام 1948[1] إذ نَشَرَتْ وسائلُ الإعلام الدولية على مَدى أسابيع بشكلٍ واسِع صوراً مُزعِجة عن معاناة المَدَنيين الشديدة في بيروت المحاصَرة تحت القَصف التي كانت أول عاصِمة عربية تُهاجِمها إسرائيل وتحتلّها بهذه الطريقة. لم تتمكّن أية دعاية ماهِرة من إسرائيل وحلفائها من مَحوِ تلك الصور المُثبَتة، وقد تلطَّخَت صورةُ إسرائيل في العالَم بشكلٍ سيئ نتيجةَ ذلك وتأذَّت الصورةُ الإيجابية الكاملة التي اجتَهدَتْ إسرائيلُ لرعايتِها في الغرب بشكلٍ ملحوظ مؤقَّتاً على الأقل.

كَسِبَ الفلسطينيون تعاطُفاً دَولياً مهماً نتيجةً للحِصار وتمكَّنوا لأول مرّة جزئياً من إزالة سِمة الإرهاب التي وَصَمَتْهم بها الدعايةُ الإسرائيلية بنجاح. وظَهَروا بالنسبة لكثيرين وكأنّهم داوود بمواجهة طُغيان إسرائيل الذي يمثّل جالوت. وعلى

---

(1) هذا أحد الاستنتاجات التي توصَّلتْ إليها آمي كابلان Amy Kaplan في دراسةِ دَعمِ أمريكا لإسرائيل في *Our American Israel*, 136-77. في فَصلٍ عنوانه "ليست إسرائيل التي عرفناها في الماضي" على الرغم من أنها تَستنتج أن مؤيدي إسرائيلَ نَجَحوا مع الوقت في ترميم صورتها.

الرغم من هذا التَّحسن المَحدود في صورتِهم الدولية، إلا أنهم فَشلوا في الحصول على الدَّعم الكافي لا مِنَ الدول العربية، ولا مِنَ الاتحاد السوفييتي وغَيره لكي يُحقِّقوا التوازن مُقابل دَعمِ إدارة ريغان وتَصميمِها القاتِم لتحقيق هَدَفِ إسرائيل الرئيسي في طَرد منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان.

أُضعِفَت القضية الفلسطينية بشكلٍ خطير بعد خروج منظمة التحرير من بيروت، وظَهَر أن شارون قد حقَّقَ جميعَ أهدافِه الجَوهرية، غير أن النتيجة المُتَناقِضَة لهذه الأحداث هي الابتعاد التدريجي لمَركَز جَذبِ الحركة الوطنية الفلسطينية بعيداً عن الدول العربية المُجاوِرة حيث انطَلَقتْ في الخمسينيات والستينيات وعَودَتها ثانية إلى الدّاخل الفلسطيني. انطَلَقَت الانتفاضةُ الأولى من هناك بَعدَ خمس سنوات في ديسمبر 1987 وهزَّتْ نتائجَها الرأي العام الإسرائيلي والعالمي. ومثلما فَعَلَت النكبة قَبَل ذلك بعُقود، خَلَقَتْ هذه الهزيمةُ المؤلمة شَكلاً جديداً مختلِفاً من المقاوَمة الفلسطينية ضد الحرب المتعدّدة الجَوانب التي شُنَّتْ عليهم. بَدَأ شارون وبيجن الحربَ لقَهرِ منظمةِ التحرير الفلسطينية وإحباطِ معنويات الفلسطينيين وبالتالي فَتحِ المَجال أمام إسرائيل لضَمِّ الأراضي المحتلّة، إلا أن النتيجة النهائية كانت إشعالَ مقاوَمتهم وانتقالِها إلى داخل فلسطين.

أما بالنسبة لمَن لَعِبوا دَوراً مهمّاً في أحداث صيف 1982، فيَبدو أن الشكّ والنَّدم قد غَلَبَ على ذكريات كثيرٍ منهم. في مقابلاتٍ أجرَيتُها في 1983 و1984 مع موريس درابر وروبرت ديلون الذي كان حينها سفير الولايات المتحدة في لبنان، أعرَبا عن نَدَمِهما العميق بشأن دَورهما في المفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية. شَعَرَ كلاهما بالمَرارة بسبب خِداع شارون وبيجن، وقالا بأنهما أعطَيا الولايات المتحدة الأمريكية التزامات صريحة بأن القوات الإسرائيلية لن تَدخُل بيروت الغربية. ولم يتردد فيليب حَبيب بقوله إنّ حكومَتَهُ قد خُدِعَتْ من جِهة إسرائيل ومن جِهة وزير خارجيتِها نفسه، فقالَ لي: "كان هيغ يَكذب. وكان

شارون يَكذب"[1]. تؤكِّدُ الوثائق الإسرائيلية التي صَدَرَتْ مؤخَّراً وجودَ خِداعٍ كبير، وربما خِداعٍ أكثر للذّات حَدَثَ في بيروت وواشنطن والقدس في ربيع وصيف 1982.

أجريتُ حِواراً مع دبلوماسيين فرنسيين كبار شارَكوا في مفاوضات انسحاب منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان وعَبَّروا عن نَدَمِهم بسبب فَشَلِهم في التوصّل إلى اتفاق أفضَل. كانوا مُستائين بسبب عدم تمكّنهم من الحصول على ضمانات أمنية دولية للمَدَنيين الفلسطينيين وإبقاء قوات دولية فترةً أطول لحماية المَدَنيين الفلسطينيين. عبَّروا عن أسفِهم لتصرف الولايات المتحدة لوحدِها في المفاوضات وجهودِها في الحَدِّ من مشارَكة ممثلين دوليين. نَبَّهوا مِراراً في ذلك الوقت وبشكلٍ متفهِّم بأن الطريقة التي تَتبعها الولايات المتحدة ستؤدي إلى كارثة، ولكن لم تفعَل الحكومةُ الفرنسية شيئاً في النهاية لمنع ذلك.

كان قادةُ منظمة التحرير الفلسطينية غاضِبين بسبب خيانة الولايات المتحدة التي فَشِلتْ في حماية المخيمات، وعبَّروا عن أسفِهم مع شيء من الشعور بالذنب لأنهم لم يضمَنوا الحصول على تعهدات قوية بسَلامة الذين سيَظلّون في بيروت. أصرَّ أبو إياد خلال الحِصار على اتخاذ موقفٍ أكثر تشدداً في المباحثات واتَّهمَ بصراحة قيادة منظمة التحرير بخُذلانِ شَعبِها، وهو موقفٌ وافَقَهُ عليه كثيرٌ من الفلسطينيين وقليلٌ من الآخرين. عبَّرَ أبو جهاد (خليل الوزير) عن أسفه الشديد

---

(1) مقابلات مع موريس درابر وروبرت ديلون وفيليب حبيب في واشنطن 14 ديسمبر، 6 ديسمبر، 3 ديسمبر 1984. كانت مقابلات من أجل كتاب "تحت الحصار" الذي بدأتُ فكرته خلال الحرب عندما كنتُ أقرأ سَرداً للقاءِ ابن خلدون مع تيمورلنك أثناء حصاره لدمشق سنة 1400 وصادَفَ أن التقيتُ بالصديق د. سامي مسلَّم. عمل سامي مثلي بدوام جزئي مع IPS وكان مسؤولاً أيضاً عن سجلات مكتب رئيس منظمة التحرير الفلسطينية. قلْتُ له أنني أريد بعد الحرب الوصول إلى تلك السجلات لكتابة سَرد وثائقي عما كنا نشاهده خلال الحصار على الرغم أنني من المؤكد لستُ مثل ابن خلدون. قال سامي أننا إذا نَجونا وإذا تمكّن من إخراج السجلات من بيروت، وهو ما قام به بالفعل، فسيَحصل على إذنٍ من عرفات، وقد فعَلَ ذلك.

لنتيجة ما حَدَثَ ولكنه كان متحفِّظاً قليل الكلام. ولم يكن مُستغرَباً أن عرفات كان أقلَّ الجميع في النَّقد الذاتي[1].

أما بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية فإن إصرارها على احتكار سياسة الشرق الأوسط ودَعمِها للطموحاتِ الإسرائيلية لم يَخدُم مَصالح أمريكا جيداً. شَهِدَت الأحداث التالية على ذلك بشكل صارخ، مِثلَ التفجيرات الانتحارية لسفارة الولايات المتحدة في بيروت، وتَفجيرُ ثكنات مشاة البحرية الأمريكية والقوات الفرنسية التي عادَتْ إلى المدينة بمَهمّة غير واضحة بعد مَذبحة صَبرا وشاتيلا. وخلال أشهرٍ قليلة كانت المدمِّرة الأمريكية نيوجيرسي تَقذفُ قنابلها الثقيلة على جبال الشوف حيث كانت ميليشيا الدروز (التي تَدعَمها سورية) تُقاتِل القوات اللبنانية (التي تَدعَمها إسرائيل)[2]، وتَورَّطَتْ الولايات المتحدة في حربِ تبادل إطلاق النار لم يَفهَمها جيداً سوى قلَّةٌ من الأمريكان، حتى أولئك الذين كانوا متورِّطين فيها مباشرة.

أما حزب الله الذي وِلِد في رَحِم المأساة اللبنانية فقد أصبَح عدوّاً قاتِلاً للولايات المتحدة وإسرائيل. لاحَظَ قلائلٌ من الذين دَرَسوا نَشأتَهُ أن كثيراً من الشباب الذين أسَّسوا الحركة ونفَّذوا هجماتها القاتلة على أهداف أمريكية وإسرائيلية كانوا قد حارَبوا إلى جانب منظمة التحرير الفلسطينية في 1982، وظلّوا في بيروت بعد أن غادَرها مُقاتِلو منظمة التحرير وشَهِدوا مئاتٍ من رفاقهم الشيعة يُقتَلون مع الفلسطينيين في صَبرا وشاتيلا. قُتِلَ كثيرٌ من الناس في تفجير السفارة الأمريكية، وقُتل رجالُ مشاة البحرية في ثكناتهم، وخُطِفَ كثيرٌ غيرهم من الأمريكان أو قُتِلوا في بيروت، وكان من بينهم مالكولم كير وكثيرٌ من زملائي وأصدقائي في الجامعة الأمريكية، وكان أغلبهم ضحايا هجماتٍ لجماعات أصبحَتْ حزب الله،

(1) قابلتُ عرفات وأبو إياد وأبو جهاد ومحمود عباس (أبو مازن) وخالد وهاني الحسن وفاروق قدومي (أبو اللطف) وغيرهم من مسؤولي منظمة التحرير الفلسطينية في تونس خلال أشهر مارس وأغسطس وديسمبر 1984.

(2) هذا القصف الهائل من إحدى سفن الحرب العالمية الثانية للمقاتلين الدروز في جبال الشوف أطلَقَ عليه بعض اللبنانيين بخبثٍ اسم "الدرزي الجديد" في تلاعبِ باسم الدروز باللغة العربية.

ودَفَعوا ثمَنَ التواطؤ المَلحوظ بين بلادهم وبين المحتلّ الإسرائيلي.

في دوائر المسؤولية التي رَسَمها فولمان، ربما كان اللبنانيون الذين تورَّطوا في المَذبحة بشكلٍ مباشر أو غير مباشر هم الذين دَفَعوا أغلى ثمَن، فقد تمّ اغتيال بشير الجميّل ومساعده العسكري إيلي حبَيقَة، كما اغتيل عَددٌ من الآخرين. وقَضى سمير جَعجَع 11 سنة في السجن بسبب جرائم ارتُكِبتْ خلال الحرب اللبنانية وكان قائداً كبيراً في القوات اللبنانية (ثم أصبحَ رئيسَ الحزب السياسي الذي تطوَّرت إليه)، على الرغم من أنه لم يُسجَن لسببٍ يتعلق بغزو سنة 1982. أما قادَة منظمة التحرير الفلسطينية الذين اتَّخَذوا القرارات المَصيرية التي أدَّت إلى المأساة في صَبرا وشاتيلا، فقد اغتِيل أبو جهاد وأبو إياد. اغتالَتْ إسرائيلُ القائدَ الأول، وربما اغتال عَميلٌ عراقي القائدَ الثاني. توفي عرفات بعد أن حاصَرَتْهُ قواتٌ إسرائيلية في مَركز قيادَتِه في رامَ الله[1]. لم يُعتَبر أيٌّ منهم أبداً مسؤولاً عن نتائج حرب 1982.

أغلبُ المسؤولين الإسرائيليين الذين تورَّطوا في اتخاذ قرارات تلك الحرب، مثل بيجن وشارون وعدد من كبار الجنرالات فقد تحمَّلوا الخِزي أو خَسِروا مناصِبهم نتيجةً لتقرير لجنة كاهان والاستنكار في إسرائيل بعد المذبحة، إلا أن أيـاً منهم لم يتَعرَّض لعقوباتٍ جَزائية أو لأي عقاب جدّي. وبالفِعل فإن رئيسَ القيادة الشمالية الجنرال أمير دروري Amir Drori الذي كان مسؤولاً عن قوات الاجتياح أتمَّ مهمّته في القيادة ثم غادَر إلى واشنطن للدراسة مدّة سنة. أما شامير وشارون ونتنياهو فقد أصبَحوا رؤساءَ وزراء إسرائيل.

من جهة أخرى، لم يوجَّه أيّ اتهام بالمسؤولية عن أفعَالِهِ لأيّ مسؤول أمريكي متورِّط، سواء كان ذلك تآمرهم مع إسرائيل في شَنِّ حرب 1982، أو فَشَلِ الولايات المتحدة في احترام تعهداتها بشأن سَلامة المَدَنيين الفلسطينيين. توفّي كثيرٌ منهم الآن، مثل ريغان وهيغ وحَبيب. ولم يتعرَّض أيّ منهم لأيّ حُكم.

---

(1) بيرغمان *Rise and Kill First* صفحة 560–563 يَذكُر بِحَذر وتطويل كبير أن عرفات قد سَمَّمهُ عملاء إسرائيليون.

5

إعلان الحرب الخامس

1995-1987

"يصنعون صحراء ويُسَمونها سَلاماً"

تاسيتوس Tacitus [1]

كانت الانتفاضة الفلسطينية التي انطلَقَتْ في ديسمبر 1987 مثالاً نموذجياً لقانون النتائج غير المَقصودة[2]. شَنَّ آريل شارون ومناحم بيجن اجتياحَ لبنان للقضاء على قوة منظمة التحرير الفلسطينية وبالتالي إنهاء المعارَضة الوطنية الفلسطينية في الضفة الغربية المحتلة وقطاع غزة لضمّ تلك المناطق إلى إسرائيل، وبذلك ستكتَمل المهمةُ الاستعمارية للصهيونية التاريخية بتأسيس دولةٍ يهودية في كامل فلسطين. نجَحتْ حرب 1982 في إضعاف منظمة التحرير ولكن النتيجة المُفارِقة كانت تقوية الحركة الوطنية الفلسطينية داخِلَ فلسطين نفسها ونَقلَ مَركَز

(1) Caius Cornelius Tacitus, *Agricola and Germania*, tr. K. B. Townsend (London: Methuen, 1893), 33.

(2) الإشارة في الفصل إلى الانتفاضة الأولى بشكل رئيسي التي كانت سلمية وغير عنيفة واستمرتْ بقوة من 1987 حتى 1993 بالمقارنة مع الانتفاضة الثانية التي بدأتْ سنة 2000 وأصبحتْ مسلحة واستَخدَم فيها الفلسطينيون تفجيرات انتحارية، واستَخدَمتْ فيها قواتُ الاحتلال الإسرائيلي الدبابات والمروحيات وغيرها من الأسلحة الثقيلة.

نشاطِها من خارج إلى داخل البلاد. بعد عَقدَين من الاحتلال الذي أمكَنَ التَّحكم فيه نسبياً فإن بيجن وشارون النَّصيرَين المتَحمسَين لفكرة إسرائيل الكبرى قد أشعَلا من دون قَصد مستوى جديداً من المقاومة لعَملية الاستعمار. اندَلَعَت المقاومةُ ضد استيلاء إسرائيل وحُكمها العسكري في فلسطين بشكلٍ متكرر وبأشكال مختلفة منذ ذلك الحين.

انطلَقَت الانتفاضةُ الأولى عَفوياً في كافة أرجاء الأراضي المحتلة نتيجةَ صَدمِ مَركَبةٍ عسكرية إسرائيلية لشاحِنَةِ نَقلٍ في مخيم جَباليا للاجئين في قطاع غزة وقَتلَتْ أربعة فلسطينيين. انتَشرت الانتفاضة بسرعة كبيرة على الرغم من أن غزة كانت البوتَقة دائماً وظلّت كذلك أصعَب منطقة تُقاوم السيطرة الإسرائيلية. خَلقَت الانتفاضة تنظيماً مَحَلياً واسعاً في القُرى والبلدات والمُدن ومخيمات اللاجئين، وأصبَحتْ تحت قيادة القيادة الوطنية الموحَّدة السرّية. تشكّلتْ شبكةٌ مَرِنَةٌ جماهيرية سرّية خلال الانتفاضة ثَبتَ أن قَمعَها مستحيلٌ أمام سلطات الاحتلال العسكرية.

بعد شهرٍ من الاضطرابات المتصاعِدة، أمَرَ وزير الدفاع إسحاق رابين قوات الأمن باستِخدام "القوة والقسوة والتَّكسير"[1]، وتم تنفيذ سياسَته في "القبضة الحديدية" بمُمارسةٍ صريحةٍ لكَسرِ أذرُعِ المتظاهرين وأرجُلِهم وكَسرِ جماجِمهم بالإضافة إلى ضَربِ آخرين أثاروا غَضبَ الجنود. وخلال فترةٍ قصيرة شوهِدَتْ على نطاق واسِع صورٌ تليفزيونية لجنودٍ مدجَّجين بالسلاح يضربون بقسوة متظاهِرين فلسطينيين يافِعين وأدّت إلى رَدّ فِعلٍ عنيف في وسائل الإعلام الأمريكية وفي غيرها أظهَرت الوَجهَ الحقيقي لإسرائيل كقوةِ احتلالٍ قاسية. بعد خمس سنوات فقط من التغطية الإعلامية لحِصار وقَصفِ بيروت وجَّهَ هذا الكَشفُ ضربةً ثانية لصورةِ دولةٍ تَعتَمد بشكلٍ كبير على إرضاء الرأي العام الأمريكي.

(1) Francis X. Clines, "Talk with Rabin: Roots of the Conflict," *New York Times*, February 5, 1988.

على الرغم من التأثير الضّار لحرب 1982 على موقف إسرائيل، فإن جهود العلاقات العامة الماهرة لتلك الدولة قد نجَحتْ في إعادة تَخدير كثير من الرأي العام الأمريكي[1]. ولكن على العكس من قَصف لبنان عن طريق الجو والمدفعية الذي انتهى بعد عشرة أسابيع، فإن عُنفَ الانتفاضة على الأرض استمر سنةً قاسية بعد سنةٍ أخرى من ديسمبر 1987 حتى 1993. انخَفضَ قليلاً خلال حرب الخليج ومؤتمر السلام الذي نظَّمتْهُ الولايات المتحدة بمدريد في أكتوبر 1991. وخلال ذلك الوقت قدَّمَت الانتفاضةُ مناظِرَ مُحزِنةٍ لمعاركِ شوارع بين متظاهرين فلسطينيين شَباب وقواتٍ إسرائيلية مدعَّمة بعربات مدرَّعة ودبابات. كانت الصورة المُبدِعة من تلك الفترة هي صورةُ طفلٍ فلسطيني صغير يرمي بحَجَرٍ على دبابةٍ إسرائيلية ضخمة.

يَرِدُ في القول المأثور "إذا كان يَنزف فإنه يَقود"، تَثَبَّتَ المشاهدون أمام التلفزيونات وهي تَبُثُّ مشاهِدَ متتالية للعنف المؤلِم الذي قَلَبَ صورةَ إسرائيل الضّحية الدائمة ووضَعها بصورة جالوت ضد داوود الفلسطيني. كان ذلك استِنزافٌ مستمرٌ لإسرائيل ليس فقط بشأن الضغط المستمر على قواتِها المسلحة، بل ربما كان الأهم من ذلك بشأن سُمعَتِها في الخارج وهي رأسمالها الأكثر أهمية من بعض النواحي. حتى رابين الذي كان في موقِع المسؤولية قد أدركَ أهمية هذا العامِل السياسي. افتُتِحَتْ مقابلةٌ متمَلِّقة في صحيفة نيويورك تايمز مع رابين بادّعاء أن "المتظاهرين الفلسطينيين كانوا يَكسِبون معركةَ العلاقات العامة ضد إسرائيل في الصحافة العالمية، اعترَفَ وزيرُ الدفاع إسحاق رابين اليومَ مؤكّداً على أنّ الجيشَ يواجِهُ أمراً جديداً معقَّداً: انتفاضةٌ شاملة تولَّدتْ من خلال عُقودٍ من الإحباطات الفلسطينية"[2].

---

(1) للاطلاع على تحليل ممتاز لتأثير الانتفاضة على الرأي العام الأمريكي نحو إسرائيل، انظر كابلان *Our American Israel* الفصل الرابع.

(2) Francis X. Clines, "Talk with Rabin: Roots of the Conflict."

عندما انطلَقَت الانتفاضةُ الأولى كان احتلالُ الضفة الغربية وقطاع غزة مستمراً فترةَ عَقدَين من الزمن. بدأتْ إسرائيلُ باستغلال فترةِ هدوءٍ نسبيٍّ لاستِعمار الأراضي المحتلة مباشرةً بعد حرب 1967، وأسَّستْ أكثر من مئتَي مستوطَنة كانت بعضُها مُدُناً سَكَنَ فيها 50000 شخص، والأخرى تجمّعاتُ بيوتٍ واهِية مُسبَقَة الصّنع ضمّتْ بضع عشرات من المستوطِنين. طَمأنَ خبراء إسرائيليون قادَتهم وجمهورَهم على مرّ سِنين بأن الفلسطينيين يعيشون في ظلّ ما سَمّوه "احتلالٌ مستَنير" وأنهم كانوا راضين تحت السيطَرة التامة. كَذَّبَ انفجارُ المقاومة الشعبية الضخمة هذه الإدّعاءات. ربما كان صحيحاً أن بعض الفلسطينيين الذين أهابَتْهم القوة العسكرية الإسرائيلية وبعد طَردٍ واسع لأكثر من 250000 فلسطيني بعد حرب 1967[1] قد خضَعوا في البداية للنظام الجديد الذي فُرِضَ عليهم. وكان صحيحاً كذلك أن الدَّخل قد ارتفع في الضفة الغربية وقطاع غزة بشكل مهمّ عندما سُمِحَ لعشرات الآلاف من الفلسطينيين بالعمل أخيراً في إسرائيل.

ولكن، مع حلول سنة 1976 ازدادَتْ شدة الاغتراب وقُمِعَ بشدة أي تعبير وطني، مثل رَفعِ العَلَم الفلسطيني، أو عَرضِ الألوان الفلسطينية، أو تنظيم اتحادات مِهَنية، أو التعبير عن دَعم منظمة التحرير الفلسطينية أو أية منظمة مقاوَمة غيرها، وعوقِبَ ذلك بغرامات مالية أو بالضرب أو بالحَبس. ترافَقَ الاعتقال والسَّجن عادةً بتعذيبِ المَحبوسِين. وربما أدّى الاعتراضُ على الاحتلال عَلَناً أو كتابةً إلى عقوباتٍ مماثِلة، بل ربما أدّى إلى التَّرحيل. أما المقاوَمة الأقوى، خاصةً إذا ترافقَتْ بالعنف، فقد كانت تؤدّي إلى عقوباتٍ جَماعية وهَدم البيوت والسَّجن دون محاكَمة تحت عنوان "الاعتقال الإداري" الذي قد يمتدّ سنوات، وربما إلى الإعدام دون محاكَمة. في تلك السنة، نَجَحَ مُرشَّحون مَدعومون من منظمة التحرير الفلسطينية في الانتخابات البلدية في نابلس ورامَ الله والخليل والبيرِة وغيرها من

(1) David McDowall, *Palestine and Israel: The Uprising and Beyond* (London, I. B.Tauris, 1989), 84.

البلدات. تم نَفيُ عددٍ من رؤساء البلديات سنة 1980 بعد اتهامهم بالتّحريض، وطَرَدَتْ سلطاتُ الاحتلال العسكرية بعضَهم من مَنصِبه في ربيع 1982 مما أثار اضطرابات واسعة. تم ذلك خلال التحضير لاجتياح لبنان كجزءٍ من حَملة آرييل شارون الشامِلة للقضاء على منظمة التحرير الفلسطينية.

كان أحدُ جوانب تلك الحَملة هو محاوَلة صُنع جماعةٍ مَحَلية متعاوِنة من نوع "عصابات القرية"، وهو مشروعٌ لم يَنجَح في الانطلاق بسبب انتشار الرَّفض الفلسطيني للتعاون مع الاحتلال بعد عَزل رؤساء البلديات. كان أداةُ شارون لتنفيذ هذه السياسة هو مناحم ميلسون Menachem Milson الذي يلقَّب باسم الإسرائيلي العربي، وهو بروفسور الدراسات العربية وكولونيل احتياط في الجيش الإسرائيلي[1]. لم يكن من غَيرِ المُعتاد أن يَلبِسَ شخصٌ مِثلَ هاتَين القبّعتَين فأغلبُ الأكاديميين الكبار المختَصّين بدراسات الشرق الأوسط في إسرائيل يعمَلون كضباط احتياط في المخابرات العسكرية أو فروع أخرى من قوات الأمن ويَنخَرطون في التجسس وقَمع الناس الذين يَدرسونَهم في بقية الأوقات[2].

في تلك الأثناء كان جِيلٌ جديد من الفلسطينيين قد نَشأ وهو لا يَعرفُ شيئاً سوى الاحتلال العسكري ولم يكونوا راضِخين. خَرجَ هؤلاء الشباب في مظاهراتٍ عَلَنية تأييداً لمنظمة التحرير الفلسطينية في القدس الشرقية والضفة الغربية وقطاع غزة على الرغم من خطورة القيام بهذا العمل. تميَّزَت السنواتُ التي سَبقَت الانتفاضة بانطلاق مظاهرات جماهيرية للشباب الفلسطيني الأقلّ خَوفاً من زعمائهم، وكذلك بازدياد شدة القَمع الذي قامَتْ به قوات الأمن الإسرائيلية الذي يبدو أن قادَته كانوا غافِلين عن التأثير المتراكِم للقسوة التي كانوا يأمُرون بها.

---

(1) For an acid portrait of Milson and his role, see Flora Lewis, "Foreign Affairs: How to Grow Horns," *New York Times*, April 29, 1982

(2) للاطلاع على تحليل لهذه الظاهرة بالتحديد بشأن الخبراء الاستشراقيين التقليديين الذين يَدرسون الشعبَ الذي يضطهدونه انظر
Gil Eyal, *The Disenchantment of the Orient* (Stanford, CA: Stanford University Press, 2006).

بالنظر إلى جميع الإشارات التي دلَّتْ على تزايد الاستياء، فإن الانتفاضة كان من المَفروض ألا تكون مفاجأةً للسلطات الإسرائيلية. ومع ذلك فقد كان ردُّ فِعلهم السريع غَير مَدروس وعنيف وغير مُتَناسب. مارَسَ الجنودُ الذين كان أغلبهم من المجنَّدين الشباب عُنفاً مُمَنهَجاً ضد السكان الذين كان عليهم ضبطهم والسيطَرة عليهم نتيجةً للإحباط وربما الخوف. وَضَعَت الاتجاهَ العام أوامرُ رابين في "كَسرِ العَظم"، ولكن العنف الزائد كان متأصِّلاً في التربية الاجتماعية المستمرة في مُعاداة الفلسطينيين، ومتجَذِّراً في الفكرة العقائدية بأن العرب سيَبتلعون إسرائيل إذا لن تَمنَعهم قواتُها الأمنية بالقوة بسبب فَرَضية أنّ عدوانيتهم غير المَعقولة ضد اليهود لا يمكن السيطرة عليها بِغيرِ هذه الاسلوب[1].

كانت الانتفاضة مستمرة فترةَ سنةٍ ونصف عندما قمتُ برحلتي الأولى إلى فلسطين منذ عام 1966 حينما كانت الضفة الغربية تحت الحُكم الأردني[2]. خلال زيارةٍ إلى نابلس مع بعض الزملاء من جامعة شيكاغو بعد أن تركتُ بيت ابن عمّي زياد ذات مساء ووجَدنا أنفسَنا في الشوارع الملتَوية للمدينة القديمة وسطَ اشتباكٍ بين متظاهرين شباب وجنود إسرائيليين كانوا يطاردونهم ويُطلقون عليهم رصاصاً مَطّاطياً وغازات مُسيلة للدموع. لم يَقبِض الجنود على أي متظاهر ولكنهم تمكّنوا من تفريقِهم في النهاية. كان واضِحاً في تلك اللحظة أنه لا يمكن للقوات الإسرائيلية أن تحقِّقَ نَصراً دائماً في مثل هذا النوع من المطاردات والاضطرابات المَدَنية، إذ يستطيع المعارِضون الشباب أن يُعاوِدوا الظهورَ في أية لحظة من أي مكان آخر في

(1) "Colonel Says Rabin Ordered Breaking of Palestinians' Bones," Reuters, cited in the *LA Times*, June 22, 1990. In his biography, *Yitzhak Rabin: Soldier, Leader, Statesman* (New Haven, CT: Yale University Press, 2017), 156-57.

أنكَرَ إيتمار رابينوفيتش صِحة ذلك الاقتباس بينما اعتَرفَ بأن رابين "كان بوضوح هو كاتب سياسة كسر الانتفاضة باستخدام القوة".

(2) خلال رحلة قمتُ بها بعد سنتَين في زمالة فولبرايت منِعتُ من دخول إسرائيل، وبعد ساعات طويلة من الحَجز سُمِحَ لي بالدخول بفضل تدخل القنصل العام لولايات المتحدة في تل أبيب الذي كان قد عرف بقدومي من خلال وزارة الخارجية.

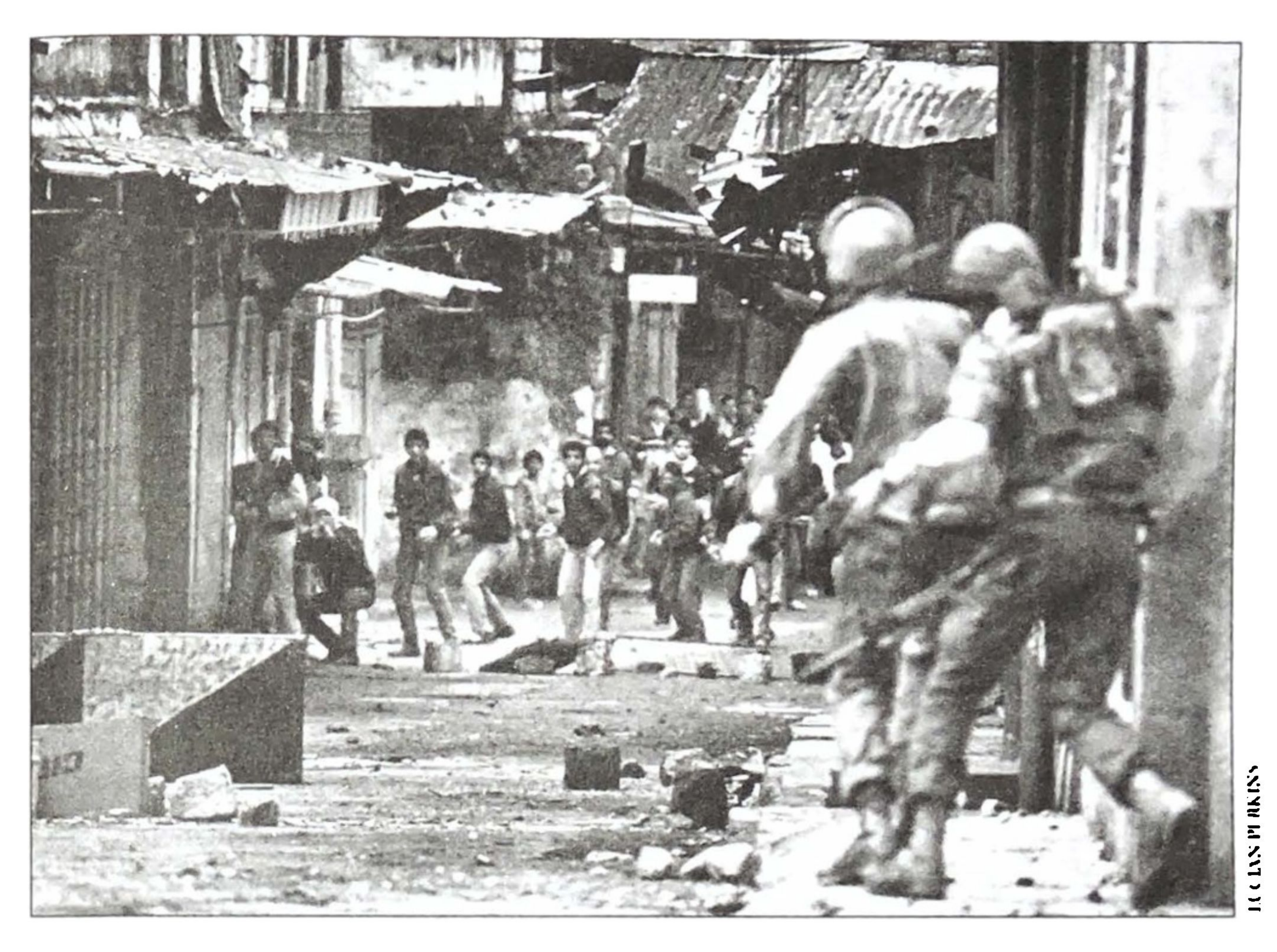
مَتاهة الحاراتِ الضيقة. يستطيع الجنودُ بالطبع أن يَقتلوهم ببساطَة، وقد حَدَثَ ذلك مِراراً، فمنذ بداية الانتفاضة الأولى حتى نهاية سنة 1996 على مدى تسع سنوات شَمَلَتْ ستّ سنوات من نشاطِ الانتفاضة قَتَلَ الجنودُ الإسرائيليون والمستوطِنون المسلَّحون 1422 فلسطينياً- أي حوالي فلسطينيّ كل يومَين وبينهم 294 (20٪) ممن كان عمرهم أقلّ من ستّ عشرة سنة. وخلال الفترة نفسها، قَتَلَ الفلسطينيون 175 إسرائيلياً، منهم 86 رجُلَ أمن[1]. هذه النسبة من القَتل التي بلغت ثمانية إلى واحد كانت قياسية، وكانت أمراً لا يستطيع المَرء الاطلاع عليه في كثير من وسائل الإعلام الأمريكية.

كنتُ أقودُ سيارتي ذات مرّة عَبرَ مدينة غزة في طريقي لزيارة ابنة عمّي هُدى، زوجةُ الدكتور حيدر عبد الشافي رئيس الهلال الأحمر الفلسطيني في غزة، وخلال السّير البطيء لِزَحمَةٍ مرورية مَرَّتْ سيارتُنا بدوريةٍ إسرائيلية مسلحة. كان الجنود في سيارتِهم يَحملون بنادقَهم في وَضعٍ جاهزية. كانوا عَصَبيين ومتوتّرين ورأيتُ في وجوهِهم سِمات كنتُ قد رأيتُها في وجوهِ الجنود الإسرائيليين في بيروت المحتلّة سنة 1982، كانوا خائفين. تحرَّكتْ سيارتُهم ببطءٍ شديد عبر المنطقة المزدَحمة بالناس الذين كانوا جميعهم يَكرَهون الاحتلال الذي يمثِّلُهُ الجنود ويقومون بحمايَتِه. لا يَشعرُ جنودُ جيشٍ نظاميٍّ بالأمان في مثل هذه الظروف مهما كانوا مدجَّجين بالسلاح.

أدركَ رابين وغَيرُه المشاكلَ الكامِنة التي شاهَدتُها في شوارع نابلس وغزة. وحَسبَ إيتامار رابينوفيتش Itamar Rabinovich الذي كَتَبَ سيرةَ رابين وكان معاونَهُ المُقرَّب ورفيقَه في لَعِبِ التنس، فقد ذَكَرَ أن الانتفاضةَ الأولى جَعلَت الجنرالَ المُحنَّك يدركُ أن الحلَّ السياسي كان ضرورياً[2]، ومع ذلك فقد تمسَّكَ بالتأثير الرّادع

(1) جُمِعتْ هذه الأرقام من خلال منظمة بيتسلم غير الحكومية بما فيها أعداد القَتلى الفلسطينيين والإسرائيليين في الأراضي المحتلة وفي داخل إسرائيل.

(2) Rabinovich, *Yitzhak Rabin*, 157-58.



حيّ القَصبة في نابلس أثناء الانتفاضة الأولى 1988. لا يمكن أن يتحقق نصرٌ دائم للقوات الإسرائيلية في هذا النوع من المطارَدات والاضطرابات المَدَنية

للعنف. قالَ رابين "لا شكّ بأن استِخدام القوة بما فيها الضَّرب قد أدّى إلى التأثير الذي نريدُه، وهو تقويةُ شعور الناس بالخوف من قوات الدفاع الإسرائيلية"(1). وربما كان الأمرُ كذلك، إلا أن القسوة والعنف لم تَضَعْ نهايةً للانتفاضة.

كانت الانتفاضة حَملةَ مقاومةٍ عفوية من القَاع ولِدت بسبب تراكُم الاستياء ولم تَملكْ في بدايتها أي ارتباط بالقيادة السياسية الفلسطينية الرسمية. ومثلما حَدَثَ في ثورة 1936-1939 فإن طولَ الانتفاضة ودَعمها الواسِع كان دليلاً على تأييد الجماهير العريضة الذي مَلَكَتْهُ. كانت الانتفاضةُ أيضاً مَرِنَةً ومُبتكِرة طَوَّرَتْ قيادةً مُنسَّقة بينما ظلَّتْ حركَتها والسيطرة عليها مَحَلية. انضمَّ إلى نشطائها رجالٌ ونساء ونُخبةُ المِهَنيين ورجال الأعمال والفلاحين والقرويين وفقراء المُدن وجميع الطبقات الأخرى في المجتمع. لَعِبَت النساءُ دَوراً مركزياً واتَّخذنَ أدواراً قيادية

(1) "Iron-fist Policy Splits Israelis," Jonathan Broder, *Chicago Tribune*, January 26, 1988.

متزايدة بينما تم حَبسُ كثيرٍ من الرجال، وتمَكَّنَ من تحريكِ أناسٍ كانوا غالباً ما يُتركون جانباً في السياسات التقليدية التي يُسيطِر عليها الرجال[1].

استَخدَمَت الانتفاضةُ تكتيكات التظاهر والإضرابات والمُقاطَعة وعدم دفع الضرائب وغيرها من الأشكال العبقرية للعِصيان المَدَني. أصبَحت الاحتجاجات عنيفة أحياناً بسبب لجوءِ الجنود إلى استِخدام الرصاص الحيّ والمَطّاطي ضد متظاهرين عُزَّل أو شباب يَرمون الحجارةِ وألحَقوا بهم أذىً كبيراً. غير أن الانتفاضة كانت في الغالب سِلمية وغير مسلَّحة، وكان هذا عامِلاً حاسِماً ساعَدَ على تَحريكِ قطاعات من المجتمع بالإضافة إلى الشباب المتظاهر في الشوارع، وأظهَر أن كامل المجتمع الفلسطيني تحت الاحتلال يُعارِض استمرارَ الوَضع القائم ويَدعم الانتفاضة.

كانت الانتفاضة الأولى مثالاً رائعاً للمقاومة الشعبية ضد الاضطهاد ويمكن اعتِبارها أول نَصرٍ صريح للفلسطينين في حَربِ الاستعمار الطويلة التي بَدأتْ سنة 1917. وعلى العكس من ثورة 1936-1939 فقد كانت وراء الانتفاضة رؤيةٌ استراتيجية عامة وقيادةٌ موحَّدة، ولم تُحَرِّكْ انقساماتٍ فلسطينية داخلية[2]. كان للانتفاضة تأثيرٌ مُوَحِّد، ونجَحتْ إلى حَدٍّ بعيد في تجنّب استِخدام الأسلحة النارية والمتفجرات على العكس من حركة المقاومة الفلسطينية في الستينيات والسبعينيات، وقد ساعَدَ هذا في حُصولها على الإعجاب العالمي بشكلٍ عَريض وصَنَعَ تأثيراً إيجابياً عميقاً مستمراً على الإسرائيليين وعلى الرأي العام العالمي.

لم يكن ذلك مجرد حادِثة، فقد كانت الانتفاضة تَهدفُ بوضوحٍ ليس فقط إلى تحريك الفلسطينيين والعرب، بل لتشكيلِ فَهمٍ إسرائيلي وعالَمي أيضاً. كان ذلك

---

(1) فيلم جوليا باشا الوثائقي الحائز على جوائز سنة 2017 "نائلة والانتفاضة" يُعطي صورةً مفصَّلة عن الدَّور المركزي الذي لعبته المرأة في الانتفاضة.

(2) كما رأينا، فعلى الرغم من الانقسام الذي أحدثَتْهُ الثورة إلا أنها أدتْ إلى تغيرات اجتماعية وسياسية عميقة قبل سَحقِها بحوالي 100000 جندي بريطاني يدعمهم مساعدوهم الصهاينة وكذلك باستِخدام الطيران. انظر المقالة المهمة Charles Anderson, "State Formation from Below"

هَدَفاً رئيسياً اتَّضَحَ في كثيرٍ من الأساليب المُستخدَمة، وكذلك في استراتيجيات التواصل المُتقدِّمة الفعّالة التي استَخدَمها من قاموا بِشَرحِ مَعنى الانتفاضة للمستمِعين الدَّوليين. كان بينهم نشطاء مفوَّهين ومثقَّفين في الداخل الفلسطيني مثل حَنان عَشراوي وحيدر عبد الشافي ورجاء شحادة وإياد السراج وغسان الخطيب وزاهرة كمال ومصطفى البرغوثي وريتا غياسمان وراجي صوراني وكثير غيرهم. كما كان لِمَنْ هم خارج فلسطين، مثل إدوارد سعيد وابراهيم أبو لَغد تأثيرٌ كبير مماثل. مع حلول التسعينيات نَجَحَ الموقفُ الفلسطيني الموحَّد في توضيح أنّ الاحتلال لا يمكن أن يستمر، على الأقل ليس مثلما فَعَلَ خلال العقدَين الأولَين منه.

على الرغم من حميع مُنجَزات الانتفاضة الأولى فقد كان هنالك خطرٌ داخلي كامِن وراءَ نجاحها وظهور قادَة مَحَليين أكفّاء يتمتعون بطلاقَةِ اللسان وجاذبية الخطاب. تفوَّقتْ تلك الحركة الشعبية على النُّخبة السياسية التقليدية مما شكَّلَ تحدِّياً لنفوذِهم. بعد هزيمة منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان سنة 1982 كانت المنظمةُ عالِقَةً في مَنفى عَقيم مُنهِك في تونس وعواصِم عربية أخرى. أهدَرَتْ طاقَتَها في محاولةٍ غير مثمرة في البداية لكَسبِ قبول الولايات المتحدة الأمريكية كمُحاورٍ وسيط، وكَسبِ إسرائيل كشريكٍ في اتفاقية سَلام. فوجِئتْ منظمةُ التحرير بانطلاق الانتفاضة الشعبية ولم تضيّع وَقتاً لكي تحاوِل التعاون معها والاستفادَة منها.

بما أن أغلبَ الذين بَرَزوا في الثورة داخل الأراضي المحتلة كانوا يَعتَبرون منظمة التحرير الفلسطينية قائدَتهم الشرعية وأن زعماءها يُجَسِّدون الوطنية الفلسطينية، فلم يشكّل ذلك صعوبةً تُذكَر في البداية. راقَبَ أهلُ الأراضي المحتلة عن بُعد تضحيات مقاتِلي منظمة التحرير في الأردن أثناء أيلول الأسود، وفي لبنان خلال الحرب الأهلية والاجتياح الإسرائيلي، وشَعروا بأنهم الآن يَحملون جُزءاً من عِبءِ الواجب الوطني. كانوا فَخورينَ بأن الفلسطينيين تحت الاحتلال أخَذوا زِمامَ الأمور لقيادَة الكفاح في سبيل التحرير.

المشكلةُ في هذه التطورات كانت قِصرَ النظر والرؤية الاستراتيجية المَحدودَة لدى قيادات منظمة التحرير الفلسطينية في تونس. لم يُدرِكْ كثيرٌ منهم طبيعةَ نظام الاحتلال ولا الوضعَ الاجتماعي والسياسي المعقّد للفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة بعد عَقدَين من السيطرة الإسرائيلية. وبالفعل، فإن كثيراً من هؤلاء الزعماء لم يَدخُلوا فلسطين منذ سنة 1967 أو قَبلها. كان فَهمهم للمجتمع الإسرائيلي والسياسة الإسرائيلية أكثر مَحدودِية من الفلسطينيين الذين عاشوا تحت حُكم إسرائيل وراقَبوا الإسرائيليين، وتعلَّم كثيرٌ منهم اللغةَ العبرية في عملهم داخل إسرائيل أو خلال فترة سِجنِهم (خُمسُ الفلسطينيين تحت الاحتلال دَخَلوا تلك السجون). كانت النتيجة اقتحامٌ فضولي لإدارة الانتفاضة بالتَّحكّم عن بُعد من تونس عندما سيطَرت منظمة التحرير على ما كان حركةَ مقاومةٍ شعبية. أصدَرَتْ توجيهات وأدارَتْ أموراً عن بُعد مُتجاهِلةً في أغلب الأحيان وجهات نظرِ واقتراحات أولئك الذين بَدَؤوا بالثورة وقادوها بنجاح.

أصبَحتْ هذه المشكلةُ أكثرَ حِدّة بشكلٍ واضح بعد اغتيال إسرائيل لأبو جهاد في أبريل 1988، بعد حوالي أربعة أشهر من بدء الانتفاضة. كان أبو جهاد أقربَ القادَة لعرفات وكان شخصيةً قيادية في حركة فتح منذ بداياتها وكان مسؤولاً لفترة طويلة عن التعامل مع الأراضي المحتلة أو ما كان يُسمى بالقطاع الغربي (ربما لإخفاءِ هَدَفِها الحقيقي). كان لأبي جهاد أخطاؤه ولكنه كان مراقِباً دقيقاً للوضع الداخلي في فلسطين وكانت مَعرفَتُه جيدة بالفلسطينيين والإسرائيليين هناك. كان اغتيالُهُ نتيجةً لتزايد توتّر القيادة الإسرائيلية بسبب فَشَلِها في السيطَرة على الانتفاضة. حَرَمَ اغتيالُهُ منظمةَ التحرير من قائدٍ رئيسي لم يكن بوسع غَيرِهِ أن يقومَ بِدَورِه[1]. كان اغتيال أبو جهاد جُزءاً من سياسةِ إسرائيل المستمرة في تصفية

---

(1) يَذكُر بيرغمان في Bergman, *Rise and Kill First*, 311-33، أن دَور أبو جهاد في الانتفاضة كان السبب الرئيسي لاغتياله مع الإشارة (ص 323) إلى أن بعض كبار المسؤولين الإسرائيليين لاحَظوا فيما بعد أن "الاغتيال قد فَشلَ في تحقيق أهدافه" في تهدئة الانتفاضة، ولذلك شَعروا بأن اغتياله كان خطأً بالإضافة إلى أسباب أخرى.

زعماء الفلسطينيين، خاصة أصحاب الكفاءة بينهم[1].

لم تكن خسارة أبو جهاد وعدم توفّر الخِبرة في تونس الأسبابَ الوحيدة لمَصاعب منظمة التحرير الفلسطينية في التعامل مع الانتفاضة، فبَعدَ حرب 1982 نَجَتْ منظمةُ التحرير من تمردٌ كبير مَدعومٍ من سورية بين الباقين من عناصِرها في شمال وشرق لبنان (التي أُخرِجوا منها سنة 1982) وفي سورية بقيادة اثنَين من كبار قادَتها العسكريين هما العقيد أبو موسى والعقيد أبو خالد العملة. كان ذلك أخطر تَحدٍّ داخلي لقيادة فتح منذ تأسيسها وشكّل عنصراً آخر في الهجوم السرّي على الحركة الوطنية الفلسطينية بِيَدِ أنظمةٍ عربية، سورية في هذه الحالة[2].

كان تمردُ فتح مَريراً ومُرتفع التكاليف وزادَ من قلقِ عرفات ورفاقه بشأن ظُهور منافِسين، خاصة من التّابعين لأنظمةٍ غير ودِّية. كان القَلقُ مبرَّراً بالنظر إلى جهودِ خصوم منظمة التحرير لصُنع خيارات مختلفة تُشبه عصابات القرية في الأراضي المحتلَّة. ومِنَ الجَدير بالذِّكر أن حركة حماس التي تأسَّستْ سنة 1987 (بدعمٍ سرّي من إسرائيل في البداية لإضعاف منظمة التحرير الفلسطينية)[3] كانت

---

(1) المصدر نفسه صفحة 316-317 يَسرد أن من خطَّطوا لعملية اغتيال أبو جهاد قرَّروا عَمداً التَّخلي عن اغتيال محمود عباس (أبو مازن) الذي كان بيته قريباً، ويَعتَقد كثير من الفلسطينيين منذ زمن طويل أن أجهزة الأمن الإسرائيلية لا تَستهدِف سوى أولئك الذين تتصَور أنهم مدافِعون بارزون عن القضية الفلسطينية، مما يعني أن الأخرين لا يَستحقون جُهد اغتيالهم.

(2) يمكن تقدير شدة الخلاف بين سورية ومنظمة التحرير الفلسطينية في بيرغمان، المصدر نفسه، الذي يذكُر أن عملاء سرّين للمخابرات الإسرائيلية تظاهَروا بأنهم منشقِّين فلسطينيين مرَّروا سرّاً معلومات عن عمليات منظمة التحرير إلى المخابرات السورية في قبرص. قامَت المخابرات السورية بعدها "بالتخلص من حوالي 150 شخصاً" تمت تصفيتهم عند وصولهم إلى لبنان.

(3) للاطلاع على التفاصيل انظر

Richard Sale, "Israel Gave Major Aid to Hamas," UPI, February 24, 2001, and Shaul ishal and Avraham Sela, *The Palestinian Hamas: Vision, Violence, and Coexistence* (New York: Columbia University Press, 2000).

هؤلاء الكتاب الإسرائيليين لهم اتصالات جيدة ويوضّح أن تقسيم صفوف الفلسطينيين كان هدَفَ أجهزة الأمن الإسرائيلية في صنع منافسين إسلاميين لمنظمة التحرير الفلسطينية.

قد بدأتْ تتطَور إلى منافسٍ مهمّ. كانت غِيرةُ قيادات منظمة التحرير الفلسطينية من قادَة الانتفاضة المَحَليين هي سببُ هذا القلق بشأن احتمال تجاوزهم، خاصة مع تزايد أتباعِهم داخلَ فلسطين والنظرة الإيجابية في وسائل الإعلام العالمية نحوَهم. أصبح استياءُ عرفات مشكلةً متزايدة مع تقدّم الانتفاضة ومع اقتراب تحقّق الجائزة التي حَلمتْ بها منظمةُ التحرير دائماً، وهي الحصول على مقعَدٍ في مفاوضاتٍ دولية كالممثل الشرعي للشعب الفلسطيني.

مثلما كان فَهمُهم ضعيفاً للواقع في الأراضي المحتلة وإسرائيل، لم يُدرك قادَة منظمة التحرير أبداً القَدرَ الكامِل للولايات المتحدة الأمريكية. ظلَّت مَعرفتهم عن الدولة وسياساتها ضعيفة حتى بعد 1982 باستثناء قلّة من الشخصيات في المَرتبة الثانية مثل نبيل شَعث والياس شوفاني الذي دَرَسَ في الولايات المتحدة ولكنه لم يَستطع التأثير على عرفات ورفاقِه[1]. بعضُ كبار قادَة المنظمة مثل فاروق القدّومي (أبو اللطف) رئيس القسم السياسي (وزير الخارجية بالفعل) حَضروا جلسات الجمعية العمومية للأمم المتحدة في نيويورك كل خريف، إلا أنهم كانوا ممنوعين قانونياً من السفر سوى في محيط 25 ميلاً من دَوّار كولومبوس. وعلى كل حال فقد ظلّوا معظم الأوقات داخل فنادِقِهم الفخمة خلال زياراتهم. خَرجوا نادراً لرؤية دبلوماسيين عرب أو للحديث إلى جماعات فلسطينية ولكنهم نادِراً ما ظَهَروا إلى العَلَن ولم يتعامَلوا مع جماعات أمريكية ولا مع وسائل الإعلام في نيويورك. ومن المؤكّد أنهم لم يقوموا بالنشاط الشامل الدبلوماسي وجُملةِ العلاقات العامة التي يقوم بها المسؤولون الإسرائيليون الذين كانوا ينتَشرون دائماً بشكلٍ واسِع في التلفزيون وفي اجتماعات مَحَلية، خاصة عندما يحين وقتُ الاجتماعات السنوية للجمعية العمومية.

الفشَلُ في استغلال التّواجُد الفلسطيني في الأمم المتحدة يَعني تَجاهل الناس عن قَصد والابتِعاد عن النُّخبة وعن وسائل إعلامِ القوة العظمى على وَجهِ الأرض

(1) بعد حرب 1982 انضمَّ شوفاني إلى المتمردين في حركة فتح المعارِضين لزعامة عرفات ودَعَمتْهم سورية.

والدَّاعم الأساسي لإسرائيل. يرجع هذا السلوك إلى سنة 1948 وما قَبلها. وكما شاهَدتُ سنة 1984 فإن عرفات أعطَى أهميةً للاجتماع مع زعيمِ فَصيلٍ صغير في منظمة التحرير الفلسطينية يَرتبطُ بالعراق أكبرَ من اهتمامه بالاستماع إلى نصيحة خبراء حول تغيير الرأي العام في الولايات المتحدة الأمريكية. لم يتحسَّن الوضع منذ ذلك الحين. كان لدى منظمة التحرير الفلسطينية نظرةٌ تبسيطية لهيكل الحكومة وطُرُقِ اتّخاذ القرار في واشنطن، مما جعلَها تَضَع كلّ آمالها في الحصول على اعتراف حكومة الولايات المتحدة بأنهم الممثل الشرعي للفلسطينيين وأن السَّعي الأمريكي الطَّيب نحو اتفاق جيد مع الإسرائيليين سيَتبَعُ ذلك بالتأكيد. حَمَلَ ذلك الفَهم لمسَةَ الإيمان الساذَج الذي كان لدى الأجيال السابقة من الزعماء الفلسطينيين (وكذلك كثير من الحكّام العرب حتى هذه الأيام) وأنّ الإعجابَ الشخصي لمسؤولٍ بريطاني استعماري، أو لرئيس وزراء، أو لوزير خارجية أمريكي أو رئيس يمكن أن يحلّ المشكلة. هذا الاعتبارُ الوَهمي للعامِل الشخصي في علاقات السُلطة ربما كان مُركَّزاً في خبرة التّعامل مع مستبدِّين زئبقيين متسلِّطِين ومُلوكاً مُنفَرِدين في العالَم العربي.

ربما تشكّلَ ذلك جزئياً من خلال التعامل مع المُلوك العرب الذين اعتَبروا أن وزير الخارجية الأمريكي جورج شولتز (الذي كان رئيس شركة بيكتل للإنشاءات في الخليج)، والرئيس جورج بوش ووزير خارجيته جيمس بيكر (وهما من تكساس وكان لهما علاقات سابقة مع صناعة النفط) أنهم "مؤيدون للعرب" فِعلاً مثلما كان الحال مع كثيرٍ من صانعي القرار الأمريكي منذ روزفلت، فقد كان لهؤلاء الرجال علاقات وطيدة مع إماراتِ ومَلَكياتِ البترول، غير أن ذلك لم يُتَرجَم إلى تَعاطُفٍ مع العرب بشكلٍ عام أو مع الفلسطينيين بشكلٍ خاص، ولا بشكلِ سلوكٍ ناقِد نحو إسرائيل.

كانت هذه الأخطاء في الفَهم وراء فشل منظمة التحرير الفلسطينية في التعامل بجدّية مع الرأي العام الأمريكي والمشارَكة في مباحثات السلام حتى نهاية

الثمانينيات. وعلى كل حال ففي سنة 1988 ضاعَفَت المنظمة جهودَها مَدعومَةً بالتأثير الدولي للانتفاضة وتوصَّلَتْ إلى إعلان استقلال فلسطين الذي اتُّخِذَ في اجتماعٍ للمجلس الوطني الفلسطيني عُقِدَ بالجزائر في 15 نوفمبر. تمت صياغتُهُ بشكلٍ رئيسي من طَرَف محمود درويش وساعَدَه إدوارد سعيد والمثقَّف المحترَم شفيق الحوت. تَخلَّت الوثيقةُ رسمياً عن مُطالَبة منظمة التحرير الفلسطينية بكامل أرض فلسطين وقَبِلَتْ مَبَدأ التقسيم وحَلَّ الدولتَين والحلَّ السلمي للصراع. أرفِقَتْ بها مذكَّرةٌ سياسية قَبِلَتْ قرارَي مجلس الأمن رقم 242 ورقم 338 كأساسٍ لمؤتمرِ سَلام.

نشَأتْ هذه التحولات السياسية الكبيرة في منظمة التحرير الفلسطينية عن تراكم تطورات بدأتْ منذ أوائل السبعينيات نحو قبولِ وجودِ إسرائيل وتأييدِ وجودِ دولةٍ فلسطينية إلى جانبها على الرغم من أن هذه التغيرات لم يَعتَرْف بها خصومُها الإسرائيليون. سيَتبَعُ ذلك تغيّر أكثر أهمية فيما بَعد، ففي 14 سبتمبر من تلك السنة قَبِلَ عرفات شروطاً أمريكية للدخول في مفاوضات ثنائية، وقَبِلَ في تصريحِهِ قرارَي مجلس الأمن رقم 242 ورقم 338، واعترَفَ بِحَقِّ إسرائيل في الوجود بأمنٍ وسَلام، والتَّخلي عن الإرهاب[1]. أدّى هذا الرضوخ للشروط الأمريكية إلى حصول منظمة التحرير أخيراً على انفراجٍ مع واشنطن طالَ السَّعي إليه، إلا أنه لم يَدفَع الإسرائيليين للموافَقة على التفاوض مع المنظمة ولا إلى بَدء مباحثات سَلام إلا بَعد ثلاث سنوات أخرى.

كانت أسبابُ ذلك بسيطةً، فبالإضافة إلى سوءِ افتراضاتِ زعماء منظمة التحرير بشأن الولايات المتحدة، فقد فَشِلوا في إدراكِ عدم اهتمام الأمريكان بل وازدِرائهم لمصالِح وغايات هؤلاء الزعماء (يصعب تقدير سوء الفَهم هذا في ضَوء الخيانة المؤلمة للتعهدات الأمريكية بضمان سلامة مخيمات اللاجئين في بيروت سنة

(1) "Statement by Yasser Arafat—14 December 1988," Israel Ministry of Foreign Affairs, Historical Documents, 1984-88,

1982). إلا أن الأكثر أهمية كان عدم قدرَتِهم على إدراك مدى الارتباط الوثيق بين سياسات الولايات المتحدة وإسرائيل. قيَّدتْ وعودُ كسينجر السرّية سنة 1975 صانعي القرار السياسي الأمريكي عند التعامل مع المسألة الفلسطينية. ولم تَعرفْ منظمةُ التحرير الفلسطينية أن إسرائيل كانت قد ضَمِنَتْ لنفسِها قوةَ مَنعٍ (فيتو) على أي موقفٍ تتّخذُهُ الولاياتُ المتحدة في أي مفاوضات سلام[1]، ولكن كان هنالك ما يكفي من التسريبات المؤكَّدَة في الصحافة وغيرها عن هذه الاتفاقات السرّية (بشكلٍ رئيسي من الإسرائيليين الذين كانوا حَريصين على نَشرِها)[2]، كما كانت هنالك حوادِثُ مُحرِجَة مثلما جَرى عندما اضطرَّ أندرو يونغ Andrew Young سفيرُ أمريكا في الأمم المتحدة إلى تقديم استقالَتِهِ بعد اجتماعِهِ مع مسؤولٍ من منظمة التحرير.

من المتوقع أن تكون التزامات الولايات المتحدة الأمريكية لإسرائيل واضِحة لأي مُراقِبٍ مُطّلِع، إلا أن عرفات ورفاقَهُ لم يكونوا كذلك بالتأكيد. مَنَحتْهُم الانتفاضةُ هديةً لا تقدّر بثَمَن ومَخزَناً من الثروة الأخلاقية والسياسية. كَشَفَت الثورةُ الشعبية مَحدودِيَّة الاحتلال العسكري، وأتلَفَتْ موقِفَ إسرائيل الدولي، وحسَّنَتْ مَوقفَ الفلسطينيين. بالمقارَنة مع كفاءة منظمة التحرير الفلسطينية في عقودها الأولى بوَضعِ فلسطين من جديد على خريطة العالَم، يمكنُ القول إنّ الانتفاضةَ كان لها تأثيرٌ أكثر إيجابية على الرأي العام العالمي من كل جهود منظمة التحرير غير المُجدِيَة في الكفاح المسلح. أكَّدَ على ذلك ناحوم أدموني الذي كان رئيسَ الموساد في تلك الفترة، بقولِه: "سبَّبت الانتفاضة لنا ضَرراً سياسياً أكثرَ بكثير، وآذَتْ سُمعَتنا أكثر من كلّ ما نَجَحَتْ منظمة التحرير الفلسطينية في عَمَلِهِ منذ

---

(1) *FRUS*, XXVI, *Arab-Israeli Dispute, 1974-76*, Washington, DC: US Government Printing Office, 2012, 838-40, 831-32,

(2) بينما رأينا في الفصل الرابع أن رسالة فورد إلى رابين قد نَشَرتها وزارة الخارجية الإسرائيلية في *Israel's Foreign Relations: Selected Documents* series in 1982 وأصبحتْ متوفرة على الانترنت في موقع الوزارة إلا أنها لم تُذكَر أبداً في مذكرات كيسنجر الكبيرة ولم تَنشرها الحكومة الأمريكية إلا في *Foreign Relations of the United States* series in 2012، بعد ثلاثين سنة.

وجودِها"[1]. تمكّنتْ قيادةُ منظمة التحرير باستغلال هذه المكاسِب المهمّة الجديدة من التّخلي رسمياً عن استراتيجيتِها في الكفاح المسلح من قواعد خارج فلسطين، وهو ما كان مستحيلاً على أية حال بَعد 1982، ولم تكن له بين أيديهم فرصةٌ حقيقية لنجاحِهِ، إن لم يكن ذلك في الحقيقة مُضِرّاً للقضية الفلسطينية.

أدركَ كثيرون في منظمة التحرير حتى قَبل 1982 أن الوقت قد حانَ لإنهاء الكفاح المسلح، وعندما كانوا متمركِزين في بيروت طَلَبَ قادَتُها من المفكّر الباكستاني المتميّز إقبال أحمد، الذي كان صديقاً مقرّباً من إدوارد سعيد وصديقاً لي، تقييمَ استراتيجيتهم العسكرية. عَمِلَ أحمد مع جبهة التحرير الوطنية الجزائرية في بداية الستينيات، وعَرِفَ فرانز فانون Frantz Fanon، وكان مفكّراً مَشهوراً مناهِضاً للاستعمار في العالَم الثالث. بعد زيارةِ معسكرات منظمة التحرير الفلسطينية في جنوب لبنان، رجعَ بانتقادٍ لم يُسِرّ أولئك الذين طَلَبوا نصيحَته. كان أحمد من حيث المبدأ مؤيِّداً ملتَزِماً للكفاح المسلح ضد الأنظمة الاستعمارية، مِثلَ ذلك الذي وجِدَ في الجزائر، إلا أنه كان لديه انتقادات شديدة للطريقة غير الفعّالة والضارة غالباً التي طَبَّقَتْ فيها منظمةُ التحرير هذه الاستراتيجية.

بشكلٍ أكثر جدّية على الصَّعيد السياسي وليس الأخلاقي أو القانوني، فقد تساءَلَ فيما إذا كان الكفاحُ المسلح أسلوبَ العمل الصحيح ضد إسرائيل، العَدوّ المُحدَّد لمنظمة التحرير الفلسطينية. وطَرَحَ المناقشةَ بالنظر إلى مَسار التاريخ اليهودي خاصةً في القرن العشرين فإن استِخدام القوة سيؤدي فقط إلى تقوية شعورٍ عامّ سابِق لدى الإسرائيليين بأنهم ضَحايا، وسيؤدي إلى توحيد المجتمع الإسرائيلي ويدعَم أقوى الميول المُقاتِلة في الصهيونية ويُعزّز دَعمها الخارجي[2].

---

(1) Bergman, *Rise and Kill First*, 311.

(2) سمعتُ بهذه النصيحة متضمَّنة في مذكَّرة لم أستطع الحصول على نصِّها مِن أحمد نفسه ولا مِن غيره. يمكن إيجاد بعض هذه المواضيع في اختيارات
Carollee Bengelsdorf, Margaret Cerullo, and Yogesh Chandrani, eds., *The Selected Writings of Eqbal Ahmad* (New York: Columbia University Press, 2006), 77-78, 296-97.

كان ذلك بالمقارَنة مع الجزائر حيث كان استِخدامُ جبهة التحرير للعنف (الذي شَملَ استِخدام النساء لحَملِ سِلالٍ فيها قنابل قَضَتْ على كثيرٍ من الأرواح البريئة حسب الكلمات التي استخدَمَها عادةً المحقّق الفرنسي في فيلم "معركة الجزائر" للمخرج الإيطالي غيو بونتسورفو Gillo Pontecorvo سنة 1966) ونَجَحَ في النهاية في شَطْرِ المجتمع الفرنسي وتآكُلِ تأييدِه للمشروع الاستعماري. كان انتقادُ أحمد عميقاً ومدمِّراً ولم يُرحِّب به قادَةُ منظمة التحرير الذين ظلّوا يصرِّحون عَلَناً بالتزامهم الكفاح المسلح حتى عندما كانوا يَبتعدون عن مُمارَسته. فيما وراء تفهّمه الحادّ للعلاقة الوثيقة الصهيونية والتاريخ الطويل لاضطهاد اليهود في أوروبا، فإن تحليل أحمد أدركَ بذكاء الطبيعة الفريدة للمشروع الاستعماري الصهيوني[1].

مكّنَت الانتفاضةُ السلمية في فلسطين عرفات من الاعتراف ولو متأخراً بوجهة نظر أحمد. وفي الوقت نفسه مَنَحَتْهُ فرصةَ الإجابةِ بالموافَقَة على شَرطٍ أمريكي رئيسي لبدء الحوار: التّخلي عن المقاومة المسلحة التي اعتَبرتها أمريكا وإسرائيل إرهاباً. غير أن سَذاجَة منظمة التحرير الفلسطينية بشأن الولايات المتحدة الأمريكية سرعان ما أصبَحتْ واضحة. إن اعتراف الولايات المتحدة الأمريكية في حَدِّ ذاته والحصول على مقعد على طاولة المفاوضات ليست أهدافاً استثنائية، فكلّ حركةٍ مناهِضةٍ للاستعمار سواء في الجزائر أو فييتنام أو أفريقيا الجنوبية كانت تَرغَبُ باعترافِ خصومِها بشَرعِيتِها وبالتفاوض معها للتوصُّل إلى نهاية مُشَرِّفَة في الصراع. غير أنه في جميع تلك الحالات فإن النهاية المُشَرِّفَةَ للصراع كانت تَعني إنهاء الاحتلال والاستعمار، والتوصّل بشكلٍ مثالي إلى مُصالَحة سِلمية تستندُ إلى

(1) في رسالة إلى "الرفيق" (حُذِفَ اسمُ المتلقّي) في 17 سبتمبر 1982 وقدَّم أحمد النصيحة ذاتها إلى منظمة التحرير فيما بعد: بينما دَعَى إلى "المقاومة المسلحة السرّية" ضد قوات الاحتلال الإسرائيلي في لبنان، إلا أنه أيّد في فلسطين المحتلة "تنظيمَ نضالٍ سياسي غير عنيف متشدد وإبداعي". احتفظ بنسخة من الخطاب تقدمةً من نوبار هوفسيبيان. انظر أيضاً تحليل أحمد في هذا السياق في
"Pioneering in the Nuclear Age: An Essay on Israel and the Palestinians," in *The Selected Writings of Eqbal Ahmad*, 298-317.

العَدل. كان ذلك هو الهدف الرئيسي للمفاوضات الذي سَعَتْ إليه بقية حركات التحرر. ولكن بدلاً من استغلال نجاح الانتفاضة للتمسّك باجتماعٍ يُصاغُ بشروطٍ لِمِثلِ هذه الأهداف التحررية، فقد سَمَحَتْ منظمةُ التحرير الفلسطينية لنفسِها بأن تَنجَرَّ إلى عمليةٍ صَمَّمَتْها إسرائيلُ بكل وضوح مع إذعان الولايات المتحدة لإطالة مَدى احتلالِها واستعمارها وليس لإنهائِهما.

حاوَلتْ منظمةُ التحرير الفلسطينية يائسةً الدخول في ما افتُرِضَ أنَّها محادثاتُ سَلامٍ كانت معالمها الضيقة منذ البداية مَحدودَةً بقرار مجلس الأمن رقم 242 بطُرُقٍ لم تكن في صالح الفلسطينيين. لم يتضمَّن القرار 242 أي ذِكرٍ للقضية الفلسطينية ولا للدولة العربية المُحدَّدة في قرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة رقم 181 سنة 1947، ولا حقّ عودة اللاجئين المفترَض في قرار الجمعية العمومية رقم 194 سنة 1948. كانت صياغَتُهُ الحَذِرة بشأن الانسحاب من "أراضٍ محتلَّة" سنة 1967 (بدلاً من "الأراضي المحتلّة") فإن القرار 242 مَنَحَ إسرائيل عملياً فرصةً لتوسيع حدودِها أكثر مما كانت قَبل سنة 1967. كما أنّ عرفات ورفاقَه سواء أدرَكوا ذلك أم لا فإن في قبولِهم بالقرار 242 كأساسٍ لأية مفاوضات فقد وضَعوا لأنفسِهم مهمّةً مستحيلة.

كما أنهم فشلوا في إدراك ضرورة الاستمرار في الضغط على الخَصم: لأن إنهاءَ الكفاح المسلح وتضاؤلَ الانتفاضة في أوائل التسعينيات جَعَلَ ذلك أكثر صعوبة. وعندما بدأت المفاوضات أخيراً في مدريد خريف سنة 1991، حاوَلتْ منظمةُ التحرير وقفَ الانتفاضة (لم تقف إلا أنها تلاشَتْ بعدها بسنوات قليلة)، وكأنَّ بَدء المفاوضات كانت نهاية العملية بدلاً من أن تكون بدايةً لها. وبالإضافة إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية لا يمكن أن تكون الوسيطَ النَّزيهَ بالنظر إلى الالتزامات التي قَطَعَتْها، فقد كان لإسرائيل مواقفَها المستقلة أيضاً. وهكذا فإن أية تنازلات تقدّمها منظمةُ التحرير الفلسطينية إلى الولايات المتحدة لن تكون مُلزِمَةً بالضرورة لإسرائيل، ولا لِجَعلِها أكثر تقبّلاً للتعامل مع المنظمة. في الحقيقة عندما بدأت

الولايات المتحدة أخيراً في نهايةِ إدارةِ ريغان بالحِوار مع منظمة التحرير الفلسطينية بعد بَيانها سنة 1988 فإنّ إسرائيل أصبَحتْ أكثرَ عِناداً.

كما يبدو أن منظمة التحرير لم تدركْ الأهميةَ الكاملة لاتفاقية كامب ديفيد سنة 1978 وما تلاها من اتفاق السلام بين مصر وإسرائيل سنة 1979 التي حَقَّقَ فيها مناحم بيجن صفقةً مدمِّرة لفلسطين مع أنور السادات وجيمي كارتر. كما أن انهيار الاتحاد السوفييتي أشارَ إلى أن منظمة التحرير قد خَسِرَتْ راعِياً كان غَيرَ مُتناسِق إلا أنه قدَّم لها دَعماً عسكرياً ودبلوماسياً ودافَعَ عن انضِمامها في المفاوضات بشروطٍ أقلّ شدة من تلك التي طَلَبَتْها الولايات المتحدة وإسرائيل[1]، ولكن في نهاية 1991 انهارَ الاتحاد السوفييتي وبَقيَت الولاياتُ المتحدة الضامن الدولي الوحيد والراعي الأوحَد لأية عملية تَفاوض بين الفلسطينيين وإسرائيل.

الضربة الخطيرة الثانية لموقف منظمة التحرير الفلسطينية كانت في الخطأ الكبير في حسابات ياسر عرفات وأغلب رفاقه فيما يتعلّق بحرب الخليج 1990-1991، فبَعدَ غزو العراق واحتلالها للكويت في أغسطس 1990 مباشرةً انضَمَّتْ دولُ الخليج مع جميع القوى العربية الكبرى تقريباً بما فيها مصر وسورية إلى تحالفٍ دولي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية لمواجهة ما قامَ به صدام حسين من تجاوزٍ خطير لسيادة دولةٍ من أعضاء جامعة الدول العربية، وذلك انسجاماً مع التفضيل الثابت الذي اتّبعَتْهُ الدول بعد مرحلة الاستعمار في آسيا وأفريقيا والشرق الأوسط في المحافَظة على الحدود الاستعمارية والدول التي تطوّرت ضِمنَها. وبدلاً من تأييد الكويت بقوة ضد العراق، حاوَلَ عرفات أن يَتبعَ مَساراً "مُحايِداً" وعَرَضَ التَّوسط بين الطرفَين. تم تَجاهُلُ اقتِراحِهِ من جميع الأطراف وكذلك تَجاهُلُ جهودِ

(1) كان ذلك صحيحاً على الرغم من أنه في سنة 1947 كانت موسكو إحدى المشارِكات في ولادة التقسيم الذي أنتَجَ إسرائيل التي كان وجودها مدعوماً منذ ذلك الحين، كما أيدتْ قرارَ مجلس الأمن 242 الذي رسَّخَ انتصارات إسرائيل سنة 1948 و1967. كان السوفييت متشككون في البداية بميول منظمة التحرير الفلسطينية نحو "المغامرة" واحتمال أن تَستَدرج عملاءها المصريين والسوريين والاتحاد السوفييتي إلى صراع لا يريدونه.

الوساطَة التي قدَّمتْها دولٌ أقوى مثل الاتحاد السوفييتي الذي أرسَلَ مَبعوثَهُ الكبير في الشرق الأوسط إلى بغداد دون فائدة[1].

كانت هنالك أسبابٌ كثيرة وراء القرار الغريب الذي اتَّخذتْه منظمةُ التحرير الفلسطينية بتأييد العراق أساساً، وهو تصرفٌ جَعَلَ المنظمةَ مَنبوذةً لدى دول الخليج التي اعتَمدَتْ عليها في الدَّعم المالي مما أضَرَّ بها بطرقٍ عديدة مختلفة. كان أول تلك الأسباب هو النُّفورُ القديم العميق الذي حَمَلَهْ عرفات ضد نظام حافظ الأسد المُتعَجرِف (نفورٌ كان متبادَلاً بوضوح)، وبَحثُهُ الفَوري عن رَدٍّ يُقابِلُه. كانت جُملَةُ عرفات التقليدية "القرارُ الفلسطيني المستقلّ" هي ردُّهُ المُعتاد على الجهود السورية لإكراهِ وضَبطِ والسيطَرةِ على منظمة التحرير. حاوَلتْ مصر تحقيق توازنٍ مقابلَ الضغط الذي قامَ به نظامُ الأسد، إلا أن ذلك الدَّور لم يَعد ممكِناً بعد معاهدة السلام المنفَرد التي قامَ بها السادات مع إسرائيل. كان خَصمُ سورية في العراق هو الاختيار الممكِن الوحيد الذي يستطيعُ أن يَلعَبَ دَورَ التوازن. في بدايَةِ غزو صدَّام كانت منظمة التحرير قد أصبحَتْ أكثر اعتماداً على الرعاية العراقية سياسياً وعسكرياً ومالياً، خاصةً بعد أن عَمِلَ النظامُ السوري على تقويض زعامَة عرفات بتخطيط التّمرد بين الأشقّاء ضدّهُ سنة 1982.

خَضَعَ عرفاتُ ومنظمةُ التحرير بسبب هذه التَّبعية لضغطٍ شديدٍ للتوافُقِ مع سياسة العراق التي أملَتْها تقلباتُ صدام حسين، الديكتاتور البلطَجي المُتعَجرف الزئبقي الصّارم. عاقَبَ النظامُ العراقي منظمةَ التحرير الفلسطينية مِراراً لإبقائِها تحت سيطَرتِه، وكان من بين وسائل بغداد الكثيرة لتحقيق ذلك وجودُ فصائل

(1) للاطلاع على وَصفِ بريماكوف لجهوده في مَنع الحرب (وإنقاذ واحدٍ من آخر عملاء السوفييت من حماقات زعيمه) انظر
Missions à Bagdad: Histoire d'une négociation secrète (Paris: Seuil, 1991).
أصبحَ بريماكوف بعد ذلك مباشرة رئيس إدارة العمليات الخارجية في المخابرات السوفييتية، وبعد نهاية الاتحاد السوفييتي عملَ كرئيس للمخابرات الخارجية الروسية، ثم وزيراً للخارجية، فرئيساً للوزراء.

فلسطينية صغيرة مختلفة تحت تصرُّفِها، مثل شبكة أبو نضال الإرهابية وجبهة التحرير العربي البَعثية وجبهة التحرير الفلسطينية التي يَرأسُها أبو العباس. لم يكن لدى هذه الفصائل الصغيرة قاعدة شعبية، بل كانت بشكلٍ أساسي فروعاً من المخابرات العراقية المُخيفة (على الرغم من أنه كما رأينا فإن القَتَلَة المأجورين التَّابعين لأبي نضال قد تم استِخدامُهم أحياناً بشكل سرّي من جهة النظام الليبي والنظام السوري، وكانوا مختَرَقين بعُمق من طَرَف أجهزة مخابرات أخرى). كان من الممكن لأيّ منهم القيام بعمليات لتَقويض منظمة التحرير أو للهجوم على قادَتها لإجبارها على التراجع والانضباط تحت سيطَرة النظام العراقي. وبالفعل، قَتَلَ رجالُ أبو نضال من المُفَوَّضين والقادَة لمنظمة التحرير الفلسطينية في أوروبا عدَداً مساوياً تقريباً لما فَعَلَتْهُ الموساد. اختصَّتْ هذه الجبهات لِعَددٍ من الأنظمة العربية كذلك بالقيام بعمليات إرهابية مثيرةٍ ضد مَدَنيين إسرائيليين ويهود، مثلما قامَتْ به جماعةُ أبو نضال سنة 1985 من مذابح في مطارات روما وفيينا وفي هَجمَتْها الدّامِية سنة 1986 على كَنيسٍ يهودي في اسطنبول، أو هَجمَة جبهة التحرير الفلسطينية سنة 1985 على سفينة الركاب أشيلي لورو Achille Lauro.

بالإضافة إلى الاعتمادِ على العراق، فإن عرفات وآخرين بالَغوا في تقدير الإمكانيات العسكرية العراقية في 1990-1991. وكان لديهم تقديرات مُضخَّمَة لقدرة العراق على الصمود أمام هجوم التحالف بقيادة الولايات المتحدة الذي كان قادِماً لا محالَة بَعد غَزو الكويت. هذه الرؤية الوَهمية (لم تتمكّن العراق من التغلب على إيران في حَربٍ استمرت ثماني سنوات) كانت منتَشِرة في أجزاء كثيرة من العالَم العربي. وفي الشهور التي سَبقَتْ بدء هجومِ التحالف المُحتّم أعلَنَ كثيرٌ من الأشخاص الأذكياء المطَّلِعين جيداً في فلسطين ولبنان والأردن تأكيداتِهم الواضحة العالية بأن الحرب لن تَحدث، وأنها إنْ حَدَثَتْ فسَتَنتَصِرُ العراق. وكان عرفاتُ بشكلٍ ما مَدفوعاً بالمَدِّ الجماهيري لأن قطاعات عديدة من الرأي العام العربي حَمَلَتْ هذه التصورات. أيّدَ كثير منهم استيلاء صدام حسين كضربةٍ قومية ضد "واجِهاتٍ فَرَضَها

الاستعمار" (كأنما أغلب الواجِهات والدول في المَشرق العربي لم تكن مَفروضَة استعماريـاً). كـان صدام حسين بالنسبة لهؤلاء المَخدوعين بطَلاً عربيـاً عظيمـاً، وصلاحَ الدِّين الجديد (جاء صلاحُ الدِّين الأصلي من تَكريت مَسقَطِ رأسِ صدام حسين)، الذي من المؤكَّد سيَنتَصر على الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها.

الاستثناءُ الوحيد للغَباء الجَماعي في منظمة التحرير الفلسطينية كان رئيس مخابراتها أبو إياد وهو من أذكى القادَة الكبار وأكثرهم مَعرفة. أدركَ أن الطريق التي تـم اختيارها ستؤدي إلى كارثة وقد حارَبَ بقوة ضد قَرار تأييد العراق وأثـارَ مناقشات ساخِنة مع عرفات. فبالإضافة إلى الأسباب الواضِحة في موقِفه كان قَلِقـاً بشأن حمايةِ المجتمع الفلسطيني المُزدَهر في الكويت الذي كان يضمّ مئات الآلاف منهم. عاشَ هو وعرفات في الكويت واشتَغَلوا فيها بضعَ سِنين وكـان لديه علاقات وثيقة بالمجتمع الذي شكَّل واحدةً من أقوى القواعد الشعبية والمالية لمنظمة التحرير في العالَم. كما أن الكويت نفسها كانت داعمةً لمنظمة التحرير وكانت الدولة العربية الوحيدة التي تمتَّع فيها الفلسطينيون بحرّية التّعبير، وكانت لهم مَدارسهم ويمكنهم التنظيم لدعم منظمة التحرير طالما أنهم يَبتَعدون عن التَّدخل بسياسات الكويت. ناقَشَ أبو إياد بأن فَشَل عرفات في معارَضة غَزو صدام الانتحاري للكويت سيُضعِفُ منظمةَ التحرير ويُعرِّضُ الفلسطينيين هناك لتدميرِ مجتمعِهم ويعرّضهم لتهجيرٍ قَسري جديد.

تطوَّرت الأمور مثلما تَنبَّأ أبو إياد بالضبط ولكنه دَفَعَ ثمن تهوره (رويَ أنه انتَقَد صدام حسين خلال حضورِه شخصياً)[1]، وقد اغتيل في تونس في 14 يناير 1991 قَبل ثلاثة أيام من بدء هجوم التحالف الذي قادَته أمريكا. كان القاتِلُ من شِبكة أبو نضال (ولا شك بالتالي من العراق) وكانت أجهزة مخابرات منظمة التحرير بقيادة أبو إياد تلاحِقهُ منذ سِنين. خسارةُ أبو إياد بعد ثلاث سنوات من اغتيال أبو جهاد لم تترك

(1) Elizabeth Thompson, *Justice Interrupted: The Struggle for Constitutional Government in the Middle East* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2013), 249.

أحَداً في القيادة العُليا لحركة فَتح بمكانَةٍ أو إرادَةٍ مواجَهة عرفات، مما رسَّخ تمسُّكه وعِناده.

لم تتأخر نتائجُ قرار عرفات الخاطئ، وبدأت بالاقتِلاع المأساوي لمئات آلاف الفلسطينيين من الكويت بعد تحريرِها. أَوقَفتْ دولُ الخليج كلَّ الدعم المالي لمنظمة التحرير الفلسطينية التي أصبَحتْ مَنبوذةً في كثيرٍ من الدول العربية بما فيها تلك التي وافَقَتْ على استِضافة عناصِرها بعد الخروج من بيروت سنة 1982. وهكذا وجَدَتْ منظمةُ التحرير نفسَها بعد حرب الخليج 1990–1991 وحيدةً بدون أصدقاء لأول مرة في تاريخها. كانت الجبالُ الجليدية التي طافَ عليها عرفات ورفاقه تذوبُ بسرعة وكانوا مُتلهِّفين بشدة للقَفز إلى أرضٍ صَلبة.

صادَفتْ تلك الأزمةُ فترةً من نشوة النصر في أمريكا بانتصارها في العراق وانهيار الاتحاد السوفييتي. أشادَ جورج بوش الأب في خطاب الاتحاد في يناير 1991 "بالنظام العالَمي الجديد" و"القَرن الأمريكي الجديد". كانت إدارة بوش الأب مُصِرَّةً على استغلال الفرصة التي مَنحَتْهم إياها حماقَةُ صدام لتشكيل وصِياغة نظامٍ عالمي جديد يَحتاجُ برأيهم إلى حَلِّ الصراع العربي الإسرائيلي. أدركَ الدبلوماسيون الإسرائيليون والأمريكان أن موقفَ منظمة التحرير الفلسطينية التفاوضي كان ضَعيفاً، وفي هذا السياق بَدأ وزير الخارجية جيمس بيكر في التخطيط لمؤتمر سلام يُعقَد في مدريد في أكتوبر 1991 أمَلاً ببَدء مفاوضات مباشرة بين العرب وإسرائيل وتقرير مصير فلسطين. عندما عَرَضَ على عرفات ورفاقِه أخيراً مقعداً بالوكالة على طاولة المفاوضات كانوا تحت ضغطٍ كبير ومتلَهِّفين بشدة لمُغادرة موقِفهم الهَشّ في تونس وغيرها لدرجة أنهم لم ينتَبهوا لتَقدير مَدى ضَعف موقِفهم. وهكذا كانت النَّكسات التالية في مباحثات مدريد وواشنطن وأوسلو وما بَعدها تَرجِع أساساً إلى سوءِ حسابات منظمة التحرير الفلسطينية بشأن الكويت.

زرتُ فيصل الحسيني في صيف 1991 بينما كنتُ أقومُ ببحثٍ في القدس. كان فيصل قريباً لي بالمُصاهَرة، وكان حتى وفاتِه المبكرة في الكويت أهمَّ قائدٍ فلسطيني

في القدس، وشخصيةً رئيسية في حركة فتح. ذهبتُ للتشاور بشأن مشكلةٍ صغيرة بين بعضِ أبناء عمومتي (لديَّ عائلة كبيرة منقسِمة أحياناً في القدس). طَلَبَ منّي فيصل بشكل غَير متوقَّع إذا كنت أوافِق على العمل كمستشار في وَفدِ التَّفاوض الفلسطيني إلى مؤتمر سِلامٍ سيُعقَد في أمريكا. كنتُ أعرفُ أن منظمة التحرير الفلسطينية قد طلبَتْ من الحسيني وحَنان عَشراوي وحيدر عبد الشافي وغيرهم التفاوض مع جيمس بيكر بشأن القواعد الأساسية للمؤتمر وتَشكيل الوَفد. كما عرفتُ أن رئيسَ الوزراء الإسرائيلي إسحاق شامير كان يُعارِض بعِناد مشارَكة منظمة التحرير في أي مفاوضات بشأن خَلقِ دولة فلسطينية، ولذا كنتُ متأكّداً من أن المؤتمر لن يُعقَد أبداً. رضَختُ لطَلَبِ فيصل دون أن أُعيرهُ مزيداً من التفكير. وشَكرتُهُ على نصيحتِهِ بشأن مشكلة عائلتِنا وغادرتُ.

وجَدتُ نفسي في مدريد بعد أشهر قليلة في أواخر أكتوبر 1991 بعد أن فَشلتُ في إدراكِ صلابة بيكر أو يأس قيادة منظمة التحرير في تونس. في بداية المؤتمر، كان الخطاب المحترَم الذي قدَّمَهُ عبد الشافي رئيسُ الوفد الفلسطيني والظهور المؤثِّر لعَشراوي في وسائل الإعلام قد مَنَحَ كثيراً من الفلسطينيين انطباعاً بأنّ قضيّتهم قد حَصَلَتْ أخيراً على الانتباه وأن تضحيات الانتفاضة لم تكن عَبَثاً. غَيرَ أن غيوماً مختلفة خَيَّمَتْ على المؤتمر وعلى جميع المباحثات الثنائية التي تَلَتْهُ مع الإسرائيليين في مدريد ثم في واشنطن. رضَخَتْ منظمةُ التحرير الفلسطينية من خلال بيكر لشروط شامير بأنه يجب ألا يكون هناك وَفدٌ فلسطيني مستقلٌّ في مؤتمرٍ هَدَفُهُ تقرير مصير فلسطين. وهكذا ارتبطتُ كمستشارٍ في وَفدِ أردني-فلسطيني مشتَرَك.

بالطبع لم يكن في الأمر جديد بإقصَاءِ الفلسطينيين عن دَورٍ مستقلٍّ في قراراتٍ تتعلَّقُ بحياتهم (سُمِحَ للوَفد الفلسطيني في النهاية بالانفصال عن وَفدِ الأردن)، ولكن المَنع الإسرائيلي امتدَّ إلى اختيار الممَثلين الفلسطينيين كما مُنِعَتْ مشارَكةُ أيِّ شخصٍ له علاقة بمنظمة التحرير أو من القدس أو من الشّتات (مما قَلَّصَ بشدة مَجال اختيار الممثّلين الجاهزين)، وبفضل تدخّل بيكر سُمِحَ لزعماءٍ تم إقصاؤهم

وفقَ هذه الشروط مثلَ الحسيني وعَشراوي وساري نسِيبه بالانضمام إلى الوَفد، بالإضافة إلى مُستشارِين وخبراء قانونيين ودبلوماسيين مثل رجاء شحادة وكميل منصور وأنا. ولكننا مُنِعنَا مِنَ المباحثات الرسمية مع الإسرائيليين. لم يردَعْ منظمةَ التحرير الفلسطينية إذلالُ آلية فَرضِ إسرائيل مع مَن تتفاوَض وبأي شَكلْ، ولكنّ مزيداً من الإذلال كان قادماً.

أصَرَّتْ حكومةُ شامير على تحديد مَن يُسمَحُ لَهُ بالحِوار وفي أيةِ قَضِيَّة، وأصَرَّتْ على أنّ الممنوعات التي وضَعَها بيجن بشأن فلسطين في اتفاقات كامب ديفيد واتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل سنة 1979 ستُطَبَّقُ أيضاً في أيام مؤتمر مدريد الثلاثة وخلال أشهر الحِوار التالية في واشنطن: بالنسبة للفلسطينيين لم يكن على طاولة المفاوضات سوى الحُكم الذاتي سواء كان ذلك باسم "الحُكم الذاتي" أم بشكل "حكومة حُكمٍ ذاتي" ولا حتى "حُكمٌ ذاتيٌّ مؤقَّت"، ولكن كل عنصرٍ مهمٍّ مثل: حقّ تقرير المصير للفلسطينيين، السيادة، عودة اللاجئين، إنهاء الاحتلال والاستعمار، مصير القدس، مصير المستوطنات الصهيونية، السيطرة على الأرض وحقوق المياه... جميعها لم يُسمَح بها بل تمّ بدلاً عن ذلك تأجيل هذه القضايا ربما لمدة أربع سنوات، ولكن في الواقع حتى مستقبلٍ آخر لم يأتِ بَعد. وخُرافَةُ مباحثات "الوَضع النهائي" التي كان من المفروض أنْ تَنتَهي سنة 1997 (أُجِّلَ هذا الموعد المحدَّد إلى 1999 فيما بَعد في اتفاقية أوسلو)، إلا أنها لن تتم أبداً. وفي تلك الأثناء خلال الفترة الانتقالية التي كان من المَفروض ألا تمتد أكثر من ذلك فقد سُمِحَ لإسرائيل أن تفعَل بالضبط كما كانت تريد في جميع هذه المَجالات. وهكذا أُجرِيَت المباحثات الفلسطينية خلال التسعينيات في مدريد وغيرها في ظِلِّ قواعد مَفروضَة تُحدِّد مَجال الحِوار تحت شروط استعمارِهم واحتلالِهم. استمر التَّلويحُ أمامهم باحتمال الخَلاص في المستقبل من هذه الشروط من جِهَةِ رُعاةِ مؤتمر مدريد، ولكن الفلسطينيين في الأراضي المحتلَّة استمروا في العِيش والمُعاناة تحت تلك الظروف المَرحَلية مدة ربع قَرن آخر.

كانت الولايات المتحدة الأمريكية ظاهرياً الرَّاعية المشتَرَكة للمؤتمر مع الاتحاد السوفييتي الذي كان مُشرِفاً على الزَّوال وكان دَعمُهُ إسمِيّاً، وفي الواقع اتَّخذَ بيكر وبوش جميعَ القرارات. كانت قواعد واشنطن مُتضَمَّنَةَ بِحَذَرٍ في رسالةِ الدَّعوة المَكتوبة المُرسلَة لجميع الأطراف بمَن فيهم وفودُ سورية ولبنان والأردن[1]. وفي التزامٍ رَصينٍ في رسالة الدَّعوة تَعهَّدَت الولايات المتحدة بأنها "ستتصرفُ كوسيطٍ شريفٍ لمُحاوَلة حَلٍّ الصراع العربي الإسرائيلي بطريقةٍ شامِلة"[2]، كما أُعطِيَتْ خطاباتُ تأكيدٍ مُفصَّلَة لكل وَفد. في خطاب التوكيد الذي أُعطِيَ للفلسطينيين أَلزَمَت الولايات المتحدة الأمريكية نفسَها "بتشجيعِ جميع الأطراف لتَجَنّب أفعَالٍ من طَرَفٍ واحِد يمكن أن تزيد التوترات المَحَلية أو تَجعَلَ المباحثات أصعَب أو تَستبَقَ نتائِجَها النهائية" وأكَّدتْ على "ألّا يقومَ أيّ طَرف بأية إجراءات من جانب واحِد سَعياً وراءَ قضايا مُسبَقَة لا يمكن أن تُحَلَّ إلا من خلال المفاوضات"[3]. لم تُنَفِّذ الولاياتُ المتحدة هذه الالتزامات وفَشِلَتْ في مَنعِ سِلسِلةٍ لا نهائية من الأعمال الإسرائيلية من جانب واحِد مثل توسيع المستوطَنات ومَنعِ أهلِ الضفة الغربية وغزة من دخول القدس وبناءِ شبكةٍ هائلة من الجدران والحواجز الأمنية ونقاط التفتيش.

عندما وصَلوا إلى مدريد، لم يَعلَم أيّ من بقية أعضاء الوَفد الفلسطيني بتعهُّد جيرالد فورد سنة 1975 الذي أعطاهُ إلى رابين بِرَفضِ طَرحِ أيّ مُقتَرَحٍ للسلام لا تُوافِقُ عليه إسرائيل، ولم أعلَم به كذلك[4]. كنا نعلمُ جميعاً باتفاقية كامب ديفيد

---

(1) "U.S.-Soviet Invitation to the Mideast Peace Conference in Madrid, October 18, 1991" can be found in William Quandt, *Peace Process: American Diplomacy and the Arab-Israeli Conflict Since 1967*, 3rd ed. (Washington, DC: Brookings Institution Press, 2005), appendix N.

(2) Ibid., appendix N.

(3) The letter of assurances to the Palestinians was dated October 18, 1991. See ibid., appendix M.

(4) كما ذُكِرَ في الفصل الرابع وفي أعلاه، لم تَنشر حكومة الولايات المتحدة هذا الخطاب إلا بعد أن نُشِر في *Foreign Relations of the United States* series in 2012. إلا أن وزارة الخارجية الإسرائيلية نَشَرته قبل ذلك بعشرين سنة في 1982 قبل مدريد بكثير.

سنة 1978 وبتَحيّز الولايات المتحدة لإسرائيل وتحيّز كثير من الدبلوماسيين الأمريكان لها، ولكننا لم نَعلَم الدرجةَ التي رَبطَ بها كيسنجر خُلفَاءَهُ بالبرنامج الإسرائيلي. لو أدرَكتُ درجةَ عُمقِ ارتباطِ الولايات المتحدة الأمريكية بهذه الطريقة الرسمية التي ضَمِنَتْ لإسرائيل موقِفها ومَوقف الدولة التي تَرعاها فلربما لم أذهَبْ إلى مدريد ولن أضيّع كثيراً من الوقت خلال سنتَين من التورط في محادثات واشنطن. وحتى لو استطَعتُ تَبادُلَ هذه المعلومات مع أعضاء الوَفد (الذين كانوا جميعهم من الأراضي المحتلّة بلا خبرة دبلوماسية على الرغم من أنهم أثبَتوا أنهم مُفاوِضون بارِعون) فلربما لَن يُحدِثَ ذلك فارِقاً يُذكَر.

جميعُ القرارات المهمّة في الجانب الفلسطيني كان يَتَّخذُها قادَةُ منظمة التحرير الفلسطينية في تونس. كانوا حَريصين على وجودِهم في عملية التفاوض والخروج من عِزلَتِهم لدرجة أنني أعتقد أنهم حتى لو كانوا يَعرفون بالالتِزام الوثيق الذي رَبَطَ الولايات المتحدة بالمَسار الإسرائيلي فسَيقومون في الغالب بارتكاب الأخطاءِ نفسها التي وقَعوا فيها أثناء المباحثات. لقد اختاروا أن يضَعوا كلّ آمالهم في سَلَّةِ حكومة الولايات المتحدة الأمريكية التي كانت مضطَّرة للإفصاح فقط عن وجهات نَظَرٍ تمّ قبولها من جانب إسرائيل، وذلك بسبب قلّة الحلفاء لدى الفلسطينيين إقليمياً ودولياً، وقدرتِهم المحدودَة في الضغط على إسرائيل، وإدراكِهم البسيط لطبيعة الاحتلال وغموض القضايا القانونية المَطروحَة. والأهمّ من ذلك هو عدم وجود الصبر والأناة عندَهم في تحليل التفاصيل القانونية التي تَقتَضيها المباحثاتُ مع الدبلوماسيين الإسرائيليين الخُبراء، ولا الاستراتيجية البعيدة المَدى التي قد تُرهِقُ العِناد الإسرائيلي في القضايا الرئيسية التي تتعلّق بالسيطِرة على الأرض، أو بالتوسُّع في المستوطَنات والقدس.

حقَّقَ مؤتمرُ مدريد وظيفَتَهُ بِجَمعِ كلّ الأطراف مع بعضهم لبَدء عملية تَفاوض شامِلة. تَبِعَتْهُ مَساراتٌ عديدة مختلفة: انطلَقَتْ ثلاثُ دولٍ عربية هي سورية ولبنان والأردن في مباحثاتٍ ثنائية مع إسرائيل بشأن اتفاقياتِ سَلام نهائية. بينما استَغرَقَ

المَسار الفلسطيني بعد فَصلِهِ عن مَسار الأردن عشرة اجتماعات على مَدى سنة ونصف مع ممثلين إسرائيليين في وزارة الخارجية الأمريكية بواشنطن. ظَلَّتْ هذه الاجتماعاتُ مَحصورةً في موضوعِ حُكمٍ ذاتيٍّ مَحدودٍ في الضفة الغربية وقطاع غزة. كانت هناك مُعوقاتٌ كثيرة مَنعَت التقدم في واشنطن مثل: قيادة منظمة التحرير الخاطِئة للمباحثات، ودَور الولايات المتحدة المُخادِع، وعِناد الإسرائيليين في شؤون حقوق الفلسطينيين، وبينما اكتَسَبَ المُحاورون الفلسطينيون ومُستشاريهم تدريجياً خبرة قانونية ودبلوماسية، لم يكن لدى القادَة في تونس إدراك لأهمية ذلك في العمَلية.

زادَ في أهمية ذلك الدَورُ المُحَرِّفُ الذي لعِبَتْهُ الشخصيات الأمريكية المشارِكة تردُّدُ كثيرٍ منهم في دَفعِ إسرائيل في أيّ مسألةٍ مهمّة، مثل توسيع المستوطَنات ووضع القدس خلال الفترة الانتقالية، أو مَدى التَّحكم الذي سيَتمتَّع به الفلسطينيون على المناطق والسكان التي ستُصبح تحت حُكمٍ ذاتيٍّ إسمياً. مهما كانت القضية تحت البحث فقد كان الممثلون الأمريكان يلتَزمون بالموقِف الإسرائيلي كما يَفهَمونَه، وبأنه السَّقف الممكِن أو الذي يمكِن أن يُناقَش. عَرفنا أنهم كانوا يُنَسِّقون جيداً مع رفاقِهم الإسرائيليين، والتَزَمَ بعضُهم بالتّعهدات الأمريكية (السرّية) لإسرائيل إلى دَرجَة قُصوى. استَخدَم الموفَدُ الأمريكي آرون ديفيد ميللر Aaron David Miller فيما بَعد آسِفاً تعبيرَ "محامي إسرائيل" في وَصفِ مَوقِفِهِ ومَوقِف كثيرٍ من زملائه[1]. يبدو أن الاصطلاح قد صَاغَهُ هنري كيسنجر بكفاءةِ مَن يَعرف جيداً مَدى مُناصَرة أمريكا لسياسة إسرائيل[2].

كان جيمس بيكر يَختلفُ كثيراً في هذه الناحية عن أيٍّ مِن مَرؤوسِيه، فقد كان رَجُلاً يمتلكُ حِسّاً دبلوماسياً دقيقاً غير عادي ومهارةً فائقة في طُرُقِ استِخدامِ القوة. فقد أدركَ هو وبوش فوائد الحَلِّ الشامل للصراع العربي الإسرائيلي لمَصالح

(1) Aaron David Miller, "Israel's Lawyer," *Washington Post*, May 23, 2005.
(2) Aaron David Miller, *The Much Too Promised Land* (New York, Bantam, 2008), 80.

الولايات المتحدة بعد الحرب الباردة، وفَهِمَ أن التوصل لاتفاقية دائمة سيَحتاج للضغط على إسرائيل. كما أن بيكر كان يمتلكُ من القوة والجرأة والعلاقة المُقرَّبَة من الرئيس لتَجَاوز الحدود التي وَضَعها كيسنجر سنة 1975 على حرية تَصرّف الولايات المتحدة، أو على الأقل تفسير تلك الحدود بشكلٍ مَرِنٍ على ضوء ما يراه في مصلحة الولايات المتحدة. وقد فَعلوا ذلك لكي تَبدأ المباحثات: عندما حاصَر شامير الجُهدَ الأوليّ للإدارة في رعاية المؤتمر، لم يتردَّد بيكر في مواجهَةِ حكومةِ شامير عَلَناً بقولِهِ "عندما تكونون جادِّين بشأن السلام، اتَّصِلوا بنا" وأعطاهُم رقمَ هاتفِ البيت الأبيض[1]. دَفَعَ بيكر بقوة لمشارَكة الفلسطينيين في مدريد مقابِلَ عِناد شامير المتشدّد. شَعرَ اولئك الذين قابَلوا بيكر منّا بأنه كان لديه تعاطف مع مُعاناة الفلسطينيين تحت الاحتلال وفَهِمَ مَدى استيائنا من القيود السخيفة التي وضَعَتْها حكومةُ شامير. كان ذلك التعاطف جزئياً نتيجةَ تَعامُلِهِ الطويل مع الحسيني وعَشراوي وعبد الشافي وزملائهم خلال اجتماعات التحضير للمؤتمر.

غَيرَ أنّ بيكر لم يكن مُستعِداً وقادِراً على فِعل الكثير، وكان من بين أهمّ الأشياء التي لم يَفعلها هو ضَبطُ أعمالِ الإسرائيليين التي غَيَّرَتْ بشكلٍ مَنهَجيّ الوَضعَ القائِم في فلسطين بينما كانت المباحثاتُ مستمرة. اشتَملتْ هذه الأعمال على بِناء مستوطَناتٍ ومَنعِ سكان بقية مناطق الضفة الغربية من دخول القدس. كانت هذه الأعمال مُخالَفاتٍ خطيرة لتَعهدات الولايات المتحدة الأمريكية الموجودة في خِطابِ ضَماناتِ بيكر. ومن وجهَةِ النظر الفلسطينية كانت إسرائيل بهذه الأعمال تأكلُ بشكلٍ استِباقيٍّ الأرضَ التي اتَّفَقَ الطَّرفان على تقاسُمِها في الوقت الذي استغلَّتْ فيه مَنعَ الوَفد الفلسطيني من الحديث عن قضايا الوَضع النهائي. على الرغم من أن نَفاذ صَبر إدارة بوش من عَرقَلة شامير واستمرار استعمار الضفة الغربية قد أدّت إلى وَقف ضَمانات قروضٍ بقيمة عشرة بلايين دولار كانت إسرائيل قد طَلَبَتْها لِتَوطِينِ المهاجرين من اليهود الروس، إلا أن ذلك

(1) "'When You're Serious, Call Us,'" *Newsweek*, June 24, 1990.

لم يكن له تأثير يُذكَر على الحكومة الإسرائيلية[1]، ولن تَفعَل واشنطن أكثر من ذلك.

وعلى كل حال غادَرَ بيكر وزارة الخارجية بعد عشرة أشهر من مدريد في أغسطس 1992 لكي يُديرَ حَملةَ بوش الرئاسية المُتعثِّرة. منذ ذلك الحين استلَمَ إدارةَ المباحثاتِ المسؤولون الأصغر الذين كانوا تحت رئاسة بيكر الصّارِمة حينما كان وزيراً للخارجية، ولم يمتَّعوا بمَكانَتِه ولا بإرادَتِه الحديدية في التّعامل مع إسرائيل ولا رؤيتِه العادِلة ولا بَصيرَتِه. استمر ذلك الوَضع بضعة أشهر في إدارة بوش ثم تدَهورَ تحت إدارة بيل كلينتون الذي رَبِحَ الانتخابات في نوفمبر وجاءَ معه وزيرا الخارجية العادِّيان وارن كريستوفر ومادلين أولبرايت. لم يَتمتَّع أحَدٌ في القيادات العليا للإدارة الجديدة بتصورٍ جيد للمباحثات ولا لإسرائيل ولا للقضية الفلسطينية مثلما كان لدَى بوش وبيكر. وكانوا جميعاً تحت التأثير القوي للمسؤولين الذين وَرِثوهم من إدارةِ بوش، خاصة دينيس روس.

كان لدى كثير من هؤلاء الخبراء تقارُبٌ شخصيّ قويّ مع الصهيونية العُمّالية وإعجابٌ عميق برابين الذي أصبح رئيسَ الوزراء في يونيو 1992 (وانطَبَقَ ذلك الإعجاب أيضاً على بيل كلينتون). أسَّسوا شهرتَهم ومهنيتَهم على إنجازِ ما سمّيَ بعملية السلام التي كانت تسير ببطءٍ منذ اجتماع قمّة كامب ديفيد سنة 1978. ظُهورُ هؤلاء المحتَرفين في عملية السلام كان نهاية جِيلٍ ممن يسمَّونَ بالمُستَعربِين في وزارة الخارجية والفروع الأخرى في الحكومة. كان المُستَعرِبون قُدامَى العامِلين في خِدمَةِ الحكومة بمنطقة الشرق الأوسط ويتَمتَّعون بقدراتٍ لُغَويةٍ واسعة وأضافوا إلى أعمالِهم فَهماً عميقاً للمنطقة ومَوقف الولايات المتحدة فيها. وكثيراً ما كانوا يتعرَّضون للذَّم من جبهاتِ جماعاتِ الضغط من أمثال لجنة العلاقات العامة الأمريكية-الإسرائيلية (الأيباك AIPAC) بصِفَتِهم مُعادِين لإسرائيل، في حين أنهم

(1) John Goshko, "Baker Bars Israeli Loan Aid Unless Settlements Are Halted," *Washington Post*, February 25, 1992.

كانوا في الواقع ببساطة لم يمثّلوا وجهَةَ نَظَرِ إسرائيل على العَكس من غالبية الذين جاؤوا بَعدَهم[1].

خَلَفَهُم رجالٌ تَورَّطوا في هذه القضية مع استثناءِ كل قضية أخرى تقريباً: أصبحَتْ كلمةُ دزرائيلي Disraeli "الشرقُ مِهنَة" وكأنها "عملية السلام مِهنَة". كان لديهم بشكلٍ عام خبرةٌ أكاديمية، مثل دينيس روس، ومارتن إنديك، ودانييل كورتزر Kurtzer Daniel وميللر الذين كانت لديهم شهادات دكتوراة[2] إلا أنهم لم يَخدموا سنوات في الشرق الأوسط ولم يكن لديهم تعاطُف خاصّ مع المنطقة وسكّانها فيما عَدا إسرائيل. عَمِلَ بعضُهم فيما بَعد سفراءَ للولايات المتحدة، كورتزر في مصر وإسرائيل، إنديك في إسرائيل، وغيرهما كمُساعِدين في وزارة الخارجية للشرق الأوسط، أو رؤساء تخطيط السياسة في وزارة الخارجية وفي مجلس الأمن القومي.

كان عميدُ هؤلاء المِهَنيين في عملية السلام وأكثرهم تَحزُّباً هو دينيس روس، وكما قالَ لَهُ أحدُ كبار المسؤولين في وزارة الخارجية: "عادةُ روس السيئة هي التّشاور المُسبَق مع الإسرائيليين"[3]، وكان آخَرٌ غيره أكثرَ غَمزاً حين قالَ إنّ روس كان مَيالاً "للاستسلام المُسبَق لقبول الخطوط الحمراء"[4]. خلال العُقود التي

(1) نَصٌّ رئيسي عن الحَملة ضدهم في Robert Kaplan, *Arabists: Romance of an American Elite* (New York: Free Press, 1995) الذي استَند إلى سلسلة من المقالات اللاذعة في صحيفة *Atlantic*. ناقدٌ آخر للدبلوماسية الأمريكية ودراسات الشرق الأوسط في Martin Kramer, *Ivory Towers on Sand: The Failure of Middle Eastern Studies in America* (Washington, DC: Washington Institute for Near East Policy, 2001). وهو من طلاب برنارد لويس وواحدٌ من سلسلة طويلة من المنتقدين اليمينيين المتشددين للسياسات الغربية في الشرق الأوسط لأنها لا تؤيد إسرائيل بدرجة كافية وليست مناهِضة للعرب ويرجع ذلك إلى الأكاديمي البريطاني إيلي قدوري المولود في بغداد.

(2) حصَلَ روس وإنديك على شهادة الدكتوراة في العلاقات الدولية (وهكذا لم يكونا خبراء في شؤون الشرق الأوسط)، كما كانت شهادات كورتزر وميللر في دراسات الشرق الأوسط.

(3) Roger Cohen, "The Making of an Iran Policy," *New York Times Magazine*, July 30, 2009.

(4) Peter Beinert, "Obama Betrayed Ideals on Israel," *Newsweek*, March 12, 2012.

استَلَمَ فيها روس هذا المَلف أصبح التِزامُهُ العميق بإسرائيل أكثر وضوحاً خاصةً بعد أن تَرَكَ العمل الحكومي سنة 2011 (كان في مَنصِبٍ حكومي بشكلٍ متقطّع منذ منتصَف السبعينيات). أصبح بَعدَها عملياً عضوَ جماعةِ ضغطٍ لصالح إسرائيل فيما عَدا اللَّقَبَ الرسميّ، ورئيساً لمَركز تخطيط السياسة للشعب اليهودي Jewish People Policy Planning Institute وهي منظمةٌ أسَّسَتْها ومَوَّلَتْها الوكالةُ اليهودية، كما كان عضواً متميّزاً في مركز واشنطن لسياسة الشرق الأدنى Washington Institute for Near East Policy الذي تَدعَمُهُ الإيباك والذي شارَكَ في تأسيسِهِ مع مارتن إنديك. كما عَمِلَ قَبلَ ذلك لصالح الإيباك وأصبحَ شخصيةً رئيسية في المفاوضات خلال إدارة كلينتون (التي رتَّبتْ موافَقةً سريعةً لحصول هذا المواطِن الاسترالي على الجنسية الأمريكية لكي يَستلِم مَنصِباً حكومياً سنة 1993)[1].

كان تحيّز دينيس روس وبعض زملائه واضحاً في جميع تعاملاتِنا معهم. كانت سِمتُهم الرئيسية هي أنهم قَبِلوا مواقف إسرائيل كحُدودٍ لما يُسمَحُ به في شروط الولايات المتحدة الأمريكية. كانت هذه الرؤية بالنسبة لروس وزملائه متأصِّلة في جذورِ معتَقَداتِهم، وبالفعل، دَفَعَ روس تحيُّزُهُ هذا نحو إسرائيل أكثر بحيث أصبحَتْ تقديراتُه لما سترفُضُه إسرائيل هي ما لَن تؤيِّدُهُ الولايات المتحدة كذلك. غالباً ما كانت تقديراتُهُ تلك مُخطِئة، فقد اعتبَر أن الاعترافَ بمنظمة التحرير الفلسطينية ودخولَها في المفاوضات غَيرَ مَقبولٍ لإسرائيل على الرغم من أنَّ رابين قد قَبِلَ هذه الشروط في النهاية. خلال إحدى فترات الجمود في واشنطن حين رفض الجانب الأمريكي بعناد تقديم أفكاره، إلا أنه وافَقَ على تقديم ما سمَّاه

(1) أصبَحَ إنديك بعد ذلك سفيراً للولايات المتحدة في تل أبيب حيث اعتُبِرَ هذا المُدافِع القديم عن مصالح إسرائيل في واشنطن على أنه لين جداً، وكذلك اعتُبِرَ زميلُه دان كورتزر عندما شغل المنصب نفسه. لم يَنجُ أي منهما من الإساءة المبتَذَلة المستمرة من جهة اليمين المتطرف الإسرائيلي على الرغم من أنهما كانا يهوديين.

"اقتراحُ سَدِّ الفَجوَة". طَرَحَ دينيس روس بكل فَخر ذلك الاقتراح الذي لـم يَسُدَّ أيةَ فَجوَة بل كان أقلّ من الموقف الأخير الذي طَرَحَهُ الإسرائيليون أنفسُهم بشكل غَير رسميّ[1]. كان تحيُّز روس واضحاً في مرحَلةٍ أخرى أثناء المحادثات عندما سَمِعتُهُ يُهدِّدُ بأنَّهُ إذا لـم يَقبَل الوَفد الفلسطيني نقطةَ خلافٍ ضَغَطَتْ عليها إسرائيل فإنّ واشنطن ستَطلُبُ من "أصدقائها في الخليج" أن يضغَطوا عليهم.

كانت العقبات التي وضَعَتْها إسرائيلُ من طبيعةٍ أخرى مختلفة، فعندما كان شامير رئيساً للوزراء كان هنالك جِدالٌ مستمر حول الإجراءات وحِوار مؤلِم بين طرشان فيما يتعلّق بجَواهر الأمور. كانت إسرائيل مُتشَبِّثةٌ برؤية بيجن التي أُعلِنَتْ في كامب ديفيد سنة 1978 بشأن حُكمٍ ذاتيّ للشعب وليس للأرض. وكان ذلك باتِّساقٍ مع رؤيةِ حقوقِ إسرائيل وجَوهر العقيدة الصهيونية بأن شعباً واحداً هو الشعب اليهودي له الحقّ الشرعي بالوجود والسيادة على كامل الأرض التي سُمِّيَتْ أرضَ إسرائيل وليست فلسطين. وكان الفلسطينيون في أفضَل الأحوال مجرَّدَ مُتطَفِّلين عابِرين. دَلَّ ذلك في الواقع على أنه عندما يُطالِب الفلسطينيون بحُكمٍ قانوني عام وسيادَةٍ مَحَلية لسُلطة الحُكم الذاتي القادِمة فإنهم سَيواجَهون برَفضٍ قويّ من جِهة المفاوِضين الإسرائيليين. وبالمِثل، كان هناك رَفضٌ لوَقفِ نشاط المستوطَنات بأي شكلٍ كان. لم يكن ذلك مُستَغرَباً، فقد رُويَ عن شامير قولُهُ بأنه سيَنسَحبُ من المحادَثات بَعدَ عشر سنوات بينما "يَزيدُ عدد المستوطِنين اليهود بشكلٍ كبير في المناطق التي تحتلها إسرائيل"[2].

بعد أن حَلَّ تحالفٌ يقودُه حزب العمّال مَحَلَّ حكومة شامير، تأرجَح رئيسُ الوزراء الجديد رابين بين أولوية المَسار السوري أو الفلسطيني. أدركَ برؤيتِه الاستراتيجية أن إحدى ميزات التوصّل إلى اتفاقٍ مع سورية هي أنه سيَضَعُ

---

(1) R. Khalidi, *Brokers of Deceit*, 56.

(2) Clyde Haberman, "Shamir Is Said to Admit Plan to Stall Talks 'For 10 Years'" *New York Times*, June 27, 1992.

الفلسطينيين في موقفٍ أضعَف ويصبحُ التعامل معهم أكثر سهولة. شَعَرَ رابين أيضاً بأن اتفاقيةً على الجبهة السورية كان أكثر أهمية من الناحية الاستراتيجية، وأنها ممكِنة وأنها أسهَل نسبياً. ربما كان مُحِقّاً في ذلك واقترَبَ للتوصُّل إلى اتفاقيةٍ مع حافظ الأسد[1].

عَيَّنَ رابينُ إيتامار رابينوفيتش Itamar Rabinovich رئيساً للمُفاوِضين على المَسار السوري (وكان في الوقت نفسه سَفيرَ إسرائيل في أمريكا) كدليلٍ على جَدّيتِهِ بشأن سورية. كان رابينوفيتش عميداً متقاعِداً احتياطياً في الجيش الإسرائيلي حيث كان شخصيةً كبيرة في المخابرات وأكاديمي معروف بخبرتِه العميقة في سورية. كان اختياراً مِثالياً لذلك المَنصب. أدّى تَعيينُهُ لما وَصَفَهُ بنفسِه أنه "بعض التقدّم" مع السوريين على الرغم من أن الطَّرفَين لم يَصِلا إلى اتفاقٍ في النهاية بسبب خلافٍ حول بضعة كيلومترات مربَّعة قليلة على الشاطئ الشرقي لبحيرةِ طَبَرية. هذه المشكِلة التي تبدو غَيرَ مُعقَّدَة ولكنها مهمّة قد تضَخمتْ بشكلٍ كبير عندما واجَهَتْ معارَضةَ قطاعاتٍ عديدة في إسرائيل (وكذلك بين مؤيديها المتحَمسين في أمريكا) ضد أي انسحابٍ من مرتفعات الجولان، وهي خطوةٌ كان رابين مستعِداً لمناقشَتِها. في غَمرةِ المباحثات صادَفَ أنْ حَضرتُ حِواراً في شيكاغو حيث فَشِلَ رابينوفيتش تماماً في إقناع مؤيدِين متعَصِّبين لإسرائيل في الجَماعة بأنّ اتفاقاً مع سورية كان ممكِناً ومفيداً. أشرتُ إلى رابينوفيتش بأن هذه المعارَضة اللامعقولة كانت أمراً قد صَنعَتْهُ إسرائيلُ لنفسِها بشَيطَنَةِ سورية التي أصبح هو ورابين مقتنعَين الآن بأن إسرائيل يجب أن تتوصَّل معها إلى اتفاق.

على العكس من موقِفِهِ المَرِن نسبياً تجاه سورية وتَعيينِهِ موفَداً مناسباً تماماً، إلا أن رابين لم يغيّر الموقف الجَوهري الإسرائيلي كثيراً تجاه الفلسطينيين على طاولة المفاوضات. تمسَّكَ برئيس الوَفد الإسرائيلي إلياكيم روبينشتاين Elyakim

---

(1) أكَّدَ ذلك كاتبُ مذكرات رابين وزميله المقرب إيتامار رابينوفيتش الذي كان رئيس المفاوِضين الإسرائيليين مع سورية: *Yitzhak Rabin*, 177-85, 193-99.

Rubinstein الدبلوماسي المحنَّك الذي أصبح فيما بعد قاضياً في المحكَمة العليا وكان قاسياً جداً في محادثاتِه مَعَنا. حَدَثَتْ بعضُ التغيّرات في المواقف الإسرائيلية بشأن الانتخابات الفلسطينية والتواصُل بين الضفة الغربية وقطاع غزة وبعضُ القضايا الأخرى، ولكن العناصِرَ المَركزية في مُلَخَّص روبينشتاين ظلَّتْ محدَّدَة ضِمنَ الأنماط الأكثر تشدّداً في تَعريفِ الحُكم الذاتي لا أكثر. كانت هنالك خيبةُ أمَل كبيرة لدى الوَفد الفلسطيني وفي تونس عندما أدرَكنا أن تَغيُّر الحكومة الإسرائيلية لم يؤدِّ إلى تغيُّر مهمّ في وجهات النظر. كان يجب ألا نَستَغرب ذلك، ففي خطابٍ قدَّمَهُ رابين سنة 1989 بَيَّنَ التِزامَهُ الصريح باسلوب بيجن في كامب ديفيد بما فيه حُكمٌ ذاتيٌّ ولكن ليس دولة مستقلة للفلسطينيين[1]. بَعدَها بستّ سنوات في أكتوبر 1995 وقَبلَ أقلّ من شهر من اغتيالِه أكَّدَ رابين للكنيست أن أيّ "كَيانٍ" فلسطيني سيُخلَق سيكون "أقلّ مِن دولة"[2].

على الرغم من الإشارات غير المشجِّعة التي كانت في واشنطن في يناير 1992 طالما بَقِيَ شامير في مَنصِبه، إلا أن الوَفدَ الفلسطيني قدَّم الخطوط العامة لاقتراحِ تشكيلِ سُلطةٍ فلسطينية مؤقّتَة للحُكم الذاتي أو كما سَمَّيناها (PISGA) Palestinian Authority Interim Self-Governing، وتَصوَّرنا أنها خطوة على طريق إنشاء دولة. قُدِّمَتْ نسخَةٌ مُحَسَّنة أكثر موضوعية في مارس، وكانت فكرتُها الأساسية تأسيسُ كَيانٍ حكوميٍّ فلسطيني يَستمِدُّ سُلطَتَهُ من انتخابِهِ مِنَ الشعب بمَن فيهم الفلسطينيين المُقيمين في الضفة الغربية والقدس وقطاع غزة والمُهجَّرين من تلك المَناطق سنة 1967 بالإضافة إلى الذين تم نَفيهُم من جِهة إسرائيل. وبَعدَ الانتخابات، سيتم نَقلُ كافة الصلاحيات إلى هذه السُلطة الجديدة من الحكومة العسكرية الإسرائيلية وإدارة الاحتلال وما كان يُسمَّى تلطيفاً بالإدارة المَدَنية، ثم تَنسَحبُ كافّة الهيئات الإسرائيلية، تتمتّع السُلطة بالتَّحكّم التام (بدون السيادة التامة والسلطة الأمنية

(1) المصدر نفسه ص 165.

(2) المصدر نفسه ص 212–214.

الشامِلة) في الجو والأرض والماء على كافة الأراضي المحتلة بما فيها المستوطَنات (بدون المستوطِنين) وعلى كافّة سكانِها الفلسطينيين. سيكون على إسرائيل وَقفُ كل نشاط استيطاني وسَحبُ قواتِها "إلى نقاطِ تَمَركُزٍ جديدة على حدود المناطق الفلسطينية المحتلة" عندما تتشكّل هذه السُلطة الجديدة[1].

على الرغم من أن اقتراحَ سُلطة PISGA شكَّلَ جُهداً حقيقياً في تصوّر الانتقال من الاحتلال إلى الاستقلال فقد كان في النهاية محاوَلةٌ ضائعة في الالتفاف حول القيود التي حاصَرت المحادثات وأشكالَ الحُكم الذاتي التي كانت إسرائيل مستعدّة لقبولها. أرادَتْ إسرائيلُ الاحتفاظَ بكافة السلطات على الأمن والأرض والماء والمجال الجوي وسِجِلّ المواطنين والتحركات والمستوطَنات وجميع القضايا الأخرى التي اعتَبرتْها مهمّة. كان هنالك أسباب كثيرة لفَشَل اقتراح سُلطة PISGA كان أهمها العقيدة التي كانت أساسَ التَّهجير الفلسطيني: العقيدة الصهيونية بِحَقّ اليهود الحَصريّ لجميع فلسطين. السُلطة التي تَصَوَّرَها بشكلٍ عام اقتراحُ PISGA تعارَضَتْ مع جَوهر العقيدة التي انطَلَق منها كل شيء آخَر، وكان قريباً جِداً من الرَّفض المحتَّم للسيادة التي يمكن أن يَقبَلَها روبنشتاين ورؤساؤه السياسيون سواء كانوا إسحاق شامير أو إسحاق رابين.

شكَّلَت تونس عَقَبَةً أخرى، فعلَى الرغم من أن قيادةَ منظمة التحرير الفلسطينية قد وافقَتْ على الاقتراح إلا أنني شَعرتُ بضَعفِ الحَماس الضمني للفكرة. لم يَنجَحوا في تَرويجِهِ دولياً أو في العالَم العربي أو في إسرائيل على الرغم من أن تَرويجَهُ ربما نَجَحَ في دَفعِه. ربما عرفوا أن الحكومةَ الإسرائيلية لن تقبَله أبداً وكانوا متلهِّفين للتوصّل إلى اتفاقٍ مقبول، أيّ اتفاق. أو ربما كانت استجابَتُهم الفاتَرة

(1) "Outline of the Palestinian Interim Self-Governing Authority (PISGA)" delivered January 14, 1992. A more detailed version of the plan was delivered to the Israeli side on March 2, 1992: "Palestinian Interim Selfgovernment Arrangements: Expanded Outline of Model of Palestinian Interim Selfgovernment Authority: Preliminary Measures and Modalities for Elections," March 2, 1993.

بسبب غِيرتِهم من الوَفد الذي نَجَحَ في تقديم خطّة معقَّدة وضِعَتْ بعناية بدلاً من ردودِ فِعل بسيطةٍ على ما كان يقدَّم من خصومِهم مثلما فَعَلَتْ منظمةُ التحرير منذ بداية عملية السلام حتى الآن.

تفاقَمَتْ هذه المشكلة بسبب التوتر الشديد المُتصَاعد بين منظمة التحرير الفلسطينية في تونس والفلسطينيين القادِمين من الأراضي المحتلّة وأغلبُهم من قادَة الانتفاضة المُخَضرَمين الذين كانوا الأعضاءَ الرسميين في الوَفد. كنّا جميعـاً واعِينَ لذلك التوتر ورأيناه يَشتَعِلُ في خلافٍ صَريح ذاتَ مرة. كان كثيرٌ منّا متواجِدين في جناح فندق فيصل الحسيني بواشنطن أثناء تبادل اتصالاتٍ هاتفية حامِية بَينَهُ وبَينَ عرفات. كان الإسرائيليون واعِين كذلك بهذا التوتر وسُعداء باستغلاله. غيَّروا فجأةً قواعد اللّعبة سنة 1993 وسَمَحوا بمشارَكةٍ مباشرةٍ للحسيني وعَشراوي وغيرهما (بمن فيهم نحن المُستشارون) الذين كانوا مُبعَدِين عن المباحثات الرسمية. ربما ظَهَرَ ذلك كتنازلٍ كريمٍ ولكن رابين أخبَرَ كلينتون في اجتماعٍ بأن هَدفَهُ من القيام بذلك هو زَرعُ انقسامات بين الفلسطينيين أمَلاً "بأن يواجِهَ عرفات أحَدَ الزعماء المَحَليين"[1]. طَبَّقَ رابين اسلوب فَرِّقْ تَسُدْ عندما كان وزيراً للدفاع وهي عملياتٌ نموذجية يقوم بها أي حاكِم استعماري، إلا أن ذلك لم يغيِّر شيئاً في النهاية. بعد رَفضِ مُقتَرح PISGA لم يَستلم الوَفد في واشنطن أي اقتراحٍ جدِّي مُقابِل من الإسرائيليين يمكن أن يغيّر بشكلٍ حقيقي الوضعَ الاستعماري القائم في فلسطين، وثَبتَ بالتالي أن محادثات واشنطن كانت عَقيمة.

يبدو أن أمراً أساسياً قد تغيّر في الموقف الإسرائيلي، ولكن لم يكن لدينا سوى شكٌّ بسيط بهذا التغيّر خلال وجودِنا في واشنطن، فبَعدَ أكثر من سَنة ونصف من الجُمود والإحباط، عَرفنا أن تبادُلاً سرّياً مهمّاً قد جَرَى بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل. طُلِبَ من حَنان عَشراوي ومنّي كتابةَ وثيقةٍ ذات ليلة لتكون أساساً لمُلَخَّصٍ حول ذلك التبادل، وكان علينا تقديمُها في اليوم التالي لدبلوماسيين

(1) Rabinovich, *Yitzhak Rabin*, 183.



حيدر عبد الشافي وحنان عَشراوي (مخفيّة وراء الكاميرا) وفيصل الحسيني وهم غارقون مع الصحافة في مؤتمر مدريد للسلام سنة 1991. المؤلف في الخلف ينظر إلى اليمين

يمثّلون الرّاعي الأمريكي. دُهشتُ عندما سَمعتُ أن علينا إخبارهم، إذ كنّا قد عَرفنا أنّ منظمةَ التحرير وإسرائيل قد توصَّلوا إلى تفاهمٍ سرّي يَسمَحُ بدخول عناصر وقوات منظمة التحرير الفلسطينية (ربما بالإضافة إلى ضباط من جيش التحرير الفلسطيني) إلى الأراضي المحتلة ليقوموا بعمل قواتِ أمن. كان ذلك بمثابة إفشاءٍ للسرّ بالنسبة لنا نحن الذين سَنقدِّم التقرير. إذا كان ذلك صحيحاً فذلك يَعني أن منظمةَ التحرير وإسرائيل كانوا متورِّطين في مباحثاتٍ مباشرة سرّية (كانت هناك إشاعاتٌ عن ذلك)، وأنهم قد توصَّلوا إلى اتفاقٍ مبدئي على قضيةٍ أساسية لرابين وعرفات: الأمن.

عَرفنا بعد ذلك أنّ ذلك الانفراج كان نتيجةَ فَتحِ مَسارِ مباحثاتٍ مُغلَق كان منفصِلاً تماماً عن مباحثات أوسلو السرّية ولم يَستَقبِل الشهرة ذاتها. كان واحِداً فقط من مَساراتٍ عديدة سَمَحَ بها رابين بينما احتَفَظَ بوجود كلّ منها مَخفياً عن المشارِكين في المَسارات الأخرى[1]. كان قادَةُ وأبطالُ مباحثات أوسلو الموازِية

(1) المصدر نفسه ص 189-191 يَذكُر أيضاً وجودَ "قنوات مختلفة إلى أوسلو" ولواشنطن أَمَرَ رابين بفتحِها، إلا أنه لم يَذكُر هذه القناة.

هما وزير الخارجية الإسرائيلية شيمون بيريز وأحمد قريع (أبو العلاء) اللذان كانا معروفان برغبَتِهما القوية في التَّرويجِ لأنفسِهما بلا هَوادة، وكان متوقَّعاً أنهما سيَضمَنان أنّ قصَّتَهما لن تُغَطِّي عليها أية روايةٍ غيرها، وذلك ما حدَثَ بالضبط[1].

وبالمقارَنة، استَخدَم رابين وعرفات وسَطاء مَوثوقين للتوصُّل إلى تفاهمٍ هادئ حول قضية الأمن الأساسية التي كانت شَرطاً مُسبَقاً ضرورياً وقاعِدةً لنجاحِ عمليةِ أوسلو الأكثر شهرة والأكثر شمولاً والتي كانت تَجري في الوقت نفسه.

جَرَتْ مباحثاتُ الأمن بعيدةً تماماً عن الأضواء في مكانٍ مازال سرّياً قامَ بها مبعوثون متحفِّظون لا يُعرَف عنهم الكثير حتى هذه الأيام. كان يَرأسُهم في الجانب الإسرائيلي رئيسُ مخابرات سابق خَدَمَ كذلك كالمُنَسِّقِ الأول للتعامل مع الفلسطينيين تحت الاحتلال هو الجنرال المتقاعِد شلومو غازيت Shlomo Gazit يبدو أن رابين كان يَضَعُ ثقته التامة فقط في ضباط الاحتياط الكبار المتقاعِدين من أمثال غازيت ورابينوفيتش[2]، وكان لدى عرفات المَيل نفسه وهكذا فقد كان العُنصُر المقابِل لغازيت هو أمين الهندي وهو ضابطٌ كبير سابق في جهاز المخابرات السابق لأبو إياد والذي عَمِلَ فيما بَعد رئيساً لقوات أمنِ السلطة الفلسطينية[3]. لا شك بأن عرفات قد أقَرَّ التقرير الذي كنَا سَنقدِمُه والذي أعدَّتْهُ حنان عَشراوي وزملائي وأنا. عَرفتُ ذلك لأننا شَكَكنا بأنَّ الإسرائيليين قد فكَّروا بقبول مثل تلك

(1) لا يُعتبَر أي منهما متواضِعاً. كتَبَ كلٌّ مِن بيريز وأبو العلاء كثيراً، خاصة الأخير منهما، عن دَورِهما في أوسلو: أبو العلاء (أحمد قريع) "الرواية الفلسطينية الكاملة للمفاوضات: من أوسلو إلى خريطة الطريق" الأجزاء 1-4 (بيروت: مركز الدراسات الفلسطينية، 2005-2014).
شيمون بيريز
Shimon Peres, *Battling for Peace: A Memoir* (New York: Random House, 1995).

(2) بكلمات رابينوفيتش في "اسحق رابين" صفحة 187: "وَثِقَ رابين بالضباط السابقين من جيش الدفاع الإسرائيلي"، وكان هو واحداً منهم.

(3) يَبحثُ المرءُ عبَثاً في السّيرة الذاتية لهذَين الرجلَين (أو في نَعيِ الهندي الذي توفي سنة 2010) عن أي ذِكرٍ لدَورِهما في التوصّل إلى اتفاقية إسرائيلية-فلسطينية أمنية. يَذكُر بيرغمان في Bergman, *Rise and Kill First*, 184-85 أن أجهزة الأمن الإسرائيلية خطَّطت لاغتيال الهندي في روما سنة 1973 ولكن العمليةَ أُلغِيَتْ.

الشروط الواسعة فأرسَلنا التقريرَ إلى تونس التي خَفَّفَتْ قليلاً مما سُمِحَ لنا بقولِه، ولكننا استَلمنا فَوراً تعديلاتٍ بِخَطٍّ يَدِ عرفات الذي لا يمكن أن تخطِئهُ العَين لتُعيد التقرير إلى نَصِّهِ الكامل.

في 23 يونيو 1993 أطلَعنا دان كورتزر وآرون ديفيد ميللر على التقرير وكانا مُتشَككَين أيضاً على الرغم من أنه لم يُسمَح لنا بالتَّصريح عن وجود اتفاقيةٍ رسمية (وكان ذلك صحيحاً: فقد كانت اتفاقيةً غير رسمية في أحسَن الأحوال ولكنها مهمّة). قالَتْ حنان عَشراوي أنه لضمان الأمن يحتاج الفلسطينيون "للاعتماد على مَصادر خارجية" مثل "ضباط في جيش التحرير فلسطيني" ممن لديهم خبرة في هذا المَجال. أضَفتُ أن "الإداريين الإسرائيليين" يُدرِكون أنّ مِثل تلك العناصر ضرورية. أدركَ أحَدُ الدبلوماسيين الأمريكان فوراً أنّ شيئاً "ربما كان يَجري في الاتصالات بين الإسرائيليين والفلسطينيين" غَيرَ أنه شك بأنّ مِثل تلك الاتفاقية يمكن أن تَنجَح "إلا إذا كان لديكم تفاهم مع الإسرائيليين". حاولتُ أن أطَمئِنَهم بقَولي "لا أعتقد بأنه سيكون لدينا مشكِلة في الاتفاق على ذلك" مع إسرائيل. فقال كورتزر "حسَناً، للمرة الأولى نحن عاجزون عن الكلام"، بينما أضافَ ميللر "هذا التقرير الأمني من عالَمٍ آخر"(1).

لا شك بأن هؤلاء الدبلوماسيين الدُّهاة قد عَرفوا بوجود قنواتٍ سرّية بين الطَّرفَين ولكنهم وجَدوا من الصعب تَخيّل أن منظمةَ التحرير الفلسطينية وإسرائيل قد تمَكنَتا من التوافق على أيّ أمر كبير. ربما كَدَّرَهُم كذلك أنَّ تلك المعلومات كانت مُناقِضَة لكل شيء اعتَقَدوا به مع دينيس روس وطالما أخبَروا به رؤساءهم في وزارة الخارجية وفي البيت الأبيض: لا يَتَفاوَضُ الإسرائيليون مباشرةً مع منظمة التحرير الفلسطينية، فكيف بالسَّماح لقواتِ منظمة التحرير الدخول إلى الأراضي المحتلة واستلامِ الأمن. مهما كان ردُّ فِعلهم إلا أن الأمر لم يَعد يَرجع إلى الأمريكان.

---

(1) "Draft Minutes: Meeting with the Americans," June 23, 1993.

نَشَأ هـذا التغيّـر المهـمّ مـن الـدَّرس الـذي تعلَّمَـه رابين مـن الانتفاضـة: لـن تسـتطيع إسـرائيل بعـد الآن أن تسـيطِر علـى الأراضـي المحتلـة باسـتِخدام القـوة وحدَها. وبالتالي فقـد كـان مستَعِداً للقيـام بـأمورٍ تختلـف عـن بيجن وشـامير بينمـا يستمر بالاحتلال العسكري والاستعمار لمـا تَبقَّـى من فلسـطين (تـم تقييدُ الإنفـاق في الواقـع على المسـتوطَنات تحـت حكومـة رابين ولكـن نشـاطَ الاسـتيطان العـام قد ارتفع). سَمَحَ رابين من أجلِ هذه النتيجة بالاتصال المباشَر مع منظمـة التحريـر الفلسـطينية ولكنـه تمسَّـك بالخيـار الضَّيق في الحُكـم الـذاتي المُقيَّـد. ومـع الوقـت، قـادَتْ هـذه الاتصـالاتُ السـرّية رابـين للقبـول بعـودَة أغلـب قـادَة منظمـة التحريـر الفلسـطينية وعناصـرها إلـى فلسـطين في سـياقِ اعـترافٍ متبـادَل بـين الطـرفَين كـان أسـاسَ إعـلان المبـادئ بـين الإسـرائيليين ومنظمـة التحريـر الـذي تـم توقيعُـهُ في حديقة البيت الأبيض في سبتمبر 1993. اعترَفَـتْ إسـرائيلُ في تلـك الاتفاقيـة بمنظمـة التحريـر الفلسـطينية كممثّـل للشـعب الفلسـطيني واعتَرَفَـتْ منظمـةُ التحريـر بدولـة إسرائيل.

حَقَّقَ رابين أمراً لم يُحقِّقهُ أيّ زعيمٍ إسرائيلي آخَر من قَبل من خـلال الموافَقَـة الرسـمية بوجـود شـعبٍ فلسـطينيّ وقبـول منظمـة التحريـر كممثلـة لَهـم وفَتـحِ بـابِ التفـاوض معهـا والحصـول بالمقابـل علـى اعتِرافهـا بدولـة إسـرائيل. لـم يكـن هـذا التبادُل متَناظِراً ولا تَبادليـاً، لأن إسرائيل لـم تَعترَف بدولةٍ فلسطينية ولـم تلتَـزم حتـى السَّماحَ بِخَلقش تلـك الدولـة. كـان تلـك معاملـةٌ غريبـةٌ حصَـلَتْ فيهـا حركـةُ تَحـرُّرٍ وطَني على اعترافٍ إسميٍّ من مُضَطَهِدِيها دون أن تُحقِّقَ التَّحـرر مقابِـلَ اعتِرافهـا بالدولة التي استَعمَرتْ وطَنَها واستَمرتْ في احتلالِه. كان ذلك خَطَأً تاريخيـاً مدوّيـاً كانت له نتائِجُهُ الكارِثيّة على الشعب الفلسطيني.

مـع حلـول شـهر يونيـو 1993 وقَبـلَ ثلاثـة أشـهر مـن التوقيـع الاحتفـالي في حديقـة البيـت الأبيض لـم تَعـد محادثـاتُ واشـنطن المَركـزَ الرئيسـي للمفاوضـات بين منظمة التحرير وإسـرائيل. كانـت أهـم الاتصـالات المختلفـة السـرّية المباشـرة

التي فُتِحَتْ بين الطَّرفَين تَجري في أوسلو. فضَّلَ الطرفان الهربَ من ملاحظَة رُعاتِنا الأمريكان والابتعاد عن وسائل الإعلام، على الرغم من أن ذلك لم يكن سبباً رئيسياً للتَّغير. ما أن وَجَدَ رابين وعرفات أنّ التوصُّل إلى اتفاقٍ مباشر كان ممكِناً فقد سارَعا إلى تَعيين مَبعوثَين مختلفَين لاكتشاف الإحتمالات الممكِنة. أَذَنَ الزعيمان بمحادثات أوسلو ولكنها كانت تُتابَعُ من الطَّرفِ الإسرائيلي من جِهة شيمون بيريز، ومِنَ الطَّرف الفلسطيني من جِهة محمود عباس (أبو مازن).

تم التوصُّل هناك إلى إعلان المبادئ الذي سمّي أوسلو 1 حيث تم رَبطُ تفاصيل الاتفاقية بين الطَّرفَين. كانت المشكلة في الاتفاقية هي أنّ الشيطان يَكمُنُ في التفاصيل، ولم تكن الشخصيات الفلسطينية التي أرسَلَتْها منظمةُ التحرير إلى أوسلو تهتمّ بالتفاصيل. في الحقيقة لم تكن لديهم الخبرات اللغوية أو القانونية أو الخبرات الأخرى اللازمة للفَهم الدقيق بما كان يفعَله الإسرائيليون. بَعدَ جولاتٍ ابتدائية من المباحثات الاستكشافية قادَها أكاديميَّان من الجانب الإسرائيلي، وَجَدَ الفلسطينيون أنفسَهم بمواجهَةِ فريقِ تفاوضٍ إسرائيلي ماهِر وخَبير يَشملُ شخصيات تتمتّع بخبرة قانونية دولية كبيرة مثل جول سينغر Joel Singer (عَميد سابق آخر في الجيش الإسرائيلي).

جَمَعَ شيمون بيريز ذلك الفريقُ الذي لم يكن مُستعِدّاً للتّعامل مع الفلسطينيين كعَناصِر مساوِية لهم، ولا لتأييد فكرة دولةٍ فلسطينية ذات سيادة بأكثر مما كان عليه رابين أو شامير. ببساطة، كان المفوَّضون الفلسطينيون إلى أوسلو خارج مُستوى اللعبة، وافتَقَدوا المَصادر والتدريب، ولم يذهَبْ أيّ منهم إلى فلسطين المحتلة منذ عُقود، لم يقوموا بدراسة وفَهم نتائج جولاتِنا العَشر من المباحثات مع إسرائيل. تَدَهوَرتْ أحوالُ الشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة بَعدَ أوسلو منذ منتصَف الستعينيات، ويرجع ذلك بشكلٍ كبير إلى نتائج اختيارات المفوَّضين الذين كان أداؤهم في أوسلو غَيرَ كَفؤ، ورغبةِ

عرفات ورفاقِه في توقيع الاتفاقيات المَعيبَة التي رسَموها[1].

عندما قرأنا للمرة الأولى النَّص الذي تم التوصُّل إليه في أوسلو أدرَكنا فوراً نحن الذين تراكَمَتْ لدينا خبرة 21 شهراً في مدريد وواشنطن أنَّ المُفاوِضين الفلسطينيين قد فَشِلوا في فَهم ما تَعنيه إسرائيلُ بالحُكم الذاتي. فما وافَقوا على التوقيع عليه كان شَكلاً مَحدوداً جداً من الحُكم الذاتي على جُزءٍ من الأراضي المحتلة من دون السيطرة على الأرض والماء والحُدود وأيّ شيء آخر. احتفظَتْ إسرائيلُ بجميع تلك الامتيازات في تلك الاتفاقية وما بُنِيَ عليها من اتفاقات فيما بعد والتي مازالتْ تطبَّق حتى اليوم مع تعديلاتٍ طَفيفة، ويُحَقِّقُ ذلك في الواقع سيطَرةُ تامّة على الأرض والشعب بالإضافة إلى أغلب سِمات السيادة. كان ذلك بالضبط ما سَعى اقتراحُنا لتَجَنُّبِه في اقتراحِ سُلطة PISGA بإسنادِ سُلطة قوية على الشعب والأرض إلى سُلطة فلسطينية منتَخَبَة مستقلة. ونتيجةً لفشلِهم في إدراك أهمية هذه الأصول الحيوية فإن المُفاوِضين الفلسطينيين في أوسلو قد سقَطوا في فَخٍّ إثرَ فَخٍّ تَمَكَّنا نحن مِن تَجنُّبِها. وكانت النتيجة أنهم انتهوا بقبول نسخةٍ معدَّلةٍ قليلاً من خطّة بيجن للحُكم الذاتي التي تمسَّكتْ بها حكوماتُ شامير ورابين.

بعد رَفضِ إسرائيل لاقتراحِ سُلطة PISGA رَفَضَ وَفدُنا قبولَ حُكمٍ ذاتي على نمَط بيجن، فقد عَرف المُفاوِضون من الأراضي المحتلة ما الذي يَعنيهِ عَمَلياً النمَط الإسرائيلي من الحُكم الذاتي، وعرف ذلك أيضاً المستشارون في الوفد الذين عاشوا في فلسطين أو قضوا وقتاً طويلاً فيها. بالنظَر إلى رَفضِ حكوماتِ شامير ورابين قبولَ وقفٍ نهائي للاستيطان أو إنهاءٍ للحُكم العسكري فقد عَرفنا أنهم يُقدِّمون تغييرات تجميلية فقط بينما يَنوونَ المحافَظة على الوَضع القائم للاحتلال إلى مستقبلٍ غير مُحدَّد. تمسَّكنا بهذا الموقف في واشنطن، وكان على منظمة

---

(1) هناك كثير من التحليلات المفصَّلة عن أسباب فشل اتفاقات أوسلو ونتائجها من جهة مشارِكين بالمفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية الأمريكية مثل أبو العلاء وشيمون بيريز ويوسي بيلين ودنيس روس ودانييل كورتزر وآرون ديفيد ميللر وكميل منصور وحنان عشراوي وغسان الخطيب في كتابي "وسَطاء الخِداع".

التحرير أن تأمر مَبعوثيها إلى أوسلو بالرَّفضِ الشديد لاتفاقياتٍ على نمَط بيجن الذي سَمَّاه إدوارد سعيد بِحَقّ: "وسيلةٌ لاستسلام فلسطيني، اتفاقيةُ فرساي فلسطينية"[1].

أنا متأكد من أنّ رَفضَ العَرضِ الإسرائيلي العَاري في واشنطن وأوسلو كان هو المَسار الصحيح، فلَو أنّ منظمةَ التحرير اتَّخذَتْ مثلَ هذا الموقف الصَّلب لما كانت النتيجة أسوأ من خسارةِ الأرض والمَصادر وحرّية الحَركة التي عانَى منها الفلسطينيون منذ سنة 1993. وفي النهاية، كان الفشل في التوصُل إلى اتفاقٍ أفضَل من الاتفاق الذي نَتَجَ عن أوسلو. كان الاحتلال سيستَمر مثلما هو الآن على كل حال إنما بدون غِطاءِ حُكمٍ ذاتي فلسطيني، وبدون تخفيفِ العِبء المالي على إسرائيل لشؤون حُكمِ وتَسييرِ أمورِ شعبٍ من ملايين البشر، وبدون "التنسيق الأمني" الذي كان أسوأ نتائج أوسلو لأنه يحتِّم على منظمة التحرير الفلسطينية أن تساعِدَ إسرائيل في السيطَرة على الفلسطينيين الهائِجين الذين يعيشون تحت نظامها العسكري بينما تُسلَب أراضيهم تدريجياً على يَدِ المستعمِرين الاسرائيليين.

هناك احتمالٌ صغير بأن رابين ربما كان مضطراً لقبول شروطٍ أفضَل. ولكن، من المستحيل القول بأن تلك الشروط المُفترَضَة كانت ستؤدي إلى دولةٍ فلسطينية مستقلة حقيقية. على كل حال فكما شَعَرتْ منظمة التحرير بأنها مضطرة للتَّوصل إلى اتفاق، فإن رابين أيضاً شَعَرَ بالحاجة للتوصل إلى اتفاق، خاصة بعد توقُّف التَّقدم على المَسار السوري. حسب إيتامار رابينوفيتش فإن رابين بعد أغسطس 1993 قد "شَعَرَ بالضغط" لكي يقومَ بخطوةٍ دراماتيكية بالنظر إلى الجُمود بعد سَنة من المفاوَضات مع سورية والفلسطينيين وعدم استقرار الحكومة الائتلافية التي

(1) "The Morning After," *London Review of Books* 15, no. 20, October 21, 1993.
هذه المقالة النقدية كُتِبتْ في وقتٍ كان فيه الحماس عاماً بشأن توقيع اتفاقات أوسلو في حديقة البيت الأبيض سنة 1993. كان ادوارد سعيد نافِذَ البصيرة من جوانب عدّة: "هل يعني هذا إنذارَ سوءٍ بأن الفترة الانتقالية قد تكون نهائية؟" عندما كُتِبتْ هذه السطور نكادُ نَدخُلُ السنة 27 من هذه الفترة الانتقالية.

كان يرأسَها[1]. ربما كانت تلك الخطوة في اتِّجاهِ اتفاقٍ أفضَل للفلسطينيين.

ولكن تلك النتيجة لم تكن متوقَّعة لأن رابين قد أثبتَ أنه مُكَبَّلٌ بقيودِه وتحيّزه: انشغالٌ متأصِلٌ بالأمن وهو في المعجَم الإسرائيلي يَعني مضموناً شاملاً للسيطرة التامة والتَّحكُم بالعدو وازدِراء عميق للوطنية الفلسطينية وبمنظمة التحرير الفلسطينية على وَجهِ الخُصوص التي حارَبَها رابين خلال فترة طويلة من حياتِه المِهَنية. كان هذا الإزدِراء واضحاً على وَجهِ رابين عندما صافَحَ يَدَ عرفات في واشنطن في سبتمبر 1993. كان عليه أن يحسب حساب المعارَضة الشَّرسَة لأي اتفاقية حقيقية مع الفلسطينيين من جِهة الأنصار القوميين المُتدَيِّنين المتحمّسين لأرض إسرائيل الكبرى. كان مُحِقّاً في خَوفِه من تلك الجماعة القوية، إذ اغتَالَهُ واحدٌ من أتباعِها اسمُهُ ييجال عامير Yigal Amir سنة 1995 وسيطَروا على السياسة الإسرائيلية منذ ذلك الحين.

عاد ياسر عرفات إلى فلسطين في يوليو 1994 وزرتُه بعد ذلك بقليل في مركز قيادتِه المُشرِفِ على البحر في غزة. كان منتَشياً لعودَتِه إلى بلادِه بعد غيابٍ طالَ ثلاثين سنة ولأنه هَرَبَ من قفَصِهِ المُذَهَّب في تونس. يبدو أنه لم يُدرك أنه قد انتَقَل من قَفصٍ إلى آخر. ذهبتُ لأعبِّر عن قلقي البالِغ بسبب الموقف المُتدَهور في القدس الشرقية العربية حيث كنتُ أعيش. كانت إسرائيل قد أغلقَت المدينة ومَنَعتْ دخولَ الفلسطينيين من بقية أنحاء الأراضي المحتلة وبدأتْ بإنشاء سلسلةٍ من الجدران ونقاط تفتيش حدودية مُحصَّنة بقوة لتنظيم الدخول إلى القدس.

كانت هناك كثيرٌ من الإشارات التي تُثير القلق، وكانت الأحوال تزدادُ سوءاً بالنسبة للفلسطينيين في القدس بوجود قيودٍ صارِمةٍ على دخول أهل الضفة الغربية وغزة مما أرهَقَ اقتصادَ الجزء العربي من المدينة، وتَسارَعَ الاستيلاءُ على الأراضي وهَدمُ البيوت ونَفيُ المَقدِسيين الذين اعتَبرتْ إسرائيلُ عشوائياً أنهم قد خَسِروا إقاماتِهم. تَجاهلَ عرفاتُ مخاوفي وسرعان ما أدركتُ أن زيارتي كانت مَضيَعةً

(1) Rabinovich, *Yitzhak Rabin*, 193.

للوقت. كان مايزال مُحلِّقاً على مَوجَةٍ من النشوة مُستمتِعاً بقدوم وفودِ ترحيبٍ من كافة أنحاء فلسطين. لم يكن بمَزاجٍ مُستعدٍّ لسَماع أخبار سيئة. وعلى كل حال فقد أشارَ بمَرَح أنّ أيَّ مشكلةٍ ستُحَلُّ قريباً. تلقيتُ الإعراضَ نفسَه من أبو مازن عندما عبَّرتُ له عن مخاوفي ذاتِها عند وصولِهِ حديثاً إلى غزة.

كان واضِحاً بالنسبة لي أن عرفات وأبو مازن قد افترَضا بتفاؤلٍ أن ما لم تتمكَّن وفودُهما من تحقيقه للفلسطينيين في أوسلو سيستَطيعان استِخلاصَه من إسرائيل. يبدو أن عرفات كان يَعتَمد على مهارَتِهِ المَعروفة في المُناوَرة التي استَخدَمها على مَرِّ عقودٍ مع الأنظمة العربية مما أدّى إلى نَفاذ صَبرِ كثيرٍ من الملوك والمُستبدِّين في النهاية، غير أن الإسرائيليين لم يكونوا عُرضَةً للشَّعوَذة التي اشتُهر بها عرفات، وأصَرُّوا على موقفِهم بعِناد فكانت الاتفاقياتُ التالية وحيدة الاتجاه مثل اتفاق أوسلو الأول.

تم الاتفاق بين الطَّرفَين في 1995 على الاتفاقية المؤقَّتة بشأن الضفة الغربية وقطاع غزة، أو ما يُعرَف باسمِ أوسلو 2 وأُكمِلَ العَملُ الهدَّام لأوسلو، فقد قَطَّعَ المَنطقتَين إلى الخليطِ السيّء السُمعَة من المناطق: A وB وC بحيث كانت المنطقة C التي تشكّل أكثر من 60٪ من المساحة تحت السيطرة الإسرائيلية الكاملة المباشرة المُطلَقَة. مُنِحَت السُلطةُ الفلسطينية سيطَرةً إدارية وأمنية على 18٪ من المساحة في المنطقة A، وسيطَرة إدارية على 22٪ من المساحة في المنطقة B بينما احتفَظَتْ إسرائيلُ بالسيطَرة الأمنية في تلك المنطقة. تشكّل المناطقُ الثلاث 40٪ من المساحة ولكنها تضمُّ حوالي 87٪ من الفلسطينيين. تضمُّ المنطقة C جميع المستوطَنات اليهودية ما عدا واحِدة. احتَفظَتْ إسرائيلُ كذلك بالسيطَرة التامة على الدخول والخروج في جميع أرجاء فلسطين والسيطَرة المنفَردة على سِجلات السكان (يعني أنها تُقرِّرُ مَن له حَقّ المواطَنة وأين يَحقّ له العيش). يمكن الاستمرار بإنشاء المستوطَنات، واقتُطِعَت القدس أكثر وأُبعِدَتْ أكثر عن الضفة الغربية، كما ازدادَ مَنعُ الفلسطينيين أهل الأراضي المحتلة من دخول إسرائيل. وفي النهاية قَطَّعَتْ كثيرٌ

من نقاط التفتيش ومئات الأميال من الجدران والأسوار المكهربَة الضفةَ الغربية إلى سلسلةٍ من الجُزُر المُنفَصِلة وجُرِّحَ المَنظرُ الطبيعي.

سرعان ما أصبح من المستحيل أن نقومَ أنا وكثير من الفلسطينيين بما اعتَدنا على القيام به بانتظام وسهولة: قيادةُ السيارة من القدس إلى رامَ الله خلال أقلّ من نصف ساعة، أو السفر بسرعة من الضفة الغربية إلى غزة. لن أنسى الجندي الإسرائيلي الوحيد وهو جالسٌ في كرسيه وسلاحَهُ على رجلَيهِ يُشيرَ إلينا بِكَسَلٍ لكي نَمُرَّ عَبرَ نقطَةِ تفتيشٍ مُتداعِية أشارَتْ إلى مَعبَرِ الدخول إلى قطاع غزة عندما دَخلَنا في زيارتي الأولى إليها بَعدَ اتفاقاتِ أوسلو. بَدأَ التَّضييقُ المتزايد على حياة الفلسطينيين خاصة أهل غزة بوضعِ نقاطِ التفتيشِ الجديدة والجدران، وضرورة الحصول الصَّعب على التَّصاريح الإسرائيلية للمُرور عَبرها، ومَنعُ إسرائيلَ لحرية الحركة بين الضفة الغربية وغزة والقدس الشرقية، وتَحديدُ الطُّرقِ التي يُمنِعُ الفلسطينيون من السفر فيها. يبدو أن عرفات ورفاقه في قيادةِ منظمة التحرير الفلسطينية الذين كانوا يمرُّون بسرعة عَبرَ نقاطِ التفتيش بفضل تصريحات المرور المتميّزة، ولم يَعرفوا أو لم يَهتَموا أصلاً بشأن المَصاعب المتزايدة في حياة الفلسطينيين العاديين.

انتَقَلَ أغلبُ عناصر منظمة التحرير الفلسطينية من تونس وغيرها بعد وقتٍ قصير إلى الأراضي المحتلة حيث استَلَموا مَناصِبَ عُليا عادةً في قوات الأمن ومؤسسات السلطة الفلسطينية. كان من المفروض أن تنشَأ السُلطةُ كهيئةٍ مؤقَّتةٍ للحُكم الذاتيّ في الأراضي المحتلة على أن يتم استِبدالها بعد سنواتٍ قليلة بهيئةِ حُكمٍ دائِمة بعد مباحثاتِ الوَضع النهائي التي لم تَحدثْ أبداً. قامتْ منظمة التحرير بانتقالها الشامل وكأنما التحرير قد تمَّ بَدَلاً من تَركِ جُزء، أو ربما أكثر من هياكل منظمة التحرير خارج فلسطين ريثما تتَّضِح نتائجَ اتفاقات أوسلو. لم يظل في تونس وغيرها من البلاد سوى الإدارة السياسية (وزارة الخارجية) وبعض المَكاتب القليلة. يمكن التعاطف إنسانياً مع الشعور الجَّارف من الرغبة بالعودة إلى الوطن

بعد نَفيٍ طويلٍ والرغبة بالخروج من العواصم العربية المنزَعِجَة التي أُرسِلَتْ إليها منظمة التحرير الفلسطينية منذ 1982. كما كان منطِقِياً أن يعيش عناصر منظمة التحرير مع قاعدة تأييدهم الشعبية من المُقيمين داخِل فلسطين بَعدَ أن انقطَعوا عن أغلب تجمُّعاتِ الفلسطينيين.

إلا أنه كان هنالك خَطَرٌ كامِنٌ في جَلبِ مُعظَمِ عَناصر منظمة التحرير إلى الأراضي التي مازالت تحت الاحتلال، فقد وَضَعَ عرفات ورفاقه أنفسهم عملياً في قَفَصٍ تحت رحمة نظامٍ عسكري مازال في مكانه دون تغيير مهمٍ. حاولَتْ إسرائيلُ في إشارةٍ منذِرةٍ بالسوء أن تَمنَع بعضَ عناصر منظمة التحرير الفلسطينية من العَيش في القدس أو العَمل هناك. وكان الأسوأ قادِماً. ففي سنة 2002 في ذروة عنف الانتفاضة الثانية اقتَحَمتْ قواتٌ إسرائيلية مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية في رامَ الله وغيرها من أنحاء المنطقة A. كما أغلَقوا بَيت الشرق الذي كان مَركز النشاط السياسي الفلسطيني في القدس والمَقرّ الرئيسي لِفِرَق المفاوَضات مع إسرائيل. وظَلَّ مُغلَقاً حتى يومنا هذا[1]. تمكَّنتْ إسرائيل كذلك من تَحديد أو مَنع أي نشاطات فلسطينية أو سَفَر أو اجتماعات، واستَخدَمتْ سلطَتَها بحرّية تامّة ضد قادة منظمة التحرير الفلسطينية. في الحقيقة، لقد دخَلَتْ منظمةُ التحرير في فَمّ الأسد المفتَرِس ولَم يَمرّ وقتٌ طويل قَبل أن يُغلِقَ فكَّيه. فَرضَ الجيشُ الإسرائيلي في سبتمبر 2002 حِصاراً على المُقاطَعة مَقرّ قيادة عرفات في رامَ الله وجَعَلَتْهُ سَجيناً افتِراضياً مدّة سنتَين حتى قُبَيل وفاتِه.

---

(1) بعضُ الوثائق التي تم حَجزها هناك تتضمَّن موادَ ترجع إلى الثلاثينيات من الأرشيف التاريخي لجمعية الدراسات العربية مثل أوراق موسى العَلَمي التي درستُها في بداية التسعينيات ويمكن إيجادها الآن في الأرشيف القومي الإسرائيلي تحت عنوان مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت في 1982 مع كُتُبٍ تم الاستيلاء عليها من بيوت عربية في مَوجَة نَهبٍ منظَّمٍ سابِقة في 1948. العمليةُ المستمرة لنَهبِ وسرقة الممتلكات الفلسطينية الثقافية والفكرية تشكّل نوعاً من اغتيال الذاكرة وهو جزء متكامِل في حَملةِ إسرائيل للاغتيال السياسي ضد الفلسطينيين حسب تعبير باروخ كيمرلينغ المناسب.

بعد مرور ربع قَرن على اتفاقات أوسلو، وصِفَ الوَضع في فلسطين وإسرائيل بشكلٍ زائفٍ على أنه صِدامٌ بين طَرفَين متساويَين تقريباً، بين دولة إسرائيل والسلطة الفلسطينية التي تُشبِه الدولة. يُغطِّي هذا التصوير على الواقِع الاستعماري غير المُتسَاوي الذي لم يتغيّر. لا تتمتَّع السُلطة الفلسطينية بالسيادة ولا بالتَّحكم ولا بالسُلطة إلا بِقَدَرِ ما تَسمَحُ به إسرائيل التي تُسيطِر حتى على قِسمٍ كبير من دَخلِها بشكلِ رسومٍ جُمرُكيةٍ وبعض الضرائب. عَمَلُها الرئيسي هو الأمن الذي يُخصَّصُ له جزءٌ كبير من ميزانيَتِها. إلا أنه ليس أمنُ شعبِها، فهي مُطالَبةٌ من الولايات المتحدة وإسرائيل بضَمان أمنِ المستوطِنين الإسرائيليين وقوات الاحتلال ضد المقاوَمة والعنف وغيرها من الأعمال التي قد يَقومُ بها الفلسطينيون الآخرون. منذ سنة 1967 كانت هنالك سُلطةُ دولةٍ واحدة على كل أراضي الانتداب في فلسطين هي سُلطةُ إسرائيل. لم يغيّر صُنعُ السُلطة الفلسطينية شيئاً من ذلك الواقع، بل غيَّر ترتيب الكراسي في سفينة التايتانيك الفلسطينية بينما مَنَحَ الاستعمارَ الإسرائيلي والاحتلالَ دُرعاً واقِياً فلسطينياً أساسياً. وفي مواجَهة عملاقِ الدولة الإسرائيلية يقفُ شعبٌ مُستعمَرٌ حُرِمَ من حقوق المساواة ومن القدرة على ممارسَة حَقِّهِ في تقرير المصير. استمرّتْ هذه الحالة منذ أن انتشَرتْ فكرةُ تقرير المصير دولياً بعد الحرب العالمية الأولى.

دَفعَت الانتفاضةُ الأولى رابين وأجهزة الأمن الإسرائيلية إلى إدراك أن فَرضَ الاحتلال بقواتٍ إسرائيلية تُسيطِر على مَراكز كثيفة السكان مَليئة بالفلسطينيين الغاضِبين هو وضعٌ يجب تَغييره. كان إطارُ أوسلو نتيجةً لهذا الإدراك، وقد تم تَصميمُه للمحافَظة على المَناطق المحتلة ذات الامتيازات المفيدة لإسرائيل، الامتيازات التي تمتَّعتْ بها الدولةُ والمستوطِنين، مع إلقاءِ حِملِ المسؤوليات المُرهِقة ومَنعِ حقّ تقرير المصير الفلسطيني الحقيقي والدولة والسيادة في الوقت نفسِه. كانت أوسلو 1 أولَى هذه التغييرات وأُضيفَتْ تغييراتٌ أخرى في السنوات التالية وجميعها تَهدُفُ إلى الإبقاء على التفاوت في القوة بِغَضِّ النَّظَر عمَّن هو رئيس وزراء إسرائيل.

اشتَملَتْ أوسلو 1 كذلك على أكثر التغييرات تأثيراً على المَدى البعيد وهو قرارُ تَجنيدِ منظمة التحرير الفلسطينية كمُتَعهِّد ثانوي للاحتلال، فقد كان ذلك هو مَعنى الاتفاق الأمني الذي وقَّعَهُ رابين مع عرفات والذي أعلَنتُه مع زملائي للدبلوماسيين الأمريكان في يونيو 1993. كانت النقطة الأساسية دائماً هي أمنُ إسرائيل باحتلالِها ومستوطِنيها مع تَخليصِها من تَحمّل تكاليف وأعباء إخضاعِ الشعب الفلسطيني. أو كما عبَّر عنه مُعاونُ رابين شلومو غازيت عَلَناً سنة 1994 "ياسر عرفات لديه اختيار. يمكِنُهُ أن يكون مِثلَ أنطوان لَحد، أو يكون أعظَم منه"[1]، وكان غازيت يُشيرُ بهذا القول إلى أنطوان لَحد القائد اللبناني لِجَيشِ لبنان الجنوبي الذي سلَّحَتْهُ ومَولَتْهُ وسيطَرتْ عليه إسرائيل، وكانت مهمّتُهُ دَعم الاحتلال الإسرائيلي في جنوب لبنان من 1978 حتى 2000. أكَّدَ غازيت بهذه الملاحَظة الكاشِفة الأهدافَ الحقيقية لما صَنَعَهُ مع رئيسه رابين في أوسلو.

النظامُ الذي صُنِعَ في أوسلو وواشنطن لم يكن مغامرةَ إسرائيل وحدَها، فكما حَدَثَ سنة 1967 و1982 فقد انضمَّتْ إلى إسرائيل راعيتُها الأساسية الولايات المتحدة الأمريكية. لم يكن ممكِناً وَضعُ الفلسطينيين في قيودِ أوسلو المَجنونة دون تَواطؤ أمريكا. منذ كامب ديفيد سنة 1978 وما بَعدَها لم تكن هندسةُ المفاوضات بفَترتِها الانتقالية الخدَّاعَة المَرِنَة وتأخير الدولة الفلسطينية مفروضَةً من طَرَفِ إسرائيلَ وحدَها بشكلٍ أساسي، حتى لو كان إطارُها قد حلمَ به بيجن وأكمَلَهُ خلفاؤه من كلا الكتلتَين السياسيتَين في إسرائيل من حزب العَمل والليكود. فقد قدَّمتْ الولايات المتحدة الأمريكية الضغطَ والقوة وراء الإصرار على الفلسطينيين بأن هذه هي طريقة التفاوض الوحيدة الممكِنة والتي تؤدي إلى نتيجةٍ واحدة ممكِنة. لم تكن الولايات المتحدة مجرَّدَ مساعِد بل كانت شريكةً لإسرائيل.

---

(1) كنتُ موجوداً وسمعتُ غازيت يقول ذلك جواباً على سؤال من مستمعٍ خلال ندوة مناقشة في معهد أمهرست في 4 مارس 1994.

اشتَملتْ هذه الشراكة على أكثر من بَساطَة الرِّضَى أو الموافَقة من جِهة كل إدارة أمريكية من كارتر حتى الآن، بل اعتَمدَتْ على الدَّعم الأمريكي في المستويات السياسية والدبلوماسية والعسكرية والقانونية وكمياتٍ كبيرة من الأموال بشكلِ مساعَداتٍ وقروض وتبرعات مَحمِية من الضريبة لِدَعمِ المستوطَنات والاستيلاء التدريجي على الأحياء العربية في القدس والتَّدفُق الغزير لأحدَث الأسلحة في العالَم لِدَفعِ وتَطوير استعمارِ إسرائيل لكافّة مناطق فلسطين. شكّلتْ اتفاقات أوسلو في الواقع إعلانَ حربٍ آخَرَ أمريكي-إسرائيلي على الفلسطينيين مُعتَرَفٍ به دولياً لِدَفعِ مشروع الحركة الصهيونية الذي امتَدَّ قَرناً من الزمان. ولكن على العَكس من حروب 1947 و1967 فقد سَمَحَ القادَةُ الفلسطينيون لأنفسِهم هذه المرة بالانغِماس في التواطؤ مع أعدائهم.

6

إعلان الحرب السادس
2000-2014

هذا استعمارٌ فريدٌ تعرَّضنا له ليس لهم فيه فائدة منّا فأفضَلُ فلسطينيٍّ بالنسبة لهم هو الفلسطينيُّ الميّتُ أو الرّاحِل. لا يريدون استغلالَنا، ولا يريدون الاحتفاظَ بنا هناك كطبقةٍ دُنيا مثلما حَدَثَ في الجزائر أو أفريقيا الجنوبية.

إدوارد سعيد[1]

اتَّضَحتْ خيبةُ أمَلٍ عميقة لدى معظَم الفلسطينيين خلال وقتٍ قصير بعد حَفلِ توقيع اتفاقات أوسلو سنة 1993 في حديقة البيت الأبيض. اعتَقَدوا في البداية بأن الاحتلال العسكري سينتَهي، وسيتَوقَّفُ نَهبُ الأراضي لصالح المستعمَرات الإسرائيلية، واستَقبَلوا الاتفاقات بنَشوَة، وتصَوَّر كثيرٌ من الناس أنهم في بداية طريقٍ سيؤدي إلى الدولة. ومع مرور الوقت حَلَّ إدراكٌ واقعي أنه على الرغم من شروط أوسلو، بل ربما بسببها فقد استمرَّ استعمارُ فلسطين ولم تكن إسرائيلُ أقرَبَ للسَّماح بإنشاء دولة فلسطينية مستقلة.

بل أصبَحَت الأحوال في الواقع أسوأ بالنسبة للجميع فيما عَدا قلّة من الأفراد الذين كانت مصالِحهم الاقتصادية أو الشخصية مُتداخِلَة مع السُلطة الفلسطينية

(1) David Barsamian, *The Pen and the Sword: Conversations with Edward Said* (Monroe, ME: Common Courage Press, 1994).

والذين استفادوا من تَطبيعِ العلاقات مع إسرائيل. أما بالنسبة للآخرين فقد استمَرَّ رَفضُ السَّماحِ لهم بالسَّفر ونَقلِ البضائع من مكانٍ لآخر مع خَلقِ مَتاهَةٍ من نظام التصاريح ونقاط التفتيش والجدران والأسوار. من خلال سياسةٍ إسرائيلية مَقصودَة فَصَلَتْ غزة عن الضفة الغربية التي كانت مَفصولَة أيضاً عن القدس، ولم تَرجَع الأعمالُ داخِل إسرائيل، وتوسَّعَت المستوطَنات والطُّرُق المخصَّصة للمستوطِنين فيما بينها، وتقسَّمَت الضفةُ الغربية بتأثير مُدَمِّرٍ. انخفَضَ متوسط دَخلِ الفَرد بين سنة 1993 وسنة 2004 على الرغم من وعودِ الازدهار القريب القادم[1].

مُنِحَتْ تصاريحُ مرورٍ مميزَّةٍ لقلّة من الشخصيات المؤثّرة في منظمة التحرير الفلسطينية والسُلطة الفلسطينية سَمَحَتْ لهم بالمرور السريع عَبرَ نقاطِ التفتيش الإسرائيلية، بينما فَقَدَ الآخرون القدرة على التحرك بِحُرّية في فلسطين. كان عددٌ كبير من الفلسطينيين يعملُ في إسرائيل قَبل سنة 1991 دون أية موانِع ودون الحاجة إلى تَصريحٍ خاص. كان المَرء يستطيع السَّفر في سيارةٍ بلَوحَةِ ترخيصٍ من الضفة الغرية أو قطاع غزة لأيّ مكان في أسرائيل وفي الأراضي المحتلة، وسرعان ما سُحِقَ أي احتمال لعودَة تلك الحريّة في التَّنقل. لم يتمكّن أغلبُ السكان من الحصول على تصاريح سَفَر وأصبَحوا الآن مَحصورين عَمَلياً في الضفة الغربية أو في قطاع غزة والتَّحرك على طُرُقِ السَّفر السيئة المَليئة بنقاط التفتيش الخاصة بالسكان المَحَليين، بينما سافَر المستوطِنون على طرقٍ سريعة ممتازة وجسورٍ أُنشِئتْ خصّيصاً لهم.

كان هذا الحَجز بَعدَ أوسلو شديدَ التَّقييد في قطاع غزة، ففي العُقود التي جاءَتْ بَعدَ 1993 انقطَعَ قطاع غزة عن بقية العالَم على مراحل متتالية، وأحاطَ به الجنودُ

(1) ظلّ الدَّخل القومي الفلسطيني للفرد الواحد في حدود 1380 دولاراً من سنة 1995 إلى سنة 2000. ثم انخفَضَ بأكثر من 340 دولاراً من سنة 2000 إلى سنة 2004، وانخفَضَ أكثر في السنوات التالية:

Statistics from UNCTAD, "Report on UNCTAD's Assistance to the Palestinian People," TD/B/52/2, July 21, 2005, tables 1, 6.

على الأرض، والبحرية الإسرائيلية في البحر[1]، احتاج الدخول والخروج إلى تصاريح لم تُمنَح إلا نادراً ولم يكن ممكِناً إلا عَبرَ نقاط تفتيش ضخمة تُشبه حَظائر الماشية بينما فُرِضَت إغلاقاتٌ إسرائيلية عَشوائية متكرّرة وقَطَعتْ عمليةَ نَقل البضائع من داخل القطاع وإلى خارجِه. كانت النتائج الاقتصادية لحِصار قطاع غزة شديدةَ الضَّرر بشكلٍ خاص. اعتَمد أغلبُ أهل غزة على العمل في إسرائيل أو على تصدير البضائع، وبِفَرضِ هذه القيود الشديدة على الأعمال تدهوَرت الحياة الاقتصادية وخُنِقَتْ تدريجياً[2].

أما في القدس، أكبر وأهم مَركز حَضَري في فلسطين العربية فقد وضِعَتْ حواجزٌ في مَداخِل البلدات الفلسطينية المجاوِرة للقدس الشرقية ومُنِعَتْ حريّة الحَركة بين المدينة وبلدات الضفة الغربية التي اعتَمدَت عليها اقتصادياً وثقافياً وسياسياً. كانت أسواقُها ومَدارسها وأعمالها ومؤسساتها الثقافية وأعمالها المِهَنية كلها تَنتَعِشُ بشكلٍ رئيسي بفضل زبائن من الأراضي المحتلة ومن الفلسطينيين في داخل إسرائيل والسُّياح الأجانب. وفجأةً أصبح الفلسطينيون من الضفة الغربية وغزة يحتاجون إلى الحصول على تصاريح لم تكن مُتاحَة لأغلبهم. وحتى لو نجَحوا في الحصول على تصريح فإن الإهانات المُعتادَة وساعات التأخير الطويلة تَنتَظِرُهم أثناء عبور نقاط التفتيش الإسرائيلية التي قيّدتْ حركةَ الدخول إلى المدينة من الضفة الغربية. كان تأثيرُ إغلاق القدس على اقتصاد المدينة مدمِّراً. حسب تقرير الاتحاد الأوروبي سنة 2018 فقد انخفضَتْ مُساهَمةُ القدس الشرقية العربية في

(1) يلاحِظ بن وايت Ben White أن عَزلَ غزة بدأ فعلياً بتحديد حركة سكان غزة إلى إسرائيل باستعمال بطاقات ممغنَطَة جديدة سنة 1989 قبل 17 سنة من سيطرة حركة حماس:
"Gaza: Isolation and Control," Al Jazeera News, June 10, 2019.

(2) هناك وفرَة من الدراسات عن الوضع في غزة خاصة
Sara Roy, including *The Gaza Strip: The Political Economy of De-Development* (Washington, DC: Institute for Palestine Studies, 1994); and *Hamas and Civil Society in Gaza: Engaging the Islamist Social Sector* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2011); as well as Jean-Pierre Filiu, *Gaza: A History* (Oxford: Oxford University Press, 2014).

الناتج القومي الفلسطيني من 15٪ سنة 1993 إلى 7٪ الآن. ذَكَرَ تقريرُ الاتحاد الأوروبي أنه "بسبب عَزلها وسياسة إسرائيل الصارمة في إصدار التصاريح فقد تَوقَّفَت المدينةُ تقريباً عن كونها المَركز الاقتصادي والحَضَري والتجاري الذي كانت عليه"[1].

لم تلاحِظ وسائلُ الإعلام العامة هذه الأحوال التي تزدادُ سوءاً إلا نادراً، وحَدَثَتْ مفاجأة كبيرة في الدّوائر العالمية عندما عبَّر السكان الفلسطينيون الذين مازالوا تحت الاحتلال عن استيائهم المَرير وشعورِهم بالخيانة في مظاهراتٍ ضخمة في سبتمبر 2000. لقد أعمَى بريقُ أوسلو الضَّبابي غالبية المُراقبين سواءً في إسرائيل أو في الولايات المتحدة وأوروبا، وبشكلٍ خاص بين الصهاينة الليبراليين. استمَرَّ بريقُ نجاحِ أوسلو في استِبعاد تحليلٍ ثاقِبٍ واضح حتى بعد تفجُّر العنف سنة 2000[2].

أما بالنسبة لحركة حَماس خَصم منظمة التحرير النشيط الجديد فقد كانت الدلائل على أن أوسلو لم تكن ما ادَّعاه أنصارُها من الفلسطينيين. تأسَّستْ حركة حماس في بداية الانتفاضة الأولى في ديسمبر 1987، ونَمَتْ بسرعة مستفيدَة من تياراتِ الاستياءِ الشعبي من منظمة التحرير التي بَرَزَتْ لأسباب مختلفة. أصَرَّتْ حماس أثناء الانتفاضة على الاحتفاظ بهوية منفصِلة ورَفضَت الانضمامَ إلى القيادة الوطنية الموحَّدة. طَرَحَتْ نفسَها كخيارٍ إسلامي أكثر تشدّداً من منظمة التحرير واستَنكَرت التَّخلي عن الكفاح المسلح والتَّوجُّه نحو الدبلوماسية التي تم تَبَنِّيها في إعلان الاستقلال الذي أصدَرهُ المؤتمرُ الوطني الفلسطيني سنة 1988.

---

(1) Piotr Smolar, "Jerusalem: Les diplomates de l'EU durcissent le ton," *Le Monde*, February 2, 2018.

(2) يمكن إيجاد دليل على ذلك في الاحتفال الجَذل في نيويورك بالمسرحية العادية "أوسلو" وتصويرها الكاريكاتوري للمفاوِضين الفلسطينيين والإسرائيليين الذي يكاد يكون عنصرياً، والتصوير السَّجيّ لبيريز، والتي رَبِحَتْ جائزة توني كأفضل مسرحية سنة 2017 وسرعان ما حَظِيَتْ بعَرضٍ ناجح في الحيّ الغربي في لندن.

اعتَقَدَتْ حماس أن استِخدام القوة هو الطريق الوحيد لتحرير فلسطين وأكَّدتْ على المُطالَبة بجميع فلسطين وليس فقط بالأراضي التي احتلَّتْها إسرائيل بعد 1967[1].

كانت حركةُ حماس فَرعـًا من الجناح الفلسطيني لحركة الإخوان المسلمين التي تأسَّستْ بمصر سنة 1928 بأهدافٍ إصلاحية ولكنها تحَوَّلَتْ إلى العنف في الأربعينيات والخمسينيات، ثم تصالَحتْ مع النظام المصري تحت حُكم السادات في السبعينيات. أسَّسَ حَماس في غزة نُشطاء شَعروا بأن الإخوان المسلمين كانوا مُتهاوِنين مع المُحتلّ الإسرائيلي للحصول على معاملَة أفضل. وبالفعل، ففي العَقدين الأوَّلَين من الاحتلال حينما قَمَعَت السلطات العسكرية بشدة جميع الفئات الفلسطينية السياسية والاجتماعية والثقافية والمِهَنية والأكاديمية فقد سَمَحَتْ للإخوان المسلمين بحريّة العَمل. امتدَّ تَسامُحُ الإسرائيليين من الإخوان إلى حَماس لكي يَستفيدَ الاحتلالُ من انقِسام الحركة الوطنية الفلسطينية بِغضِّ النَّظر عن برنامَجها المتشدّد المُعادي للسَّامية والتِزامها بالعنف[2].

غَيرَ أن ذلك لم يكن السبب الرئيسي لنَجاحِها لأن صعودَ حماس كان جزءاً من اتِّجاهٍ اقليميٍّ كان يمثّل ردّاً على ما كان يُعتَقد من إفلاسِ الفِكر القومي العَلماني الذي سيطَر على السياسة في الشرق الأوسط على مرّ أغلب فترات القَرن العشرين.

---

(1) الكتابات عن حماس كثيرة وتشمل:
Tareq Baconi, *Hamas Contained: The Rise and Pacification of Palestinian Resistance* (Stanford, CA: Stanford University Press, 2018); Roy, *Hamas and Civil Society in Gaza*; Ziad Abu-Amr, *Islamic Fundamentalism in the West Bank and Gaza: Muslim Brotherhood and Islamic Jihad* (Indianapolis: Indiana University Press, 1994); Khaled Hroub, *Hamas: Political Thought and Practice* (Washington, DC: Institute for Palestine Studies, 2002); Mishal and Sela, *The Palestinian Hamas*; and Azzam Tamimi, *Hamas: A History from Within* (Northampton, MA: Olive Branch Press, 2007).

(2) ملخص جيد عن دعم إسرائيل لحركة حماس في
Mehdi Hassan, "Blowback: How Israel Went from Helping Create Hamas to Bombing It," *Intercept*, February19 , 2018.

في بـدايات تحـوّل منظمـة التحريـر الفلسـطينية مـن الكفـاح المسـلح نحـو مَسـارٍ دبلوماسي بقَصدِ التوصُّل إلى دولة فلسطينية وفَشِلَ في الوصـول إلـى نتـائج، وشَـعَرَ كثيرٌ من الفلسطينيين بأن المنظمةَ قد ضَلَّتْ طَريقَها وصَعَدَتْ حركـةُ حمـاس نتيجةً لذلك على الرغم من تَطَرُّفِ مَواقِفها الاجتماعية المحافِظة وعدم وضوح المستقبل الذي تَقتَرِحُهُ.

ارتَبَكَتْ حركةُ حماس قليلاً بسبب مَوجَة الرِّضَى الشعبيّ عنـدما عُقِـدَ مؤتمر مدريد للسلام بوجود مشارَكَةٍ فلسطينية على الرغم من أنها كانت بشروطٍ فَرَضَتْها إسـرائيلُ، وخـلال مباحثـات واشـنطن اسـتمرَّتْ حمـاس علـى كـل حـال في توجِيـهِ الانتقـادات للمَبـدأ الأساسـي في التَّفـاوض مـع إسـرائيل، وأصَـرَّتْ علـى جهودِهـا لاستمرار الانتفاضَـة. كـان لتوقِيـع اتفاقـاتِ أوسـلو تـأثيرٌ مماثِـل علـى توسيع آمـال الفلسطينيين وتَقويضِ حركةِ حمـاس مؤقتـاً. ولكـن بمـا أنّ موقِـفَ منظمـة التحرير كان مرتَبِطـاً بنتائج التَّفاوض مع إسرائيل فإنّ خيبةَ الأمَل الشعبية الكبيـرة التـي تَلَـتْ تطبيقَ اتفاقات أوسلو تَركَتْ حماس مُستعِدَّةً لِجَني الفوائد وازدادَتْ انتقاداتُها حِدَّةً لمنظمة التحرير وللسلطة الفلسطينية الجديدة. تحمَّلَ الفلسطينيون خيبةَ أمَلٍ أخرى عندما طالَتْ فترةُ السنوات الخَمس الانتقالية في الاتفاقات فترةً طويلة بعدما كان من المَفـروض أن تَنتَهـي. كانـت تلـك نكسـةٌ أخـرى لاسـتراتيجيةِ عرفـات في التفـاوض بالإضـافة إلـى واقِـعِ أن مفاوضـات الحَـلِّ النهـائي لـم تَنطَلِـق أبـداً بعـد أن كـان مـن المُفتَرَض أن تَبدأ سنة 1999. حَدَثَ إخفاقٌ آخر لمنظمـة التحريـر سـنة 2000 عنـدما فَشِلَتْ آخر قمّة عُقِدَتْ في كامـب ديفيـد بـين عرفـات ورئـيس وزراء إسـرائيل إيهـود باراك. دَعَى الرئيسُ كلينتون إلـى القمّـة في الأشـهر الأخيـرة مـن فـترةِ رئاسته الثانيـة عندما أصبَحَ ضَعيفـاً، وبعد أن فقَدَتْ حكومةُ بـاراك أغلبيتهـا في الكنيسـت، وكانـت شعبيةُ عرفات قد انخفَضَتْ بشكلٍ حادّ، فلَم يحظَ مؤتمرُ القمّـة بتحضيرٍ جيـد. لـم يوجَـد تفـاهُم مُسبَق بين الطَّـرفَين كمـا هـي العـادة في اجتماعـات القمّـة، كمـا شَـعرَ عرفات بضرورة حضور الاجتماع خَوفـاً من أن يُلقَى عليه الّلوم إذا فَشِلَ المؤتمر.

انتهى اجتماع كامب ديفيد بكارِثة، فقد تَجَنَّبَ باراك أي اجتماع مهمّ مع عرفات وقدَّم بدلاً عن ذلك اقتراحاً سرّياً من خلال الأمريكان ورَفَضَ أي تغيير. أقرَّ الأمريكان عَمَلياً بالمَوقف الإسرائيلي مع هذا الإجراء غَير العادي الذي لم يُنشَر إنما ذَكَرَهُ المُشارِكون بَعدَ المؤتمر، وكان غَيرَ مَقبولٍ من طَرف الفلسطينيين من عدة جوانب مَصيرية مثلَ السيطَرة الإسرائيلية الدائمة على وادي نهر الأردن والأجواء الفلسطينية وبالتالي على التَّواصُل بالعالَم الخارجي (مما يَعني أن "الدولة" الفلسطينية المتوقَّعَة لن تتمتَّع بالسيادة فعلِياً)، كما تَستمرُّ إسرائيلُ بالسيطَرة على مصادر المياه في الضفة الغربية بالإضافة إلى ضمّ مناطق ستُقَسِّمُ الضفة الغربية إلى كِتَلٍ عديدة منفصِلة. ولم يكن مستَغرَباً أن أكبرَ فجوةٍ بين الطَّرفَين كانت حولَ مَصير القدس. طَلَبَتْ إسرائيلُ سيادةً حَصريةً بما فيها السيادةُ على كامِلِ الحَرَم الشريف وأغلب مناطق المدينة القديمة وكان ذلك عامِلاً مركزياً أدّى في النهاية إلى فَشَلِ المحادثات[1].

شَرعَ كلينتون بعد ذلك في لَوم عرفات على فَشَلِ القمّة على الرغم من أنه تعهَّد قبلَها بعدم فِعل ذلك، وحتى قَبل أن تنتهي المحادثات بدأ باراك في التَّحدث إلى الصحفيين عن عرقَلَة عرفات وسرعان ما صرَّحَ أن الفلسطينيين لا يريدون السلام. كانت هذه الاستراتيجيةُ ستفشَل في النهاية فقد ظهَر باراك غَبياً لأنه جاء لحضور قمّةٍ كان فشلُها محتّماً إذا كان تقديره لعرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية صحيحاً. كما أنها ألقَتْ شَكّاً وتَساؤلاً على كامل اسلوبِ رابين وبيريز وباراك وحزب العمال الإسرائيلي. كان المُستفيد المباشر من خَطأ باراك التكتيكي هو شارون الذي كان

---

(1) هناك كتابات كثيرة عن قمة كامب ديفيد أغلبها بَرّاق ويَخدُم الذات، خاصة عمل واحِدٍ من مهندِسيها:

Dennis Ross, *The Missing Peace: The Inside Story of the Fight for Middle East Peace* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2004).

ولكن أفضل تقرير عنها في:

Clayton Swisher, *The Truth About Camp David: The Untold Story About the Collapse of the Middle East Peace Process* (New York: Nation Books, 2004).

يقودُ حزبَ الليكود وكان له ميزة الثبات فقد كان يقول دائماً أنه لا يمكن التوصُّل إلى اتفاق مع الفلسطينيين وكان يعارِض اتفاقات أوسلو بشدة. وتَطايَرت الاتهاماتُ على الجانب الفلسطيني بعد هذا الجُهد الإنقاذي الأخير الذي أكَّد على أن إسرائيل لا تريد أن تقبَلَ بأي شيء يشبه سيادةً فلسطينية كاملة، وبالتالي فإن عملية أوسلو لن تتوصَّل إلى حَلٍّ يُرضي المَطالِبَ الفلسطينية، وأن الوضعَ القائم المُزري سيستَمر. أدَّت جميعُ هذه العوامل إلى تقوية حركة حماس وإلى استقطابٍ غير مَسبوق في الكيان الفلسطيني وخَلَقَتْ شَرخاً داخل الشعب. في تلك المرحلة شكَّلتْ حماس التهديدَ الأكثر خطورة منذ منتصف الستينيات على هَيمَنة حركة فتح على منظمة التحرير الفلسطينية واحتكار منظمة التحرير للسياسة الفلسطينية.

اشتَعلَت الانتفاضةُ الثانية في سبتمبر 2000 بسبب ازدياد سوء أوضاع الفلسطينيين بعد أوسلو، وخيبة الأمَل في التَّوصل إلى دولة، والتَّنافس الشديد بين منظمة التحرير الفلسطينية وحركة حماس. أدّت هذه العوامل جميعها إلى خَلقِ المادةِ المُشتَعِلة التي تفجَّرتْ منها الانتفاضة الثانية. كانت تحتاج فقط إلى شَرارة لكي تَنفَجر، وكانت هذه الشرارة هي زيارةٌ تحريضية قامَ بها آريل شارون إلى الحَرَم الشريف مُحاطاً بمئاتٍ من عناصر الأمن. يُطلِقُ اليهود على الحَرَم الشريف اسم جَبل الهيكل، وكان بؤرةَ المَشاعرِ القومية والدّينية لدى الطَّرفَين على الأقل منذ الأحداث الدّامية سنة 1929 عندما قامَتْ مظاهرةٌ مشاكِسَة حَمَلَت أعلامَ متطرِّفين من الصهاينة الإصلاحيين قُربَ الحائطِ الغربي وأطلَقَتْ أياماً عنيفةً في كافة أنحاء البلاد سقَطَ فيها مئات الجَرحى من الطَّرفَين[1]. ازدادَ توتر الفلسطينيين مباشرة بعد احتلال الجزء الشرقي من المدينة سنة 1967 وقامَتْ سلطاتُ الاحتلال بتحطيمِ حَيٍّ كاملٍ

(1) For details, see Rana Barakat, "The Jerusalem Fellah: Popular Politics in Mandate-Era Palestine," *Journal of Palestine Studies* 46, no. 1 (Autumn 2016): 7-19; and "Criminals or Martyrs? British Colonial Legacy in Palestine and the Criminalization of Resistance," *Omran* 6, November 2013. See also Hillel Cohen, *1929: Year Zero of the Arab-Israeli. Conflict* (Boston: Brandeis University Press, 2015).

مُجاورٍ للحَرَم في حارَة المَغاربة بما فيها من مساجد وأضْرِحَة وبيوت ومَتاجر لكي تَصنَعَ ساحةً واسعة قُربَ الحائط الغربي. كانت كثيرٌ من المواقع التي دمَّرتْها الجَرافات الإسرائيلية أوقافاً، مثل المَدرَسة الأفضَلية التي أسَّسها الحاكِم الأيوبي المَلِك الأفضَل بن صلاح الدّين سنة 1190[1]. كما دَمَّرت الزاوية الفَخرية القديمة بعد ذلك بسنتَين[2]، وكانت مركزاً صوفياً يقَعُ مباشرة جانب الحَرَم.

أصبَحت المدينةُ مغلقةً أمام الفلسطينيين من الضفة الغربية وغزة، واستمر توسّع المستوطِنين الإسرائيليين في القدس الشرقية فخَشِيَ السكان من أنهم على وشك الاستِبعاد. قَبلَ ذلك بسَنة واحدة في 1999 فتَحَتْ إسرائيلُ نَفَقاً تحت المدينة القديمة قُربَ الحَرَم أدّى إلى حدوثِ أضرار للممتلَكات فوقَهُ في الحَيّ الإسلامي واشتِعال مظاهرات كبيرة. جاءتْ زيارةُ شارون مباشرة بعد قمة كامب ديفيد الفاشلة في توقيتٍ سيء. كان شارون يقومُ بحَملة انتخابية لكي يَخلِفَ باراك كرئيسٍ للوزراء وأضافَ الوقودَ إلى النار عندما أعلَنَ "جبلُ الهيكل في أيدينا وسيَظَلُّ في أيدينا"[3].

---

(1) لائحةٌ بالأضرحة الإسلامية الدينية والمساجد التي دُمِّرتْ كجزءٍ من صُنع سوق الحائط الغربي، انظر

R. Khalidi, "The Future of Arab Jerusalem," *British Journal of Middle East Studies* 19, no. 2 (Fall 1993): 139-40.

أكثر تحليل تفصيلي لتأسيس وتاريخ وتدمير حارة المَغاربة في:

Vincent Lemire, "Au pied du mur: Histoire du quartier mahgrébin de Jérusalem (1187-1967)," forthcoming.

معلومات معمارية وأثرية وصور عن هذه المواقع المدمَّرة تجدها في:

Michael Hamilton Burgoyne, *Mamluk Jerusalem: An Architectural Study* (London: World of Islam Festival Trust, 1987).

(2) الزاوية، هو موقع صوفيّ سابق قرب الحَرَم أصبح مكان إقامة عائلة أبو السعود التي كانت تقوم بإدارته تقليدياً Yitzhak Reiter, *Islamic Endowments in Jerusalem Under British Mandate* (London: Cass, 1996), 136. وهو المكان الذي وِلد فيه ياسر عرفات سنة 1929 الذي كانت والدته من عائلة أبو السعود وحسب ابنة عمّي رقية خالدي، أم كامل، التي ذَكَرتْ أنها زارتْ جيرانها من عائلة أبو السعود برفقة والدتها لتهنّئهم على ولادة الطفل الجديد: في مقابلة في 26 يوليو 1993 في القدس.

(3) Suzanne Goldenberg, "Rioting as Sharon Visits Islam Holy Site," *Guardian*, September 29, 2000.

بالنظر إلى سِجِلّ شارون في التَّهور وانتِهاز الفُرَص كان واضحاً أنه يَنوي استِغلال السِّياقِ المتفَجِّر لتَحسين موقِفِهِ في ربحِ الانتخابات القادمة، وهذا ما نَجَحَ فيه بعد أشهرٍ قليلة.

كانت نتيجةُ تَحريضِهِ أسوأ انفجارٍ للعنف في الأراضي المحتلة منذ 1967، وانتَشَر العنفُ بَعدَها داخلَ إسرائيل في مَوجَةٍ من التفجيرات الانتحارية القاتِلة. كان ارتفاعُ سوية سَفكِ الدماء صادِماً. خلال أكثر من ثمان سنوات من الانتفاضة الأولى قُتِلَ 1600 شخصاً بمعدل 177 كل سنة (12٪ منهم إسرائيليون). وخلال السنوات الأربع الأكثر هدوءاً التي تَلَتْها قُتِلَ 90 شخصاً، أي حوالي 20 كل سنة (22٪ منهم إسرائيليون). وبالمقارَنة، خَلَّفَت السنوات الثماني من الانتفاضة الثانية 6600 قتيلٍ بمعدل 825 كل سنة، كان منهم 1100 إسرائيلي (أقلّ من 17٪) و4916 فلسطينياً قَتَلَتْهم قواتُ الأمن الإسرائيلية والمستوطِنون (أكثر من 600 فلسطيني قَتَلَهم فلسطينيون آخرون). كان أغلبُ القَتلى الإسرائيليين في الفترة الأخيرة من المَدَنيين الذين قَتَلَتْهم تفجيراتٌ انتحارية فلسطينية داخل إسرائيل، بينما كان بينهم أقلّ من 332 (الثلث تقريباً) من عناصر قوات الأمن. هذه الزيادة الصادِمة في أعداد القَتلى خلال الانتفاضة الثانية تَمنَحُ تقديراً للتزايد الحادّ في العنف[1].

بينما لَعِبَ التنافس بين حَماس ومنظمة التحرير دَوراً في هذا التصاعد فإن استِخدام اسرائيل للقوة المُفرِطَة والرصاص الحَيّ ضد متظاهرين غير مسلحين منذ البداية (أطلَقوا 1.3 مليون رصاصَة في الأيام القليلة الأولى من الانتفاضة)[2] كان عامِلاً حاسماً لأنه سبَّبَ عدداً مروّعاً من الإصابات. أثارَ هذا الأذى بعضَ الفلسطينيين في النهاية وكان أغلَبُهم من قوى الأمن التابعة للسُلطة الفلسطينية فحَمَلوا السلاح والمتفجرات. ظَهَرَ للمُتابِعين المُدَقِّقين أن الجيش الإسرائيلي كان

(1) جميع الأرقام من جداول نَشَرتْها جمعيةُ بتسليم التي لا غِنى عنها في موقع:
Israeli Information Center for Human Rights in the Occupied Territories.

(2) Reuven Pedatzur, "One Million Bullets," *Haaretz*, June 29, 2004.

مستعِداً للتصعيد بشكلٍ جيد وربما كان يَنوي إطلاقَ النار فورَ حدوثِ مثل تلك التطورات[1]، وكما هو متوقَّع فقد لَجَأتْ إسرائيلُ إلى الأسلحة الثقيلة بما فيها الطائرات المروحية والدبابات والمدفعية مما سبَّبَ مزيداً من الإصابات بين الفلسطينيين.

ردَّتْ حركةُ حماس وشريكَتُها الأصغر حركةُ الجهاد الإسلامي بزيادة الهجَمات الكبيرة بتفجيراتِ الانتحاريين الذين هاجَموا بشكلٍ رئيسي أهدافاً مَدَنية ضعيفة مثل الحافلات والمقاهي ومراكز التَّسوق داخل إسرائيل. اقتَضَتْ هذه التكتيكات نَقلَ العنف الذي كان مُركَّزاً بشكلٍ رئيسي في الأراضي المحتلة إلى داخل مناطق العدو، وكانت أساليب لم تتوفَّر لدى إسرائيل في بداية الأمر أية دفاعات ضِدَّها. بدأت التفجيرات الانتحارية في نهاية سنة 2001، ومع تصاعِدها انضَمَّتْ إليها حركةُ فتح مما أدّى إلى تَنافُسٍ مميت، وتَبِعَ ذلك تسارعٌ قَتَّال من التفجيرات الانتحارية فَجَّرَهُ جزئياً التَّنافس بين الطَّرفَين. حسب إحدى الدراسات في السنوات الخمس الأولى من الانتفاضة الثانية نَفَّذَتْ حركةُ حماس حوالي 40٪ من الهجمات الانتحارية، وحوالي 26٪ من حليفتِها حركة الجهاد الإسلامي، وأكثر من 26٪ من حركة فتح، وقامَ بالهجمات الباقية حلفاء لحركة فتح في منظمة التحرير[2].

كانت منظمةُ التحرير الفلسطينية قد تخلَّتْ عن العنف سنة 1988 ولكن عندما أَطلَقَ الجنود الإسرائيليون النارَ على عددٍ كبير من المتظاهرين، وعندما ردَّت حماس بهجماتٍ انتحارية، أصبحَ الضغطُ على حركة فتح متزايداً، وأصبحَ التصعيد حَتمياً وحَرَّكَتْهُ مَذبحةُ سنة 1994 داخل مسجد الحَرم الإبراهيمي في الخليل حيث

(1) المصدر نفسه. حسب تحليل بيداتزور Pedatzur كانت القيادة العليا الإسرائيلية قد قرَّرتْ سلفاً هذا الاستخدام الكاسح للقوة لكي تكون الهزيمة الفلسطينية النهائية "محفورة بالنار في ضمائرهم".

(2) Efraim Benmelech and Claude Berrebi, "Human Capital and the Productivity of Suicide Bombers," *Journal of Economic Perspectives* 21, no. 3 (Summer 2007): 223-38.

قَتَلَ مُستوطِنٌ مسلَّحٌ 29 فلسطينياً. بادَرتْ حماس والجهاد الإسلامي باستِخدام التفجيرات الانتحارية داخل إسرائيل كجزء من حَملَتِهما ضد اتفاقات أوسلو في الفترة من 1994 إلى 2000 قتَلوا خلالها 171 إسرائيلياً في 27 تفجيراً. مع نهاية تلك الفترة كُبِحَتْ هذه الهجمات بشكلٍ كبير بِقَمعٍ شَرِسٍ قامَتْ به قواتُ الأمن التابعة للسلطة الفلسطينية. دَفَعَتْ قيادةُ منظمة التحرير الفلسطينية لوَقفِ تلك الهجمات بأيّ ثَمَن للمحافَظَة على عملية أوسلو المتَعثّرة. ولتحقيق هذا الغَرَض، قامَتْ أجهزةُ أمنِ السُلطة الفلسطينية التي تتألف غالبيتُها من مسلَّحي حركةِ فتح الذين قَضوا أوقاتاً في السجون الإسرائيلية، واستَخدموا التعذيبَ ضد المُشتَبَهِ بِهِم من حركة حماس بشكلٍ مُطلَقٍ مثلما فَعَلَ بهم المُحقِّقون الإسرائيليون. خَلَقَتْ تلك المُمارساتُ كراهيةً عميقة لدى الطَّرفَين سيَنفجِر لاحِقاً في انقسامٍ مفتوحٍ بين منظمة التحرير الفلسطينية وحركة حماس في 2005.

في تناقضٍ صارخٍ مع الانتفاضة الأولى، شكّلت الانتفاضةُ الثانية إخفاقاً كبيراً للحركة الوطنية الفلسطينية، وكانت نتائجَها كارثية ومدمِّرة على الأراضي المحتلّة. أعادَ الجيشُ الإسرائيلي في سنة 2002 احتلالَ المناطق المَحدودَة، خاصةً المُدن والبلدات التي كانت قد انسَحَبتْ منها كجزءٍ من اتفاقات أوسلو. وفي السنة ذاتِها فَرَضَت القواتُ الإسرائيلية حِصارَها على مِركز قيادة ياسر عرفات في رامَ الله حيثُ سَقَطَ في مرضٍ مميت. تجنَّبتُ اللقاءَ معه بعد مقابَلَتي المُخيِّبة في غزة سنة 1994، ولكنني تَشجَعتُ عندما رأيتُ الرجل المُسِنّ المَريض إلى جانب صديقي ساري نسيبة، وزرتُهُ مرتَين أثناء حِصارِه ووجدتُ أنه قد ضِعف كثيراً جِسمياً وذِهنياً[1]. كانت تلك المعاملةُ القاسية للقائدِ التاريخي للشعب الفلسطيني مُهينَة مثلما قَصَد

(1) كان انطباعي أن ضعفَهُ الذّهني بَدَأ قَبل ذلك وربما كان ذلك في سنة 1992 عندما حدَثَ الهبوط الاضطراري للطائرة التي تحمله في الصحراء الليبية حين قُتِلَ عددٌ من المسافرين وأصيبَ هو بجِراح:
Youssef Ibrahim, "Arafat Is Found Safe in Libyan Desert After Crash," *New York Times*, April 9, 1992

إليها آرييل شارون. كما أنها أكَّدتْ على الخطأ الجَسيم الذي ارتكَبَتْه منظمة التحرير الفلسطينية بنَقلِ جميع قادَتِها تقريباً إلى داخلِ الأراضي المحتلة حيث كانوا مُعرَّضين لمِثل تلك الإهانات.

عودةُ الاحتلال الإسرائيلي لمُدنِ وبلدات الضفة الغربية وقطاع غزة بعد انهيار قمة كامب ديفيد حطَّمتْ كل ما بَقي من ادّعاءات بأن الفلسطينيين كان لديهم أو سيُصبح عندهم وضعٌ يشبه السيادة أو الحُكم الذاتي الحقيقي في أي جزء من أرضِهم، وفاقَمَت الخلافات السياسية بين الفلسطينيين، وأكّدت على غياب استراتيجية بَديلَة ممكِنة، وفَضَحت فَشلَ المَسار السياسي لمنظمة التحرير والكفاح المسلح لحركة حماس وغيرها. بَيَّنَتْ تلك الأحداثُ أن أوسلو قد فَشِلَتْ، وأن استِخدام القنابل والتفجيرات الانتحارية قد فَشِلَتْ، وأن أكبرَ الخاسرين من جميع الإصابات التي أُلحِقَتْ بالمَدَنيين الإسرائيليين كانوا الفلسطينيين بكل الطّرق.

نتيجةٌ أخرى هي أن العنفَ المُخيف في الانتفاضة الثانية قد مَحَى الصورةَ الإيجابية عن الفلسطينيين التي نَشأتْ وتَطورتْ منذ سنة 1982 وخلال الانتفاضة الأولى ومحادثات السلام. نُشِرَتْ في كافة أنحاء العالَم مناظِرُ مخيفةٌ لهجَماتٍ انتحارية متكررة (وكانت تغطِيَتُها تُخفِي العنفَ الأكبر الذي ارتُكِبَ ضد الفلسطينيين)، ولم يَعُد الإسرائيليون يُعتَبرون كظالمين، بل رجِعوا إلى دَورهم المُعتاد كضحايا لِجَلادين متعَصّبين ولاعَقلانيين. من المؤكّد أن التأثير السلبي القوي للانتفاضة الثانية لدى الفلسطينيين، وتأثير التفجيرات الانتحارية على الرأي العام والسياسة الإسرائيلية قد رسَّخَ النَّقدَ الحادَّ الذي عبَّر عنه إقبال أحمد في الثمانينيات بشأن استِخدام الفلسطينيين للعنف.

لا شك بأن مثل تلك الاعتبارات كانت بعيدةً عن أذهان الرجال (وبعض النساء) الذين خطَّطوا ونفَّذوا تلك التفجيرات الانتحارية. يمكن تقديرُ ما كانوا يحاولون تحقيقَه حتى عند تَبيينِ مَدى الخَطأ في مَقاصِدهم. حتى لو قَبِلَ المَرءُ

سَردِيَّتهم التي تَعتَقد بأن التفجيرات الانتحارية كعمليات انتقامية من استِخدام إسرائيل للرصاص الحَيّ عَشوائياً ضد متظاهرين غير مسلحين في الأسابيع الأولى من الانتفاضة الثانية، وهجومِها على المَدَنيين الفلسطينيين وعمليات الاغتيال التي قامَتْ بها في غزة، فإن ذلك يَطرَحُ السؤال فيما إذا كانت تلك التفجيرات الانتحارية تقصد تحقيقَ أي شيء أكثر من انتقامٍ أعمَى. كما أنها تَتجنَّبُ حقيقةَ أن حماس والجهاد الإسلامي اللتان نَفَّذَتا ثُلُثَي التفجيرات الانتحارية أثناء الانتفاضة قد قامَتا بأكثر من عشرين من تلك الهجمات في التسعينيات قَبلَ زيارة شارون إلى الحَرم.

ربما يُناقَش أن تلك الهجمات كانت تقصد رَدعَ إسرائيل، وهذا غَير سَليم بالنَّظَر إلى العقيدة العسكرية الإسرائيلية الراسِخة منذ زمنٍ طويل بأنها يجب أن تُسيطِر وتَربَح أي مواجَهة مهما كانت الخسائر. وأنها يجب أن تُظهِرَ قدراتِها التي لا يُشَكُّ بها في رَدعِ أعدائِها وسَحقِهم[1]. فَعَلَ شارون ذلك بالضبط في الانتفاضة الثانية وطَبَّقَ تلك العقيدة دون تَهاون، وكذلك فَعَلَ رابين قَبلَه خلال الانتفاضة الأولى على الرغم من دَفعِ ثَمَنٍ سياسيٍّ باهِظ كما أقَرَّ به رابين.

كما أن الاعتقاد كان خاطئاً أيضاً بأن تلك الهجمات على المَدَنيين كانت ضربات ربما تؤدي إلى تفكّك المجتمع الإسرائيلي. ترتكِزُ هذه النظرية على تحليلٍ منتَشِرٍ خاطئ بأن إسرائيل كيانٌ سياسي "مصطَنع" ومنقَسم بعُمق، وهي تتَجاهل نجاحَ الصهيونية الواضِح في بِناء الأمّة الذي قامَتْ به خلال أكثر من قَرن، وتَماسُكِ المجتمع الإسرائيلي على الرغم من انقساماتِه الداخلية الكثيرة. ولكن أهم عامِلٍ يَغيبُ في أية حسابات قامَ بها أولئك الذين خطَّطوا لتلك الهجمات الانتحارية هو حقيقةُ أنه كلما استمرَّت الهجَمات أصبَحَ المجتمعُ الإسرائيلي أكثر تضامُناً وراء موقف شارون المتشدّد. وفي النتيجة، خَدَمَت التفجيراتُ الانتحارية في توحيد وتقوية الخَصم بينما أضعَفتْ وفرَّقَت الطَّرف الفلسطيني. مع نهاية الانتفاضة الثانية حسب استطلاعاتٍ مَوثوقة كانت غالبيةُ الفلسطينيين معارِضَةً لذلك

(1) هذه العقيدة هي تحليلٌ قوي لبداتزور في ".Pedatzur, "One Million Bullets

الأسلوب[1]، وهكذا بالإضافة إلى طَرحِ قضايا قانونية وأخلاقية خطيرة، وحِرمان الفلسطينيين من الصورة الإيجابية في وسائل الإعلام، فإن نتائج تلك الهجمات الانتحارية كانت عَكسِية وضارّة جِداً على المستوى الاستراتيجي. ومهما كان اللوم الموجَّهُ إلى حماس والجهاد الإسلامي على الهجمات الانتحارية التي أدَّت إلى هذا الإخفاق، فإن قيادةَ منظمة التحرير الفلسطينية التي تَبعَتْهما في النهاية يجب أن تَشتَرِكَ معهما في اللوم أيضاً.

توفي ياسر عرفات في نوفمبر 2004 في مستشفى بباريس ضمن ظروفٍ ظلَّتْ غامضة. حَلَّ محَلَّهُ محمود عباس (أبو مازن) رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية وحركة فتح، وانتُخِبَ لرئاسة السلطة الفلسطينية لفترة 4 سنوات في يناير 2005. لم تُجرَ انتخاباتٌ رئاسية منذ ذلك الحين، ولذا فقد حَكَمَ عباس دون تَفويضٍ ديموقراطي منذ 2009. كانت وفاةُ عرفات علامةَ انتهاء حُقبةٍ امتدَّت نصف قَرن منذ بداية الخمسينيات بالانطلاقات الأولى لإحياءِ الحركة الوطنية وانتهتْ ومستقبلُ الفلسطينيين في أسوأ انحِساراتِه منذ 1948. ترأسَّ عباس على مَر عَقد ونصف بشكلٍ غَير فعّال وتراجُعٍ خطير في وَضعِ الحركة الوطنية التي كانت ضَعيفة أصلاً، واشتداد حِدَّةِ الانقسام الفلسطيني، وتوسّع كبير في الاستعمار الصهيوني لما بَقيَ من أرضِ فلسطين، وسلسلة من الحروب الإسرائيلية على غزة المحاصَرة.

كان عباس واحداً من الأعضاء القليلين الباقِين من الحَرَس القديم في اللجنة المركزية لحركة فتح التي سيطَرت فترةً طويلة على منظمة التحرير، ولم يكن زعيماً جماهيرياً ولا خَطيباً بَليغاً. لم يكن مَعروفاً بشجاعَتِه الخاصّة ولم يُعتَبر رجلاً شعبياً. وبشكلٍ عام كان واحِداً من الشخصيات الأقلّ إثارةً للإعجاب من الجِيل الأول لقيادات فتح البارزين. توفي قليلٌ من هذه المجموعة بأسباب طبيعية، بينما

(1) الاستطلاع الأكثر موثوقية وثباتاً في العقود القليلة السابقة هو من مركز القدس للإعلام والاتصالات، وحسب استطلاعهم رقم 52 الصادر في ديسمبر 2004 فإن "غالبية الفلسطينيين يعارِضون عمليات عسكرية ضد أهداف إسرائيلية كرَدٍّ فِعلٍ مناسِب في الظروف السياسية الحالية".

قامَت الموساد أو جماعات تَدعَمها أنظمةُ سورية أو العراق أو ليبيا باغتيال كثيرٍ منهم مِثلَ أبو إياد وأبو جهاد وأبو الوليد وماجد أبو شرار وأبو يوسف نجار وكمال عدوان وأبو الهول وأبو حسان سلامة. كان غسان كَنَفاني وكمال ناصر من أفضَلِ رجالِ الحركة الوطنية وأكثر القادَة والمتحدّثين كفاءَة، وأصبَحَ الفلسطينيون بعد فَقدِهِما أقلّ حيوية وأضعف تنظيماً. استمرَت الاغتيالاتُ الإسرائيلية المُمَنهَجَة تحت عنوان "القَتل المستَهدَف" أثناء الانتفاضة الثانية وخلالَ فترة حُكم عباس، وتم اغتيال قادَةٍ من فتح والجبهة الشعبية وحماس والجهاد الإسلامي كذلك. كان الدَّافع وراء بعض هذه الاغتيالات سياسياً وليس عسكرياً أو أمنياً، كما يَظهَر في اغتيال اسماعيل أبو شَنَب مثلاً الذي كان معارِضاً بارزاً داخل حركة حماس للتفجيرات الانتحارية[1].

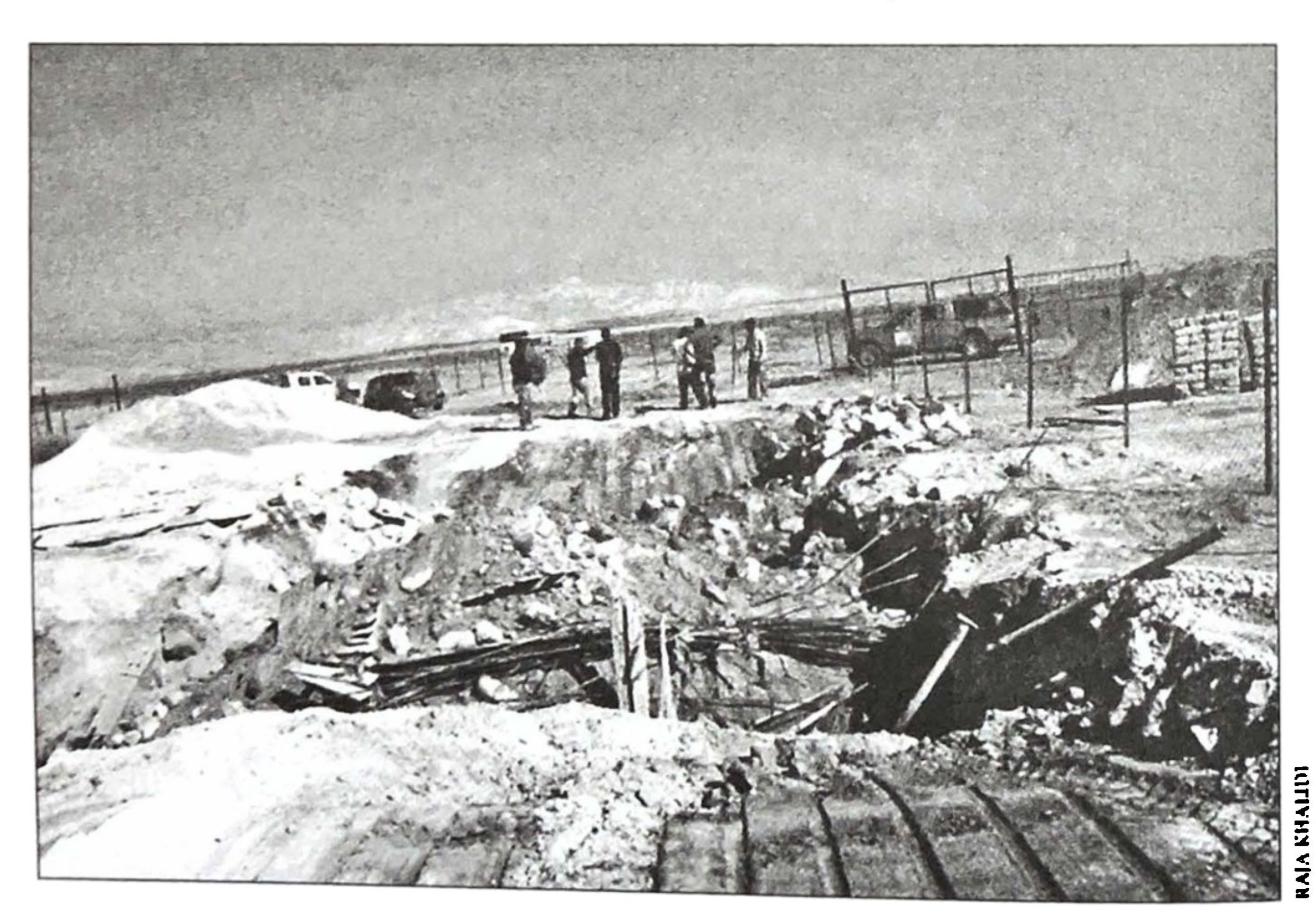
الحربُ المستمرة في غزة التي شَمَلتْ اجتياحاتٍ برّية إسرائيلية في 2008-2009 و2012-2014 كانت تتخلّلها توغلاتٌ عسكرية إسرائيلية في مناطق الفلسطينيين في الضفة الغربية والقدس الشرقية حَدَثَتْ فيها اعتقالاتٌ واغتيالات وتَخريبُ بيوتٍ وقَمعٌ السكان مع السكوت المتواطِئ للسُلطة الفلسطينية التي تقودُها فتح في رامَ الله. أكّدتْ هذه الأحداثُ على أن السلطة الفلسطينية كانت جسماً بِغَير سيادة ولا سُلطة حقيقية فيما عَدا ما سَمَحَتْ به إسرائيل، وتواطَأتْ في قَمعِ الاحتجاجات في الضفة الغربية بينما قَصَفَتْ إسرائيلُ غزة.

قاطَعَتْ حماس والجهاد الإسلامي الانتخابات الرئاسية التي جَرَتْ سنة 2005 مثلما قاطَعَتا انتخابات السُلطة الفلسطينية قَبلَها اتِّساقاً مع رفضِهما لاتفاقاتِ أوسلو وللسُلطة الفلسطينية وللمجلس التشريعي الفلسطيني الذي انبَثَقَ عنها. وسرعان ما قامَتْ حركة حماس بحركة التِفافِية وقررّت المشاركة بقائِمةٍ من المُرشَّحين في الانتخابات النيابية في يناير 2006. قَلَّلت الحركة في حَملتها الانتخابية من حِدَّة

(1) Nicholas Pelham and Max Rodenbeck, "Which Way for Hamas?" *New York Review of Books*, November 5, 2009.

رسالَتِها الإسلامية الاجتماعية المحافِظة التي كانت سِمَتَها التقليدية وكذلك من دِعمِها للمقاومة المسلحة ضد إسرائيل، وأكّدتْ بدلاً من ذلك على الإصلاح والتغيير الذي كان اسمُ قائمتها الانتخابية. كان ذلك انعطافاً له أهمية بالِغة، فبِتقديمِ مُرشَّحِين للمجلس النيابي لم تَقبَلْ حماس فقط بشَرعية السُلطة الفلسطينية بل قَبِلَتْ بالتالي بشَرعية عملية المفاوَضات التي أنتَجَتْها وبِحَلِّ الدولتَين الذي كان المَفروض أن تَصِلَ إليه. كما أن حماس كانت تَتبنَّى بذلك احتمال رَبحِ الانتخابات وبالتالي المشارَكة في المسؤولية عن حُكم السُلطة الفلسطينية مع عباس.

كان جوهر مسؤوليات السُلطة الفلسطينية كما يراها رعاتُها الإسرائيليون الأمريكان والأوروبيون يتضمن مَنعَ العنف ضد إسرائيل والتعاون الأمني مع إسرائيل. لم تَعترَفْ حركةُ حماس أبداً بأن هذا التغيّر يَعني ما يبدو أنه يَدُلُّ عليه، ولا بأنه يُناقِضُ الالتِزام بالمقاومة المسلحة المَنصوصِ عليها في ميثاق تأسيسها ويُشكّل جزءاً من اسمِها، إذ أن اسمَ حماس مشتقٌ من حركة المقاومة الإسلامية.



العوجة، الضفة الغربية في المنطقة C: أساسات منزل رجاء الخالدي أخو المؤلف وقد هدَمَته الجرافاتُ العسكرية الإسرائيلية

وبخِلاف جميع التوقعات، بما فيها توقعات حركة حماس نفسها، فقد فازَتْ حماس في الانتخابات بفارقٍ كبير وحصَلَتْ على 74 مقعداً مقابل 45 مقعداً حصَلَتْ عليها حركة فتح في المجلس الذي يبلغ عدد مقاعِده 132 مقعداً (على الرغم من أن خصوصيات النظام الانتخابي كانت أن حماس فازَتْ بنسبة 44٪ من الأصوات مقابل 41٪ لحركة فتح). أظهَرتْ استطلاعاتُ الرأي بعد التصويت أن السبب الرئيسي لهذه النتيجة يرجع إلى الرغبة القوية للمنتَخِبين الموجودين في الأراضي المحتلة في التغيير أكثر من الدعوة إلى حكومة إسلامية أو زيادة المقاومة المسلحة ضد إسرائيل[1]، وقد ذَهَبَت الأصوات بشكلٍ كبير إلى حركة حماس حتى في المناطق ذات الأغلبية المسيحية، وهذا دليلٌ على أن كثير من المنتَخِبين أرادوا ببساطة الإطاحَة بأصحاب المَناصب من حركة فتح الذين فَشِلَتْ استراتيجيتُهم والذين اعتُبِروا فاسدين وغير متجاوبين مع مَطالِب الشعب.

أصبَحتْ حركة حماس مسيطِرة على المجلس التشريعي وتزايدَ الصراع بينها وبين حركة فتح، وكما أدركَ عددٌ من الشخصيات الفلسطينية السياسية فإن انقِساماً بين الحركَتَين يمكن أن يكون كارِثياً للقضية الفلسطينية، وشارَكهم الرأيُ العام هذه المخاوف بقوة. وفي مايو 2006 أصدَرَ القادة الخَمس للفصائل الرئيسية في السُّجون الإسرائيلية وثيقةَ الأسرى (التي تَستَحقُّ أن تكون مَعروفة بشكلٍ أوسَع) طالَبتْ بإنهاءَ الانقسام بين الفصائل على أساسِ برنامجٍ جديد يَرتكِزُ على حَلِّ الدولَتَين. كانت الوثيقةُ حَدَثاً مهمّاً[2] وإعلاناً واضحاً لإرادة القواعد الأساسية للحركَتَين، من طَرَفِ أكثر العناصر احتراماً فيهما (مِنَ الذين لم يتم اغتيالهم) والذين كانوا في السجون الإسرائيلية. احترامُ الأسرى في المجتمع الفلسطيني مرتفعٌ للغاية، وهناك أكثر من 400000 فلسطيني تم حَبسُهم في إسرائيل منذ بدء الاحتلال.

---

(1) ظهَر ذلك بوضوح في استطلاع بعد الانتخابات قام به مركز فلسطين للسياسات وأبحاث الاستطلاع، ولمؤسسة خاصة هي استشارات الشرق الأدنى.

(2) النسخة المنقَّحة النهائية التي وافقتْ عليها جميع الفصائل الفلسطينية بتاريخ 28 يونيو 2006 يمكن إيجادها على الانترنت.

حاولَتْ حماس وفتح تحت هذا الضغط الشعبي مِراراً تشكيلَ حكومة ائتلافِ بأعضاء من الحركَتين، إلا أن هذه الجهود اصطَدَمتْ بمعارَضةٍ قوية من جهة إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية اللتان رفضَتَا حركةَ حماس كجزء في أيّ حكومة للسُلطة الفلسطينية، وأصَرَّتا على الاعترافِ الصريح بإسرائيل وليس بالشكلِ الضّمني الموجود في وثيقةِ الأسرى، بالإضافة إلى شروطٍ مختلفة أخرى. وهكذا غَرِقَتْ حركةُ حماس الآن في الرقصة اللانهائية حول التنازلات التي اضُطرَّتْ منظمةُ التحرير الفلسطينية على تَحَمُّلِها فترةَ عقود، سواءً كان الشرطُ هو تغيير ميثاقِها، أو القبول بقرارِ مجلس الأمن رقم 242، أو التَّخلي عن الكفاح المسلح، أو الاعتراف بوجود إسرائيل... وكلها من أجل الحصول على الشرعية من طَرَفِ مَن يَفرضون هذه الشروط. سواءٌ كان قبول الشروط من طرف منظمة التحرير في السبعينيات، أو من طرف حركة حماس في في العَقد الأول من القَرن الحادي والعشرين فقد كانت مَطلوبةً دون مقابَلَتِها بأي وَلاءٍ من جهة القوة التي طَرَدَتْ معظم الشعب الفلسطيني ومَنَعَتْ عودَتهم واحتلَّتْ أراضيهم بالقوة والإرهاب الجماعي ومَنَعَتْهم حقّ تقرير المصير.

بينما قامَتْ إسرائيلُ بمَنعِ دخولِ حركة حماس في حكومة ائتلاف للسلطة الفلسطينية، قاطَعَت الولاياتُ المتحدة حركةَ حماس، ومارَسَ الكونغرس سُلطَةَ المال لمَنعِ تمويل الولايات المتحدة من الوصول إلى حماس أو إلى أيّ جِسمٍ في السُلطة الفلسطينية تكونُ جُزءاً منه. فَرَضَتْ مَصادرُ تمويلٍ للفلسطينيين مثل مؤسسة فورد أنواعاً مختلفة من الضغط على مؤسسات غير حكومية للقَفز على القانون للتأكّد من عدم وصول أي دَعمٍ ماليّ لأيّ مَشروع حتى لو كان بعيداً جداً عن العَلاقة بحماس. تم إحضار أبراهام فوكسمان Abraham Foxman رئيسُ لجنة مناهَضَة التمييز المؤيِّدة لإسرائيل بقوة للتَّدقيق في وَضعِ الفلسطينيين الحاصِلين على مِنَحِ مؤسسةِ فورد. كانت النتيجةُ متوقَّعَة، فقد توقَّفتْ مؤسسةُ فورد عَمَلياً عن تمويلِ المنظمات الفلسطينية غير الحكومية مما كان في مصلَحة أهدافِ إسرائيل تماماً.

وفي تلك الأثناء كان قانونُ الوطنية Patriot Act في الولايات المتحدة الأمريكية سنة 2001 بشأن "تمويل الإرهاب" قد تمّ توسِيعُهُ بشكلٍ كبير في الحالَة الفلسطينية بحيث أصبح أي تَواصُل مع منظمة ترتبط بجماعَةٍ وضِعَتْ في لائحةِ الإرهاب الأمريكية مثلما كانت حركَتَا حماس والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين يمكِنُ أن يُعتبَر تَصرُّفاً إجرامياً خطيراً تترتَّبُ عليه عقوبات شديدة. أُعيدَ توجيهُ شَيطَنَةِ منظمةِ التحرير الفلسطينية الذي استمر فترة عَقود منذ الستينيات نحو حركة حماس، ومع ذلك فإن التفجيرات الانتحارية واستِهداف المَدَنيين في مخالَفَةٍ واضِحة للقانون الدولي وماتَضَمَّنَهُ ميثاقُها من مُعاداةٍ فَجَّةٍ للسّامية فإن سِجِلَّ حركة حماس كان باهِتاً ولا يكاد يُذكَر مقابلَ العَدد الكبير من إصابات المَدَنيين الفلسطينيين التي سبَّبَتْها إسرائيلُ ونظامُها المُمَنهَج المَدروس في التمييز القانوني والحُكم العسكري. إلا أن حماس هي التي أُلصِقَ بها وَصفُ الإرهاب وطُبِّقَ ضغطُ القانون الأمريكي على الطّرف الفلسطيني وحدَه.

بالنظر إلى هذه الحَملة التي لا هَوادة فيها، فإن فَشلَ محاولات تشكيل حكومةِ توافُقٍ ائتلافية على الرغم من المُطالَبة الشعبية بالمُصالحة الوطنية الفلسطينية لم يكن مُفاجِئاً، وثَبتَ أن الضغط الذي قامَ به الممولون الغربيون والعرب على حركة فتح للابتعاد عن حماس كان كبيراً على رجالِ فتح المُسنّين في السُلطة الفلسطينية الذين لم يَرغَبوا بالتَّخلي عن سُلطاتهم ولا عن الفوائد المادية المهمّة التي تمتَّعوا بها في الفُقاعَة المُذَهَّبة في رامَ الله. فضَّلوا الانقسامَ المُدمِّر في الكيان السياسي الفلسطيني على التمسُّك بوحدَتِهِ مقابل خَصمٍ أقوى مع المخاطرة بخَسارة امتيازاتَهم. ولكن ما أثارَ الدَّهشَة كانت المحاولةُ الخَرقاء التي قامَتْ بها قواتُ الأمن التي تُسيطِرُ عليها حركة فتح والتي درَّبَتْها أمريكا في قطاع غزة تحت قيادة زعيمِها محمد دَحلان لِخَلعِ حركة حماس بالقوة. قامَتْ حركةُ حماس سنة 2007 بانقلابٍ مضاد وسَحَقَتْ قوات دَحلان بسرعة بعد قِتالٍ مَرير. اتَّسَعَت الفجوةُ الكبيرة بين الطَّرفَين التي تَرجع إلى فترة قَمعِ حركة فتح لحركة حماس في منتصف

التسعينيات، وأصبحَت أكبر الآن بسبب الدماء التي سالَتْ مِنَ الطَّرفَين في قطاع غزة. تابَعَتْ حماس بإنشاء سُلطَتِها الفلسطينية في غزة بينما تقلَّصَتْ سيطَرةُ السُلطة الفلسطينية في رامَ الله إلى أقلّ من 20٪ من الضفة الغربية وهي المنطقة التي سَمَحَتْ لها القوات الإسرائيلية بالعَمل فيها. وللأسف لم يَعد لدى الفلسطينيين تحت الاحتلال الآن سُلطَةً عاجزةً واحدة، بل اثنتَين.

أصبَحتْ حماس الآن تُسيطِر على قطاع غزة، وفَرضَتْ إسرائيلُ عليها حِصاراً شاملاً. انخَفضَت البضائع الداخلة إلى القطاع إلى الحَدّ الأدنى، وتوقَّف التصدير المُعتاد تماماً، وخُفِّضَتْ إمداداتُ الوقود، ولم يُسمَح بالخروج والدخول إلى غزة إلا نادراً. تَحوَّلَتْ غزة فِعلياً إلى سِجنٍ مفتوح يعيش فيه 53٪ من الفلسطينيين على الأقلّ (حوالي مليونَين) سنة 2018 في حالة فَقر[1]، وبلغَتْ نسبةُ البطالة فيه 52٪ ونسبةٌ أعلى بكثير بين الشباب والنساء[2]، وما بَدأ برفضٍ دَوليٍّ للاعترافِ بنجاحِ حركة حماس في الانتخابات أدّى إلى انقسامٍ فلسطينيٍّ كارثيّ وحِصارٍ شامِل في غزة. بَلَغَ هذا التَّصاعد في الأحداث مستوى إعلانَ حربٍ جديد على الفلسطينيين. كما أعطَى غطاء دولياً لا غِنى عنه للحرب المَفتوحة التي ستأتي.

تمكَّنتْ إسرائيلُ من استغلال الانقسام العميق بين الفلسطينيين وعَزلَ غزة لإطلاقِ ثلاث هَجماتٍ وحشيةٍ جوية وبرّية على القطاع بدأتْ سنة 2008 واستمرتْ حتى 2012 و2014 خَلَّفَتْ دماراً كبيراً في مُدُنِها وفي معسكرات اللاجئين ومُعاناةً قاسيةً في انقطاعِ الكهرباء وتلوّثِ المياه المتكرّر[3]. عانَت بعضُ الأحياء، مثل الشَّجَعيَّة وأجزاء من رَفَح دماراً غير عادي. تَروي أعدادُ الإصابات جُزءاً من القصة

---

(1) هذا الرقم من يونيو 2018.

(2) هذا الرقم من المنظمة الإسرائيلية غير الحكومية غيشا Gisha، بينما تقديرات المخابرات الأمريكية في World Fact Book أقلّ من ذلك في سنوات 2016-2017.

(3) كتابان ممتازان عن غزة: Norman Finkelstein, *Gaza: An Inquest into Its Martyrdom* (Oakland: University of California Press, 2018); and Noam Chomsky and Ilan Pappe, *Gaza in Crisis: Reflections on the US-Israeli War on the Palestinians* (Chicago: Haymarket Books, 2013).

فقط على الرغم من أنها ذات دَلالة، خلال الهَجَمات الثلاث قُتِلَ 2804 فلسطينياً بينهم ألفُ طفل على الأقلّ. وقُتِلَ 87 إسرائيلياً كان أغلبُهم من العسكريين المنخَرِطين في تلك العمليات الهجومية. يوضِّحُ معدل الإصابات غير المُتَناسب بنسبة 43:1 أن غالبيةَ الإسرائيليين الذين قُتِلوا كانوا من الجنود، بينما كانت غالبيةُ قَتلَى الفلسطينيين من المَدَنيين[1].

ربما لا يطَّلِعُ المَرءُ على هذه المعلومات في كثيرٍ من وسائل الإعلام الأمريكية التي ركّزت بشكلٍ كبير على صواريخ حماس والجهاد الإسلامي التي أُطلِقَتْ على أهداف مَدَنية إسرائيلية. لا شك بأن استِخدام هذه الأسلحة أجبَرَ السكان الإسرائيليين في جنوب البلاد لقضاء فتراتٍ طويلة في الملاجئ، ولكن بفضل نظامِ الإنذار المبكر الإسرائيلي الممتاز، ومضادّات صواريخها الحديثة التي قدَّمتْها أمريكا، وشبَكة ملاجِئها الكبيرة، فإن الصواريخ الفلسطينية نادراً ما كانت قاتِلة. خلال سنة 2014 ادَّعتْ إسرائيلُ أن 4000 صاروخاً قد أُطلِقَتْ من قطاع غزة وقَتَلَتْ خمسةَ مَدَنيين إسرائيليين، وكان واحدٌ منهم بَدَوياً في منطقة النَّقَب، بالإضافة إلى عامِلٍ زراعي تايلاندي، أي أن مُجمَلَ عدد القَتلى المَدَنيين كان ستة[2]. لا يُقلّل ذلك من مخالفة حركة حماس لقوانين الحرب واستِخدام هذه الأسلحة غير الدقيقة في هجماتٍ عَشوائية على مناطق مَدَنية. ولكن عدد الإصابات يروي قصةً مختلفة عن التي وَرَدَتْ في وسائل الإعلام وتركيزها شبه الكامل على نيران صواريخ حماس. نَجَحَت التغطيةُ الإعلامية في حَجبِ عدم التناسب الهائل في هذه الحرب ذات الطَّرَف الواحد: واحدٌ من أقوى الجيوش في العالَم استَخدَمَ كامِلَ قوتِهِ ضد منطقةٍ مُحاصَرة مساحَتها 140 ميلاً مربّعاً وهي من أكثر مناطِق العالَم اكتظاظاً بالسكان وليس لدى أهلها مكانٌ يهربون إليه من سَيلِ النار والفولاذ.

---

(1) هذه الأرقام من موقع منظمة بتسليم، مركز المعلومات الإسرائيلية لحقوق الإنسان في الأراضي المحتلة.

(2) "50 Days: More Than 500 Children: Facts and Figures on Fatalities in Gaza, Summer 2014," B'Tselem.



حي الشَّجَعية في مدينة غزة في يوليو 2014. وصَفَ جنرال أمريكي متقاعد القَصف الإسرائيلي بأنه "غير مُتَناسب بشكلٍ مطلَق"

توضِّحُ التفاصيلُ المحددَّة لاجتياح 2014 هذه النقطة، فعَلَى مدى 51 يوماً في يوليو وأغسطس من سنة 2014 قامَ سلاحُ الجو الإسرائيلي بأكثر من 6000 غارة، بينما أَطلَقَ جيشُها وبَحريَّتُها 50000 قذيفة من المدفعية والدبابات. وكان مجموع ما استُخدِم حوالي 21 كيلوطن (21000 طن، أو 42 مليون باوند) من المتفجرات. اشتَملَت الغاراتُ الجوية على أسلحةٍ تنوَّعتْ من الطائرات المسيَّرة المسلحة ومروحيات الأباشي الأمريكية التي تَستَخدِم صواريخ نار الجحيم Hellfire الأمريكية الصُّنع، إلى الطائرات الأمريكية F-16 وF-15 القاذِفة المقاتِلة التي تَحمل قنابل زِنَتَها 2000 باوند (حوالي طن). حسبما ذَكَرَ قائدُ سلاح الجو الإسرائيلي فقد كانت هناك بضع مئات من الغارات بهذه الطائرات المتطورة على أهداف في غزة، استُخدِمتْ في غالبيتها هذه القنابلُ المُدمِّرة[1]. يُسفِرُ انفجارُ قنبلةٍ وزنُها 2000 باوند عن حفرةٍ قطرها حوالي 50 قَدَماً وعمقُها 30 قَدَماً وتَنثُر شظايا قاتِلة على قِطرٍ يبلغ حوالي ربع ميل. تَستطيعُ قنبلةٌ أو قنبلتَين من هذا النوع تدميرَ بِناءٍ متعدّد الطّوابق

(1) Barbara Opall-Rome, "Gaza War Leaned Heavily on F-16 Close-Air Support," *Defense News*, September 15, 2014.

بكامِلِه، وقد دُمِّرَتْ كثيرٌ من هذه الأبنية في مدينة غزة قَبل نهاية الحَملة الإسرائيلية الجوية في آخر أغسطس[1]. لا يوجَد سِجِلٌّ عام دقيق عن عدد هذه القنابل الضخمة التي أُلقِيَتْ على قطاع غزة أو فيما إذا استُخدِمتْ ذخائرُ أثقَل من ذلك.

حسبما وَرَدَ في تقريرٍ أصدَرَتْهُ قيادةُ التموين الإسرائيلية في منتصف أغسطس قَبل وَقفِ إطلاق النار النهائي الذي صَمَدَ في 26 أغسطس 2014، فبالإضافة إلى القَصفِ الجوي، أُلقِيَتْ 49000 قذيفةُ مدفعية ودبابة على قطاع غزة[2]. وكان أغلبُها من صناعة أمريكية من نوع قذائف الهاون M109A5 قياس 155 مم. يبلغ نصف قِطر دائرة قَتلِ القذائف التي تَزِنُ كل واحدة منها 98 باوند حوالي 54 ياردة وتُنتِج إصابات بليغَة ضِمنَ دائرةٍ قِطرها 218 ياردة. تمتلكُ إسرائيل 600 مِدفَعاً من هذا النوع، و175 من النوع الأمريكي بعيد المَدى M107 قياس 175 مم الذي يَقذِفُ قنابل أثقَل تَزِنُ الواحدة منها أكثر من 145 باوند. استِخدامُ إسرائيل لمِثل هذه الأسلحة المَيدانية القاتِلة يكفي لإثبات عَدَمِ التناسب الهائل في الحرب على غزة.

في 19 و20 يوليو قامَتْ وحداتٌ من الألوية المتميّزة جولاني وجيفاتي والمظَلّيين بالهجوم على ثلاثة مَحاور في حَيّ الشَّجَعية بمدينة غزة. واجَهَ لواء جولاني بشكلٍ خاص مقاومةً عنيفةً لم تكن متوقَّعة مما أدّى إلى قَتلِ 13 جندياً إسرائيلياً وجَرحِ حوالي مئة منهم. وحسب مصادر عسكرية أمريكية فقد استُخدِمَتْ 11 كتيبة مدفعية إسرائيلية 258 من المدافع 155 مم و175 مم وأُطلِقَتْ أكثر من 7000 قذيفة خلال 24 ساعة على هذا الحَيّ وحدَه. اشتَمَلَ ذلك القَصفُ على 4800 قذيفة خلال فترةً واحدة من سبعِ ساعات. وَصَفَ ضابطٌ من وزارة الدفاع الأمريكية "مطَّلِعٌ على التقارير اليومية" أن مستوى قوة النيران كان "هائلاً" و"مميتاً" وذَكَرَ أن الجيش الأمريكي يَستَخدِمُ عادةً مثل هذه الكمية "الضخمة" من قوة النيران في دَعمِ

---

(1) Jodi Rudoren and Fares Akram, "Lost Homes and Dreams at Tower Israel Leveled," *New York Times*, September 15, 2014.

(2) "Protective Edge, in Numbers," Ynet, August 14, 2014.

فـرقتَين كـاملتَين تتألَّفـان مـن 40000 جنـدي (ربمـا عَشـرة أضـعاف حَجـم القـوة الإسرائيلية المشارِكة في حَيّ الشَّجَعية). قَدَّرَ أمريكيٌّ آخَر كان قائدَ مدفعية سابِق أن الجيشَ الأمريكي ربما يَستخدِم مثل ذلك العدد من المَدافع فقط لدَعم قواتٍ تتألف من عدة فِرَق. ووَصَفَ جنرالٌ أمريكيٌّ متقاعِد القَصفَ الإسرائيلي الذي استُخدِم على أحَدِ أحياء غزة لأكثر من 24 ساعة مع نيران الدبابات والغارات الجوية بأنه "غير مُتَناسِب على الإطلاق"[1].

صُمِّمَت المدافع التي استُخدِمتْ في ذلك الهجوم للقَتل الشَّامِل في مجالٍ واسِع ضد تحصينات وعربات مدرَّعة وقواتٍ متمَركِزة ومَحمِية بدروعٍ وخوذات. بينما كان باستطاعَتِهم إطلاق قذائف موجَّهة بدِقَّة، ولكن إطلاقَها بهذا الشَّكل على حَيٍّ مكتَظٍّ بالسكان مثل حَيّ الشَّجَعية سيؤدي بالضرورة إلى إصابات غير دقيقة. وأي غارة جوية تُلقي بقنابل من فئة 2000 باوند في مناطِق أبنيةٍ سَكَنية مثل حَيّ الشَّجَعية وبيت حانون وخان يونس ورَفَح سيؤدي بالضرورة حتماً إلى إصابات كبيرة بين المَدَنيين ودمارٍ هائل[2]، ولا بد من أن يَحدُث ذلك.

كان ذلك صحيحاً بشكلٍ خاص في مكان مُزدَحم مثل قطاع غزة حيث لا يوجَد أمام السكان أي مكان يهربون إليه حتى لو أُعطِيَ لهم إنذارٌ مُسبَق بأن بيوتَهم ستُهدَّم. بالإضافة إلى الإصابات المخيفة التي تُلحِقُها بأجسام البشر، فإن هذا

(1) Mark Perry, “Why Israel’s Bombardment of Gaza Neighborhood Left US Officers ‘Stunned,’” Al Jazeera America, August 27, 2014.

(2) “Why It’s Hard to Believe Israel’s Claim That It Did Its Best to Minimize Civilian Casualties,” *The World Post*, August 21, 2014.

يَذكُر إيدان بارير Idan Barir وهو قائد جماعة سابق في سلاح المدفعية الإسرائيلية أن "الحقيقة هي أن قذائف المدفعية لا يمكن توجيهها بدقّة وليس من المفروض أن تصيب أهدافاً محدَّدة. قذيفة المدفعية العادية ذات المَدى 40 كيلومتر ليست أكثر من قنبلة يدوية متشَظِّية كبيرة، وعندما تنفجر تهدف لقَتل أي شخص في دائرة قطرها 50 متراً وجَرحِ أي شخص في دائرة قطرها 100 متر". وأن استعمال إسرائيل "لنيران المدفعية هي لعبة روليت روسية قاتلة. الإحصائيات التي تستند إليها قوة النيران تعني أنه في منطقة كثيفة السكان مثل غزة فإنها ستصيب حتماً مثل ذلك".

المستوى من نيران الغارات الجوية والمدفعية يسبِّبُ دماراً هائلاً في المُمتَلكات. في اجتياحِ 2014 دُمِّرَ أكثر من 16000 بِناءٍ سكنيٍّ شَمَلَ أحياء كاملة، كما دُمِّرَتْ 277 مدرسة تابعة للأمم المتحدة وللحكومة، وسبعَ عشرة مستشفى وعيادة، والجامعاتُ السّت في غزة، بالإضافة إلى 40000 بِناء آخَر. وربما اضطر حوالي 450000 شخص من أهل غزة، أي حوالي ربع السكان لمغادرة منازلهم، وفَقَدَ كثيرٌ منهم بيوتَهم.

لم تكن تلك حوادثُ عشوائية، ولم يُتأسَّف عادةً على مثل هذا الدَّمار الجَانبيّ الهائل خلال حرب. كانت الأسلحةُ المُختارَة قتَّالة ومُصمَّمة للاستِخدام في ميدان قِتالٍ مَفتوحٍ وليس في ظروف حَضَرية مُزدَحِمة بالسكان. كما أن مستوى القَتل كان مُتماشِياً مع عقيدة العسكرية الإسرائيلية. كان قَتلُ وتَشويهُ حوالي 13000 شخص في حرب 2014 أغلبُهم من المَدَنيين، وتدميرُ البيوت والمَمتلكات لمئات الآلاف كان مَقصوداً، وكان نتيجةً لاستراتيجيةٍ مُعلَنَة تَبنَّتها العسكريةُ الإسرائيلية منذ 2006 عندما استَخدَمتْ أسلوباً مماثِلاً في لبنان فيما أُطلِقَ عليه اسم عقيدة الضّاحية وهي اسمُ الضّاحية الجنوبية في بيروت التي دَمَّرَها سلاحُ الجو الإسرائيلي باستِخدام قنابلَ وزنُها 2000 باوند وغيرها من الذخائر. فَسَّرَ هذه الاستراتيجية سنة 2008 الجنرال غادي إيزنكوت Gadi Eizenkot الذي كان رئيس القيادة الشمالية (ثم أصبح رئيس الأركان الإسرائيلي):

> ما حَدَثَ في حَيّ الضّاحية... سيَحدُث في كل قرية تُطلَقُ منها النار على إسرائيل... سنُطَبِّقُ القوة غير المُتَناسِبة عليها ونَصنَعُ أذىً ودماراً كبيراً فيها. من وجهة نظرِنا، لا توجَدُ قريةٌ مَدَنية مسالِمة، إنها قواعِد عَسكرية... هذه ليست توصية بل هي خطّة تم إقرارها[1].

---

(1) "Israel Warns Hizballah War Would Invite Destruction," *Ynetnews.com* (*Yedioth Ahranoth*), October 3, 2008. See also Yaron London, "The Dahiya Strategy," *Ynetnews.com* (*Yedioth Ahranoth*), October 6, 2008.

كان ذلك بالضبط هو التفكير سنة 2014 وراء هجومِ إسرائيل الثالث على غزة خلال ستّ سنوات حسب رأي المُراسلين العَسكريين الإسرائيليين والمُحلّلين الأمنِيين[1]، ومع ذلك فقد كان هنالك ذِكرٌ بسيط لعقيدة الضّاحية في تصريحاتِ السياسيين الأمريكان أو في تقارير الحرب في معظم وسائل الإعلام الأمريكية الرئيسية، وعلى الرغم من أنها في الحقيقة ليست اسلوباً استراتيجياً بل خطّةُ عقوبةٍ جَماعية قد تَعني ارتكابَ جرائم حرب.

هناك أسبابٌ عديدة وراء صَمتِ واشنطن ووسائل الإعلام. يَنُصُّ قانون تصدير السلاح لسنة 1976 على أن الأسلحة الأمريكية يجب أن تُستَخدَم "في الدفاع الشَّرعي عن النفس"[2]، وبالنظر إلى هذا الشرط فإن السِّياق الذي يقدِّمُهُ المسؤولون الأمريكان من الرئيس وما دونه بوَصفِ العملياتِ الإسرائيلية في غزة بأنها دفاعٌ عن النفس ربما تكون اتِّباعاً لنصيحةٍ قانونية لتَجنّب المسؤولية واحتمال المحاكَمة لارتكاب جرائم حرب إلى جانب المسؤولين الإسرائيليين الذين أَصدَروا الأوامر والجنود الذين أَلقوا القنابل. كما أن وسائل الإعلام نادراً ما تَذكُر هذه الاحتمالات القانونية، ربما بسبب التحيّز، أو لِحماية السياسيين الذين قد يتورَّطوا في ذلك، أو لتَجنُّب الهجوم على وسائل الإعلام الذي يأتي عادةً إثرَ أبسَطِ انتقادٍ لإسرائيل.

وتبقى قضيةُ عدم التَّناسب وعدم المساواة، وهي مسألةٌ مركزيةٌ لتقرير ما إذا كان تصرفٌ معيَّنٌ في الحرب قد يَرقَى إلى مستوى الجريمة. كلماتُ إيزنكوت في حَدِّ ذاتها وأعمالُ القوات تحت إمرَتِهِ سنة 2006 وبعدها في الهجمات على غزة تؤكِّد بوضوح عَدَمَ التَّناسب المَقصود من طَرف إسرائيل. يتَّضِحُ ذلك في طبيعة الأسلحة المَيدانية التي استَخدمَتها إسرائيل في مناطق حَضَرية مكتَظّة بالسكان، وعدم التَّناسب الكبير في قوة النيران بين الطَّرفَين.

---

(1) E.g., Amos Harel, "A Real War Is Under Way in Gaza," *Haaretz*, July 26, 2014.

(2) 22 USC 2754: Purposes for which military sales or leases by the United States are authorized; report to Congress.

هل كانت حركَتا حماس والجهاد الإسلامي مسؤولَتَين عن احتمال ارتكابهما جرائم حرب باستهداف سكان مَدَنيين؟ بغضِّ النظر عن التمييز بين القوة التي استَخدَمَها جيشُ احتلال وتلك التي استَخدمَتْها جماعاتٌ من شعبٍ تحت الاحتلال، فإن جميع المُتقاتِلين يجب أن يَخضَعوا لقانون الحرب وغيره من أحكام القانون الدولي. ربما تكون الصواريخ التي أُطلِقَتْ على جنوب إسرائيل قاتِلة، وكان لبَعضِها أنظِمَةَ توجيهٍ متقدِّمة، ولم يكن في أيّ منها ذخائر دقيقة التَّوجيه، ولذا فإن استِخدامَها بشكلٍ عام يُعتَبر عَشوائياً وقد يُعتَبر أنها وجِّهَتْ نحو مَدَنيين في معظم الحالات.

إلا أن تلك الصواريخ لم تَحمِل رؤوساً حَربية من قياسٍ أو قدرة التدميرِ التي حَمَلَتْها أكثر من 49000 قذيفة مدفعية ودبابة رَمَتْها إسرائيل خلال حرب 2014. الصواريخُ السوفييتية من أنواع غراد أو كاتيوشا قياس 122 مم التي استَعمَلتْها حماس وحلفاؤها تَحملُ عادةً رؤوساً وَزنُها 44 أو 66 باوند (بالمُقارَنة مع القذائف الإسرائيلية 96 باوند قياس 155)، وزُوِّدَ كثيرٌ منها برؤوسٍ أصغر لزيادة مَداها. أغلبُ صواريخ القسّام المَصنوعة مَحَلياً التي استُخدِمَتْ حَمَلَتْ رؤوساً أصغَرَ بكثير. مجموعُ 4000 من صواريخ القسّام والكاتيوشا وغراد وغيرها من المَقذوفات التي أُطلِقَتْ من قطاع غزة ووصَلَتْ إسرائيل (كثيرٌ منها كانت غير دقيقة وسيئة الصُّنع بحيث سقَطَتْ على مسافات قصيرة داخل القطاع)، كانت قدرتُها التفجيرية الكلّية أقلّ من اثنتي عشرة قنبلة من وَزن 2000 باوند.

على الرغم من أن تيَّار الصواريخ التي أطلَقَتْها حماس وحلفاؤها لا شك بأنه كان لها الأثَر النفسي القوي على المَدَنيين ضمن نطاق مَجالها (تَضخَّمَ تأثيرُها النفسي بسبب عدم دقَّتِها)، إلا أن هذه الأسلحة لم تكن قوية جداً. ومع ذلك فإن وفاةَ عَشراتٍ من المَدَنيين في إسرائيل على مَرّ السنين من 2008 إلى 2014 يرتَفِعُ من المرجَّح إلى مستوى جرائم الحرب. وماذا عن مَقتَل ألفي مَدَني مسالِم على الأقل خلال سنة 2014 وحدَها، بمَن فيهم 1300 امرأة وطفل وشيخ مسِنّ؟ بعد سنوات من

آخر تلك الحروب على غزة، يتَّضِح أن أولئك المسؤولين عن ذلك سيتَمتَّعون بالإفلات من أي عقاب على أعمالهم بحماية رعاتِهم الأمريكان.

إلا أن عدم التَّناسب قد لوحِظَ في بعض الجهات، فقد تضافَرتْ جهودُ دعم إسرائيل ضمن جماعاتٍ معيَّنة نتيجة للتَّغطية الإعلامية الرئيسية لاجتياحِ 2014 مِثلَ المسيحيين الإنجيليين والفئات الأكبر سنّاً والأكبر ثروةً ومحافَظَةً من جماعة اليهود، إلا أن انتقاداتٍ عامة لإسرائيل قد تزايَدتْ بين الشباب التَّقدميين من الأقليات وبين البروتستانت الليبراليين وبعض اليهود الإصلاحيين والمحافِظين وغَير المنتَمِين. مع حلول سنة 2016 كانت الأعدادُ التي تُظهِر تغيّر الموقف في هذا الاتجاه مفاجِئةً (وكذلك مع تصَلُّبٍ مُوازٍ في التشدّد دَعماً لإسرائيل بين الجماعات الأخرى).

نَشَرتْ مؤسسة بروكينغز في ديسمبر 2016 استطلاعاً للرأي أظهَر أن 60٪ من الديموقراطيين و46٪ من جميع الأمريكان يؤيدون تطبيق عقوبات على إسرائيل بسبب بِنائِها مستوطَنَاتٍ يهودية غير قانونية في الضفة الغربية. اعتَقَد أغلبُ الديموقراطيين (55٪) بأن إسرائيل تمتلكُ تأثيراً زائِداً على السياسة الأمريكية وأنها عِبءٌ استراتيجي[1]. كما أظهَر استطلاعٌ للرأي في تلك السنة أيضاً أن نسبةَ الذين وِلِدوا بعد 1980 والديموقراطيين المتعاطِفين مع الفلسطينيين تتزايد بالمُقارَنة مع المتعاطِفين مع إسرائيل[2]. أظهَر استطلاعٌ للرأي في يناير 2018 تَسارُعاً في هذا الاتجاه: كان الديموقراطيون مُتساوينَ تقريباً في نسبة تأييدِهم للفلسطينيين أو لإسرائيل، بينما كان الديموقراطيون الليبراليون متعاطِفين مع الفلسطينيين بنسبة الضّعف أكثر من المتعاطِفين مع الإسرائيليين[3]. وفي أبريل 2019 أظهَر استطلاعٌ

(1) Shibley Telhami, "American Attitudes on the Israeli-Palestinian Conflict," Brookings, December 2, 2016.

(2) "Views of Israel and Palestinians," Pew Research Center, May 5, 2016.

(3) "Republicans and Democrats Grow Even Further Apart in Views of Israel, Palestinians," Pew Research Center, January 23, 2018.

للرأي أن الانقسامَ الحزبيّ العميق حول إسرائيل وفلسطين قد ترسَّخَ أكثر. عندما سُئلوا فيما إذا كانوا يُفضّلون الفلسطينيين على الإسرائيليين أم العَكس، أو أنهم يُفضِّلوهما معـاً، أجابَ 58٪ من الديموقراطيين أنهم يفضِّلون كلا الشَّعبَين الفلسطيني والإسرائيلي أو أنهم يفضِّلون الفلسطينيين، بينما فضَّلَ 76٪ من الجمهوريين كلا الشَّعبَين أو أنهم يفضِّلون الإسرائيليين. بينما كان لدى 61٪ من الجمهوريين انطِباعٌ جيدٌ عن الحكومة الإسرائيلية، إلا أن 26٪ فقط من الديموقراطيين تَصَوروا ذلك[1]. كانت تلك الأرقام بمجموعِها غير مَسبوقَة.

وهكذا كانت الحروب على غزة، بالإضافة إلى حرب 1982 في لبنان والانتفاضة الأولى نقاطَ تحوّل مهمّة في التغيّر المستمر لِتَصَوُّر الأمريكان عن الفلسطينيين وإسرائيل. لم يكن التطور في خَطٍّ متصَاعِد سَهل، بل عَبرَ مَدٍّ وجَزرٍ بالنّظر إلى تأثير التفجيرات الانتحارية خلال الانتفاضة الثانية، وخاصة الكفاءة العالية للدعاية الإسرائيلية المتواصِلة. غير أن موجَةَ مَشاعر الانتقاد قد ارتفَعتْ في جميع الحالات بعد سلسلةٍ من الصور الرهيبة والوقائع التي أظهَرتْها والتي اختَرقَتْ ستارةَ الدفاع السَّميكَة التي صُنِعَتْ بدقّة وحَذَر لِسَترِ سلوك إسرائيل وإخفاءِ تلك الحقائق.

على الرغم من التغيّر البطيء والمستمر في الرأي العام الأميريكي فيما يتعلّق بفلسطين وإسرائيل في السنوات الأخيرة، لم يظهَر تغيّر مهمّ في صُنعِ السياسة الأمريكية، ولا في قوانينَ جديدة، ولا في السياق السياسي بشكلٍ عام. أحَدُ أسباب ذلك يَرجِع إلى سيطَرة الحِزب الجمهوري على البيت الأبيض طوال الفترة منذ سنة 2000 فيما عَدا ثماني سنوات، وسيطَرتِهم على مجلس الشيوخ منذ 2010، وعلى مجلس النّواب في الفترة 2014–2018، وعلى كافة فروع الحكومة في الفترة 2016–2018. قاعِدَةُ هذا الحزب، خاصة الإنجيليين، ونواتُهُ من البيض الأكبر سِنّاً في كثير من المناطق،

(1) Carroll Doherty, "A New Perspective on Americans' Views of Israelis and Palestinians," Pew Research Center, April 24, 2019.

وغالبيتُهم من الرجال المحافِظين، أيّدت بِحَمِيّة أكثر سياسات إسرائيل تشدّداً. معظم المسؤولين الذين انتخَبَهم الجمهوريون كانوا يمثّلون بإيمانٍ قوي ميولَ تلك القاعدة الانتخابية، بالإضافة إلى المحافِظين الذين تَبرَّعوا للحزب، وكثيرٌ منهم مِثلَ شيلدون آدلسون Sheldon Adelson وبول سينغر Paul Singer (اللذان تبرَّعا بأكثر من 100 مليون دولار للحزب الجمهوري خلال الدَّورة الانتخابية لسنة 2016)، الذين كانوا ملتَزِمين بقوة في دَعم توجُّهٍ أكثر تشدّداً نحو إسرائيل. كما أن الخوف من المسلمين والأجانب والرؤية الهجومية لدَورِ أمريكا في العالَم لدى غالبية قواعد الجمهوريين وقيادات حزبهم توافَقَتْ مع روح رئيس وزراء إسرائيل بنيامين نتنياهو وحكومته اليمينية. وبالفِعل، كان ذلك واضِحاً جداً في الاستقبال الحَماسيّ الذي تلقّاه نتنياهو عندما تحدَّث في اجتماعَين مختلفَين للكونغرس الذي يُسيطِرُ عليه الجمهوريون سنة 2011 و2015. لم يَحمِلْ شَرَفَ تقديمِ أكثر من خِطابٍ أمام الكونغرس سوى ونستون تشرشل الذي تحدَّثَ للكونغرس في السنوات 1941، 1943، 1952.

قضيةُ الحزب الديموقراطي فيما يتعلّق بإسرائيل وفلسطين كانت أكثر تَعقيداً وتَناقُضاً. حَدَثَ التغيّر في قواعد الحزب بشكلٍ واضح بين فئاتِهِ الأصغَر عُمراً والتي تَنتَمي إلى الأقليات وفئة الليبراليين (الذين يمثّلون مستقبلَ الحزب)، إلا أن التغيّر لم يَنعَكس في وجهات نظر قيادة الحزب وغالبية المسؤولين الذين انتخَبَهم وكبار المُتَبرِّعين له (الذين يُمثّلون ماضِي الحزب). كانت الفعاليات المؤثِّرة تتعلّق بأمور الجِيل والعِرق والطبقة، كما تأثَّرت بكبار المُتَبرِّعين للحزب وجماعات الضغط القوية مِثلَ الإيباك الصهيوني.

تُظهِر استطلاعات الرأي أن وجهات النظر نحو فلسطين وإسرائيل تتعلّق غالباً بالعمر: إذ يَميل الكبار في السِّن لأن يكونوا محافِظين وتقليديين، وفي سنة 2019 كانت قيادة الحزب الديموقراطي تتألف من نانسي بيلوسي 78، تشارلز شومر 68، وآلية الحزب التي سيَطَر عليها الزوجَين كلينتون، وكلاهما في بداية السبعينيات من العمر. جميعهم من الأغنياء، وبيلوسي غنيةٌ جداً (هي من أغنَى أغنياء الكونغرس، وتقدَّر

ثروتُها مع زوجها بأكثر من 100 مليون دولار). الاستمرارُ بجَمعِ التبرعات هي قضيةٌ مركَزية لدى السياسيين الأمريكان، ومع التحول نحو اليمين الذي قام به الديموقراطيون في أواخر الثمانينيات أصبَحَ الحزبُ أكثر ملاءَمَةً وجاذبيةً لمَصالح الأثرياء. ونتيجةً لذلك فقد كانت وجهَة نَظر المُتَبرِّعين أكثر أهمية لقادَة الحزب والمسؤولين المنتَخَبين من وجهات نَظَر قواعد الحزب أو ناخِبيه. معظمُ كبار المُتَبِّرعين للحزب مثل قُطبُ الإعلامِ حاييم صبان Haim Saban وغيره من أثرياء التِّقَنيات والتَّرفيه والمَاليين ظلّوا ملتَزِمين تماماً بإسرائيل مهما كانت تجاوزاتها.

وهكذا تمزَّقَ الديموقراطيون بين ميولِ قادَتهم الكبار ومعظَم المتبرِّعين لِدَعم أي تصرف تقوم به الحكومةُ الإسرائيلية، وميول قواعِد الحزب التي بِدأتْ تَدفَعُ بقوة نحو التغيير. كان ذلك واضحاً في المواقف غير التقليدية التي اتَّخَذَها المُرشَّح الرئاسي بيرني ساندرز Bernie Sanders نحو إسرائيل وفلسطين أثناء الحَملة الانتخابية الديموقراطية الأوّلية سنة 2016 وفي معارك الكلمات التي جَرَتْ بشأن مَنصَّة الحزب في مؤتمرِ تلك السنة. اتَّضَحَ الانقسامُ أيضاً في صعوبات قيادة الحزب التي تَلَتْ انتخابات سنة 2016، حين تَعرَّضَ المُرشَّح الأول النائب كيث إيليسون Keith Ellison إلى الإساءَة والتلميح جُزئياً بسبب موقِفِه الصريح بشأن فلسطين. غير أن جهود تغيير مَسار الحزب الديموقراطي بشأن فلسطين كان لها تأثيرٌ ضعيف كما اتضَح في تأييد الحِزبَين للمساعدات العسكرية السنوية لإسرائيل بأكثر من 4 بلايين دولار، وكذلك في سلسلةٍ من التشريعات التي لم تكن لصالح الفلسطينيين. وعلى كل حال فإن تغيّراً صغيراً في الكونغرس يمكن رؤيتُهُ في مشروعِ قانونٍ قَدَّمَهُ ثلاثون عضواً من مجلس النواب في نوفمبر 2017، وأُعيدَ طَرحُهُ في أبريل 2019 تحت رقم HR2407 سَعياً لضَمان أن مساعدات أمريكا لن تَدعَم قوات الأمن الإسرائيلية في حَبسِ وسوءِ معامَلة الأطفال الفلسطينيين الذين سَجَنَ منهم الاحتلال عشرة آلاف طفل منذ سنة 2000[1].

---

(1) الرّاعي الرئيسي لمشروع القرار كانت عضو الكونغرس بيتي ماكولم الديموقراطية من مينيسوتا Betty McColum (DFL-MN).

على الـرغـم مـن أن هـذه الحقـائق السياسـية ربمـا تفسِّـر كثيـراً مـن الأمـور، خصوصـاً فيما يتعلَّق بالخطـاب التشـريعي والسياسـي، إلا أنهـا تُلقـي ضـوءاً خافِتـاً على صُـنعِ السياسـة. تتمتَّـع السـلطة التنفيذيـة عـادةً بمسـاحَةِ عَمـلٍ واسِـعة في صُـنعِ السياسة الخارجية الأمريكية، وليست مقيَّدَة بالضرورة مثل الكونغرس، ولا مهـدَّدَة مثل أعضائه بدَورة الانتخابات وجَمع التبرعات التي تحتاج إليها. كثيـراً مـا تَصـرَّفَ رؤسـاءُ أمريكـا بالفِعـل بكـل حرّيـة دون اهتمـام كثيـر بـاعتراض إسـرائيل ومؤيـديها عندما يُفكِّرون بمَصالح أمريكـا الجوهريـة الحيويـة. هنـاك تَصَـورٌ خـاطئ بـأن نفـوذَ إسرائيل وداعِميها له الأهمية القصـوى دائمـاً في سياسـات الشـرق الأوسـط، إلا أن هذا صحيح فقط عندما لا يَعتَقد صَانِعو السياسة بوجود تهديـد للمَصـالح الأمريكيـة الجَـوهريـة الحيويـة، أو عنـدما تكـون الاعتبـارات السياسـية الداخليـة مهمّـة بشـكل خاصّ مثلما يَحدث في سنة الانتخابات الرئاسية.

هنـاك كثيـرٌ مـن الأمثلـة علـى تَجـاوز الولايـات المتحـدة الأمريكيـة للمقاوَمـة الإسرائيلية القوية خِدمَةً لمصالح واشنطن، فمـثلاً أثنـاء حـرب السـويس سـنة 1956 عارَضَت الولاياتُ المتحدة العدوان على مصر لأنها تصَورتْ أنه يُعارِضُ مصلَحَتها أثنـاء الحـرب البـاردة. وفي نهايـة حـرب الاسـتنزاف 1968-1970 علـى طـول قنـاة السويس فَرَضَت الولايات المتحدة وَقفاً لإطلاق النار كـان لا يُناسَـب اسـتراتيجيةَ إسرائيل لمَنعِ مواجَهةٍ أمريكية سوفييتية. وخلال الفترة 1973-1975 فَرَضَ كيسنجر ثلاثة اتفاقاتٍ لفَضِّ الاشتباك اقتَضَتْ انسحاباتٍ إسرائيلية على الرغم مـن معارَضـةٍ إسرائيلية غاضِبة. إلا أن معظم هذه الأعمال صَبَّتْ في النهاية لصـالح إسـرائيل علـى المَدى البعيد كذلك، بغضّ النّظر عن اعتراضات قياداتها القَصيرة النظر. تمتَدُّ أمثلـةٌ أخرى من الصفقات المُغرِيـة لبَيـعِ أسـلحةٍ متطـورة إلـى المملكـة العربيـة السـعودية على الرغم من المعارَضة الإسرائيلية الشديدة وجماعـات الضـغط التـي تـدعَمها في واشنطن، إلى الاتفاق النووي الإيراني الذي تفاوَضَ عليه الرئيسُ باراك أوباما مقابِلَ اعتراضٍ عدوانيّ غاضِب من نتنياهو ومؤيديـه في الكـونغرس. نقطـةُ الحِوار هـي أنـه

عندما تَرى واشنطن أن مَصالِح أمريكا الحَيوية في الميزان فإن رؤساء أمريكا تَصرَّفوا دون تردّد في خدمة تلك المَصالح ولم يمنَحوا اهتماماً كبيراً لاعتراضات إسرائيل.

ولكن عندما يتعلَّق الأمرُ بفلسطين وحِفظِ السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين الذي يقتَضي تنازلاتٍ من طَرَفِ إسرائيل، يبدو غيابُ وجودِ أية مَصالح أمريكية استراتيجية أو اقتصادية في الميزان، ولا وَسائلَ لتحقيق توازنٍ بمواجَهةِ الرَّفضِ المستمر من طرف إسرائيل ومؤيديها، وتَرجَحُ الكفَّةُ حتماً لصالِحِهم في هذه القضية وحدَها مقابلَ أية قضية غيرها[1]. تَردَّدَ رؤساءُ أمريكا من ترومان إلى دونالد ترمب في مواجهة هذا التَّنافر في الرأي، وسَمَحوا غالباً لإسرائيل أن تُسَيِّرَ الأحداث وحتى أن تُقرِّرَ مواقِف أمريكا في القضايا التي تتعلّق بفلسطين والفلسطينيين.

يمكن المناقشة بأن هذا السلوك الأمريكي المتسامِح نحو تصرفات إسرائيل، والذي يَستَترُ أحياناً بإعلان موقفٍ مُعارِضٍ ظاهرياً لإجراءاتٍ معيَّنة، غير أنه لا يغيّر الوضعَ على الأرض إلا نادراً، وربما يُعرِّضُ ذلك للخطَر مصالحَ أمريكا في الشرق الأوسط بالنظر إلى التأييد الواسع للفلسطينيين بين سكان العالَم العربي[2]. إلا أن الشرق الأوسط يَحكُمُهُ منذ سنين طويلة أكبر تَجمُّعٍ للأنظمةِ الاستبدادية في العالَم، كما أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تؤيِّد أبداً تطور الديموقراطية في الشرق الأوسط بأي طريقة مستمرة، وفضَّلَت التعامل مع الديكتاتوريات والمَلَكيات المطلَقة التي تَحكم معظم الدول. كانت هذه الأنظمة غير الديموقراطية تابِعة تاريخياً لأمريكا وزبائن مُفيدين لصناعاتها الدفاعية والجوية والبترولية والبَنكية والعقارية، وتَصَرَّفوا بشكلٍ عام دون اعتبار للرأي العام المؤيد

---

(1) هذه مواقف وصِفتْ بدقَّة في

John Mearsheimer and Steven Walt in *The Israel Lobby and U.S. Foreign Policy* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2007).

(2) يأتي ذلك بوضوح في الاستطلاع المَذكور سابقاً لأكثر من 18000 مستطلَع في 11 دولة عربية في سنتَيْ 2017–2018 قام به المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

للفلسطينيين في بلادِهم، وبالتالي حماية واشنطن من أية ردود فِعل سلبيةٍ بسبب دَعمها للاحتلال الإسرائيلي واستعمارِها لفلسطين.

الدولةُ الرئيسية في هذا المَجال هي السعودية التي أعلَنَتْ تأييدها للقضية الفلسطينية منذ سنة 1948 وغالباً ما قدَّمَت الدَّعم المالي لمنظمة التحرير، بينما لم تفعَل شيئاً يُذكَر للضغط على الولايات المتحدة لتَغيير سياساتها الموالية لإسرائيل. تَرجِعُ سَلبيةُ المملكية السعودية على الأقل إلى أغسطس 1948 عندما شَكَرَ وزيرُ الخارجية جورج مارشال الملك عبد العزيز بن سعود بسبب "السلوك التَّصالُحي" للمَملَكة بشأن فلسطين. كان ذلك في ذروة حرب 1948 بعد أن اجتاحَت القوات الإسرائيلية معظم أراضي البلاد وطَرَدَتْ كثيراً من الشعب الفلسطيني[1]. أصبَحَت المملكةُ السعودية أكثر نفوذاً في المنطقة منذ هزيمة مصر سنة 1967 وبعد تَدفُّق أموال البترول إلى السعودية بعد حرب 1973، وفيما عَدا ذلك لم يتغيّر شيء في سلوكها الخاضِع نحو إسرائيل في العُقود التالية.

كانت العمليةُ واضحةً خلال إدارة الرئيس جورج بوش الأب عندما أُبعِدَ مَن تَبقّى من المُستعرِبين وأصحاب "عملية السلام" بشكلٍ كبير عن صُنعِ سياسات الشرق الأوسط. اعتَمدَ بوش وتشيني ورمسفيلد بدلاً منهم على طاقَمٍ من المحافِظين الجُدد المتشدّدين المؤيّدين بحماسَة لإسرائيل مثل بول ولفوويتز Paul Wolfowitz وريتشارد بيرل Richard Perle ودوغلاس فيث Douglas Feith ولويس ليبي Lewis Libby, وأغلبهم قادمون من إدارة ريغان. أبعَدوا بشكلٍ مَنهَجي كل العارِفين بالمنطقة عن أي تدخُّل في اتخاذ قرارٍ هامّ سواءً كان بشأن فلسطين، أو الحرب الكارثية التي شُنَّتْ على العراق، أو "الحرب على الإرهاب" التي شُنَّتْ بشكلٍ كامل تقريباً على الشرق الأوسط وأجزاء أخرى من العالَم الإسلامي.

---

(1) وزارة الخارجية إلى المفوضية في جدّة في 17 أغسطس 1948. في .FRUS 1948, vol. 2, pt. 2,1318 لمزيد من التفاصيل عن تلبية المملكة العربية السعودية لمطالب واشنطن بشأن فلسطين انظر
R. Khalidi, *Brokers of Deceit*, xxiv-xxvii.

تمكّنتْ حكومةُ شارون من تقديمِ حَملتها ببراعة في واشنطن ضد الانتفاضة الفلسطينية الثانية كجزء متكامل مع الحرب ضد الإرهاب، وطَرحِ نفسِها كحَليفٍ حيوي بينما تُقَدِّمُ خِدمَةً لنفسِها كثيراً من التَّبرير الفكري الضعيف لتلك الحَملة الإيديولوجية. وبالمقابل، قَبِلَ بوش سنة 2004 إدخالَ كتل استيطانية في الجبهة الإسرائيلية بصفتِها "مراكز تجمّعات إسرائيلية كبيرة موجودة سابقاً" في سياقِ اتفاقية سَلام نهائية[1]. كما تَبنّى بوش قرارَ شارون المفاجِئ بسَحبِ إسرائيل المنفَرد للقواتِ والمستوطِنين من قطاع غزة سنة 2005. فعَلَتْ إسرائيلُ ذلك دون التنسيق مع الفلسطينيين واحتفَظَتْ بسيطَرتها على الدخول والخروج من القطاع الذي ظلَّ تحت الحصار، وسرعان ما استولَتْ عليه حركة حماس مما هَيأ الوضعَ للجَولة التالية من الحروب على غزة.

كان الرئيسُ باراك أوباما هو الذي شَغلَ البيت الأبيض خلال اجتياحاتِ إسرائيل الثلاثة في غزة، واستمر في نمَط سلوك من سَبَقوه. بَعَثَ انتخابُهُ أمالَ كثيرٍ من النفوس الطيبة التي آمَنَتْ بأن رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية يَحمِل في اسمِهِ اسمَ الحسين، وله صورة فوتوغرافية مع إدوارد سعيد الذي كان جاري وزميلي في جامعة شيكاغو، والذي أعلَنَ "بدايةً جديدة" للولايات المتحدة في العالَم الإسلامي من المؤكّد أنه سيتَعامل بشكلٍ مختلف مع فلسطين. نَشأتْ هذه الآمال من افتِراض أن الرؤساء لديهِم حرّية تصرّف غيرُ محدودَة. ولكن على الرغم من مساحة الحركة الواسعة المَمنوحَة للسُلطة التنفيذية يستمر تأثير عوامل القوة العَنيدة للبيروقراطية الدائمة ومن الزمرة المتَجانِسة من الخبراء الذين يَدخلون ويَخرجون من الحكومة والكونغرس وغيرها من العناصر الهَيكلية والسياسية.

هناك أيضاً قوة تأثير التفكير التقليدي بشؤون إسرائيل والفلسطينيين المتأصِّل في قيادات الحزبَين السياسيَين وفي وسائل الإعلام الرئيسية، بالإضافة

---

(1) هذا متضمَّن في رسالة من بوش إلى شارون سُلِّمَتْ في 14 أبريل 2004 خلال اجتماع في واشنطن.

إلى القوة الهائلة لجماعات الضغط الإسرائيلية وحقيقة عدم وجود قوةُ توازنٍ مكافِئة في سياسات أمريكا. كل ما يَشبِهُ جماعَةَ ضغطٍ عربية لم يكن أكثر من تجميعٍ لأماكِن باهِظة التكاليف ومكاتب مُحاماة ومُستشارين وجماعات ضغط دُفِعَتْ لها مبالغ طائلة لحماية مَصالح النُّخبة والحكومات الفاسدة التي أساءتْ حُكمَ معظم الدول العربية. أغلبُ هؤلاء الحكام المستَبدّين مَدينون بالفضل للولايات المتحدة وهم زبائن ثمينون للمصالح الأمريكية الدفاعية والجوية والنفطية والعقارية التي تتمتّع بنفوذٍ كبير في واشنطن. تضغَطُ هذه القوى الفعّالة أيضاً لصالح الحكّام العرب وليس لصالح "العرب" من أهل تلك البلاد.

ومع ذلك فقد كانت هناك إشارةٌ أخرى مبشِّرة في تَعيينِ أوباما السريع لجورج ميتشل كمَبعوثٍ خاص للسَّلام في الشرق الأوسط في يناير 2009 وكانت مهمَّتُه البَدء بمفاوضات إسرائيلية فلسطينية مباشرة للتوصُّل إلى اتفاقٍ نهائي. كان ميتشل مفاوِضاً من نوعٍ سايروس فانس Cyrus Vance وجيمس بيكر بعقليةٍ مستقلة وخبرة جيدة في واشنطن، وكان في مرحلةٍ متقدمةٍ بمهنَتِهِ ولَن يخضَع لإسرائيل ولا لجماعات ضَغطها. وكان قد عَمِلَ حاكماً لولاية ماين، وكزعيمٍ للأغلبية في مجلس الشيوخ، وكممثلٍ خاص للرئيس بيل كلينتون. ونجَحَ في التوصّل إلى اتفاقية السلام في إيرلندا الشماليّة سنة 1998 وأخرَجَ الجيشَ الجمهوري الإيرلندي IRA من جُمودِهِ وشارَكَهم في الاتفاقية. وعلى النَّقيضِ من صانِعي عملية السلام في عَهدِ كلينتون، لم يقبَل ميتشل مواقِفَ إسرائيل كحدودٍ لسياسَةِ أمريكا، وسَعى للمواجَهة المباشرة للجوانب الأصعَب في المباحثات: تَجميدُ المستوطَنات اليهودية، ومستقبل القدس، وعودة اللاجئين الفلسطينيين. استَندَ إلى نجاحِهِ مع الجيشِ الجمهوري الإيرلندي واقتَرحَ مشارَكةَ حركة حماس في عملية التفاوض، واعتَقدَ أن ذلك ضروريٌّ للحَلِّ الشامل، إلا أنه لم ينجَح في النهاية بسبب معارَضة إسرائيل. إلا أن ميتشل كان يُعاني من مشكلةٍ خاصة أيضاً، فقد كانت جهودُه تُقوَّضُ من

داخل إدارة أوباما. لم تكن الشخصية الرئيسية في تَقويضِ مهمّة ميتشل سوى دينيس روس.

كان روس خارجَ الحكومة خلال سنوات جورج بوش الأب، ولكنه شارَكَ في حَملة أوباما الانتخابية في فلوريدا وغَيرِها سنة 2008 ودافَعَ عنه أمام اتهامات الجمهوريين بعَدَمِ تقديم الدعم الكافي لإسرائيل. وهكذا فقد كان الرئيسُ المنتَخَب الجديد مَديناً له، كان هنالك استياءٌ من تَعيين ميتشل (فبالإضافة إلى رغبَتِهِ بالتعامل مع حركة حماس فإن ميتشل كان من أصولٍ لبنانية، وكان أول مسؤول أمريكي كبير يتعامَل مع الشرق الأوسط بهذه الخَلفية منذ فيليب حَبيب)، ولمُداهَنة هؤلاء المُستائين أُدخِلَ روس كمُستشار خاص لوزيرة الخارجية هيلاري كلينتون. كان من المَفروض أن يركّز على الخليج، إلا أنه سرعان ما أشرَكَ نفسَه في المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية حيث وَجَدَهُ الإسرائيليون مُحاوِراً مفضَّلاً. أصبحتْ تدخُّلاتُ روس في جهودِ ميتشل لا تُحتَمل عندما قامَ مِراراً من وراء ظَهر المبعوث الخاص وفَتَحَ قنواتٍ سرّية مع الإسرائيليين فخَرَجَ من مَنصِبه في واشنطن، إلا أنه عادَ على قدَميهِ في مَنصبٍ جديد في مجلس الأمن القومي حيث كان أقرَب إلى الرئيس. استمرّ بالتّدخل في عَمَلِ ميتشل بإجراء اتفاقاتٍ جانبية مع حكومة نتنياهو بينما رَفَضَت السُلطة الفلسطينية إجراء أي اتصالات معه بسبب انحيازه الواضِح مع إسرائيل.

كانت معركةً غير متكافئة، ميتشل مقابل اللوبي الإسرائيلي والكونغرس ونتنياهو، وروس مستمرٌ طول الوقت في استغلال تأييدِ رؤسائِه للعمل من وراءِ ظَهر النائب السابق ميتشل. وبدلاً من أن تواجِهَ إسرائيل ممثلاً واحِداً للحكومة الأمريكية مُصِرّاً على الحصول على تنازلات من الطَّرفَين، كانت قادرةً على اللعب مع روس المَرن الخاضِع دائماً في مقابل ميتشل. في مثل هذا الموقِف استطاعَتْ إسرائيلُ ببساطَة أن تتمسَّكَ بموقِفها ولم يُمكِن تحقيق أيّ تطور بشأن المستوطَنات. وفي النهاية، وجِّهَت الضربةُ الناعمة إلى ميتشل من جهة زملائه القُدامى في الكونغرس الذين قَرّروا أنّ مشارَكةَ حركة حماس في عملية التفاوض لم تكن مقبولة وخالَفت

القوانين الأمريكية[1]، وربحتْ إسرائيل. استمرّ الوضعُ القائم وظلَّ الفلسطينيون منقسِمين ولم تضطر إسرائيل للتفاوض مع حماس ولا حتى أن تتفاوَض بشكل جدّي. حَدَثَ كل ذلك دون أن تَبذل أيّ جُهدٍ يُذكَر فقد قامَ روس والكونغرس بِعَمَلِ إسرائيل.

على الرغم من أن أوباما قد أشارَ إلى أن القضية الفلسطينية كانت أولَوية في إدارتِه إلا أن ردَّهُ على الحروب في غزة كانت مقياساً أكثر صِحَّةً لمشارَكته. بدأتْ أولى الحروب التي جَرَتْ تحت أنظاره بعد انتخابه ولكن قَبلَ تَنصيبِه. لم يُحاول الرئيس آنذاك ولا بَعدها إزعاجَ سياق الدعاية المَغلوط عما كان يَحدُث في قطاع غزة خلال تلك المَذابح الشَّرسَة على أنها كانت الرَّد الصحيح على نيران صواريخ الإرهاب الموجَّهة ضد المَدَنيين الإسرائيليين. لم تتدخّل إدارتُهُ في أية لحظة لوَقفِ تدفُّقِ الأسلحة الأمريكية التي استُخدِمَتْ في قَتلِ حوالي 3000 مَدَنيّ فلسطيني وشَوَّهَتْ كثيراً غيرهم. بل تسارَعَ تسليمُ الأسلحة في واقع الأمر عندما رأتْ إسرائيل ذلك ضرورياً. لم يواجِه أوباما إسرائيل بشكلٍ حاسِم حول حصارها لقطاع غزة.

أما فيما يتعلق بتَصريحاتِه المُبكرة عن تغييرٍ في تحيّز واشنطن لإسرائيل فقد كَرِهَتْ مَشاعِرُهُ أعمالَ زعمائها اليمينيين ومؤيديهم الأمريكان (بادَلَهم هذه المَشاعر تماماً) إلا أن ذلك لم يغيّر شيئاً في فلسطين في نهاية الأمر. وعلى الرغم من الجهود الضائعة لحَلِّ الصراع التي قامَ بها جون كيري وزير خارجية أوباما فإن الأثَرَ الوحيد الذي تَرَكَتْهُ إدارتُهُ كان قرارَ مجلس الأمن الدولي رقم 2334 الذي نَجَحَ بنسبة 14 إلى 1 بامتِناع الولايات المتحدة عن التصويت والذي وَصَفَ نشاطَ الاستيطان الإسرائيلي في الضفة الغربية والقدس الشرقية بأنه "انتهاكٌ صارِخ" للقانون الدولي "بلا شرعيةٍ قانونية". اتُّخِذَ هذا القرار في ديسمبر 2016 عندما كان أوباما ضعيفاً، لم يَنصّ القرارُ على أية عقوبات ولا إجراءات قَسرية على إسرائيل. ومِثلَ التصريحات الأمريكية

(1) مقابلة مع مسؤولَين كبيرَين مشاركَين مباشرة في هذه القضايا طلَبا عدم ذِكر أسمائهما، في 1 فبراير 2010 و11 يناير 2011.

التقريرية الأخرى كان القَرارُ بلا أسنانٍ ولم يكن له أي تأثير على الوَضعِ القائِم. كان أوباما غَيرَ مَحظوظ بشكلٍ خاص لأنه بَعدَ تَنصيبِهِ بأشهرٍ استَلَمَ نتنياهو الذي تَدهوَرت علاقاته معه قد استَلَمَ رئاسةَ الوزراء الإسرائيلية للمرة الثانية واستمرَّ في تطوير علاقاتِه الوثيقة مع المعارَضة الجمهورية للرئيس. لهذه الأسباب وغيرها، غادَرَ أوباما البيت الأبيض سنة 2017 حينما كان الوَضع الاستعماري والاحتلال العسكري قائماً في فلسطين، وتوسُّعُ المستوطَنات اليهودية مستمراً، وأحوالُ الفلسطينيين أسوأ مما كانت عليه حينما استَلَمَ المَنصب قَبل ثمان سنوات.

الدَّرسُ واضحٌ، لو أن أوباما كان جادّاً في اعتبار قضية السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين أولَوية مثلما كانت أهميةُ الاتفاقية النووية مع إيران لاستَطاعَ دَفعَها ضد مقاومة الكونغرس، وجهود الإيباك والحكومة الإسرائيلية. وربما نَجَحَ في ذلك. ففي مسألَةٍ ذات أهمية قصوى مثل أهمية الحرب والسلام مع إيران، تمكَّنَ أوباما من مواجَهة اللوبي الصهيوني والتَّغلب عليه وعلى مؤيدي إسرائيل. ويبدو أن وجهةَ نظَر الرئيس كانت أن تحريكَ الجُمود في فلسطين لم يشكّل مصلحةً أمريكية استراتيجية حيوية عُليا بالنسبة إليه بدرجةٍ تكفي لكي تدفَعه لاستِخدام نفوذِه وسُلطَته ورأسماله السياسي. وهكذا ماتَتْ مبادَرةُ ميتشل بهدوء سنة 2011، وكذلك جُهودُ كيري سنة 2016، وانتَهتْ معها فرصةُ إجراءِ مفاوضاتٍ بين إسرائيل والفلسطينيين على أسُسٍ جديدة.

على مَرِّ قَرن كامل من الحرب على فلسطين كانت العاصمة الأمريكية المُرتكَزَ الذي لا يمكن الاستِغناء عنه في حرية تصرف إسرائيل، وظلّتْ مُلتَزِمَةً بالمشروع الصهيوني الاستعماري مثلما كان اللورد بلفور منذ مئة سنة. سيُشيرُ القَرن الثاني من هذه الحرب إلى اسلوبٍ في التعامل مع قضية فلسطين أكثر تدميراً بسبب تنسيق الولايات المتحدة الأمريكية الوَثيق مع إسرائيل وأصدقائها الجُدد من المَلَكيات المُطلَقة في دول الخليج.

الخلاصة

قَرنٌ من الحرب على الفلسطينيين

صَرَّحَ آرثر جيمس بلفور سنة 1917 أن الحكومة البريطانية في فلسطين لم "تقتَرِح حتى القيام بشكلٍ من استشارةِ رغباتِ السّكان الحاليين في البلاد". واستمرَّ بقوله إنّ القوى العظمى ملتَزِمةٌ بالصهيونية "والصهيونيةُ سواء كانت مُحِقّةً أو مُخطِئة، جَيدةً أم سَيئة، فهي متأصِّلة في تقاليد قديمة راسِخة، وحاجات معاصِرة، وآمال مستقبلية لها أهميةٌ أكثر بُعداً وعُمقاً من رغبات وتعصُّبات 700000 عربي يعيشون الآن في تلك الأرضِ العَتيقة"[1]. بعد ذلك بمئة سنة اعتَرَفَ الرئيسُ دونالد ترمب بالقدس عاصمةً لإسرائيل قائلاً: "رفَعنا القدسَ عن طاولةِ المفاوَضات، ولا يجب علينا الحديثَ عنها بَعدَ الآن". وقال ترمب لنتنياهو "ربِحتَ نقطةً، وعليك التَّخلي عن نقاطٍ أخرى فيما بَعد أثناء المفاوضات إنْ حَدَثَتْ. ولستُ أدري فيما إذا كانت ستَحدُثُ أبداً"[2]. وهكذا تمّ حَذفُ مَركَزِ تاريخِ الفلسطينيين وهويتهم وثقافتهم وعبادتهم حتى دون التَّظاهر باستقصاء رغباتِهم وإرادتهم.

---

(1) "Memorandum by Mr. Balfour (Paris) respecting Syria, Palestine, and Mesopotamia," August 11, 1919, in *Documents on British Foreign Policy, 1919-1939*, ed. E. L. Woodward and Rohan Butler (London: HM Stationery Office, 1952), 40-48.

(2) "Remarks by President Trump and Prime Minister Netanyahu of Israel before Bilateral Meeting Davos, Switzerland," January 25, 2018.

خلال القَرن الذي مَضَى حاوَلَت القوى العظمى مِراراً التَّصرفَ على الرغم من الفلسطينيين، وبتجاهُلِهم، وبالتّفاوض بَدَلاً عنهم أو من فوق رؤوسهم، أو بادِّعاء عدم وجودِهم. غير أن الفلسطينيين في مواجهة احتمالاتٍ قوية ضدَّهم قد أظهَروا قدرةً عنيدة على مقاومةِ هذه الجهود لِحَذفِهِم سياسياً وتَفريقِهم في الجهات الأربع. وبالفِعل، فبَعدَ مرور 120 سنة على أول مؤتمر صهيوني في بازل، وأكثر من سبعين سنة بعد صُنعِ إسرائيل، فإنّ الشعب الفلسطيني الذي لم يتم تمثيله في أيّ من هاتَين المناسبتَين، لم يكن من المُفتَرَض أن يشكِّلَ أيّ نوعٍ من الوجود الوطني أو القومي. كان المَفروضَ أن تَقِفَ مَكانَهم دولةٌ يهوديةٌ لا يَعتَرِضُ عليها المجتمع المَحَلي الذي كان يَجِبُ أن يُستَبدل. ومع ذلك، على الرغم من قوتِها وأسلحتِها النووية وتحالفها مع الولايات المتحدة الأمريكية فإن الدولةَ اليهودية مُتَنازَعٌ عليها عالَمياً اليوم مثلما كان وَضعُها في الماضي. تُعتَبرُ المقاومةُ الفلسطينية واستمرارها وتحدّيها لطُموحات إسرائيل بين أكثر الظواهر إثارة للدَّهشة في العَصر الحالي.

تراوَحَت الولاياتُ المتحدة الأمريكية على مَرِّ العقود بين مَنحِ التأييد اللفظي لوجودِ الفلسطينيين ومحاولة حَذفِهِم من خريطة الشرق الأوسط. ذِكْرُ بَندِ الدولة العربية في قرار التقسيم سنة 1947 (على الرغم من عدم تنفيذه)، وذِكْرُ جيمي كارتر "لوطَنِ" الفلسطينيين، والدَّعمُ الإسمِي لدولةٍ فلسطينية من إدارة كلينتون حتى إدارة أوباما، كلها أمثلَةٌ على ذلك التأييد اللفظي. هناك مناسباتٌ أكثر بكثير بشأن الاستِبعاد والمَحو الأمريكي: دَعمُ ليندن جونسون لقرار مجلس الأمن رقم 242، سنواتُ كيسنجر من إقصَاء منظمة التحرير الفلسطينية في الستينيات والسبعينيات وقيامِهِ سِرّاً بحربٍ عليها بالوكالة، اتفاقياتُ كامب ديفيد سنة 1978، الضوء الأخضر الذي مَنَحَتْهُ إدارةُ ريغان لحرب 1982 على لبنان، عدمُ وجودِ الإرادَة لدى الرؤساء الأمريكان من جونسون إلى أوباما لوقفِ استيلاءِ إسرائيل على أرضِ فلسطين وإنشاء المستوطَنات.

بغضّ النّظر عن تأرجُحِها فإنّ الولايات المتحدة وهي القوة الأمبريالية العظمى في هذا العصر، بالإضافة إلى بريطانيا العظمى قَبلَها قَدَّمَتا الدَّعمَ الكامل للحركة

الصهيونية ودولة إسرائيل. ولكنهم كانوا يحاولون القيام بالمستحيل: فَرضُ واقِعٍ استعماري على فلسطين في عَصرٍ ما بَعدَ الاستعمار. لَخَّصَ ذلك إقبال أحمد: "عندما انتهى حُكمُ البريطانيين للهند في أغسطس 1947، بدأتْ نهايةُ الاستعمار. وفي أيام الأمَل وتلك الإنجارات حَدَثَ استعمارُ فلسطين. وهكذا مع أفولِ الاستعمار عُدنا إلى الشَّكل الأوّلي الأكثر حِدّة من الخطر الاستعماري... الاستعمارُ الاستيطاني الحَصري"[1]. في ظروفٍ أخرى، أو في عَصرٍ آخَر، ربما كان استِبدال السكان المَحَليين ممكِناً، خاصةً في ضوء العلاقات القديمة والارتباطات الدينية العَميقة التي شَعرَ بها اليهود بالأرض المَعنِيَّة، لو كان ذلك في القَرن الثامن عشر أو التاسع عشر، أو لو كان الفلسطينيون قليلون مِثلَ المُستوطِنين اليهود، أو تمّ القضاء عليهم مثلما حَدَثَ للسّكان المَحَليين في استراليا وأمريكا الشمالية. ولكن استمرار صمود المقاوَمة الفلسطينية أمام محاولات طَردِهم وسَلبِهم يُشيرُ إلى أنّ الحركةَ الصهيونية حَسبَ وَصفِ المؤرخ توني جوت Tony Judt "وَصَلَتْ مُتأخِّرة" لأنها "استَقدَمَتْ مَشروعاً انفِصالياً نموذجياً من القَرن التاسع عشر إلى عالَمٍ قد تطور وتغيّر"[2].

نجَحَت الصهيونيةُ بتأسيس إسرائيل وفي تَشكيل حركةٍ قومية قوية ووَضعِ شعبٍ حيوي في فلسطين، إلا أنها لم تتمكن تماماً من إزاحَة سكان البلاد الأصليين، وكان ذلك ضرورياً لتحقيق نَصرِ الصهيونية النهائي. تَنتَهي صِداماتُ المُستوطِنين المُستَعمِرين مع السكان المَحَليين بواحدة من ثلاثة طرق: القضاءُ على السكان المَحَليين أو إخضاعُهُم تماماً مثلَما حَدَثَ في أمريكا الشمالية، أو هَزيمَة وطَرد المُستعمِرين مثلما حَدَثَ في الجزائر، وهذا نادرُ الحُدوث، أو بالتَّخلّي عن الهَيمَنة الاستعمارية في سِياقِ تَنازلٍ وتَصالح مَثلما حَدَثَ في أفريقيا الجنوبية وزيمبابوي وإيرلندا.

---

(1) C. Bengelsdorf et al., eds., *The Selected Writings of Eqbal Ahmad*, 301.

(2) Judt's article, "Israel: The Alternative," *The New York Review of Books*, October 23, 2003.
كان ذلك مثيراً للجَدل آنذاك وربما أصبح أكثر قبولاً الآن على الرغم من أن انتقاداته للصهيونية في هذه الظروف الآن قد تُثير اتهامات سخيفة بمعاداة السامية.

مازال هناك احتمالٌ لأن تُحاوِل إسرائيلُ تكرار التَّهجير الذي حَدَثَ في 1948 و1967 وتَتخلَّص من بعض أو من جميع الفلسطينيين الذين مازالوا يتمَسَّكون بأرضِهم. حَدَثَ نَقلٌ بالقوة لشعوبٍ على أساسٍ طَبَقيّ أو عِرقي في العراق المُجاوِرة منذ أن احتَلَّتْها الولايات المتحدة الأمريكية، وفي سورية بعد انهيارها في الحرب والفوضى. وَرَدَ في تقريرِ المفوَّض السَّامي لشؤون اللاجئين في الأمم المتحدة سنة 2017 أن 68 مليونَ شخصٍ ولاجئ قد نَزَحوا في العالَم. ربما تشكّل هذه الخلفية الإقليمية والعالمية المخيفة والتي تُثيرُ قَلقاً عالمياً نادراً ما يبدو مَيلاً ضعيفاً لمَنعِ إسرائيل من القيام بمِثل هذا العَمل. ولكن القتالَ العَنيد الذي يمكن أن يقومَ به الفلسطينيون ضد تَهجيرِهم، والانتباه العالميّ الشديد للصراع، وتزايد انتشار الرؤية الفلسطينية كلها تقلّل احتمالَ حدوث ذلك.

بالنظر إلى وضوحِ ما يَعنيه التَّطهير العِرقي في الوضع الاستعماري (بالمقارَنة بالظروف الغامضة في حربٍ أهلية أو بالوكالة تتداخَل مع تدخُّل أجنبي واسِع مثلما حَدَثَ في العراق وسورية) فإن موجَةً جديدةً من التَّهجير لَن تَمرَّ في الغالب على إسرائيل بسهولة مثلما حَدَثَ في الماضي. وحتى لو تمت تَحتَ سِتارِ حربٍ إقليمية كبيرة فإن مِثلَ ذلك العمل قد يُسبِّبُ ضَرَراً في تأييد الغرب لإسرائيل، وهو دَعمٌ تحتاج إليه وتَعتَمد عليه. وعلى كل حال هناك مَخاوف متزايدة بأن التَّهجير ربما أصبَح أكثر احتمالاً في السنوات القليلة الفائِتة مما كان عليه الحال منذ سنة 1948 بسبب سيطَرة القوميين المُتَدَيِّنين والمستوطِنين على حكومات إسرائيلية متتالية، ووضع خطط صريحة لضمّ الضفة الغربية، ودَعوة زعماء برلمانيين إسرائيليين لطَرد بعض أو كل الشعب الفلسطيني. هناك سياساتٌ إسرائيلية عقابية موجَّهةٌ الآن لِطَردِ أكثر ما يمكن من الفلسطينيين خارج البلاد، مع تَهجير بعضِهم داخل الضفة الغربية وصحراء النَّجَف داخل إسرائيل من بيوتهم وقُراهم بِهَدمِ البيوت وإجراءاتِ بَيعٍ مزيَّفَة وإعادة تقسيم المناطق وغيرها من المخططات، وهي على بُعدِ خطوةٍ فقط من الخطوات المُجَرَّبَة من آليات الهندسة السكانية لتكرار التطهير العِرقي الشّامل

الذي حَدَثَ سنة 1948 و1967. ومع ذلك فما زالت الاحتمالات تبدو بعيدة عن قيام إسرائيل بهذه الخطوة.

إذا لم يكن القضاء على السكان المَحَليين نتيجةً ممكِنة في فلسطين، فماذا عن تفكيكِ هَيمَنة المستَعمِرين للوصول إلى مصالَحة حقيقية؟ يَرتَكِزُ الامتياز الذي تمتَّعَتْ به إسرائيل للاستمرار بمشروعها على حقيقة أن الطبيعة الاستعمارية الأساسية للصراع في فلسطين لم يكن واضِحاً لأغلب الأمريكان ولكثير من الأوروبيين. تبدو إسرائيلُ بالنسبة لهم دولةٌ قومية طبيعية مثل غيرها، تواجِهُها عُدوانيةٌ لا عقلانية عَنيدة من مسلمين مُعادين للسَّامية في أغلب الأحيان (وهو رأيُ كثيرين بالفلسطينيين، حتى المَسيحيين منهم). نَشرُ هذه الصورة هو واحِدٌ من أكبر إنجازات الصهيونية وهي ضرورية لاستمرارها. وكما صاغَها إدوارد سعيد فإن الصهيونية قد انتَصَرَتْ جزئياً لأنها "رَبِحَت المعركةَ السياسية على فلسطين في العالَم الدولي حيث الأفكار والتمثيل والخطاب والصور هي القضية"[1]. ومازال ذلك صحيحاً هذه الأيام. تَصحيحُ هذه المُغالَطَة وتِبيانُ الطبيعةِ الحقيقية للصّراع هي خطوةٌ ضرورية لانتقال الفلسطينين والإسرائيليين إلى مستقبلٍ ما بَعدَ الاستعمار حيث لا يَستَغِلُّ شَعبٌ الدَّعمَ الخارجي لاضطهادِ ولإبْعادِ الآخر.

أظهَرتْ استطلاعاتُ رأيٍ حديثةٍ التَّغيرَ الذي بدأ يَحدُث بين بعض فئات الرأي العام الأمريكي، وهي تُشجِّعُ في الدعوة إلى حرية الفلسطينيين، إلا أنها لا تَعكِسُ موقفَ أغلب الأمريكان، ولا تَرتَكِزُ بالضرورة على فَهمٍ جيد للآليات الاستعمارِية العامِلة في الصراع. كما أن الرأي العام قد يتغيّر كذلك. حَوَّلَتْ أحداثٌ جَرَتْ على الأرض في فلسطين مؤخَّراً درجةَ التَّعاطف قليلاً لمصلَحة الفلسطينيين، ولكن أحداثاً أخرى قد تُحوِلُهُ للمَيل إلى الجانب الآخر، مثلما حَدَثَ خلال الانتفاضة الثانية. بُذِلتْ جهودٌ مُمَولةٌ جيداً لتحقيق ذلك التَّحول بالذات، خاصةً

(1) "Introduction," *Blaming the Victims: Spurious Scholarship and the Palestinian Question*, ed. Edward Said and Christopher Hitchens (New York: Verso, 1988), 1.

بتَشويهِ سُمعَةِ مُنتَقِدي إسرائيل بأنهم "مُعادون للسّامية"[1]، وبالمقارَنة، كانت الجهود المعاكِسة لتقوية هذا المَيل الإيجابي ضعيفة.

تُظهِرُ التجربةُ خلال العقود القليلة الماضية أن ثلاثة أساليب كانت ناجحةً في فَتحِ الطريق أمام فَهمِ الحقيقة في فلسطين. استَنَدَ الأول على المقارَنة الغنية بين حالَة فلسطين وحالَة غيرها من تجارب الاستعمار الاستيطاني، سواء كانت لدى الأمريكيين الأصليين أو الأفارِقة الجنوبيين أو الإيرلنديين. والثاني الذي يتعلّق بالاسلوب الأول يتضمَّن التركّيز على عدم التوازن الهائِل في القوة بين إسرائيل والفلسطينيين، وهي سِمةٌ في جميع الصراعات الاستعمارية. أما الثالث وربما هو الأكثر أهمية هو إبرازُ قضيةِ اللامساواة.

اتضَحَ أن إثباتَ الطبيعة الاستعمارية للصراع صَعبٌ جداً بالنظر إلى البُعد التوراتي للصهيونية الذي يَضَعُ القادِمين الجُدد على أنهم سكانٌ مَحَليون وأنهم المَالِكون التاريخيون للأرض التي يَستَعمِرونَها. وبهذا السياق يبدو السكان الأصليون في فلسطين طارئون استِثنائيون ومؤقّتون في عودةِ ظهورِ دولةٍ يهودية قومية بعد المَحرقة تمتد جذورها إلى مملكة داوود وسليمان، وهم ليسوا أكثر من مُتَطَفِّلينَ غير مرغوبٍ فيهم في هذا السياق النَّهضَوي الرّاقي. مواجَهةُ هذه الاسطورة المَلحَمية صَعبة جداً بشكلٍ خاص في الولايات المتحدة الأمريكية المَغمورة في البروتستانتية الإنجيلية التي تَجعلها عُرضَةً للتأثّر بمِثلِ هذه الرواية الإنجيلية المؤثِّرة، والتي تَفتَخِر بماضيها الاستعماري. مَعنى كلمة "استعماري" في أمريكا

---

(1) هذه الجهود الدولية المنسَّقة جيداً من جهة وزارة الشؤون الاستراتيجية الإسرائيلية وتركّز بشكل خاص على وَصف حركة المقاطَعة ووقف التمويل والعقوبات BDS بأنها "معادية للسامية". نَشَرتْ مجلة الدراسات الفلسطينية سلسلة مقالات عن هذه الجهود في
Shir Hever, "BDS Suppression Attempts in Germany Backfire," 48, no. 3 (Spring 2019): 86-96; Barry Trachtenberg and Kyle Stanton, "Shifting Sands: Zionism and US Jewry," 48, no. 2 (Winter 2019): 79-87; Dominique Vidal, "Conflating Anti-Zionism with Anti-Semitism: France in the Crosshairs," 48, no. 1 (Autumn 2018): 119-30; Moshe Machover, "An Immoral Dilemma: The Trap of Zionist Propaganda," 47, no. 4 (Summer 2018): 69-78.

يَختَلِفُ جَذرياً عن ارتباطاتِه في العواصِم الأوروبية الأمبريالية السابقة والدول التي كانت ذات يوم جزءاً من امبراطورياتها.

كما أن اصطلاحات "المُستَوطِن" و"الرائد المُستكشِف" لها ارتباطاتٌ إيجابية في التاريخ الأمريكي نَشَأ من قصص بطولات استكشاف الغرب الكبير على حساب أهلِهِ الأصليين كما يُعرَض في دُورِ السينما والأدب والتلفزيون. وفي الحقيقة هناك مَسارات متوازية بين تصوير مقاوَمة الأمريكيين الأصليين لتَهجيرهم ومقاوَمة الفلسطينيين. تم تصوير هذَين الشَّعبَين على أنهم مُتَخلِّفين وغَير مُتَحضِّرين وعَنيفِين وقَتِلَة ويشكِّلون عَقبةً لا عَقلانية أمام التَّقدم والتَّحديث. وبينما بدأ كثير من الأمريكان بالاعتِراض على هذا السياق في روايةِ تاريخِهم، فإن المجتمع الإسرائيلي ومؤيديه مازالوا يَحتَفلون ويَعتَمدون عمَلياً على هذه الرواية التأسيسية. كما أن المقارَنات بين فلسطين وبين تجارب الأمريكيين الأصليين أو الأمريكيين الأفارِقة مَشحونَةٌ بالمَخاطر لأن الولايات المتحدة الأمريكية لم تَعتَرف بَعدُ بتلك الفصول السوداء من تاريخها ولا بمَعالَجة نتائِجها السَّامة في الحاضر. مازال هناك طريقٌ طويل أمام تغيير وَعي الأمريكان لتاريخهم القومي، فكيف بتاريخ فلسطين وإسرائيل الذي لَعِبَتْ فيه الولايات المتحدة الأمريكية دَوراً مهماً؟

الطريق الثاني في تغيير التَّصور الحالي للصراع هو التَّركيز على عدم التَّناسب الكبير بين الفلسطينيين والقوى المتَّحدة ضدَّهم، ويقتَضي ذلك إظهار أنّ الحركة الصهيونية كانت دائماً هجوميةً في محاولتها تحقيق السيطَرة على الأرض العربية. كان تصويرُ هذه الحقيقة بصورة مختلفة أمراً مركَزياً في التَّفوق الخطابي الذي حقَّقتْهُ الصهيونية إذ صَوَّرَتْ إسرائيل وكأنها داوود بمواجهة جالوت العربي- المسلم. يُصَور اختِلاقٌ جديدٌ الصراعَ على أنه بَينَ شَعبَين أو حتى بين دولتَين في قتالٍ متكافىء، أو يُصَوَّرُ في إطار صِراعٍ بين حَقَّين. وحتى في ذلك الإطار فإن الصورةَ المَقبولة هي أن إسرائيل كانت تَرغبُ دائماً بالسلام، ولكن الفلسطينيين يَرفضون ذلك، أو كما يَرِدُ في الاصطلاح المكَّرر ("لا يوجَد شريكٌ في السلام"، مما يَترك

الإسرائيليين الضحايا للدفاع عن أنفسهم ضد إرهابٍ مجنون ونيران صواريخ). بينما في الحقيقة فإن الحركة الصهيونية ثم دولة إسرائيل دائماً كانت لها اليَد الطُّولى والكتائب الكبيرة في طَرَفِها، سواء كانت بشكلِ الجيشِ البريطاني قَبلَ سنة 1939، أو بالدَّعم الأمريكي والسوفييتي في 1947-1948، أو فرنسا وبريطانيا في الخمسينيات والستينيات، أو في الوَضع منذ السبعينيات حتى الآن حين تحصَل على دَعمٍ غير مَحدود من الولايات المتحدة الأمريكية، كما أن القوة العسكرية الإسرائيلية تُقَزِّمُ قوةَ الفلسطينيين، بل تتفوق على قوة الدول العربية مجتَمِعة.

قضيةُ عدم المساواة هي أكثر الجوانب الواعِدة في نَشرِ الوَعي عن حقيقة الوَضعِ في فلسطين، كما أنها الأكثر أهمية، لأن عَدمَ المُساواة كان أساسياً في صُنعِ دولةٍ يهودية على أرضٍ عربية، وحَيوياً في الاحتفاظ بهَيمَنة تلك الدولة. عدمُ التَّساوي ضروريٌّ ليس فقط لأنه يُنافي مجتمعات المساواة والديموقراطية التي اعتَمَدَ عليها المشروعُ الصهيوني بشكلٍ رئيسي، بل كذلك لأن المساواة في الحقوق أساسيةٌ في الحَلِّ العادل الدائم للمشكلة كلها.

هناك حقوقٌ مهمّة معيَّنة في إسرائيل يُحتَفَظُ بها حَصرياً للمواطِنين اليهود ويُحرَم منها 20٪ من المواطِنين الفلسطينيين، وبالطبع، فإن الخمسة ملايين فلسطيني الذين يعيشون تحت النظام العسكري الإسرائيلي في الأراضي المحتلَّة ليس لهم أية حقوق على الإطلاق بينما يتمتَّع أكثر من نصف مليون مستوطِن إسرائيلي بحقوقٍ كاملة. هذا التميز العنصري المُمَنهَج كان دوماً سِمَةً مركزيةً في الصهيونية التي تقصدُ حُكماً إنشاءَ مجتمعٍ يهودي وكيانٍ يتمتَّعُ بحقوق قومية حَصرية في أرضٍ تضمُّ أغلبيةً عربية. حتى عندما صَرَّحَ إعلانُ استقلال إسرائيل سنة 1948 "المساواةُ التامة في الحقوق الاجتماعية والسياسية لجميع سكانِها بغضِّ النَّظر عن الدِّين أو العِرق أو الجِنس"[1]، فإن عشرات القوانين المهمّة التي استَنَدَتْ على عدم المساواة في الحقوق قد تم تطبيقُها في السنوات التالية. حَدَّدَتْ تلك القوانين

(1) "The Declaration of the Establishment of the State of Israel," May 14, 1948.

بشدّة أو مَنعَتْ تماماً تَمَلُّكَ الأرض أو الإقامَةَ في الأحياء اليهودية الحَصرية، وقَنَّنت الاستيلاءَ على الأراضي الخاصة وأراضي الوَقف التابِعة لِغَير اليهود، ومَنعَتْ معظمَ الفلسطينيين المَحَليين الذين أصبَحوا لاجئين مِنَ العَودة إلى بيوتهم وحَدَّدَتْ حُصولَهم على كثيرٍ من الامتيازات الأخرى، بينما مَنَحَتْ حقوق الجنسية للمهاجرين اليهود.

هذه المشكلةُ الجوهرية تبدو أكثر وضوحاً هذه الأيام حين أصبَحَ عددُ السكان العرب في فلسطين وإسرائيل من نهر الأردن إلى البحر مساوياً وربما أكثر من عدد السكان اليهود. عدمُ المساواة تلك هي التساؤل الأخلاقي المَركزي الذي يُطرَح على الصهيونية، ويَغوصُ إلى جَذرِ شرعية المشروع بكامِله، وهي رؤيةٌ يحمِلُها أيضاً بعضُ الإسرائيليين البارزين. سَألَ المؤرخ زيف سترنهيل Zeev Sternhell وهو يَتَصَوَّرُ باحِثين يَنظُرون إلى الخَلْفِ بَعدَ مئة سنة من الآن "متى أدركَ الإسرائيليون بالضبط أن قَسوتَهم نحو غَير اليهود الموجودين في قَبضَتِهم في الأراضي المحتلَّة، وأنّ إصرارَهم على تحطيم أمَلِ الفلسطينيين بالاستقلال، أو رَفضِهِم مَنحَ اللجوء للاجئين أفريقيين، قد بَدأ يُقوّضُ الشرعية الأخلاقية لوجودِهم القومي؟"[1]

أصَرَّ الصهاينةُ على مَرٍّ عقودٍ على أن إسرائيل يمكن أن تكون "يهودية وديموقراطية" وهم يُشيرون إلى إعلان استقلال الدولة. إلا أن التناقضات الكامِنة في هذه الصيغة قد أصبَحتْ أكثر وضوحاً بشكلٍ متزايد، وأقَرَّ بعضُ الزعماء الإسرائيليين (في الواقع أعلَنوا ذلك بفَخر) بأنهم إذا اضطروا للاختيار فإنَّ الجانبَ اليهودي سَيأخُذ الأولوية. قَنَّنَ الكنيست ذلك الاختيار في يوليو 2018 في قانونٍ دستوري وتَبنَّى "القانون الأساسي للدولة القومية اليهودية" الذي أَسَّسَ عدمَ المساواة القانونية بين المواطِنين الإسرائيليين بمَنحِ حَقِّ تقرير المصير القومي حَصرياً للشعب اليهودي، وخَفَّضَ وَضعَ اللغةِ العربية، وأَعلَنَ أنَّ المُستوطَنات

(1) Zeev Sternhell, “En Israël pousse un racisme proche du nazisme à ses débuts,” *Le Monde*, February 20, 2018, 22, my translation.

اليهودية "قيمَةٌ قومية" أولَوية على أيّ احتياجاتٍ أخرى[1]. كانت وزيرةُ العدل السابقة إيليت شاكد Ayelet Shaked وهي واحدةٌ من أكثر المؤيدين صَراحَةً للهَيمَنة اليهودية وراعِية لهذا القانون، قد طَرَحَت القضية صراحَةً قَبلَ بضعة أشهر من طَرحِ القانون للتَّصويت "هناك مواضِعُ تَجِبُ فيها المحافَظة على هوية دولة إسرائيل كدولةٍ يهودية، ويأتي ذلك أحياناً على حساب المساواة"[2]، وأضافَتْ "إسرائيل... ليست دولةً لجميع قومياتها، أيْ حقوقٌ متساويةٌ لجميع المواطِنين وليسَ حقوقاً قوميةً متساوية".

تم تلخيصُ ما تقودُ إليه هذه الإيديولوجية بكلماتٍ مماثِلة في صَراحَتِها طَرَحَها ميكي زوهار Miki Zohar عضو الليكود في الكنيست حين قالَ إنّ الفلسطيني "لا يمتلكُ حَقَّ تقرير المصير لأنه ليسَ مالكَ الأرض. أريدُه أن يكون ساكِناً بسبب أمانَتِي ونُبلِي لأنه وِلِدَ هنا ويَعيشُ هنا ولن أطلُبَ منه أبداً أنْ يُغادِر. وأنا آسِفٌ لقَولي إنهم يُعانونَ من نَقيصَةٍ واحدة كبيرة: إنهم لم يولَدوا يهوداً"[3]. هذا الرَّبطُ بين الحَقّ الحَصري بالأرض والانتِماء للشَّعب هو مسألةٌ مركَزية في نوعٍ معيَّنٍ من "الدَّم والتراب" في مَفهوم القومية في أوروبا الوسطى حيثُ نَشَأت الصهيونية. عَلَّقَ سترنهيل Sternhell المَختَصّ بالفاشية الأوروبية على نسخَةٍ أوّلية من القانون الأساسي للدولة القومية اليهودية بأن الأفكار الدستورية وراءَ القانون تَتَناغَمُ مع أفكار شارل مورا Charles Maurras المفكِّر الفاشِيّ-الجديد المُعادي للسامية في فترة

(1) تحليل واضح للقانون في

Hassan Jabareen and Suhad Bishara, "The Jewish Nation-State Law: Antecedents and Constitutional Implications," *Journal of Palestine Studies*, 48, no. 2 (Winter 2019): 46-55. For its text, see pages 44-45, and for a petition to the Israeli Supreme Court on the subject of the law by Adalah, the Legal Center for Arab Minority Rights in Israel, see 56-57.

(2) Revital Hovel, "Justice Minister: Israel Must Keep Jewish Majority Even at the Expense of Human Rights," *Haaretz*, February 13, 2018.

(3) المصدر نفسه. انظر أيضاً

Ravit Hecht, "The Lawmaker Who Thinks Israel Is Deceiving the Palestinians: No One Is Going to Give Them a State," *Haaretz Weekend*, October28 , 2017.

الثلاثينيات، أو أفكار القوميين البولنديين والهنغاريين في هذه الأيام و"المتعصّبين الأوروبيين المتشدّدين"، وأضافَ على كل حال بأن أفكارَ القانون على تضادٍّ تامٍ مع الأفكار الليبرالية للثورات الفرنسية والأمريكية[1].

يزدادُ تناقضُ الصهيونية المعاصِرة مع المُثُلِ العُليا التي تَرتكِزُ إليها الديموقراطياتُ الغربية، خاصة فيما يتعلّق بالمساواة بسبب تَبنّيها جَوهَرَ العُنصرية غَير الليبرالية. تَعتَزُّ الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا بهذه القِيَم حتى لو تمّ اختِراقُها كثيراً، كما أنها مُهدَّدَةٌ هذه الأيام بمُيولٍ شَعبَوية قوية غَير ليبرالية واتّجاهات يمينية تَسلطِية، إلا أنها يجب أن تكون قضيةُ جدّية خاصة باعتبار أن إسرائيل مازالت تَعتَمد على دَعمِ هذه الدول الغربية.

وأخيراً فإن إبرازَ عدم المساواة المَنهَجية المتأصّلة في الصهيونية هو مسألةٌ مهمّةٌ في خَلقِ مستقبلٍ أفضَل للشَّعبَين الفلسطيني والإسرائيلي. كل صِيغَةٍ تُقدَّمُ كَحَلٍّ للصراع ستَفشَلُ حتماً في النهاية إذا لم تَرتكِز على مَبدأ المساواة. المساواةُ المطلَقة في الحقوق الإنسانية والفردية والمَدَنية والسياسية والقومية يجب أن تُرسَّخَ في أي خطّة مستقبَلية يَقبَلُها المجتمَعان. قد تبدو هذه التَّوصِية رنّانَة، ولكن لا شيءَ غَيرها سيُراعي جَوهر المشكلة ولن يكون مستمراً ودائماً.

وتبقى القضيةُ الشائكَةُ عن كيفية فَصلِ الإسرائيليين عن تَمَسُّكِهم بِعَدَمِ المُساواة التي تُصاغُ وتُبَرَّرُ عادَةً بالحاجَةِ إلى الأمن. هذه الحاجَةُ المُتصَوَّرة للأمن متأصّلة إلى حَدٍّ كبير في تاريخ حقيقيٍّ من الاضطهاد وغيابِ الأمن، ولكن الردَّ على هذه الصَّدمة القديمة جاءَ بظهور أجيالٍ أنشِئتْ على عقيدة عَكسِية من القومية العُدوانية التي يَصعبُ كَسرَ عِنادِها الشديد. وهكذا فإن المواطِنين اليهود في قوةٍ إقليميةٍ عُظمَى تروِّعُ جيرانَها (وقصَفَتْ عواصِمَ سبعةٍ منهم بكل حَصانَة)[2] يُعانونَ

---

(1) Sternhell, "En Israël pousse un racisme proche du nazisme à ses débuts."

(2) قَصَفت الطائرات الإسرائيلية في أوقات مختلفة تونس والقاهرة والخرطوم وعمان وبيروت ودمشق وبغداد، وقَصَفتْ بعضها مرات عديدة، ومنها حديثاً.

مِن شعورٍ عميقٍ بِعَدَمِ الأمان يَنغَرِسُ جزئياً في هذا التاريخ، وربما يَعودُ من جانب آخر إلى قلقٍ غَير مُعلَن بأنَّ واقِعاً تمّ صُنعُهُ بِحَذَرٍ وواقِعٍ استعماري مُبَرَّرٍ يعيشون فيه قد يَنهَدِمُ فجأة. التناذر الذي يَدفَع هذا الشعور المُلِحّ بالسيطَرة والتحيّز ربما يُمكِنُ التعامل معه فقط من جهة أولئك الموجودين داخل المجتمع الإسرائيلي (أو بقربِهِ) الذين يُدرِكون الاتجاهَ المُحبِط لمَسار البلاد الحالي، والذين يَستطيعون تَحدّي تَشويهاتِ التاريخ والأخلاق واليهودية التي تَصنَعُها هذه الإيديولوجية. لا شك بأن فِعلَ ذلك هو مهمّة الإسرائيليين الأساسية والأكثر إلحاحاً لهم ولمؤيديهم ممن يريدون تغيير فعاليات الظُّلم وعدم المساواة.

يحتاجُ الفلسطينيون أيضاً إلى التَّخلصِ من الوَهم الخَبيثِ (المتأصِّل في الطبيعة الاستعمارية لخصومِهم والصهيونية التي تَنفي الشعبَ الفلسطيني) بأنَّ اليهود الإسرائيليين لَيسوا "شَعباً" حقيقياً وأن ليسَ لهم حقوقٌ قومية. على الرغم من صِحَّةِ أنَّ الصهيونية قد حَوَّلَت الدِّين اليهودي وتاريخ الشعب اليهودي إلى شيءٍ آخر مختلِفٍ تماماً (قومية حديثة)، إلا أن هذا لا يَمحِي حقيقةَ أنّ اليهود الإسرائيليين الآن يَعتَبرون أنفسَهم شَعباً بشعورٍ مِنَ الانتماء "القومي" لفلسطين التي يَعتَبرونَها أرضَ إسرائيل مهما كانت طريقةُ حدوثِ هذا التَّحَول. يَعتَبرُ الفلسطينيون أنفسَهم الآن كذلك شَعباً بارتباطاتٍ "قومية" بما هو فِعلاً أرضُ أجدادِهم لأسباب كيفية وظَرفية تُماثِلُ الأسبابَ التي أدَّتِ إلى الصهيونية، وتُماثِل الأسبابَ الكيفية التي أدّت لظهور عددٍ من الحركات القومية الحديثة الأخرى. مِثلُ هذا الاستنتاج عن الطبيعةِ المَبنِية لجميع الكيانات القومية الذي يُثيرُ غَضَبَ روّاد القومية هو أمرٌ واضِح بالنسبة لِمَنْ دَرَسَ نَشأتَها في كثير من الظروف المختلفة[1].

---

(1) هذه مناقشةٌ مركزية في كتابي "الهوية الفلسطينية" على نمطٍ قَدَّمَهُ عدد من أكثر الكتاب احتراماً في القومية مثل
Benedict Anderson, Eric Hobsbawm, and Ernest Gellner.

ومن المفارَقة أن الفلسطينيين مثل بقية الشعوب يَفترضون أن قوميتَهم صافيةٌ ومُتأصِّلَةٌ تاريخياً بينما يُنكِرون ذلك على يهود إسرائيل. لا شك بأن هنالك اختلافٌ بين الأمرَين: فأغلبُ الفلسطينيين يَنحَدرون من أناسٍ عاشوا فيما يَرونَهُ وطنَهم كأمرٍ طبيعي فترةً طويلة من الزمن تمتد قروناً عديدة إن لم يكن آلاف السّنين، بينما جاءَ يهود إسرائيل من أوروبا والدول العربية منذ فترة قصيرة نسبياً كجُزءٍ من عمليةٍ استعمارية أقَرَّتها وساعَدَتْ عليها القوى العظمى. الفلسطينيون سكانٌ أصليون بينما يهودُ إسرائيل هم مُستوطِنون أو مِنْ نَسلِ مُستوطِنين على الرغم من أن كثيراً منهم قد وجِدوا لعدّة أجيال الآن ولديهم شُعورُ ارتباطٍ دينيٍّ عَميق بالبلاد إلا أنه يَختلفُ تماماً عن التأصُّل القديم في البلاد بالنسبة للفلسطينيين الأصليين. هذا الاختلاف مهمٌّ جداً لأن هذا هو صراعٌ استعماري، وعلى كل حال لا يُنكِرُ أحَدٌ اليوم نُشوءَ كيانات قومية تامّة في دول استيطانٍ مثل الولايات المتحدة الأمريكية وكندا ونيوزيلندا واستراليا على الرغم من نشوئِها أصلاً في حروبِ إبادَةٍ استعمارية. كما أن مِثلَ هذه الاختلافات بين المُستوطِنين والسكان الأصليين غَير مهمّة بالنسبة لِمَن يَنتَشون بالقومية. أو كما عَبَّرَ عن ذلك عالِم الإنسان إرنست غيلنر Ernest Gellner "القومياتُ كطريقةٍ طبيعيةٍ إلهية لتَصنيفِ الرجال، كَقَدَرٍ متأصِّلٍ... سياسيٍّ هي اسطورة. القوميةُ التي تأخُذُ أحياناً ثقافاتٍ موجودَة مُسبَقاً وتحولها إلى قوميات، أو تَختَرعها أحياناً، وغالباً ما تَمحي ثقافات سابِقة حقيقة"[1].

بينما يجبُ الاعترافُ بالطبيعة الاستعمارية الأساسية للصراع الفلسطيني الإسرائيلي فهناك الآن شَعبانِ في فلسطين بغضّ النّظر عن كيفيةِ وجودِهما، وأن الصِّراع بينهما لا يمكن أن يُحَلَّ طالما أن الوجود القومي لكل منهما يتم إنكارُهُ مِنَ الآخر. قبولهما المتبادَل لا يمكن أن يرتكِزَ إلا على المساواة التامة في الحقوق، بما فيها الحقوق القومية دونَ تَجاهل الاختلافات التاريخية المهمّة بينهما. لا يوجد

(1) Ernest Gellner, *Nations and Nationalism* (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1983), 48-49.

حَلٌّ دائم ممكِنٌ غيره باستثناء الفكرة التي لا يمكن تَصورها بأن يَقضي أحدُهما أو يَنفي الآخَر. يجب التَّغلبُ على مقاوَمةِ أولئك المُستفيدِين من جُمودِ الوَضعِ القائم لضمان حقوقٍ متساوية للجميع في هذه المنطقة الصغيرة بين نهر الأردن والبحر. إنه اختبارٌ للبَراعة السياسية لجميع المُهتَمِّين بالأمر. ومن المؤكَّد أنّ تخفيضَ الدَّعم الخارجي المستمر الكبير للوَضعِ الراهن القائم على التمييز واللامساواة سيُمَهِّدُ الطريقَ إلى الأمام.

لقد قطَعَت الحرب على فلسطين نقطَةَ المئة سنة ومازال الفلسطينيون يواجِهون ظروفاً ربما كانت أكثر صعوبة من أي وقتٍ مضَى منذ 1917. وبدأ دونالد ترمب منذ انتخابِهِ السَّعيَ وراء ما سماه "صفقة القَرن" مدَّعِياً أنها الحَلُّ الشامل للصراع. اقتَضى التوصُّل إلى الصَّفقة حتىٰ الآن التَّخلي عن عقودٍ من سياساتِ الولايات المتحدة الأساسية، والاستِعانة بمَصادر خارجية من التخطيط الاستراتيجي لإسرائيل، وصَبِّ اللعنات على الفلسطينيين. تَحدَّثَ ديفيد فريدمان David Friedman سَفير ترمب في إسرائيل (محامِيهِ في قضايا الإفلاس وداعِمٍ ماليّ قديم لحركة الاستيطان اليهودية) بشكلٍ يدعو للتشاؤم عن "احتلالٍ مَزعوم" وطالَبَ وزارةَ الخارجية بالتّوقف عن استِخدام هذا الاصطلاح. وصَرَّحَ في إحدى المقابلات بأن إسرائيل لها "الحق" بضمّ "بعض وربما ليس كلّ الضفة الغربية"[1]. وأعلَنَ جيسون غرينبلات Jason Greenblatt الذي كان مَبعوثاً خاصاً بالمباحَثات الإسرائيلية الفلسطينية مدة سنتَين (وكان سابقاً محامي عقارات ترمب وكذلك متَبرّعاً لقضايا اليمين الإسرائيلي) أن مستوطَنات الضفة الغربية "ليست عَقبةً أمام السلام" ورفَضَ استِخدام اصطلاح "الاحتلال" في اجتماعٍ مع وفود الاتحاد

(1) Peter Beaumont, "Trump's Ambassador to Israel Refers to 'Alleged Occupation' of Palestinian Territories," *Guardian*, September 1, 2017. Nathan Guttman, "US Ambassador to Israel Asked State Department to Stop Using the Word 'Occupation'," *The Forward*, December 26, 2017. David Halbfinger, "US Ambassador Says Israel Has Right to Annex Parts of West Bank," *New York Times*, June 8, 2019.

الأوروبي[1]، وأيَّدَ وجهةَ نظَر فريدمان فيما يتعلق بالضَّم.

سرعان ما أعلَنَت الإدارة الجديدة اسلوبَ "من الخارج إلى الداخل" حيث تتقدَّم ثلاث مَلَكيات سُنيّة عربية خليجية هي المملكة العربية السعودية والإمارات والبحرين (التي توصَفُ خطأً بأنها تمثّل العرب السّنة) وتَنضَمّ إلى إسرائيل في تَحالفِ أمرٍ واقعٍ للوقوف معـاً بمواجهة إيران. النتيجة الجانبية لهذا الشكل كانت أن هذه الدول وغيرها من الأنظمة العربية المتحالِفة مع الولايات المتحدة الأمريكية ستُشَجَّع للضغط على الفلسطينيين من أجل قبول مواقف إسرائيلية قصوى ستُنهي قضيتهم ويبدو أنها تقصُدُ إلى ذلك. تم تنسيق هذه المبادَرة بشكل وَثيق مع هذه الأنظمة من خلال توسّط المَبعوث الرئاسي غير العادي جاريد كوشنر Jared Kushner صِهر الرئيس، وقُطبُ العقارات، والصهيوني المتعصّب المتحمسّ الذي تَبرَّعَتْ عائلتُه أيضـاً للمستوطَنات اليهودية.

قام كوشنر وغرينبلات وفريدمان بمؤتمرٍ عُقِدَ في البحرين في يونيو 2019 بالتواطؤ مع شركائهم الخليجيين ودَفَعوا عَلَنـاً نحو مبادَرة تطوير اقتصادي للضفة الغربية وقطاع غزة تقصد للعمل تحت الظروف الحالية من السيطَرة الإسرائيلية الكاملة. شكَّكَ كوشنر بجدوى حُكمٍ ذاتيّ فلسطيني مستقلّ "سنرى". واستَخدَم مفردات استعمارية نمَطِية مُضيفاً "الأمَلُ هو أنهم سيُصبحون مع الوقت قادِرين على الحُكم". كل ما استَحقَّهُ الفلسطينيون في رأيِ كوشنر هو "الفرصة لحياة أفضَل... الفرصة لكي يتمكّنوا من دَفعِ ثمَن عقاراتهم"[2]. أظهَرَ هذا الثلاثي بخطَّةِ حَلِّهم الاقتصادي جَهلاً استثنائياً بإجماعِ خبراء جادِّين أنّ الاقتصاد الفلسطيني كان مَخنوقاً بشكلٍ رئيسي بسبب التَّدخل المَنهجي للاحتلال الإسرائيلي العسكري

---

(1) Ruth Eglash, "Top Trump Adviser Says Settlements Are Not an Obstacle to Peace," *Washington Post*, November 10, 2017. Piotr Smolar, "Washington ouvrira son ambassade à Jerusalem en mai," *Le Monde*, February 25-26, 2018, 4.

(2) Jonathan Swan, "Kushner, For First Time, Claims He Never Discussed Security Clearance with Trump," Axios, June 3, 2019.

الذي تَعني خطّتُهم استمرارَ وجوده. فاقَمَتْ إدراةُ ترمب هذه القَبضَة الاقتصادية بقَطعِ مساعداتِ الولايات المتحدة إلى السلطة الفلسطينية ولمنظمة الأونوروا. كما تابَعَت الولايات المتحدة الأمريكية دَعمها حِصار إسرائيل لقطاع غزة بمساعدة مصر ونتائجِهِ الكارثية على 1.8 مليون إنسان.

وَرَدَ الجانبُ السياسي المهمّ لصفقة القَرن في ملخصِّ اقتراحِ أمريكي اسرائيلي ضُغِطَ على السلطة الفلسطينية لقبوله. يَزعَم أنه يَشمل صُنعَ كيانٍ منقَسِمٍ وبدون سيادة دون إزالةِ أيٍّ من المستوطَنات الإسرائيلية القائمة بشكلٍ غير قانوني والتي سيتمّ اعتِبارُها "قانونية" وتُضَمُّ إلى إسرائيل. سيَبقَى هذا الكيان تحت السيطَرة الأمنية الإسرائيلية التامة (التي ذُكِرَ أن على الفلسطينيين دَفعَ تكاليفها!) وبالتالي دولةٌ بالإسم فقط. ستتخَلّى عن السيادة أو السيطرة على القدس وتتركّز في قطاع غزة وعدد من الفُتاتات المُتبايِنة يبلغُ مجموعُ مساحتِها أقلّ من 40٪ من الضفة الغربية والتي تشكّل المناطق A وB وربما تُضافُ إليها بعض أجزاء من المنطقة C إنما بَعدَ مباحثات إضافية[1].

ارتَبطَ مع هذه المُقارَبة بشكلْ متكامل اعترافُ ترمب في ديسمبر 2017 بالقدس عاصِمةً لإسرائيل والانتقال التالي لسفارة أمريكا إلى هناك. شكّل ذلك الانتقالُ ابتِعاداً جَذرياً عن سياسة أمريكا على مَرِّ أكثر من سبعين سنة تَرجِع إلى قرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة رقم 181 الذي ينصُّ على بَقاء وَضعِ المدينة المقدَّسة غير محدَّد حتى الحَلّ النهائي للمسألة الفلسطينية الذي يتم التوصُّل عليه باتفاق الطَّرفَين. تَبِعَ هذه الإهانة إعلانُ ترمب الاعتراف بسيادة إسرائيل على مرتفعات الجولان الذي كان تغيّراً جَذرياً آخَر في سياسة الولايات المتحدة.

قامَت الإدارة بهذَين التصريحَين من جانبٍ واحد في التعامل مع قضيتَين: الأولى منهما هي القدس التي ترتَبطُ إسرائيلُ بشأن مستقبلِها بالتفاوض مع

(1) "Palestine Chief Negotiator Reveals Details of Trump Peace Plan," *Middle East Monitor*, January 22, 2018.

الفلسطينيين ورفَعَتْها الإدارةُ الأمريكية عن طاولة التفاوض. ضَرَبَ فريقُ ترمب عَرَضَ الحائط بعَدَدٍ كبير من القوانين الدولية والإجماع العالمي، وقرارات مجلس الأمن، والرأي العام العالمي، والحقوق الفلسطينية بالطبع، بالإضافة إلى قَلْبِ عُقودٍ من السياسة الأمريكية على رأسِها، فقد قَبِلَ ترمب تماماً بموقف إسرائيل في قضية القدس الحيوية، وفَعَلَ ذلك دون أية تعويضات من إسرائيل وبدون أي اعتبار للمَطالب الفلسطينية في الاعتراف بالمدينة عاصِمةً لفلسطين. ومن المهمّ كذلك اعترافُ ترمب ضِمناً بتعريف إسرائيل التَّوسُّعي لمفهوم "القدس الموحَّدَة" التي تضم مناطق عربية واسعة داخل وحول المدينة استَحوذَتْ عليها إسرائيلُ منذ سنة 1967. على الرغم من أن الإدارة قد صَرَّحتْ بأن الحدودَ الحقيقية سيتمّ التَّفاوض عليها، فإن تَصريحها يَعني عَمَلياً عدم بقاء أي شيء للتفاوض عليه.

اعترَفَ البيتُ الأبيض ضمنياً من خلال هذه الأعمال وغيرها بالخطوط العامة للاقتراح الأمريكي الإسرائيلي: تَجَنَّبَ صراحةً الاعتراف بحَلِّ الدولتَين، أغلقَ البعثة الفلسطينية في واشنطن وقنصلية الولايات المتحدة في القدس الشرقية التي قدَّمتْ خدمات سفارة غير رسمية للفلسطينيين، وادَّعتْ أنَّ أبناءَ الفلسطينيين الذين اعتُبروا لاجئين سنة 1948 ليسوا لاجئين، وذلك على العكس من حالة جميع اللاجئين الآخَرين في العالَم منذ الحرب العالمية الثانية. وأخيراً، فإن اعترافَ ترمب بضمّ إسرائيل للقدس ومرتفعات الجولان يفسَحُ الطريق لضمّ أية أجزاء أخرى من أراضي الضفة الغربية المحتلة تُقرِّرُ إسرائيل ابتِلاعَها.

مقابل هذا الهَضم الصارم لحقوق الفلسطينيين ستُقَدَّم لهم مبالغ من المال تُجمَع من مَلَكيات الخليج. تم تشكيل العَرضِ رسمياً في مؤتمر يونيو 2019 في البحرين الذي رفَضَت السلطة الفلسطينية حُضورَهُ. اقتراحُ كوشنر بشراء المقاومة الفلسطينية لخطَّةٍ تتحاشى الوصول إلى حَلٍّ سياسي تفاوضِي كان في الحقيقة ليس أكثر من نسخةٍ أُعيدَ تسخينُها من خطط "السلام الاقتصادي" بديلاً عن الحقوق، وهي خطط قدَّمَها زعماءُ إسرائيليون من شيمون بيريز إلى نتنياهو. بالنسبة لنتنياهو

ومؤيديه من القوميين المتعصّبين والمُستوطِنين المتطَرِّفين فإن إضافة تَحلِيَة اقتصادية إلى الدواء المُرّ الذي أُريدَ للفلسطينيين أن يَبتَلِعوهُ قد أصبَحَتْ بَنداً رئيسياً في اسلوبهم الصريح لضمّ الأراضي واقتطاعها.

وبالفعل، فإن أكثر ما يُثيرُ الدَّهشة والاستِغراب في سياسة البيت الأبيض هذه لمنطقة الشرق الأوسط هي أنها كانت بشكلٍ فعليٍّ بمثابة عَونٍ خارجي لنتنياهو وحلفائه في إسرائيل والولايات المتحدة. يبدو أن مبادَراتها قد جاءتْ جاهزةً من مَخزَن أفكار اليمين الإسرائيلي: نَقلُ السفارة الأمريكية إلى القدس، والاعترافُ بضمّ الجولان، والإطاحَةُ بقضية اللاجئين الفلسطينيين، ومحاولةُ إلغاء الأنوروا، والانسحابُ من الاتفاق النووي مع إيران الذي تم في عَصر أوباما. بَقِيَتْ عناصر قليلة فقط في لائحة رغبات نتنياهو: ضمٌّ أغلب مناطق الضفة الغربية، والرفضُ الأمريكي الرسميّ لدولة فلسطينية مستقلة، وصُنعُ زعامةٍ فلسطينية متَعاوِنة وبلا أنياب. تَعني هذه الحِزمةُ كلها الضغطَ على الفلسطينيين للقبول بأنهم شعبٌ مَهزوم.

بالنظر إلى المُمارسات الأمريكية السابقة، ليس في هذا جديد. ولكن فريقَ ترمب تَخلَّى حتى عن التَّظاهر المُهتَرِئ القديم بالحِياد. تَخلَّت الولايات المتحدة الأمريكية بهذه الخطّة عن كونِها "محاميةَ إسرائيل" وأصبَحتْ بدلاً عن ذلك بوقاً لأكثَرِ حكومةٍ تطَرُّفاً في تاريخ إسرائيل، واقترَحتْ أن تتفاوَض هي مباشرة مع الفلسطينيين لصالح إسرائيل بمساعَدَةٍ مبارَكة من حلفائها العرب المُقرَّبين. ربما كان البيت الأبيض يسعى لأمرٍ آخَر: إصدارُ اقتراحات مبدَئية مواليِة لإسرائيل بشكلٍ هجومي بحيث تكون غير مقبولة حتى لأكثرِ الفلسطينيين مُرونَة. وبهذا الأسلوب تستطيع الحكومةُ الإسرائيلية صَبغَ الفلسطينيين بِعَدَمِ التعاون وتُتابع تَجنّبَ المفاوضات والاستمرار بالوَضع القائم في الضَّم والتَّوسع الاستعماري والتَّمييز العنصري بالقانون. وفي كلتا الحالتَين ستكون النتيجة واحدة: سيُقَدَّمُ للفلسطينيين إشعارٌ بأن فرصةَ مستقبلٍ مستقل في وطنهم قد أُغلِقَتْ، وأن المغامَرة الاستعمارية الإسرائيلية قد أُطلِقَتْ يدُها لتشكيل فلسطين كما تشاء.

ترفُضُ غالبيةُ العالَم هذه النتيجة، ومن المؤكّد أنها ستُواجَهُ بالمقاوَمةِ مَحَليـاً وإقليميـاً ودوليـاً. كمـا أنهـا تتعـارَضُ مـع كـل مبـدأ مـن مبـادئ الحريـة والعدالـة والمساواة التي من المُفتَرَض أن الولايات المتحـدة تتمسَّـك بهـا. وإن حَـلًّا يُفـرَضُ حَصريـاً بِنـاءً على شـروطٍ إسـرائيلية قاسـية سيؤدي حتمـاً إلـى مزيـد مـن الصـراع وغيابِ الأمن بالنسبة للجميع، إلا أنه يُقدِّمُ فرصـاً بالنسبة للفلسطينيين.

الاستراتيجياتُ القائمة للفصائل الفلسطينية السياسية القائدة فَتح وحَماس لـم تتوصَّل إلى شيء، كما يتَّضحُ في تَسارع السيطَرة الإسرائيلية على كلّ فلسطين. لـم تَتحقَّق الأهداف الفلسطينية الوطنية على مَرِّ العقود الماضية بالاعتماد على وسـاطَة الولايات المتحدة في مباحثاتٍ عَبَثية كجزء من المَلاذ الوحيـد للدبلوماسية الواهِنـة في عَصرِ محمود عباس، ولا باستراتيجيةٍ لَفظِيـة مـن المقاومـة المسـلحة. ولا يَتَوقَّـعُ الفلسطينيون كثيراً من الأنظِمة العربيـة مثـل التـي في مصـر والأردن التـي لـم تَخجَـل هذه الأيام من توقيع عَقدِ غازٍ ضَخمٍ مع إسرائيل، أو من المملكة العربيـة السـعودية والإمارات العربية التي اشتَرتْ أسلحةً وأنظِمة أمنية إسرائيلية من خلال قصاصـات وَرَقية لا تُخفِي مَصدَرَها الحقيقي جيداً[1]. يقتَضـي هـذا الإدراكُ إعـادةَ تقييـمٍ دقيـق لأسـاليب الفلسـطينيين وفيمـا إذا كانـت أهـدافُهم الوطنيـة محـدَّدَة بإنهـاء الاحـتلال واستعمار أرض فلسطين، وتأسيسَ دولة فلسـطينية عاصـمتها القـدس الشـرقية فيمـا تَبقَّى من فلسطينِ الانتداب (22٪)، وعودةَ نصف الشعب الفلسطيني الذين يعيشـون الآن في المَنفى إلى أرض أجدادهم، أم إنشاءُ دولةٍ ديموقراطية ذات سيادة تتألف مـن شَعبَين على كـلِّ أرض فلسـطين بحقـوقٍ متسـاوية للجميـع، أو مَزيجٍ مـا، أو شَـكلٍ مُعدَّلٍ من هذه الاختيارات.

لا يستطيع الطَّـرفُ الفلسـطيني في هـذا الصـراع أن يظـلَّ منقسِـمـاً لأنـه الطَّـرف الأضعَف. ولكن قَبلَ أن تتحقَّق الوحدة يجب إعادة تَعريف وتَحديد الأهداف على

---

(1) in Jonathan Ferziger and Peter Waldman, "How Do Israel's Tech Firms Do Business Saudi Arabia? Very Quietly," *Bloomberg Businessweek*, February 2, 2017.

أساسِ إجماعٍ وطني جديد. إنها لائحةٌ ملحّةٌ أمام حركَتَي فتح وحماس، لأن مبادَرات المجتمع المَدَني في العقود الحديثة مثل حركات المُقاطَعة وسَحبِ الاستثمارات والعقوبات والنشاطات الطلابية قد خَدَمَت القضية الفلسطينية أكثر من أي شيء فَعَلَهُ هذان الفَصِيلان. قد تَنجَح المُصالَحة على الأقل في إصلاح بعض الضَّرر الذي سبَّبه انقسَامُهما، غير أن المُصالَحة بين حركتَين سياسيتَين مُفلستَين فكرياً على الرغم من أهميتِها لا تُقدِّمُ الاستراتيجيةَ الجديدة الفعّالة اللازمة لتَحريكِ القضية الفلسطينية من حالِها الراهِنة من الجُمود والتقهقر.

أحَدُ التغيّرات الأساسية اللازمة يَشمَلُ الاعتِرافَ بأن الاستراتيجية الدبلوماسية التي تَبنَّتْها منظمةُ التحرير الفلسطينية منذ الثمانينيات كانت مُخطِئة بشكلٍ قاتِل، فالولاياتُ المتحدة الأمريكية ليست وَسيطاً ولا وَكيلاً ولا طَرَفاً مُحايِداً ولا يمكنُ أن تكون. فقد عارَضَت الآمالَ الوطنية الفلسطينية طويلاً، وألزَمَتْ نفسَها بدَعمِ مواقفِ حكومةِ إسرائيل بشأن فلسطين. يجب على الحركة الوطنية الفلسطينية أن تُدرِكَ الطبيعةَ الحقيقية للموقف الأمريكي وأن تَتَّخِذَ قاعدةً شعبية سياسية ومعلوماتية مُكَرَّسَة لطَرح قضيتِها في الولايات المتحدة مثلما فَعَلَت الحركةُ الصهيونية لأكثر من قَرن. قد لا تحتاج هذه المهمّة إلى أجيال بالنظر إلى التغيّرات المهمّة التي حدَثَتْ في قطاعاتٍ رئيسية للرأي العام. هناك كثيرٌ من الأمور التي يمكن البِناء عليها.

لا يبدو أن القيادة الفلسطينية المنقسِمة الآن لديها فَهمٌ أفضل لكيفية عَمل المجتمع الأمريكي والسياسة من سابقاتها. ليس لديها فكرة عن كيفية التَّعامل مع الرأي العام الأمريكي ولم تَقُم بأي محاولةٍ جدّية لمَعرفة ذلك. هذا الجَهل بالطبيعة المعقَّدة للنظام السياسي الأمريكي مَنَعَ تشكُّل برنامج مستمر للتَّواصُل مع عناصر المجتمع المَدَني التي قد تكون ودِّية. وبالمقارَنة، على الرغم من الوَضع المُتفَوِّق الذي تتمتَّع به إسرائيل ومؤيدوها إلا أنهم يَستمرون في إنفاقِ مَوارد كبيرة لدعم قضيتِهم في المَجالات العامة. وعلى الرغم من فَقرِ تَمويلِ جهودِ دَعمِ الحقوق

الفلسطينية وأنها تتألف بشكلٍ رئيسي من مبادَرات عَناصِر المجتمع المَدَني، إلا أنها حقَّقتْ نجاحات مدهِشة في مجالات الفنّ (السينما والمسرح بشكل خاص)، وحَقلِ القانون، وأينَما أصبحَ المُدافِعون عن حرية التعبير والتعديل الدستوري الأول حلفاءَ حَيويين ضد الهجمات المستمرة على مؤيدي حركة المقاطعة وسَحبِ التمويل والعقوبات (BDS)، خاصة في دراسات الشرق الأوسط والدراسات الأمريكية، وفي بعض الاتحادات والكنائس، وأجزاء رئيسية من قواعد الحزب الديموقراطي.

هناك حاجةٌ لتوجيه أعمالٍ مماثِلة نحو أوروبا وروسيا والهند والصين والبرازيل ودول عدم الانحياز. تقدَّمتْ إسرائيل في السنوات الأخيرة في تَثقيفِ النُّخبة والرأي العام في تلك البلاد، بينما تُصبحُ كثيرٌ منها، خاصة الصين والهند أكثرَ نشاطاً في الشرق الأوسط[1]. على الرغم من أن أغلب الدول العربية تَحكُمها أنظِمةٌ غير ديموقراطية تابِعة للولايات المتحدة الأمريكية ومتلَهِّفة للحصول على رِضَى إسرائيل، إلا أن الرأي العام العربي يظَلُّ حسَّاساً جداً لقضية فلسطين، وهكذا أظهَر استطلاعٌ أُجرِيَ في سنة 2016 أنَّ 75٪ من المستَطلَعين في 12 دولة عربية يَعتَبرون القضيةَ الفلسطينية مهمّة لجميع العرب، ولم يوافِق 86٪ منهم على اعترافِ العرب بإسرائيل لأن سياساتِها موجَّهة ضد فلسطين[2]. يجب على الفلسطينيين إعادةَ بَعثِ استراتيجية منظمة التحرير الفلسطينية السابقة بمُناشَدَة الرأي العام العربي المُتعاطِف معها من فوق رؤوس الأنظِمة غير المُتجاوِبة.

إذا أصبحَ دخولُ مفاوضات تَستند إلى إجماعٍ فلسطيني ممكِناً، فمِن المهمّ أن أي دبلوماسية مستقبلية يجب أن تَرفُضَ صِيغة أوسلو المؤقَّتة وتتقدَّم على أسَس مختلفة تماماً. يجب القيام بحَملة علاقات عامة دولية مكثَّفة وحَملة دبلوماسية

(1) Julien Boissou, "Analyse: L'Inde s'implante au Moyen-Orient," *Le Monde*, February 27, 2018, 21.

(2) "2016 Arab Opinion Index: Executive Summary," Arab Center Washington, DC, April 12, 2017.

تسعى للحصول على رعاية دولية وتَرفض السيطَرة الحَصرية للولايات المتحدة الأمريكية على عملية التفاوض (مَطلَبٌ طَرَحَتْهُ السُلطة الفلسطينية بشكلٍ ضعيف). كما يجب على الفلسطينيين في المفاوضات فيما وراء ذلك أن تَتعامَلَ مع الولايات المتحدة كأنها امتدادٌ لإسرائيل. لا شك بأنها كقوة عظمى ستكون ممثَّلَةً بالضرورة في أية محادثات، غير أنها يجب أن تُعتَبَر كطَرَفٍ خَصمٍ وأن تجلس مع إسرائيل على الطَّرفِ المُقابل من الطاولة الذي يمثِّلُ موقِعَها الحقيقي على الأقل منذ سنة 1967.

يجب أن تُطرَح في المفاوضات الجديدة جميعُ القضايا المهمّة التي صَنَعتْها حربُ 1948 التي أُغلِقَتْ لصالح إسرائيل سنة 1967 بقرار مجلس الأمن رقم 242 مثل: قرار الجمعية العمومية رقم 181 سنة 1947 لحدود التقسيم وما فيه عن اقتراحِ وَضعِ القدس المُنفصَل، عودة اللاجئين وتعويضِهم، والحقوق السياسية والقومية والمَدَنية للفلسطينيين داخل إسرائيل. يحب الإصرار في تلك المفاوضات على التعامل بالمساواة التامة بين كلا الشَّعبَين وأن تستند إلى مؤتمرات الهيغ ومؤتمر جنيف الرابع وميثاق الأمم المتحدة وتأكيده على حَقّ الشعوب في تقرير المصير وجميع قرارات مجلس الأمن والجمعية العمومية المتعلِّقة بالقضية، وليس فقط القرارات التي يتم انتِقاؤها من جِهة الولايات المتحدة الأمريكية محاباةً لإسرائيل.

لن تَقبَلَ الإدراةُ الحالية في واشنطن والحكومة الإسرائيلية هذه الشروط أبداً بالطّبع، ولذا فهي حالياً تُمثِّلُ شروطاً مُسبَقَة مُستحيلة للمفاوضات، وهذه هي النقطة بالضبط. فالمَقصود منها هو تحريكُ الهدف بعيداً عن صِيَغٍ تم تَصميمُها لصالح إسرائيل. لأن متابَعَةَ التفاوض استناداً إلى القواعد الموجودة السَّيئة للغاية لن يؤدي إلا إلى تَرسيخِ وَضعٍ قائم يقودُ نحو الاستيلاء التام على فلسطين في أرض إسرائيل الكبرى. إذا أُجريَتْ حَملةٌ دبلوماسية فلسطينية جدّية مستمرة، وبُذِلَ جُهدُ علاقاتٍ عامةٍ لتحقيق مثل هذه الشروط الجديدة بِهَدَفِ التَّوصل إلى سلامٍ عادل ومنصِف، فإن دولاً كثيرة ستكون مستعدَّةً للتفكير بها، بل وربما أرادَتْ تحدّي احتكار الولايات المتحدة الأمريكية الذي استمر نصف قَرن في عملية السلام، وهو

احتكارٌ كان أساسياً في مَنعِ التَّوصل إلى السلام في فلسطين[1].

هناك عنصرٌ ضروري ولكنه مَنسِيّ في البرنامج السياسي الفلسطيني وهو العمل داخل إسرائيل، خاصةً لإقناع الإسرائيليين بوجود بَديلٍ عن القَمع المستمر للفلسطينيين. هذه عمليةٌ على المَدى الطويل لا يمكن تَجاهلها على اعتبار أنها شَكلٌ من "التَّطبيع" مع إسرائيل. لم يَحرُم الجزائريون ولا الفييتناميون أنفسَهم بِقِصَرِ نَظَرٍ من فرصة إقناعِ الرأي العام بعدَالة قضيّتهم في الوطن الأم لِمَن يَظلِمونَهم، وكانت جُهودٌ ساهَمتْ في انتصارِهم بشكلٍ مَلموس. ولا يجب أن يتخلّى الفلسطينيون عن ذلك.

لا يجب أن يتوقَّع الشعبُ الفلسطيني نتائجَ سريعة بعد أن كانت مقاومتُهُ للاستعمار طريقاً صعباً وشاقاً. لقد أظهَروا صَبراً غير عادي وعزيمةً وصموداً في الدفاع عن حقوقهم وهو السبب الوحيد لبقاء قضيتِهم حيّة. ومن المهمّ الآن لجميع عناصِر المجتمع الفلسطيني تَبَنّي استراتيجية بعيدة المَدى، وهذا يَعني إعادة التفكير في كثيرٍ مما تمّ عَمَلُهُ في الماضي، ومعرفة كيف نَجَحَتْ حركاتُ تحرّرٍ أخرى في تغيير توازن القوى غير المُناسب، وضمّ كل ما يمكن من الحلفاء في نضالهم.

بالنَّظر إلى أن العالَم العربي بِحالةٍ من التَّشَرذم أسوأ مما كانت في أي وقت مضَى منذ الحرب العالمية الأولى، وحركة تحريرٍ فلسطينية تبدو بلا بوصَلة، يبدو أنها فرصة مناسبة لإسرائيل والولايات المتحدة للتواطؤ مع شركائِهم من المُستبدِّين العرب لدَفنِ المسألةِ الفلسطينية والتَّخلص من الفلسطينيين وإعلان النصر، غير أن الأمر لن يكون بهذه السهولة. فهذه ليست قضيةً بسيطة للجماهير العربية التي قد تُخدَع بعض الوقت ولكن ليس دائماً. ومازالت الأعلام الفلسطينية تُرفَع وتُرفرِف كلما ارتَفعَتْ تياراتٌ ديموقراطية ضد الاستبداد، مثلما حَدَثَ في القاهرة سنة 2011 وفي الجزائر في ربيع 2019. تَعتَمد هَيمَنة إسرائيل في المنطقة إلى حَدٍّ كبير جداً على بقاء أنظِمة عربية غير ديموقراطية والمحافَظَة على سُلطَتِها لكي تقمَعَ هذه المشاعر.

(1) هذه هي الأطروحة الأساسية لكتابي "وسَطاء الخِداع".

ومهما بَدَت الديموقراطيةُ الحقيقية بعيدةً هذه الأيام في العالَم العربي فإنها ستكون خَطراً كبيراً على سيطَرة إسرائيل في المنطقة وحرّيتها في التصرف.

من المهمّ كذلك وجودُ مقاومةٍ شعبية يَتوقّعُ الفلسطينيون أنها ستستمر وستتزايد مهما كانت الاتفاقيات المُهترِئة التي يوافِقُ عليها خَطَأً زعماؤهم الذين فَقَدوا مُصداقِيتهم. على الرغم من أن إسرائيل هي القوة الإقليمية النووية المَهيمِنة، إلا أن سيطَرتَها ليست بلا مُنازِع في الشرق الأوسط، وكذلك شرعية الأنظِمة العربية الاستِبدادية التي تصبحُ تابِعةً لها بشكلٍ متزايد. وأخيراً فإن الولايات المتحدة الأمريكية بكلّ قوتِها قد لَعِبَتْ دَوراً ثانوياً، ولم تلعب أحياناً أيّ دَور في أزمات سورية واليمن وليبيا وغيرها في المنطقة. وليس من المؤكّد أنها ستُحافِظ على احتِكارها شبه التام على المسألة الفلسطينية، أو على الشرق الأوسط بأكملِه، ذلك الاحتكارُ الذي تمتَّعتْ به فترة طويلة من الزمن.

يتغيّر ترتيبُ القوى العظمى، وسيَزدادُ نفوذُ الصين والهند في الشرق الأوسط استناداً إلى احتياجاتهم المتزايدة للطّاقة خلال القَرن الحادي والعشرين عما كانت عليه الحال في القَرن السابق. كما أن أوروبا وروسيا الأقرب إلى الشرق الأوسط كانت أكثر تأثّراً من الولايات المتحدة بعدم الاستقرار فيه ومن المتوقّع أن تلعَبَ دَوراً أكبر. ولن تستمر الولايات المتحدة في الغالب بالاحتفاظ بحرّية التّصرف مثلما كانت عليه بريطانيا ذات مرّة. ربما ستَسمَحُ مثلُ هذه التغيّرات للفلسطينيين، مع الإسرائيليين وغيرهم في العالَم الذين يريدون السلام والاستقرار العادل في فلسطين، بصَياغَةِ تَوجُّهٍ يختلفُ عن قَمع أحد الشّعبَين للآخر، لأن مثل هذا التَّوجُّه الذي يرتكِزُ على المساواة والعدل هو وحده الذي يمكِنُ أن يُنهِي حربَ المئة عامٍ على فلسطين وتحقيق سلام دائم. سلامٌ يَجلبُ معه التحرير الذي يَستَحِقّهُ الشعبُ الفلسطينيّ.

المؤلِف في سطور

رشيد الخالدي مؤرِّخٌ فلسطيني أمريكي مؤلِّفٌ لسَبعة كُتُبٍ من بينها: الهُوية الفلسطينية *Palestinian Identity*، وسَطَاء الخِداع *Brokers of Deceit*، القَفص الحَديدي *The Iron Cage*. نَشَرَ أكثر من 90 مقالة في صحف عديدة مثل النيويورك تايمز *New York Times* وبوسطن غلوب *Boston Globe* ولوس أنجلوس تايمز *Los Angeles Times* وشيكاغو تريبيون *Chicago Tribune* وكثير من المجلات الأكاديمية. وهو أستاذ بروفسور يشغل منصب البروفسور الراحل إدوارد سعيد للدراسات العربية الحديثة في جامعة كولومبيا في نيويورك، وهو مدير مدرسة الشؤون الدولية والمَحَلية التَّابع لمعهد الشرق الأوسط في جامعة كولومبيا، ورئيس تحرير مجلة الدراسات الفلسطينية.